خوان مارتن جيفارا
أرميل فنسن

أخي تشي

المركز الثقافي العربي

في الذكرى الخمسين لرحيل القائد
الشقيق الأصغر يتكلم للمرة الأولى

خوان مارتن جيفارا
أرميل فنسن

أخي تشي

حياته العائلية والخاصة

ترجمة: حسين عمر

المركز الثقافي العربي

الكتاب
أخي تشي
تأليف
خوان مارتن جيفارا
أرميل فنسن
ترجمة
حسين عمر
الطبعة
الأولى، 2017
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-854-1
جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء - المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 303339 0522 - 307651 0522
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت - لبنان
ص.ب: 5158 - 113 الحمراء
شارع جاندارك - بناية المقدسي
هاتف: 750507 01 - 352826 01
فاكس: 343701 1 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

العنوان الأصلي للكتاب:
Juan Martin Guevara
Armelle Vincent
Mon frère, le Che
© Editions Calmann-Lévy, 2016
All rights reserved

كيبرادا ديل يورو

انتظرتُ ستّة وأربعين عاماً قبل أن أتمكّن من القيام بزيارة المكان الذي أُعدِم فيه أخي إرنستو جيفارا. يعلم الجميع أنّه قد قُتِلَ بطريقة جبانة، حيث أُعدِم رمياً بالرصاص في التاسع من شهر أكتوبر من عام 1967 في قاعة بائسة من قاعات مدرسة طينية متهالكة في قرية لا هيغويرا النائية في جنوب بوليفيا. وكان قد أُلقي القبض عليه وأُسِر في ليلة السابع من أكتوبر في أعماق وادي كيبرادا ديل يورو، وهو وادٍ أجرد، كان جيفارا قد لجأ إليه وتحصّن فيه بعد أن أدرك أنّ مجموعته المبعثرة من رجال حرب العصابات المنهكين بفعل الجوع والعطش قد حوصِرَت من قِبل الجيش. يُقال إنّه قد قُتِل بشرف، محافظاً على وقاره، وأنّ آخر كلماته كانت: «Póngase sereno y apunte bien. Va a matar a un hombre»، والتي تعني: (اهدأوا وأحسنوا تسديد بنادقكم، فإنّكم ستقتلون رجلاً). كان الجندي سيئ الحظّ ماريو تيران سالازار، الذي أُوكِلَت إليه المهمّة القذرة، يرتجف. كان تشي بكل تأكيد، ومنذ أحد عشر شهراً، العدو الأوّل للجيش البوليفي، بل ربّما لكلّ القارة الأميركية، ولكنّه كان خصماً أسطورياً وشخصية شهيرة مكلّلة بهالة من المجد ومعروفة بانحيازها

للعدالة والإنصاف وكذلك بشجاعتها الفائقة. ماذا لو كان تشي هذا، الذي يحدّق فيه بعينيه العميقتين دون أن يرفّ له جفن ودون أن يُظهِر أيّ نقمة عليه، حقّاً صديق عامّة الناس المسحوقين والمدافع عنهم وليس ذاك المتمرّد المتعطّش للدماء مثلما كان رؤساؤه يصفونه؟ وماذا لو جاء، ذات يوم، أنصاره، المعروفين بشدّة إخلاصهم ووفائهم له، لكي يقتلوه انتقاماً لقيامه بقتل إرنستو؟

احتاج ماريو تيران سالازار إلى أن يحتسي الخمرة لحدّ الثمالة لكي يجد في نفسه الجرأة على الضغط على زناد سلاحه. حينما رأى تشي جالساً وهو ينتظر، بهدوء، مصيراً لطالما عرف بأنّه محتوم ولا مفرّ منه، خرج مسرعاً من قاعة الصفّ، وهو يتصبّب عرقاً. لكنّ رؤساءه أرغموه على العودة إلى القاعة.

مات أخي واقفاً بشموخ. أرادوا له أن يموت جالساً لإهانته وإذلاله. لكنّه احتجّ رافضاً ذلك وكسب تلك المعركة الأخيرة. كان إرنستو، من بين سجاياه العديدة، أو فلنقل من بين مواهبه الكثيرة، يجيد فنّ الإقناع.

اشتريتُ زوجاً جديداً من الأحذية الرياضية لكي أنزل إلى وادي كيبرادا ديل يورو. وهو عبارة عن مضيقٍ عميق ينحدر عمودياً خلف قرية لا هيغويرا. كان وجودي في هذا المكان صعباً للغاية ومؤلماً للغاية. مؤلمٌ للغاية ولكنّه ضروريٌّ أيضاً. هذه الزيارة المقدّسة، اعتملت في قلبي منذ سنوات عديدة. كاد المجيء إلى هنا قبل الآن أن يكون مستحيلاً بالنسبة إلي. في السنوات الأولى التي أعقبت إعدام أخي، كنتُ صغيراً في السنّ ولم أكن مهيّأً نفسياً بما فيه الكفاية. ومن ثمّ، أصبحت الأرجنتين دولة فاشية وقمعية وظللتُ لما يقارب تسع سنوات قابعاً في معتقلات وسجون الطغمة العسكرية التي

استولت على السلطة عنوةً في شهر مارس من عام 1976. تعلمت خلال تلك الفترة أن أصيغ في ذهني الصورة التالية: في المناخ السياسي السائد في بلادي، يغدو التعلّق لوقتٍ طويل بشخصٍ مثل تشي جيفارا محفوفاً بالخطر.

وحده شقيقي روبرتو جاء إلى هذه المنطقة في أكتوبر عام 1967، قادماً من بوينس آيرس مبعوثاً من العائلة للتعرّف على جثّة إرنستو حال إعلان نبأ موته. عاد من المكان وهو في غاية الارتباك والتشوّش: حينما وصل إلى بوليفيا، كانت جثّة شقيقنا قد تبخّرت واختفت. خدع العسكر البوليفي روبرتو وهم يرسلونه من مدينة إلى أخرى وفي كلّ مرّة يغيّرون في رواية مكان الجثّة.

لم يجد أبي وشقيقتاي سيليا وآنا ماريا في أنفسهم القوّة للقيام برحلة إلى تلك المنطقة. وكانت والدتي قد توفّيت قبل ذلك بعامين إثر إصابتها بمرض السرطان. ولو لم تكن في القبر أثناء إعدام أخي، لأرسلها قاتل إرنستو إلى حتفها. كانت تحبّه حبّاً جمّاً.

جئتُ من بوينس آيرس مع بعض الأصدقاء بواسطة سيارة. كانت رحلة طويلة جدّاً قطعنا خلالها مسافة 2600 كيلومتر. في عام 1967، لم نكن نعلم شيئاً عن المكان الذي يتواجد فيه إرنستو، فقد غادر كوبا بسريّة تامّة. وحدهم بعض الأشخاص، من بينهم فيدل كاسترو، كانوا يعرفون بأنّه قد ذهب لكي يخوض حرباً لا هوادة فيها في سبيل تحرير الشعب البوليفي. تاهت عائلتي وسط التخمينات حول مكان تواجده، وهي تتخيّل أنّه قد انتقل إلى الطرف الآخر من العالم وربّما يكون متواجداً في القارة الأميركية. لكن في الحقيقة، لم يكن سوى على بُعد ثلاث ساعات فقط من بوينس آيرس، حيث

كنّا نقيم ونعيش. وقد علمنا، بعد ذلك بعدّة سنوات، أنّه قد انتقل أوّلاً إلى الكونغو، المستعمرة البلجيكية[1]، مع العشرات من المقاتلين الكوبيين من ذوي البشرة السمراء وذلك لنصرة مقاتلي تمرّد سيمبا[2].

على حافّة الوادي، اقترب منّي دليلٌ لكي يدلّني على المكان الذي أُسِرَ فيه أخي. لم يكن على علمٍ بهويّتي ولم أحرص على أن أكشفها له. طالبني بمبلغٍ من المالٍ لكي يرافقني إلى مكان أسر تشي. كان ذلك بمثابة أوّلٍ إشارة على أنّ موت أخي قد تحوّل إلى مادة للتجارة. أصابني ذلك بالحنق والغضب. حيث إنّ تشي يمثّل بالضبط النقيض للربح الدنيء. صُدِم صديقي الذي كان يرافقني أيضاً بهذا التصرّف اللاأخلاقي فلم يستطع أن يمتنع عن الإفصاح عن هويتي. كيف يجرؤ هذا الدليل على أن يبتزّ أموالاً من شقيق تشي، في حين أنّه يأتي للمرّة الأولى لزيارة المكان الذي لقي حتفه فيه؟ تنحّى الدليل باحترامٍ وتقدير وحملق فيّ بعينين واسعتين كما لو أنّ شبحاً قد ظهر له فجأةً. غالى الرجل في الاعتذار دون أن أصغي إليه حتى. لقد اعتدتُ على الأمر. فأن تكون شقيق تشي ليس أمراً هيّناً. ويُصاب الناس بالذهول والدهشة حينما يكتشفون ذلك. إذ لا يمكن

---

(1) في عام 1998، حينما نُشِر كتابه *Journal du Congo: souvenirs de la guerre révolutionnaire* (**يوميات الكونغو: ذكريات الحرب الثورية**)، ألف ليلة وليلة، 2009.

(2) اندلع (تمرّد سيمبا) عام 1964 بقيادة الشيوعي الماوي بيير موليلي ضدّ الحكومة في الكونغو ليوبولدفيل (جمهورية الكونغو الديمقراطية حالياً)، و(سيمبا) كلمة سواحلية معناها (أسد)، وهو اللقب الذي أُطلق على قائد التمرّد بيير موليلي. -المترجم-

أن يكون للمسيح أخوة وأخوات وتشي يكاد أن يكون كالمسيح. في قرية لا هيغويرا وفي مدينة فاليغراند، حيث نُقِلَت جثّته في التاسع من أكتوبر لكي تُعرَض على عامّة الناس قبل أن تختفي، أصبح أخي القديس إرنستو لا هيغويرا. يصلّي السكان أمام تمثاله كما لو أنّه قدّيس. أنا أحترم عموماً القناعات والمعتقدات الدينية، ولكنّ هذه الحالة تضايقني على نحوٍ مريع. في عائلتنا، بدءاً من جدّتي لأبي آنا لينش-أورتيز، ونحن لا نؤمن بالله. لم يسبق لأمّي قط أن اصطحبتنا إلى القدّاس في الكنيسة.

كان إرنستو إنساناً من لحمٍ ودم ولا بدَّ من إنزاله من على قاعدة تمثاله المنصوب وإعادة الحياة إلى هذا النصب البرونزي في سبيل تخليد رسالته. ما كان تشي ليتحمّل ظاهرة تحويله إلى صنمٍ معبود.

بدأت بالنزول نحو المكان المشؤوم، مثقل القلب. اندهشت لرؤية الطبيعة الجرداء للوادي. كنتُ أتوقّع أنني سأجد غطاءً نباتياً كثيفاً يظلّل المكان. لكن في الحقيقة، باستثناء تناثر بضع شجيرات جافّة وقاسية، كان المكان شبه صحراوي. حينها أدركتُ على نحوٍ أفضل كيف حصل أن وجد إرنستو نفسه عالقاً في الفخّ مثل جرذٍ. من الناحية العملية، كان من المستحيل أن يتوارى عن أنظار الجيش الذي كان قد حاصر كيبرادا منذ عشية ذلك اليوم.

وصلت إلى المكان الذي أُصيب فيه بطلقة في فخذه الأيسر وبأخرى في ساعده الأيمن. تشوّشت أفكاري واضطربت. أمام الشجرة العجفاء التي أُسنِدَ عليها ظهره يوم الثامن من أكتوبر، كانت التربة الجافّة مغطاة بنجمة مصبوبة من الخرسانة. كانت تشير إلى نفس المكان الذي كان جالساً فيه حينما تمَّ كشفه. استبدّ بي غمّ

وقلق شديدان. انتابتني الشكوك. أحسستُ بوجوده. أشفقتُ عليه وتأسّفتُ عليه. تساءلتُ في نفسي عمّا كان يفعله في هذا المكان، وحيداً. لماذا لم أكن معه؟ كان يجب أن أكون معه بالتأكيد. لطالما كنتُ أنا أيضاً ثائراً. لم يكن مجرّد أخي فحسب، بل كان رفيقي في الكفاح أيضاً وقدوتي. لم أكن قد تجاوزت الثالثة والعشرين من عمري، ولكن هذا ليس عذراً كافياً: ففي سلسلة جبال سييرا مايسترا الكوبية التي انطلق منها الكفاح المسلّح الذي عيّن فيدل كاسترو في أثنائه جيفارا **قائداً**، وقد أثبت كفاءة وبراعة في القيادة، كان ثمّة ثوارٌ يبلغون من العمر خمسة عشر عاماً! لم أكن أعلم أنّه كان موجوداً في بوليفيا، ولكن كان يجب عليّ أن أعلم ذلك! ربّما كان عليّ أن أبقى في كوبا إلى جانبه في شهر فبراير من عام 1959 وأن أتجاهل اعتراض أبي.

جلستُ، أو بالأحرى خارت قواي وأُصبتُ بالانهيار في نفس المكان الذي كان قد جلس فيه. تراءى لي من جديد وجهه المليح ونظرته الجذّابة والفاحصة وابتسامته الساخرة. سمعتُ ضحكته المُعدية وصوته ولهجته التي لا يمكن تحديدها: فمن خلال السنوات التي أمضاها في المكسيك ومن ثمّ في كوبا، كانت لغته الإسبانية قد أصبحت مزيجاً من ثلاث لهجات. تُرى هل شعر في تلك اللحظة بأنّه وحيدٌ ومهزوم؟

كان لبعض الأسئلة التي طرحتها على نفسي طابعٌ ملموس وكانت أسئلة أخرى محض شعورية. لم يكن تشي وحيداً وإنّما يساعده ستّة مقاتلين تمَّ توقيفهم معه. هل كنتُ سأتمكّنُ من مساعدته على النجاة بنفسه؟ في ذلك اليوم، نجح خمسة رفاق آخرين، من بينهم غيدو «إنتي» بيريدو، في الإفلات، في نهاية المطاف، من

الكمين المنصوب لهم[1]. لماذا لم يستطع هو الإفلات من الكمين؟ أعدتُ مراراً وتكراراً بناء سير الأحداث التي أدّت إلى موت أخي. هل تمَّ بيع تشي؟ إذا كان الجواب بالإيجاب، مَنْ الذي قام ببيعه؟ هناك العديد من الفرضيات ولكن بما أنّها ليست سوى فرضيات، أفضّل عدم التركيز عليها. كان إرنستو يخوض الحرب تحت اسم رامون بينيتيز. يُقال إنّه قد اختار اسم رامون تيّمناً ببطل قصّة **اجتماع** للمفكّر والروائي الأرجنتيني خوليو كورتاثر، والتي تروي مغامرات مجموعة من الثوّار في سلسلة جبال سييرا مايسترا. كان وجوده هناك محاطاً بهالةٍ من السريّة والكتمان. كانت الحكومة البوليفية، مزوّدة بالمعلومات السرية لوكالة المخابرات المركزية الأميريكية «سي آي إيه» -المقيمة بوقاحة في القصر الرئاسي للرئيس البوليفي رينيه بارينتوس في العاصمة لاباز-، تخمّن بأنّ إرنستو جيفارا يقود القوات المسلّحة لتمرّد نانكاهوازو البوليفي من دون أن تمتلك الدليل على ذلك. إلى أن تمَّ إلقاء القبض على الأرجنتيني سيرو بوستوس في الأدغال بعد أن أجاز له تشي ترك صفوف المتمرّدين. وقد قدّم بوستوس اعترافات وأعطى مواصفات جيفارا تحت التهديد بأن يمضي ما تبقى من حياته في السجن.

حينما صعدتُ من أعماق الوادي، شعرتُ بأنني متعبٌ ومنهك للغاية. كانت مفاجأة غير سارّة تنتظرني في قرية لا هيغويرا. بينما كنتُ أدخل الضيعة الصغيرة لكي أذهب وأختلي بنفسي في المدرسة

---

(1) ظلّوا لأكثر من شهرٍ كامل وهم يمرّون من بين مصائد الجيش البوليفي وشباكه إلى أن وصلوا إلى قرية من دون أن يتمّ كشف أمرهم. استمرت عمليات مطاردة غيدو «إنتي» بيريدو إلى أن تمّ اغتياله في عام 1969.

التي قُتِلَ فيها إرنستو، انفصلت امرأة عن مجموعة من السيّاح اليابانيين لكي تتّجه نحوي وترتمي عليّ. كانت قد علمت لتوّها من صحافية من بلدها أنّ شقيق تشي موجود هنا. صارت تبكي وهي تغمغم: «شقيق تشي، شقيق تشي». طلبت مني بكلّ لطف أن ألتقط صورة معها. لم يبقَ أمامي سوى أن أمتثل لرغبتها وأن أواسيها. يبدو أن تلك السيّدة اليابانية قد رأت فيني تجسيداً لشخصية تشي. أصابني ذلك بالتوتّر والتأثّر والانفعال في آنٍ واحد. بعد مضي ما يقارب خمسين عاماً على موته، لا يزال أخي حاضراً في الذاكرة الجمعية أكثر من أيّ وقتٍ مضى. بالتأكيد، أنا لستُ إرنستو ولكنني أستطيع ويجب عليّ أن أكون بمثابة قناةٍ لنشر أفكاره ومثله وقيمه. لم يعرف أطفاله الخمسة سوى القليل عنه. رفضت أختي سيليا ومعها شقيقي روبرتو باستمرار الحديث عنه. توفّيت أختي آنا ماريا بمرض السرطان مثل أمي. وأنا أبلغ من العمر اثنين وسبعين عاماً وليس لديّ وقتٌ لأضيعه.

خضعت المدرسة التي أمضى فيها إرنستو ليلته الأخيرة لبعض التغييرات. فالحاجز الذي يفصل بين قاعتي الدرس قد تداعى والجدران قد تزيّنت بالصور والملصقات التي تصوّر الساعات الأخيرة من حياة تشي. ولا يزال الكرسي، الذي كان يجلس عليه لحظة دخول ماريو تيران سالازار إلى القاعة لكي يقتله، موجوداً في مكانه. تخيّلتُ أخي جالساً هناك وهو ينتظر لحظة موته. كان ذلك شعوراً قاسياً وصعباً للغاية.

في ساحة القرية، ينتصب تمثالٌ نصفي ضخم أبيض اللون نحته فنّان كوبي نقلاً عن الصورة الشهيرة للمصوّر ألبيرتو كوردا التي أطلق عليها اسم *Guerrillero heroico* الذي يعني «البطل الثائر». كان لهذا

التمثال النصفي، الذي يظهر خلفه صور صليبٍ أبيض، أيضاً حكاية زاخرة بالأحداث. نُصِب التمثال في بداية عام 1987 ثم تمَّ اقتلاعه بسرعة من قبل مجموعة من القوات الخاصّة في الجيش البوليفي ونُصبت في نفس مكانه لوحة تذكارية للجنود الذين سقطوا ضحايا للحرب الثورية. وقد تمّت استعادته بعد عشرين عاماً من ذلك التاريخ، مصحوباً بقاعدة منحوتة بارتفاع أربعة أمتار لينتصب من جديد شامخاً في مدخل الضيعة الصغيرة. خلال سنوات عديدة، عاش سكان قرية لا هيغويرا ومدينة فاليغراند في جوٍّ من الرعب والترهيب. لم يكن أحدٌ يجرؤ على الحديث عن تشي: بغية محو أي أثرٍ لمرور هذا «المخرّب»[1]، كان النظام البوليفي قد حظر أي ذكرٍ لاسمه. وكردٍّ على الصمت المفروض، بدأت حكايات أسطورية تُحبَك وتنتشر على نحوٍ واسع. في لحظة أسره، لم يكن فلاحو قصبة أيمارا، الذين كانوا يسكنون في تلك المنطقة، يدركون قط أهمية هذا الأسير. لم يكن قد سبق لهم أن شاهدوا أجانب وبالكاد كانوا يتكلّمون اللغة الإسبانية. عند موت تشي، نزلت حشودٌ من الصحافيين على قريتهم. لغاية 9 أكتوبر 1967، لم يكن أحدٌ قد سمع حديثاً عن قرية لا هيغويرا. في العاشر من الشهر نفسه، حطّت ست وثلاثون طائرة على المدرج المعدّ بارتجالٍ لمطار مدينة فاليغراند على بعد ستين كيلومتراً من القرية. بدأ السكان الأصليون يدركون أنّ حدثاً جللاً قد وقع، وأنّ هذا الأسير ليس أسيراً عاديّاً.

---

(1) مع موجات القمع في أرجنتين، أصبحت صفة «مخرّب» اسماً شائعاً بحيث بتنا نحن أيضاً نستخدمه بهذه الطريقة.

تمّ نقل جثّة إرنستو نحو مدينة فاليغراند على نقّالة محمولة على عجلات الهبوط لطائرة مروحية. قرّر العسكريون البوليفيون عرض جثّته في مغسلة وسط حديقة المستشفى المحلّي الصغير لمدّة سبع عشرة ساعة ليكون عبرة لغيره. كان لا بدَّ أن يُظهروا بأنّه سوف يتمّ القضاء على «المخرّبين» الأوغاد من أمثال إرنستو تشي جيفارا هذا. لقد مات تشي، مات، مات! أرادوا أن تكون هذه النهاية المثيرة للشفقة درساً وعبرةً للشعب حتى لا يُخطِئ وينضمّ إلى مغامرة محزنة كهذه، محكومٌ عليها بالفشل الحتمي.

وُضِعَت جثّته، شبه عارية، على مصطبة رقيقة من الأسمنت. كانت قدماه حافيتين وعيناه مفتوحتين. يُقال إنّ رجل دينٍ أغمضهما له في قرية لا هيغويرا... قارن بعض الناس بين صورة أخي المعذَّب ولوحة «المسيح الميّت» للرسّام والنقّاش الإيطالي من عصر النهضة أندريا مانتينيا. هذا التشبيه مثير ولكنّه لا يشي بشيء. بعض الشهود أفادوا بأنّ عينَي تشي كانتا تتبعانهم بينما كانوا يطوفون حول جثّته. وقال شهودٌ آخرون إنّ الطبيب المكلّف بتنظيف جثّته -وهو أحد المعجبين سرّاً بجيفارا- أراد أن يحنّط جثّته ولكن نظراً إلى ضيق الوقت اكتفى بأن اقتطع قلبه فقط لكي يحفظه في حُقٍّ زجاجي. وربّما يكون هذا الطبيب نفسه قد أعدّ قناعين لوجهه، أحدهما من الشمع والآخر من الجبس. من جهتها، أبدت ممرّضة دهشتها للتعابير والملامح الهادئة لإرنستو، والتي كانت تختلف على نحوٍ غريب عن ملامح ثوارٍ آخرين قتلوا في المعارك، حيث كانت علامات الألم والقلق تبدو على محياهم. لم أؤمن قط بأيّ من هذه الأحاديث الخرافية التي تميل بمجملها نحو نفس الهدف: أن تجعل من تشي جيفارا أسطورة. وهذه الأسطورة هي

ما أهب نفسي لمواجهتها وذلك من خلال إعادة منح أخي وجهاً إنسانياً حقيقياً.

بعد 9 أكتوبر، ظلّ خمسة عشر جنديّاً يخدمون في مركزٍ عسكري في قرية لا هيغويرا لمدّة عام كامل. وقد شرحوا للقرويين أنّهم يتواجدون في القرية من أجل حمايتهم من المتواطئين مع تشي جيفارا والذين سوف لن يتأخّروا في المجيء من أجل الانتقام لمقتله وارتكاب مجزرة بحقّهم. لأنّ هؤلاء القرويين، هم وليس سواهم، من خانوا تشي.

وهكذا تمّ تحويل شخصية تشي إلى أسطورة تُثير الرهبة.

أرعبتني التجارة المخزية التي تنامت حول شخصية أخي تشي. كان إرنستو سيتبرّأ من هذه الأساطير العبثية والسخيفة التي تصل إلى حدّ التصوّف. في قرية لا هيغويرا وكذلك في مدينة فاليغراند، أصبح كلّ عمل سياحي مربح مكرّساً لتشي. هناك زيارات يتم تنظيمها حول «طريق تشي». يحاولون أن يبيعوا لك كلّ شيء وأيّ شيء. إنّه أمرٌ مثيرٌ للاشمئزاز. شاهدتُ، لدى خروجي من المدرسة، البضائع المعروضة من قمصانٍ وأعلام. رأيتُ في هذا الأمر سفالة ونذالة لم يسبق لهما مثيل. قاتل إرنستو من أجل تحرير القارة الأميركية وهناك أشخاص يستغلون صورته لكسب الأموال. يصلّي الناس للقديس تشي، وهم ينسبون له المعجزات، من أجل بقراتهم وأمور أخرى أيضاً! كان تشي يريد أن يُعطي لا أن يأخذ. كان مؤمناً بالإنسان كسيّدٍ لمصيره وليس كخاضع لنوعٍ من القوة المتفوّقة التي قد تمنحه أشياءً أو تحجبها عنه. لقد آمن تشي بالكفاح والنضال وكان إنساني النزعة والتفكير.

لقد ذهبتُ إلى قرية لا هيغويرا مرّتين وبالتأكيد لن أعود إليها مرّة أخرى. لم تعد تلك الضيعة الصغيرة النائية والمكوّنة من أربعة منازل بائسة ومتهالكة، وإنّما غدت متجراً في الهواء الطلق لا يكفّ سكانها عن محاولة ابتزازك واستدرار الأموال منك. لا يمتّ كلّ هذا إلى أخي بأيّ صلة، لا يمتّ إليه بأيّ شيء.

اختفت جثّة إرنستو على نحوٍ غامض في صبيحة الحادي عشر من شهر أكتوبر من عام 1967. وفي وقت لاحق، أسرّت راهبة، تخدم في المستشفى، إلى الراهب الفرنسيسكاني، الأخ أناستاسيو، بأنّها قد سمعت ضجيج وصخب موكبٍ في ممرّات المستشفى حوالي الساعة الواحدة من بعد منتصف تلك الليلة. وممّا لا شكّ فيه أن إشاعات عديدة قد بدأت تسري حول ملابسات اختفاء جثّة تشي.

وقد ظهرت الحقيقة بعد عشرين عاماً من ذلك التاريخ.

هافانا، يناير 1959

قُبيل فترة الظهيرة، رنّ جرس الهاتف في بيتنا الواقع في شارع آراوز في بوينس آيرس. فزّت أمّي وقفزت من مكانها نحو الهاتف. ماذا لو كان هو المتّصل؟ نهضت بقفزة واحدة ودفعت الطاولة التي يتناثر عليها ورق لعبة سوليتير. عاشت لمدّة عامين في حالة من الضغط النفسي الشديد والقلق شبه الدائم ووجدت بعض الراحة والسلوان في لعبة الورق هذه التي كانت تلعبها وهي تدخّن سجائر من دون أعقاب. لم تكفّ عن القلق والاضطراب بسبب أخي الأكبر إرنستو. كان يخوض المعارك على رأس السرية الثامنة «سيرو ريدوندو» ضمن قوات إيجيرسيتو ريبيلد[1] التابعة للزعيم الثوري الشابّ فيدل كاسترو ومنظمته الثورية، حركة 26 يوليو، بهدف إسقاط الدكتاتور الكوبي فولغينسيو باتيستا الذي كانت وحشيته تُرهب الشعب. لمرّاتٍ عديدة، أعلنت الصحافة العالمية موت «الطبيب الأرجنتيني إرنستو تشي جيفارا»، وأغرقت عائلتنا في الحزن والقلق وعدم اليقين. ولكنّها لم تكن سوى إشاعات كان النظام القمعي يبثّها

(1) الجيش الثوري.

بين الناس لتشويش الشعب الكوبي وإقناعه بالكفّ عن تقديم الدعم للثوار. وقد تمَّ تكذيب تلك الإشاعات، واحدة تلوى أخرى، وسط الارتياح الكبير في عائلتنا.

كانت الأخبار عن إرنستو نادرة. كنّا نعلم أنّه يقاتل في مكان ما من كوبا وأنّ الجيش الثوري قد خاض معارك حاسمة وأنّه يحظى بدعم السكّان وأنّه يتقدّم نحو العاصمة. كنّا نعيش على بعد 6500 كيلومتر من الجزيرة، وهو ما كان يبدو لنا بمثابة سنوات ضوئية. كنّا نتعلّق بأيّ معلومة صغيرة ترد من مسرح العمليات الذي كان يقع آنذاك في جبال سييرا مايسترا، وهي سلسلة جبلية وعرة تقع في الجنوب الشرقي من الجزيرة وذات غطاء نباتي كثيف ودرجات حرارة تنخفض بشكلٍ حادّ في فصل الشتاء.

في كلّ مرّة يُعلَن فيها عن موت إرنستو، كان الخبر يغدو أكثر عرضة للشكّ وأقلّ مصداقية. ولكن مع ذلك، كنّا نعيش في حالة من القلق والخوف والتأهّب الدائم. كان والداي يلومان نفسيهما، من دون الإفصاح عن ذلك، لكونهما لم يستطيعا أن يقنعا هذا الابن الجسور والمغامر والجموح الذي لا يمكن ترويضه بالبقاء معهما، بل لم يحاولا أبداً استبقاءه في البلاد: لقد قاما بتربيتنا في جوٍّ من الحريّة التامّة وشجّعانا على القيام بالرحلات والاكتشافات والمغامرة والسياسة بل حتى التمرّد. لكن إلى درجة المشاركة في هذه الثورة؟ هذه الثورة المندلعة في بلادٍ غريبة حيث هناك يومياً خطر أن يفقد المرء حياته؟ لقد تألّما بشدّة من جرّاء تفهّمهما ميوله والتسامح معه بشأنها. هذا الابن المحبوب الذي دلّلاه وأمضيا عند سريره الكثير من ساعات القلق والألم وهما يحاولان تخفيف نوبات الربو الشديدة التي تنتابه وتنهك كلّ قواه وتمنعه من التنفّس، يُخاطر بحياته من أجل

مثلٍ عليا، وهو لم يبلغ الثلاثين من العمر بعد! ومع ذلك كان عليهما الاعتراف بأنّ هذا الأمر أيضاً هما من علّماه الإقدام عليه. لقد قاما بتربيتنا بهذه الطريقة ولكنّنا تجاوزناهما وذهبنا بعيداً. لقد تغذّى إرنستو على دروسهما إلى أقصى الدرجات ومن ثمّ خرج من دائرتهما وغادرهما. كنت في الخامسة عشر من عمري وكنتُ أرى تماماً أنّهما يعانيان ويتألمان لغيابه ولكنني لم أكن أقدّر حجم الخطر حقّ قدره. كنتُ معجباً بأخي، ذاك المقاتل العظيم الذي غادر وحيداً، وعملياً صفر اليدين، في تطوافٍ لمسافة 4500 كيلومتر خلف مقود دراجة نارية وهو في الحادية والعشرين من عمره. ثمّ، بعد عامٍ واحدٍ، بدأ برحلةٍ على درّاجة نارية، مع رفيقه ألبيرتو «ميال» غرانادو، استغرقت عدّة أشهر. وبعد ذلك، انطلق في رحلة أطول والتقى في النهاية مع مجموعة من الثوّار الكوبيين الذين سوف يسعى معهم فيما بعد إلى إعادة رسم صورة العالم بالكفاح المسلّح في جزيرة نائية وغريبة جدّاً. لم يحظَ أيّ صديقٍ من أصدقائي بأخٍ يتفاخر ويتباهى به مثلما أتفاخر وأتباهى أنا بأخي تشي جيفارا.

أمسكت أمّي بسماعة الهاتف وردّت على المكالمة:

- ألو، من المتّصل؟

- **هولا فييخا**[1]، هذا أنا، ابنكِ إرنستو.

لم تكن أمّي قط امرأة بشوشة ومع ذلك لم تستطع أن تكتم صيحة فرحتها. خلال ستّ سنوات طويلة من غيابه، لم تسمع صوت إرنستو سوى مرّة وحيدة، حينما اتّصل بها في مكالمة قصيرة

(1) Vieja تعني «امرأة عجوز» وViejo تعني «رجل عجوز». في البلدان الناطقة باللغة الإسبانية، هذه طريقة لطيفة ومحبّبة يستخدمها من يخاطب والديه.

من معسكره في جبال سييرا مايسترا. منذ مغادرته النهائية لبوينس آيرس في الثامن عشر من شهر يوليو في عام 1953، كلّ فردٍ من أفراد عائلتنا -أبي إرنستو جيفارا لينش، أمّي سيليا دو لا سيرنا، أخي روبرتو، أختاي سيليا وآنا ماريا وأنا- تواصل معه على نحوٍ منتظم، على الأقل إلى حين انخراطه في الأنشطة السريّة. كان التواصل العائلي يتمّ دائماً عبر الرسائل المكتوبة وليس بالاتصال الهاتفي.

أشرقت أمي فرحاً وأطلقت صرخة مدوّية: «إنّه إرنستيتو»! فجأة بدت سعيدة ومبتهجة. تلقّت أخباراً مفرحة. لقد أخبرها إرنستو بانتصار إيجيرسيتو ريبيلد «الجيش الثوري الكوبي» ودخوله المظفّر إلى العاصمة هافانا وعزل فولغينسيو باتيستا. ولكنّه أوضح بأنّه لا يتّصل مع بوينس آيرس لكي يتحدّث عن مآثره وأعماله الباهرة. إنّه لا يتحدّث بصفته **قائداً** وإنّما يتحدّث كابنٍ وكأخ. أراد أن يسمع نبرة الحنان الأمومي التي حُرِم منها لزمنٍ طويل. تبادلا هو والمرأة العجوز حبّاً كبيراً واحتراماً شديداً. ولا سيما أنّها هي مَن بنت شخصية إرنستو. لقد كانت ناشطة سياسية ومعارضة قبله. وهي من أورثته حبّ القراءة والمطالعة، وهي من علّمته اللغة الفرنسية التي تجيدها بطلاقة. كان يُقال إنّ إرنستو هو طفلها المدلّل والمفضّل. كانت هذه الأفضلية التي تمنحها أمّي له تعود إلى حالة المرض التي كان إرنستو يعاني منها، والتي سمّمت طفولته: مرض الربو ذاك الذي منعه من أن يتابع دراسته في المدرسة بشكلٍ طبيعي، الأمر الذي أرغم أمّي على أن تقوم هي بتدريسه في البيت إلى حين بلوغه سنّ التاسعة.

لم تزعجني قطّ العلاقة الوثيقة التي كانت تربطهما: كنتُ

الأصغر بين أخوتي -حيث كان أخي إرنستو يكبرني بخمسة عشر عاماً وروبرتو يكبرني بأحد عشر عاماً- ولذلك كنتُ أحظى أنا أيضاً بمكانة متميّزة وسط أفراد العائلة. المهمّ هو أنّ في صبيحة اليوم التالي، وحينما علِم العالم أجمع بخبر انتصار فيدل كاسترو، أدلت أمي بهذا التصريح للصحافية أنجيلينا مونوز العاملة في مجلّة **لا موجير**: «من بين أولادي الخمسة، إرنستو هو الأكثر شهرةً، لكنّهم جميعاً رائعون»[1]، قبل أن تضيف قائلة: «أنا أجهل مَنْ سألتقي به في هافانا. لقد كانت السنوات الستّ الأخيرة حيوية وحاسمة في حياة ابني. لا بدَّ أنّه قد تغيّر. أشعر بالرهبة بعض الشيء. لم أشأ قط أن أقف في طريق حريته. لو أننا فعلنا، زوجي وأنا، ذلك لما كنّا اليوم على هذه العلاقة التي تربطنا، علاقة رفاقية. لم يكن ابني أبداً في حاجة إلى أن يواجه أسرته، فقد حاولنا باستمرار أن نفهمه ونتقاسم معه هواجسه وقلاقله».

في ذلك المساء الذي تلقّينا فيه تلك المكالمة غير المتوقّعة، كنّا جميعاً مجتمعين في المنزل وسط الغبطة والحيرة. نطرح على أنفسنا نفس السؤال: هل سنتعرّف على إرنستو؟ من هو ذاك الرجل الملتحي ذي الشعر الكثّ الذي يضمّه تحت قبّعة، ذاك القائد الذي أصبح يتصدّر الصفحات الأولى في الصحف العالمية؟ ما هي علاقته بأخي إرنستو؟

في بوينس آيرس، كانت الاحتفالات تعمُّ الشوارع كما لو كانت أيام الأعياد. كان الشعب أيضاً قد علِم بانتصار مواطنهم البطل. نشرت جميع الصحف خبر انتصار الثورة الكوبية. حتى أقاربنا الذين

---

(1) جميع الترجمات الفرنسية في هذا الكتاب أنجزتها أرميل فنسن.

لطالما تظاهروا بأنهم الأكثر اعتراضاً على أفكار إرنستو، احتفوا به أيضاً. وتباهى آل جيفارا وآل سيرنا بأنّهم قد أنجبوا رجلاً عظيماً وتفاخروا به. على الأقل في تلك اللحظة. لأنّ البعض منهم حاولوا فيما بعد أن يبتعدوا عنه حينما تغيّرت الأمور في الأرجنتين بسرعة وسلكت اتجاهاً معاكساً.

بعد مرور يومين على المكالمة الهاتفية، في السادس من يناير من عام 1959، غادرنا، أبي وأمي وأختي سيليا وأنا، منزلنا في شارع آراوز نحو مطار إيزيزا الدولي بقصد السفر إلى كوبا. لم يستطع روبرتو وآنا ماريا أن يرافقانا لسوء الحظّ. كانت لدى روبرتو عقبة مهنية لم أعد أتذكّر ماهيتها، أمّا آنا ماريا فكانت قد وضعت مولودها للتوّ. ارتديتُ بفخر وتباهي البذلة التي اشتراها لي والداي بهذه المناسبة، وكانت هذه أوّل بذلة رسمية أرتديها. سوف ألتقي أخيراً أخي الأكبر، أخي الذي كان محبّاً للمزاح والذي درّبني على قراءة روايات المغامرات لكلٍّ من إميليو سالغاري وجول فيرن. لم يهمّني كثيراً كونه قد أصبح **القائد** أو **تشي**. بكل تأكيد، انتابني شعور بالفخر والانتشاء -فقد انتشرت صورته على صفحات كل صحفنا-، ولكن ظلّ كلّ ذلك بالنسبة إليّ أمراً مجرّداً.

ابتهجنا كثيراً، فقد قرّر فيدل كاسترو، بتكتّم، أن يدعونا إلى هافانا لكي نشارك في الاحتفالات بالنصر دونً أن يُعلِم إرنستو بالأمر. كان أخي سيرفض الفكرة لكي لا يُهدِر أموال الدولة الكوبية الجديدة الثورية. على مدار عامين، ناضلا خلالهما جنباً إلى جنب، كانت تربط إرنستو وفيدل علاقة صداقة عظيمة ورجولية وصفها فيما بعد المثقّف الكوبي ألفريدو جيفارا، في مقابلة مع

صحيفة **إلبايس**[1] الإسبانية، بهذه الطريقة: «صادف فيدل الكثير الكثير من المرايا في حياته؛ لم يكن تشي مرآة، كان مثقّفاً ويمتلك معايير خاصّة به. كان يتحدّث معه حديث الندّ للندّ، وربّما كان الوحيد من بيننا على هذه الحالة. كان يعلم أنّ فيدل هو زعيم الثورة وكان فيدل يُصغي إلى تشي ويحترمه؛ كانا على تفاهمٍ وتوافقٍ تامّين».

كان فيدل يعرف مدى تعلّق صديقه بعائلته. وقد جازف إرنستو بحياته في سبيل تحرير بلدٍ ليس بلده. كما أنّ فيدل اعتبر بأنّه ليس من العدل أن يكون صديقه «اليتيم» الوحيد في احتفال النصر. فكلّف **قائده** الآخر كاميلو سيينفيغوس[2] بأن يخبرنا بالذهاب إلى المطار مع حقائبنا. كان علينا أن نستقلّ في المطار طائرة تابعة للخطوط الجوية الكوبية مستأجرة خصيصاً لإعادة المنفيين السياسيين الكوبيين ليس من الأرجنتين فقط بل من تشيلي والإكوادور والمكسيك أيضاً. أوحت الرحلة الجماعية على متن الطائرة المستأجرة بأنّها ستكون مثيرة...

أقلعت الدفعة الأولى من المنفيين السياسيين من مطار إيزيزا محمّلين بأحمالٍ ثقيلة. كان أحدهم، على نحوٍ خاصّ، يحمل معه المئات من الكتب المحشوّة في عدّة أكياس. أرعب مشهد الأحمال والدي فاشتكى لدى الطيّار من زيادة الوزن. كان علينا أن نُقلِع

---

(1) «Te podría decir que te extraño» («أستطيع أن أقول لك إنني اشتقت إليك»)، فيسنت موريسيو، **إلبايس**، 7 أكتوبر 2007.

(2) كاميلو سيينفيغوس: ثوري كوبي تركت عائلته إسبانيا قبل الحرب الأهلية الإسبانية، يعتبر شخصية رئيسية في الثورة الكوبية إلى جانب فيدل كاسترو وتشي جيفارا وخوان ألميدا وراؤول كاسترو. -المترجم-

محلّقين فوق سلسلة جبال الأنديز لكي تحطّ بنا الطائرة أوّلاً في سانتياغو في تشيلي، حيث ينتظرنا منفيون آخرون، ومن ثمّ نتوجّه إلى غواياكيل في الإكوادور وأخيراً إلى مكسيكو. طمأن الطيّار والدي وأقلعنا من المطار في جوّ احتفاليّ في غاية البهجة.

لدى وصولنا إلى أجواء مدينة غواياكيل، ظلّت الطائرة تدور في الأجواء وتدور لمرّاتٍ عديدة بدل أن تحطّ في مدرج المطار. استغرقت المناورة لما يقارب ساعة واخدة. أبت عجلات الهبوط أن تعمل. بلغ التوتّر أوجه في صفوف الركّاب. ثمّ انتهى الأمر بسرور حيث فتحت عجلات الهبوط وهبطنا أخيراً على الأرض. كنّا على وشك أن تتحطّم بنا الطائرة قبل أن نلتقي مع إرنستو!

كانت الرحلة طويلة للغاية. في كلّ مطار، حطّت فيه طائرتنا، تعرّضنا لهجمة من الصحافيين الذي أرادوا إجراء مقابلة مع والدَي تشي، بينما اعتقدنا أنّ وجودنا على متن طائرة المنفيين السياسيين قد ظلّ سرّياً. استسلم والدي بمزاجٍ رائق وطيبة خاطر لطلباتهم: يبدو أنّ ابنه المتشرّد قد أصبح بطلاً عالمياً!

في أجواء هافانا، خشينا للمرّة الثانية من أن تتحطّم بنا الطائرة بسبب عجلات الهبوط التي عانت من نفس المشكلة على الرغم من عمليات إصلاحها التي أجريت في غواياكيل. وأخيراً، هبطت بنا الطائرة بسلام على مدرج مطار خوسيه مارتي في هافانا. كنّا في غاية التعب والإرهاق ولكنّ فكرة لقائنا بأخي إرنستو ملأتنا فرحاً وسروراً.

لدى نزولنا من الطائرة، ركع والدي على أرضية المطار وقبّل الأرض الكوبية.

كان ثوّارٌ ملتحون ومسلّحون ينتظروننا على مدرج المطار لكي

يرافقونا وسط حشود الناس نحو إرنستو. لأسباب تتعلق بضمان أمنه، كان قد بقي في قاعة الاستقبال. في نفس ذلك الصباح، كان كاميلو قد عرض عليه الذهاب إلى المطار «حيث تنتظره مفاجأة سارّة». لم يكن لديه الوقت الكافي لكي يعبّر عن غضبه ويتذرّع بأنّه يرفض على الإطلاق أي معاملة تفضيلية له أو لذويه. على كلّ حال، لم يكن فيدل قد وصل إلى هافانا بعد. كان الانتصار قد تحقّق للتوّ ولم يتبقَّ له سوى أن يستمتع بملاقاة أسرته أخيراً.

حينما لمحت أمّي إرنستو، هرعت نحوه وهي تسير على غابة شرائط القنوات التلفزيونية التي كانت تفترش الأرضية. وكان عناقاً طويلاً لا ينتهي، ولحظة استثنائية غير عادية. أجهشت أمي بالبكاء بين ذراعَي إرنستو الذي احتضنها بحنان. كنّا، أبي وسيليا وأنا، نراقب المشهد وقد استبدّ بنا التأثّر والانفعال عميقاً. ستّة أعوام وأمي تحلم بهذه اللحظة. ولمرّات عديدة، اعتقدت أن ابنها البكر قد مات!

كانت الأمور، بالنسبة إلى والدي، مختلفة. كان هو الآخر يدلّل ابنه البكر ومتعلّقاً به، ولكن العلاقة بينهما كانت مشوبة بالنزاع. في العائلة، كان هناك نزاعات واختلاف في الرأي بيننا جميعاً، لكن من حيث الجنون، كان أبي يبزّنا جميعاً. لنقل إنّ غرابة أطواره المستمرة وتصرّفاته غير المألوفة كانت تسبّب السخط وسط المقرّبين منه. علاوة على ذلك، إذا كان أبي قد انضم فيما بعد إلى أفكار إرنستو، إلاّ أنّه، في شهر يناير ذاك من عام 1959، لم يكن يقاسمه لا آرائه السياسية ولا استقامته ونزاهته اللتان لا تلينان. كانت لديه طموحات وآمال أخرى بشأن إرنستو. كان ينوي الاستفادة من هذه الزيارة إلى هافانا لكي يعيد الأمور والأفكار إلى نصابها ويُقنِعه

بالعودة إلى بوينس آيرس لكي يُتابع فيها مهنته كطبيب مختصّ. ولكننا سرعان ما رأينا أنّ لدى إرنستو خطط أخرى مختلفة. يبدو أن والدي لم يدرك أنّ هذه الثورة بالنسبة إلى ابنه أكثر بكثير من مجرّد مغامرة جميلة وما أن تنتهي سوف تخلي مكانها للأمور الأكثر جدّية في حياته. فقد أخبره إرنستو منذ اليوم الأول: «بالنسبة إلى مهنتي كطبيب، يمكنني القول إنني قد هجرتها منذ فترةٍ لا بأس بها. أنا الآن مناضلٌ يعمل من أجل توطيد أركان حكومة. ما الذي سيحلّ بي؟ مَنْ يدري؟ أنا بنفسي لا أدري في أيّ أرضٍ سأترك عظامي». ثمّ أضاف بنبرته المعتادة التي تميل إلى الدعابة: «ومع ذلك، أيّها الرجل العجوز، بما أنّك تحمل أيضاً اسم إرنستو جيفارا، يمكنك أن تعلّق شهادتي كطبيب على جدار مكتبك المعماري وتبدأ بقتل المرضى دون أي مجازفة». لا بدَّ أن أوضّح هنا أنّ والدي كان يزعم بأنّه مهندس معماري بل كان يمارس هذه المهنة، لكنّه في الحقيقة لم يكن قد حصل أبداً على شهادة الهندسة المعمارية. . .

لم تبقَ لأخي أي صلة بمهنة الطبّ منذ أن ودّعنا يوم 8 يوليو من عام 1953 في محطّة ريتيرو في بوينس آيرس حيث أصبح من تلك اللحظة تشي[1]. لقد تغيّرت ملامحه وبدا أنّه قد كبر في السنّ ولكنّه ظلّ بهيّاً رائعاً. هو الذي كان يتحدّث بسرعة كبيرة ويبتلع كلمات ويبدو كمن يركض سريعاً لكي يلتقط الأفكار، أصبح الآن رجلاً هادئاً، جادّاً ورصيناً. دُهِشَ والدي لذلك ولاحظ أن تشي يفكّر مليّاً ويوزن كلماته قبل أن يتكلّم. حينما غادر بوينس آيرس،

---

(1) «تشي» هي عبارة تعجّب ناجمة عن تحريف لغوي يستخدمه الأرجنتينيون فقط وبالتالي يستخدمه إرنستو. ولهذا السبب لقّبه الكوبيون بلقب «تشي».

كان أمرداً بلا لحية؛ الآن لديه لحية. صحيح أن شعرات لحيته ناعمة ومتفرقة ولكن مع ذلك لديه لحية. كان يحبّ الشعر القصير لكي يتجنّب تمشيط شعره وتسريحه: كان من الصعب ترتيب شعره الكثيف. كذلك بات نحيلاً بعض الشيء. إلى ذلك الحين، كانت شهيته للطعام متقلّبة تتأرجح بين النهم الشديد والزهد في الطعام وذلك وفقاً لنوبات الربو التي تنتابه. كان يرتدي بذلة عسكرية لونها أخضر زيتوني ويتمنطق الحزام اللدن العريض كاكي اللون والقبعة السوداء ذات النجمة الحمراء الخاصّة بصفته **قائداً**. وهذا الزيّ المتكامل لم يعد يبارحه قط. كان يكسب بذلك الثقة والهيبة والوقار والكاريزما، إذا جاز القول، لأنّ إرنستو كان على الدوام ذا شخصية حازمة وعاش رخاءً طبيعياً وامتلك روح القائد والزعيم. حينما كان صبياً، كان زعيم «العصابة» دون أن يفرض أيّ شيء على الإطلاق. بكلّ بساطة، فقط لأنّه كان يُلهِم الآخرين الثقة. حتى الأطفال الذين كانوا يكبرونه سنّاً، كانوا يشعرون بالأمان والحماية إلى جانبه. كانت صداقته ثابتة لا تتزعزع ومصداقيته لا تهتزّ.

لاحظتُ الاحترام الذي يُلهمه بوضوح لرجاله الذين تحت أمرته. كنتُ أمام أخٍ يبتسم لي بلطفٍ وحنان ويدغدغني كما كان يفعل في الماضي، ولكن أيضاً أمام رجلٍ تغيّرت هيئته. كنتُ متلهفاً إلى اكتشاف ذاك الأخ الذي تميّز بالشجاعة والإقدام في القتال، والذي استطاع، مع ثلاثة آلاف من رفاق السلاح، أن يُحقّق النصر على جيشٍ متطوّر ومعاصر قوامه خمسون ألف رجل ويحظى بدعم ومساندة أعظم قوّة في العالم، ألا وهي الولايات المتحدة الأميركية. ومع ذلك، أكثر ما كان يهمّني هو أن أستعيد تلك الألفة التي سادت بيننا في طفولتنا.

انطلقنا بسيارة من طراز جيب نحو فندق هيلتون حيث كان علينا أن نقيم فيه لزيارة لم تحدَّد مدّتها بعد. كانت الأجواء في شوارع هافانا أجواء بلدٍ تحرّر أخيراً بعد سنواتٍ طويلة من القهر والاستعباد. في كلّ الأحياء التي مررنا فيها، كانت أصوات الموسيقى وأصداؤها تتعالى بمرح، ويرقص الناس في الشوارع بابتهاجٍ وهم يحتفلون بانتصار الثوّار الشبّان الذين أعادوا إليهم حريّتهم وكرامتهم. كان الصخب والضوضاء يعمّان كلّ مكان. وكانت مجموعات من الثوار المنحدرين من سلسلة جبال سييرا مايسترا، والذين بالكاد يجيدون القراءة، والذين لم يسبق لهم قط أن خرجوا من قراهم أو من جبالهم ولم يحظوا قط بفرصة الاستمتاع بمشاهدة مدينة، يجوبون الشوارع وهم منبهرين بفخامة وبذخ العاصمة وبأبراج ناطحات السحاب وبالسيارات وبالفنادق.

في فندق هيلتون، كان المشهد سوريالياً وغرائبياً جامحاً بالنسبة إلي، أنا الفتى الأرجنتيني. كان رجلٌ زنجي طويل القامة وآخر قصير القامة يرتديان الزي الرسمي للخدمة ويقفان أمام أبواب الفندق، وكأنّهما حارسان ينتميان إلى عالم آخر. وكان الممثّل الأميركي إيرول فلين يذرع بهو الفندق جيئة وذهاباً: كان وصول سريّة تشي إلى هافانا قد فاجأه. وكان البهو الباذخ للفندق يعجّ بمزيجٍ غريبٍ من الثوار المسترخين في أرائك وسُيّاح مذهولين من كونهم قد تحوّلوا على نحوٍ مباغت إلى شهودٍ غير محتملين على ثورةٍ منطلقة. كان الذهول والاندهاش يخيّمان على الجميع: كان الحدث مفاجئاً بحيث لم يسعفهم الوقت لكي يستوعبوا التحوّل في الأحداث. بينما كنّا نراقب المشهد، وقد استبدّ الذهول بنا نحن أيضاً، نزل **القائد** كاميلو سيينفيغوس مع جنوده. وقف الثوار المسترخون وقفة رجلٍ واحد.

كان القائد كاميلو وسيماً ومهيباً بلحيته الكثيفة وشعره الطويل وقبّعته الكاوبوي بلون الصوف وبندقيته الرشّاشة المتدلية. انفجر في ضحكة مجلجلة. كان قد تحوّل هو الآخر إلى أسطورة. توجّه إرنستو نحوه وعانقه بحرارة قبل أن يقدّمنا إليه. كانا قد أصبحا على علاقة صداقة حميمة ومتينة. لم يفهم موظفو فندق هيلتون أي شيء من ذلك المشهد. لقد حدث كلّ شيء على نحوٍ خاطف وسريع! كان مشهداً مذهلاً استمتعتُ بكلّ ثانية منه. تعجّ الطاولات بالأسلحة النارية بحيث لم يعد من مكانٍ لوضع طبقٍ أو حتى كوبٍ عليها، وشعر الجنود أشعثاً وثيابهم رثّة وبالية. كانوا قد خرجوا لتوّهم من الكفاح السريّ الذي استمرّ عامين. كانت ثيابهم العسكرية المتّسخة والتي زالت ألوانها بفعل مرور الوقت وبتأثير حرارة الشمس وتقلبات الطقس مرمية على الأرض مع تمائمهم وتعويذاتهم؛ وكانت أحذيتهم العسكرية مهترئة ومثقوبة. ذُهلتُ لاكتشافي أنّ هناك شبّانٌ في عمري قد أصبحوا من ذوي الرتب العسكرية في صفوف قوات الجيش الثوري. لكن أكثرهم إثارة للدهشة هو إرنستو. كانت عائلتي على الدوام هامشيّة ومناهضة للأفكار التقليدية ومتمرّدة على السلطة. وبالتالي كانت رؤية أخي، وهو نفسه الذي تهرّب من الخدمة العسكرية في الأرجنتين وأعفى نفسه منها متذرّعاً بكونه مصاب بمرض الربو، في موقع **القائد** أمراً صاعقاً ومذهلاً.

تمَّ حجز جناحٍ في الطابق السادس عشر من فندق هيلتون لإقامتنا فيه. وقفت أمي في شرفة الجناح وراحت تتأمّل المشهد: حي فيدادو وشارع لا رامبا الشهير فيه، ورصيف ماليكون البحري، وحصن كاستيلو ديل مورا، والبحر. ابتهجت وتنعّمت بالغبطة

والسعادة. ثبّتت لنفسها برنامجاً فحواه أن تستفيد من ابنها بأكبر قدرٍ ممكن، وأن تلتقي فيدل هذا الذي سمعت الكثير من الأحاديث عنه في رسائل إرنستو وفي الصحافة، وأن تعرف كل ما بوسعها عن الثورة وأهدافها السياسية والفلسفية والاقتصادية والعملية. وكانت خطط والدي أكثر ابتذالاً. كانت له مرامٍ عديدة من بينها الرغبة في إقامة علاقات قد يستفيد منها فيما بعد.

كانت رحلتنا منهكة ومضنية للغاية. ذهبنا إلى النوم جميعاً، وسط صخب وضوضاء أبواق السيارات المنبعثة من الشارع، ولكن مع ذلك كنّا في غاية السعادة والاندهاش لكوننا سوف ننام تحت نفس السماء مع إرنستو.

حينما جاء في اليوم التالي لكي يتناول الغداء معنا، أبدى استغرابه من رؤية والدي غارقاً في حفلة لالتقاط الصور مع أحد أعمام فيدل وإحدى بنات عمومته، وهما غونزالو وآنا كاسترو آرغيز. كان الشعور بالفخر والاعتزاز الناجمان عن مجد الانتصار الذي حقّقه أقاربهم حديثاً قد قرّبهم من بعضهم. أغضب ذلك إرنستو وأثار حنقه. لا بدَّ أنّه قد فضّل أن يتبنى والده سلوكاً أكثر رزانة واتزاناً من الانسياق وراء مظاهر الاحتفال. كما لو أنّك تطلب من نجم سينمائي أن يتوارى عن الأنظار خلال مهرجان كان! كان والدي رجلاً محبّاً للظهور والأضواء وقد منحته هذه الأحداث الطارئة، والتي أتت في أوانها، أفضل الفرص لكي يصعد إلى خشبات المسرح ويتصدّر المشهد. زادت تصرّفات والدي هذه من حنق إرنستو وكذلك غضبي أنا، وتنامى امتعاضنا منه يوماً بعد آخر مع كلّ خطأ جديد ارتكبه والدي. في الحقيقة، راح يرتكب سلسلة من الأفعال الخرقاء التي لا يمكن التسامح معها، وبالتالي عجّل ذلك من ترحيله من كوبا. كانت

إحدى أجمل خصال أخي هي استقامته وحسّه الفطري والطبيعي بالإنصاف والعدل. وهذه الاستقامة التي كانت تبلغ حدّ الصرامة، ورثها أخي من والدتنا التي كانت تصطدم على الدوام مع نزوات والدي وميوله الدائمة إلى «الخديعة» والتصرّف وفق مبدأ الغاية تبرّر الوسيلة. كان يشعر بسعادة غامرة في فندق هيلتون، حيث البذخ والرفاهية يناسبان مزاجه ويمنحانه البهجة والسرور، ولا سيما أنّه لم يكن قد اعتاد على ذلك منذ أمدٍ بعيد. علاوة على ذلك، حتى في منزل ذوينا الأثرياء، لم نكن قد عرفنا هذا النوع من الراحة والترف المعاصر الذي بدا على الطراز الأميركي. كانت صالة الاستحمام في جناحنا مزوّدة بحوضٍ واسعٍ للحمّام الجاكوزي. وكانت الثلاجة تنتج مكعّبات الثلج بكبسة زرّ! بالنسبة إلى صبيّ مراهقٍ مثلي، قادمٍ من بيتٍ خربٍ، كان رخاءٌ كهذا أمراً عجيباً ومثيراً لا يُصدَّق. بالنّسبة إلى أمي، ومع أنّها كانت قد ترعرعت في أسرة عرفت رغد العيش والامتيازات، كان ذلك صادماً لا يمكن تحمّله في سياق الثورة. بعد يومين من وصولنا، فرضت علينا الانتقال إلى فندقٍ آخر أقلّ بذخاً. نزلنا في فندق كومودورو، على أطراف الشاطئ في جناحٍ يضمّ سريراً ضخماً ودائري الشكل، كانت الممثّلة المكسيكية ماريا فيليكس قد نامت فيه. كانت نافذة غرفتنا تطلّ على رصيف بحري ترسو فيه يخوت جميلة. وكان سطح الفندق مزوّداً بمهبط للطائرات العمودية. وقد نزل فيه إرنستو عدّة مرات لكي يزورنا في زيارات مباغتة. لم يكن فندق كومودورو أقل فخامةً بكثير من فندق هيلتون، ولكنّه كان الوحيد المتوفّر، وبالتالي كان علينا أن نتأقلم معه!

وصل فيدل كاسترو من سانتياغو كوبا إلى هافانا وسط الاحتفاء

به كبطل، بعد يومين من وصولنا إلى العاصمة. ألقى خطاباً وأقام مراكز قيادته وأركانه في الطابق الثالث والعشرين في فندق هيلتون. كان إرنستو قد اقترن بفتاة اسمها أليدا مارش، وهي شابّة ثورية كوبية التقاها في جبال سييرا مايسترا، والتي لا بدَّ أنّها قد ذهبت لتبحث عن ملاذٍ بين الأدغال لكي تنجو من الاعتقال والتعذيب. ومع ذلك، أقام في غرفة متواضعة في قلعة فورتاليزا سان كارلوس دو لا كابانا(1) حيث كانت تجري فيها محاكمات رجال النظام المخلوع، والتي كلّفه فيدل بمسؤولية الإشراف عليها. وهي مسؤولية واجه بسببها نقداً شديداً ولوماً قاسياً بسبب أحكام الإعدام العديدة التي صدرت، والتي يقول عنها في مقابلة صحفية: «موقفي موقف صعب للغاية. أنا أتحمّل كامل المسؤولية عن الأحكام التي صدرت. في هذه الظروف، لا أستطيع أن أكون على تواصلٍ مع المتّهمين. أنا لا أعرف حتى شخصاً واحداً من بين سجناء لا كابانا. كان دوري ينحصر بممارسة مهام رئيس المحكمة العليا وتحليل الوقائع ببرود وهدوء. وانطلقت من مبدأ أن العدالة الثورية هي عدالة حقيقية». وقد كتبت أليدا، فيما بعد، في سيرتها الذاتية(2) أنّ تلك المحاكمات، التي لم يحضرها تشي شخصياً إلّا في أحيانٍ قليلة، كانت صعبة للغاية وغير مريحة له أبداً، خاصّة حينما كانت أسر المتّهمين تأتي إليه وتلتمس منه الرأفة والرحمة.

اتُّهِمَ إرنستو بالقسوة. وهو اتّهام باطل بالمطلق. في الأدغال

---

(1) بُنيت هذه القلعة للدفاع عن هافانا ضدّ القراصنة الإنجليز في القرن الثامن عشر.

(2) أليدا مارش، *Evocación, Mi Vida al Lado del Che* (**استعادة الذكريات، حياتي مع تشي**)، أوسيان سور، 2011.

الكوبية، كان يعامل الأسرى معاملة إنسانية. حينما يتمّ أسر بعض الجنود، كان إرنستو يعود طبيباً لكي يعالجهم ويعتني بهم. وفي الأدغال البوليفية، كان يُطلق سراح الجنود بعد أسرهم. لم يكن سجناء قلعة كابانا جوقة من الأطفال الأبرياء: كان الأمر يتعلّق بحفنة من أسوأ رجال الدكتاتورية الكوبية الذين مارسوا أبشع صور التعذيب. حفنة من الأشخاص الذين أرهبوا وهدّدوا وقتلوا وعذّبوا أبناء الشعب الكوبي. وقد شرح لنا إرنستو بأنّ المحاكمات قد تقرّرت من قبل الزعماء الثوريين لتجنّب العدالة الانتقامية في الشارع وهي الأسوأ بكثير من المحاكمات التي جرت. لأنّ الشعب كان يميل بشكلٍ عام نحو تنفيذ الإعدام من غير محاكمات قانونية بحقّ عملاء الطاغية الذي أذاقه الويلات والأهوال.

منعني إرنستو بشكلٍ قاطع أن أصل إلى كابانا ولكنني مع ذلك استطعت أن أحضر إحدى المحاكمات التي جرت هناك: منذ اليوم الثالث من وجودنا في هافانا، توجّهتُ إلى ملعب كرة السلّة الذي يقع على طريق بوينس. وقد جرت المحاكمة الأولى هناك، وكانت المحاكمة الوحيدة التي تجري علناً. كانت محاكمة سوسا بلانكو، وهو رجل ساديّ معروف بقسوته ووحشيته من رجال النظام السابق. ما زلت أحتفظُ بذكرى مقيتة من تلك المحاكمة. على ميدان ملعب السلّة حيث كان يُحاكم، كان هناك جوّ مثير للاشمئزاز والتقزّز من أجواء مباراة كرة القدم. كان الجمهور هائجاً ويصرخ: «قاتل!» حتى لو كان المتّهم محكوماً بارتكاب أفعال غير إنسانية، كان المشهد غير قابلٍ للاحتمال. وقد نبّهني إرنستو بأنّه من المستحيل استخلاص أي نتيجة مُرضية من هذه المحاكمات. وقد كان محقّاً في ذلك. لم أحاول بعد ذلك على الإطلاق أن أدخل إلى قلعة كابانا.

كان إرنستو يأتي إلى فندق كومودورو أحياناً لكي يرتاح من الضغوط الذهنية الرهيبة التي يعاني منها. فكنّا ننتظر أن يغادر مرافقوه الغرفة لكي ينسى الثورة ونتحدّث عن الأرجنتين وعن الزمن الماضي الجميل الذي قضيناه معاً هناك. كان يطرح أسئلة كثيرة حول العائلة ويسأل عن أحوال كلّ فردٍ منها ولا سيما روبرتو وآنا ماريا، اللذان بقيا في البلاد. يئستُ من إمكانية أن أبقى لوحدي معه. حينما حانت الفرصة، بدأت بأن رفعتُ عن رأسه القبّعة وقلتُ له: «ربّما تكون **قائداً** بالنسبة إلى الآخرين، ولكنّك لست كذلك بالنسبة إلي!» فأخذ يدغدغني ويستفزني. كانت تلك طريقته في التسلية والتخلّص من التوتّر. بدا أنّه هو الآخر في حاجة إلى هذه اللحظات الحميمية التي تتيح له أن ينسى لبعض الوقت مسؤولياته الكبيرة الملقاة على عاتقه ليعود بكل بساطة أخاً طبيعياً. كانت هناك أمورٌ تخصّنا نحن فقط وكان من المستحيل عليه أن يتقاسمها مع رفاقه المحيطين به. ثمّ كنّا قد اشتقنا إليه كثيراً خلال ستّ سنوات من غيابه.

ذات يوم، بينما كنّا لوحدنا في مكتبه، أراد أن نلعب الملاكمة. تخلّص من الوشاح الذي كان يرتديه لإسناد كتفه المصاب بحالة خلع ووجّه إليّ لكمة. قمتُ بالردّ عليه وأصبته بمرفقه. بدرت منه حركة تنمّ عن ألم شديد والتوى على نفسه. بينما اقتربتُ منه لكي أساعده، وجّه إليّ لكمة أخرى رمتني مترنّحاً إلى الخلف. غضبتُ وشتمته. انفجر ضاحكاً. طلب مني أن أجلس وقال لي: «فليكن هذا درساً لك يا **هيرمانيتو**[1]. لا تتخلَّ أبداً عن حذرك ويقظتك في حضور العدو».

---

(1) الأخ الصغير.

لما تبقّى من الوقت، كان يلحّ عليّ لكي أتابع دراستي العليا. كان يردّد علي: «يجب أن تدرس». كنتُ الوحيد من بين الأخوة والأخوات في العائلة الذي رفض إكمال أي دراسة جامعية. كان أخي إرنستو طبيباً وروبرتو محامياً وشقيقتاي سيليا وآنا مريا مهندستين معماريتين. أما أنا فكنت أرغب في أن أعمل في أسرع وقتٍ ممكن وأصبح بروليتارياً. ذات يوم، وحينما عاد وألحّ عليّ من جديد على الموضوع، أغلقت فمه مرّة واحدة وإلى الأبد حينما قلتُ له: «إذا لم أكن مخطئاً، أنت تملك شهادة في الطب، أليس كذلك؟ في أيّ عيادة علّقتها؟»، أجابني قائلاً: «ولكن الدراسة لا تقف عند هذا الحدّ! هذا نظامٌ ضروري». كانت ذرائعي للدفاع عن نفسي أكثر من أي شيء آخر. لا أريد أن أدرس وهذا كلّ ما في الأمر. جهدت أمي كثيراً لكي تعتني بي وانشغل أبي كثيراً لكي يعيش حياته الخاصّة خارج العش الأسري. في المقابل، كنتُ أطالع وأقرأ الكتب بنهم. وهذا الأمر أتاح لنا أن ننخرط في نقاشات مهمّة. كان إرنستو رجلاً ألمعياً للغاية ومثقّفاً جدّاً. إنّه أحد تلامذة ماركس وإنجلز وفرويد، ولكن أيضاً جاك لندن وخورخي بورخيس وبودلير وليون فيليبي وسيرفانتس وفيكتور هوغو. وكان على معرفة واطلاعٍ واسعين على أعمال موريس ميرلو بونتي وجان بول سارتر. حينما استقبله في هافانا -مع سيمون دي بوفوار- بعد مغادرتنا، فوجئ سارتر كثيراً باكتشافه أنّ وراء هذا الثائر ثمّة رجلٌ مثقّف وعالِم متنوّر. كان إرنستو يقرأ وسطياً كتاباً في اليوم الواحد، مستغلاً كلّ لحظة من أوقات فراغه ليستغرق في كتاب. كان له ميلٌ خاص إلى كتاب **دون كيشوت** لسرفانتس الذي قرأه ستّ مرات، ومؤلّف كارل ماركس الشهير **رأس المال** الذي كان يعتبره بمثابة النصب التذكاري للمعرفة

الإنسانية. ويحفظ عن ظهر قلب ملحمة بابلو نيرودا الشعرية «النشيد العمومي»، والذي كان قد اعتاد أن ينشده أثناء المعارك. منذ سنّ الطفولة، كان يلجأ إلى الشعر والنثر في اللحظات العصيبة. الشعر والمتّة[1]، ذاك المشروب المرّ الرائج في الأرجنتين الذي يُضاف إلى الشاي ويُشرَب بواسطة مصّاصة تسمّى «بومبيلا»، وهي عبارة عن مصّاصة معدنية مثقوبة بثقوبٍ صغيرة. ثمّ كان يكتب بغاية الإتقان. ومع أنّ تشي لم يعتبر نفسه كاتباً إلاّ أنّه ترك عملاً من ثلاثة آلاف صفحة يتألف من يوميات وأبحاث ورسائل وخطابات ومخطوطات وكراريس عن الحرب. لدرجة أنّ الكاتب الكوبي خوليو لانيس قد خصّص كتاباً لـ«تشي الكاتب»[2].

لكي يتنقّل براحته ومزاجه في هافانا وضواحيها، طلب والدي من إرنستو سيارة مع سائقها رغبةً منه في استغلال موقعه لكي يحصل على مكاسب عينية. لم يكن يعرف جيّداً ابنه الجديد هذا، والذي كانت طبيعته تثور أكثر من أي وقتٍ مضى ضدّ أبسط الامتيازات، بما فيها، بل بخاصّة إذا كانت الامتيازات لأهله وذويه! كان إرنستو يصرّ على أن يكتفي بقبض الراتب الزهيد لجندي بسيط، أي 125 دولار في الشهر. لقد رفض أن يتقاضى راتباً يزيد عن رواتب رجاله، حتى إن كان رجال آخرون من «كبار شخصيات» النظام يتقاضون 700 دولار في الشهر. كما أنّه غضب وأنّب أحد موزّعي الحليب لأنّه

---

(1) المتّة: نوع نباتي يُسمى البهشية البراغوانية يتبع جنس البهشية من الفصيلة البهشية. موطنها المناطق شبه الاستوائية في الأرجنتين وبوليفيا والأوروغواي وباراغواي وجنوب البرازيل. تستعمل أوراق البهشية البراغوانية بعد تجفيفها لإنتاج مشروب المتة. -المترجم-

(2) لانيس خوليو، *Che entre la literatura y la vida* (**تشي بين الأدب والحياة**)، منشورات كوربوس، 2010.

وضع حصّة زائدة من الحليب أمام باب منزله. كانت هذه النزاهة تحيّر والدي وتحبطه ويراها في غير محلّها ومثيرة للسخرية نظراً إلى التضحيات التي قدّمها إرنستو في سبيل الثورة. وللأسباب نفسها، كان يعتبر أنّه من الطبيعي أن يتمتّع والدا تشي ببعض الامتيازات. فقد «قدّما» ابنهما المدلّل وقرّة عينيهما لكوبا وقد تألما وعانيا أشدّ المعاناة من جرّاء ذلك. وإذا كان والدي على خلاف دائم مع إرنستو ويطالبه باستمرار بأن يفسّر له قراراته وأسباب خياراته الأيديولوجية، إلا أنّه كان يكنّ له أرقّ المشاعر. ظلّ هذا الابن يفقده صوابه. لم يكن يفهم لماذا يصرّ إرنستو على تلقي هذا الراتب الزهيد. انتابته كلّ هذه الوساوس. كيف لإرنستو أن يرفض التوقيع على التذكارات وهو يقول: «أنا لستُ ممثّلاً سينمائياً».

ومع ذلك، ومراعاة لوالدينا، ولكي نتمكّن من التجوال والتنزّه في كلّ الجزيرة، وافق إرنستو على وضع سيارة تحت تصرّفنا، شريطة أن يتكفّل والدي بدفع قيمة الوقود. ولكن كما العادة، كان إرنستو الأب يشكو من شحّة موارده. لم يكن بحوزته ولا كوبيكاً واحداً. ولذلك حاول أن يجد أعذاراً، قائلاً: «يا بني، نحن في فترة من الفقر والحرمان». وقد ردّ إرنستو على شكواه، قائلاً: «الكوبيون أيضاً يعيشون هذه الفترة! تدبّر أمرك، تبّاً!».

تظاهر أبي بأنّه قد امتثل للأمر ولكنّه ناور، من وراء ظهر إرنستو، لكي يحصل على ما يُريد من خلال التلميح بأنّ تشي موافق على ما يقوم به. حينما علِمَ إرنستو بالأمر استشاط غضباً ولقّنه درساً. لكن لا شيء يوقف أبي! يتصرّف دائماً بما يناسبه ويفعل ما يراه صحيحاً. لطالما جهلتُ ما يدور في خلده: كان من المستحيل فهم والدي. كان يرتمي وسط المتاهة دون حسبان.

منذ أن وصلنا إلى كوبا، افتقر والدنا إما للبصيرة وإمّا للانضباط أو لكليهما. يبدو أنّه لم يدرك ما أصبح عليه ابنه وما قامت به هذه الثورة من تأثير عليه وجعلته على استقامة ونزاهة بدرجة أعلى مما كان عليه في شبابه. إذا أراد أخي أن يعطي المثال والنموذج على هذا «الإنسان الجديد» الذي يرغب أن يولد منه لكي يبني مجتمعاً قائماً على أساس المساواة، كان يجب أن يكون سلوكه نزيهاً لا تشوبه شائبة وتالياً سلوكنا نحن ذويه أيضاً. من هو هذا الإنسان الجديد بحسب تصوّر إرنستو؟ «شابٌّ شيوعي واجبه الأساسي هو أن يكون إنسانياً، إنسانياً لدرجة أن يتقرّب من أكثر الأفكار والسلوكيات إنسانية ويريد أن يتطهّر روحياً بالعمل والدراسة وممارسة التضامن الدائم مع الشعب ومع كافّة شعوب العالم، شابٌ يتمتّع برهافة الحسّ والشعور الإنساني بحيث يشعر بالحزن والألم حينما يُقتَلُ أيّ إنسان في أيّ بقعة من العالم ويشعر بالحماسة والابتهاج حينما ترتفع راية جديدة من رايات الحرية في أيّ بقعة أخرى من العالم». هذا ما كان قد صرّح به إرنستو في خطابٍ له ألقاه في شهر أكتوبر من عام 1962.

يبدو أنّ والدي لم يفهم ذلك. إلى درجة أنّه لم يأخذ في الحسبان والاعتبار تجنُّب العقبات التي وضعها إرنستو في طريقه لكي يبقيه على الطريق السوي والمستقيم للثورة وللمثال الذي تريد أن تقدّمه. بدعوة من أبي، استقلّ ثلاثة زعماء نقابيين أرجنتينيين الطائرة معنا إلى بوينس آيرس. بدا لنا ذلك أمراً غريباً بل غير لائق، ولكنّني، كما قلت سابقاً، منذ فترة طويلة، لم يعد لدينا الميل والرغبة في فهم دوافع سلوكيات أبي وتصرّفاته. تصوّرت بكلّ بساطة

أنّ والدي ينوي إنجاز بعض الأعمال من خلال هؤلاء النقابيين، ولكن ما هي تلك الأعمال؟ كنت أجهل ذلك. كان والدي يحاول زجّ نفسه في كلّ المشاريع وفي مختلف المجالات ولكنّه فشل فشلاً ذريعاً في كلّ مشاريع على الرغم من ذكائه الهائل. كان رجلاً حالماً وفنّاناً، ولكنّه بالتأكيد لم يكن رجل أعمالٍ، على الرغم من محاولاته العديدة لكي يصبح كذلك.

لم أصدّق حينما أخبرني، ذات صباح، أنّه على موعدٍ مع رئيس ومدير عام شركة بيكاردي لصناعة المشروبات الروحية. طلب مني أن أرافقه في الذهاب إلى مقرّ الشركة. وبالطبع لم يكن قد أخبر إرنستو بأيّ شيء. ذهبنا إلى مقرّ شركة بيكاردي، وهو عبارة عن عمارة مهيبة وتحفة فنية في الحيّ البلجيكي من المدينة القديمة. استقبلنا خوزيه «بيبان» بوش في مكتب رائع وفاره. قدّموا لي مشروب دايكري في كوبٍ يرسو في قاعه حبّة لؤلؤ. لم أصدّق ما شاهدته عيناي! تحدّث والدي بهدوء ووقار مع بوش. كان رائق المزاج ومرتاحاً. فهو، مثل والدتي، ينحدر من عائلة أرستقراطية من صفوة البرجوازية الأرجنتينية. لم أتابع حديثهما بتركيزٍ وانتباه، منشغلاً ومذهولاً بالبذخ الذي كان يحيط بي. حينما هممنا بمغادرة المكتب، ذكر والدي بأنه من الممكن القيام بأعمالٍ مع شركة بيكاردي في الأرجنتين.

في اليوم التالي، زرنا مكتب رئيس ومدير عام بنك بيدروسو، وهو البنك الأكبر والاكثر أهمية في كوبا. تخيّلوا قليلاً الثوري الذي سيكون عليه هذا الرجل! حينما علم إرنستو بذلك، استشاط غضباً. حاول أن يشرح الأمر لوالدي: «لا يمكنك أن تفعل هذا! لقد جئتُ إلى هنا لأقوم بثورة، عجباً! لا يمكنك الذهاب لمساومة جميع

المدراء العامّين في الجزيرة. سوف تفقدني كلّ مصداقيتي هنا. إذا كنت حريصاً جداً على الالتقاء مع الشخصيات المهمّة، اذهب وقابل رئيس الجمهورية. سوف أرتّب لك موعداً معه». وهكذا التقينا مع الرئيس الكوبي مانويل أوروتيا.

غضبتُ، بدوري، لتصرفات والدي. لم يكن والدي واعياً للموقف وارتكب الخطأ تلو الآخر. يبدو أنّه لم يأخذ خطورة الأحداث وجديّتها بعين الاعتبار. كانت كوبا على وشك أن تتعرّض لهجمات متكرّرة من أعظم قوة في العالم. ولم يكن من المقبول على الإطلاق أن يُجري والدي مفاوضات مع رئيس أكبر بنك في البلاد. حتى إن لم أكن **قائداً** ثورياً، اقترحت عليه مغادرة البلاد. لا شكّ أنّه كان مصدراً للإزعاج وأفترض أنّ إرنستو كان قد طلب منه نفس الطلب. مهما يكن من أمر، فقد وضعناه على متن طائرة متوّجهة إلى بوينس آيرس. فيما بعد، صرّح بأنّ أشغاله وأعماله قد أرغمته على العودة إلى الأرجنتين. أيّ أشغال وأيّ أعمال؟ كنا نجهل ذلك. بصراحة لم نهتم بالأمر وقد اعتدنا ألا نعود ونهتم بأموره. لم تمنع سلطة أبي انفصال والدينا -الذي كان في غاية الغموض-. في تلك الفترة، كان والداي منفصلين عملياً ولا يعيشان معاً.

تنفّسنا الصعداء بعد مغادرة أبي وتحرّرنا من عبء أخطائه التي كانت تغضبنا وتثير أعصابنا. كان إرنستو مشغولاً للغاية ويعمل بلا كلل أو ملل لمدّة ثلاث عشرة ساعة يومياً ويهب روحه وجسده للثورة، مقتنعاً بأنّ الولايات المتحدة الأميركية سوف لن تتأخّر في إظهار انزعاجها وامتعاضها مما حصل في كوبا. ولذلك لم يكن لديه سوى القليل جداً من الوقت لكي يكرّسه لنا. كما أنّ رفيقته أليدا مارش لم تكن تراه كثيراً في حياتهما الخاصّة. ولكنّها ظلّت تواظب

على القيام بدور مساعدته، كما كان الحال أثناء تواجدهما في جبال سييرا مايسترا، وبالتالي تتمكّن من أن تسترق تلك اللحظات على الأقلّ. ومع كلّ ذلك، حاول أن يجد بعض أوقات الفراغ لكي يزورنا في فندق كومودورو، أحياناً بواسطة سيارة الجيب وأحياناً أخرى بواسطة الطائرة المروحية. كانت أمّي وشقيقتي سيليا تعيشان من أجل تلك الزيارات الخاطفة وتتمنّيان أن تتمّ كلّ يوم. ومع ذلك كانتا في غاية الحيوية والنشاط: كانتا تقومان بالزيارات وتدرسان كلّ ما بوسعهما. كان إرنستو قد ورث من أمّي هذا الفضول والاتقاد الذهنيين والثقافيين. تروق له نصائحها من بين كلّ الناس. كانت الوحيدة التي تقول له الحقيقة من دون رتوش. في الموقع الذي بات يشغله، هو في حاجة أكثر من أيّ وقت مضى إلى صراحتها ووضوحها. أمّا سيليا، فمن بيننا جميعاً، كانت أكثر من تشبه إرنستو. كانا على نفس الكمال في الشخصية وعلى نفس الثقافة العالية وكانا يقرآن نفس الكتب.

ذات يوم، وجد إرنستو الوقت والفرصة لكي يأخذنا معه إلى سانتا كلارا. أردنا أن نشاهد موقع الانتصار الحاسم لسريّة الثائر سيرو ريدوندو[1]. وفي الحقيقة، في سانتا كلارا، قبل تلك الرحلة ببضعة أسابيع، راودت إرنستو فكرة أن يُخرج، عن السكّة الحديد، القطار المدرّع الذي ينقل أسلحة وذخائر النظام. وقد عجّلت عملية التخريب تلك استيلاء الثوّار على المدينة وسقوط فولغينسيو باتيستا. وفي سانتا كلارا أيضاً، كانت تعيش عائلة مارش، التي أراد إرنستو

(1) نسبة إلى اسم الثائر الذي سقط في معركة في جبال سييرا مايسترا، وهو أحد أصدقاء فيدل كاسترو الذين رافقوه منذ اللحظة الأولى.

أن يعرّفنا إليها: كانت أليدا قد أصبحت زوجته وأمّاً لأربعة أطفال: أليدا وكاميلو وسيليا وإرنستو. كان لدى أخي بنتاً من قبل، واسمها هيلدا بياتريز، وهي ثمرة زواجه الأوّل مع البيروفية هيلدا غاديا. وهكذا أمضينا بضع ساعات مع والدَي أليدا وعائلتها، وهم عبارة عن فلاحين ظرفاء وبسطاء يعملون بكدح. ولحسن حظّنا نحن، تمَّ دعوة إرنستو وأليدا إلى هافانا على عجلٍ لأمرٍ طارئ. فكان عليهما أن يدعانا ويسافرا. تابعنا، والداي وسيليا وزوجها لويس وأنا، طريقنا نحو منطقة إسكامبراي الجبلية.

في طريق عودتنا إلى العاصمة هافانا، اكتشفت المدينة غالباً برفقة وإرشاد الثائر الشيوعي هاري «بومبو» فيليغاس أو ليوناردو «أوربانو» تامايو، وهما ثائران من سييرا مايسترا رافقا فيما بعد إرنستو في حملته البوليفية ومشاركته في تمرّدها. خاض بومبو وأوربانو الحرب معه وبالتالي انتهزت فرصة وجودهما لكي ألقي عليهما وابلاً من الأسئلة. كانت المعلومات التي حصلتُ عليها منهما مثيرة للغاية بالنسبة إلي ولم يسبق لها أن نُشِرَت. سردا لي المنجزات العسكرية لأخي وبطولته وروح الإخاء المتجذّرة فيه وعمق نزعته الإنسانية. ومع ذلك، ظلّ هذا الرجل الاستثنائي الذي يُحكى لي عن بسالته ومآثره بالنسبة إلي مجرّد أخي. وعلى الرغم من كلّ هذه الحكايات، لم أكن أقدّر بعد أهمية تشي حقّ قدرها. لم أكن سوى فتى في سنّ المراهقة بعد. بعد ذلك بعامين ونصف، حينما ذهبنا للقائه للمرّة الأخيرة في بونتا دل إيستي، في الأوروغواي، التي زارها لحضور المؤتمر الاقتصادي والاجتماعي لمنظمة الدول الأميركية، بدأتُ أخيراً أُدركُ مكانته في التاريخ. اليوم، أشعر بالحسرة والأسف لأنني لم أُحسن أن أقدّر أهمية الأحداث التي

عشتها في تلك الفترة. بالنسبة إلي، كان الأمر بمثابة عاصفة ساحرة وفاتنة. كم يحزنني أشدّ الحزن أنني لم أتعرّف إلى فيدل أثناء تلك الزيارة. ولكن بعد ذلك ببضعة أشهر، حلّ ضيفاً علينا في بوينس آيرس في زيارة لا تنسى أبداً.

في اليوم التاسع من شهر فبراير، وقبل مغادرتنا بيومين، أصدر رئيس الوزراء فيدل كاسترو مرسوماً ينصّ على أنّ إرنستو يُعتَبَر «مواطناً كوبياً أصيلاً ويتمتّع بكامل الحقوق وعليه كامل الواجبات». طفحت والدتي فخراً واعتزازاً واقتنعت بأنّ الثورة الكوبية ثورة خيّرة وعادلة ووجدت في تشي ثمرة البذرة التي كانت قد زرعتها. أمّا بالنسبة إلى إرنستو، فقد اعتبر والدتي بمثابة المهندسة المعمارية التي أتاحت له أن يصعد سلالم الطبقات. كان يقرّ لها بأنّها تلك المرأة القادرة على أن تتخلّى عن دورها كأمّ، دور الأمّ التي تقول: «لقد اعتنيتُ بك ووهبتك الحياة»، لتقوم بدور الرفيقة والصديقة. وكما كان الحال دائماً، وجدا نفسيهما على أرضية من التفاهم مع بعضيهما باستمرار.

لقد افترقا وهما أكثر تقارباً من أيّ وقت مضى. كان قلب أمّي يتمزّق لمغادرتها، ولكن كانت لديها التزامات أخرى في الأرجنتين. كان أخي روبرتو وأختي آنا ماريا قد أصبحا والدين وقد أخذت دورها كجدّة بمنتهى الجدّية. أمّا بالنسبة إلي، فقد كنتُ أرغب في البقاء في كوبا مع أخي لكي أشارك في الثورة. من بوينس آيرس، منعني والدي من ذلك. قبيل مغادرته لكوبا، طلب مرّة أخرى من إرنستو العودة إلى الأرجنتين واستئناف ممارسة مهنته كطبيب. ولكن جهوده في إقناع تشي ظلّت من دون جدوى. كانت كوبا قد أخذت

منه ابنه البكر، وسوف لن يترك فيها ابنه الأصغر! على الرغم من كون والدي غريب الأطوار وغير مبالٍ، إلاّ أنّه كان يتمسّك بأولاده. أُصبتُ بإحباطٍ عميق وغضبٍ شديد. كانت والدتي بالتأكيد لتوافق على بقائي في كوبا. كانت ستتفهمني. ولكن ماذا عن إرنستو؟ لا أدري. لأنني لم أطرح عليه السؤال بهذا الشأن. كان قرار والدي قطعياً ولا رجوع فيه وبدا أنّ لا أحد يمكنه أن يعارضه في ذلك. على كلّ حال، لم أكن قد بلغتُ من العمر سوى خمسة عشر عاماً.

لو أنني بقيتُ حينذاك، لقاتلتُ أنا أيضاً في صفوف التمرّد البوليفي. وربّما لاستطاع إرنستو أن ينجو بمساعدة منّي. أعتقد أنني لم أغفر قط لأبي رفضه ذاك لبقائي إلى جانب تشي.

زوجان غريبا الأطوار ومفلسان

قبل أن أبدأ في سرد قصّة عائلتي، أودُّ أن أشرح وأوضِّح نقطة تبدو لي أنّها جوهرية وفي غاية الأهمية. في الموضوع الذي يشغلنا والذي يشكّل شقيقي إرنستو محوره الأساسي، لم تكن العناصر الأساسية والجوهرية التي ميّزت عائلتنا ومارست تأثيرها على أخي إرنستو تتمثّل فقط بالجوانب والمظاهر الأسرية والحكايات المتعلّقة بها، بل أيضاً بالظواهر والأوضاع التي عاينها بنفسه وأبدى رأيه فيها. وقد كانت هذه الأخيرة أكثر أهمية وتأثيراً عليه من التفاصيل اليومية لحياتنا الأسرية. سوف أبذل ما بوسعي لكي أكون صارماً ودقيقاً في ذاكرتي وسردي للوقائع. هناك بعض الحلقات من هذا الواقع تحضر في داخلي أكثر، سواءً كانت كمشاعر وأحاسيس انتابتني أو كذكريات عشتها بالمعنى الدقيق للكلمة. في المقابل، هناك أيضاً لحظات بقيت محفورة في ذاكرتي كما لو أنّها صور فوتوغرافية.

تزوّج والداي إرنستو جيفارا لينش وسيليا دي لا سيرنا إيلوسا في حفلة صغيرة للأهل في منزل خالتي إديلميرا دي لا سيرنا مور في

العاشر من شهر ديسمبر من عام 1927. تمّ الزواج على عجلٍ: كانا قد التقيا، قبل ذلك ببضعة أشهر فقط، في منزل صديقٍ مشتركٍ لهما. وقد غابت عائلة دي لا سيرنا عن مراسم الزفاف لأنّها كانت معترضة على ذلك الزواج: كان والدي راقص تانغو ولا يحمل أي شهادة علمية ويبدو من دون مستقبلٍ أيضاً. كان رجلاً يحبّ المرح والتسلية وحينما يحلّ الليل يخرج مسلّحاً لكي يرقص التانغو في حي باراكاس سيئ السمعة، وهو أحد الأحياء الواقعة في ضواحي العاصمة بوينس آيرس. كانت رقصتنا الوطنية في تلك الفترة حكراً على البروليتاريا واللاجئين ولم تكن تُمارس في الأحياء الأنيقة والراقية. كان «الناس الصالحون» يعتقدون بأنّ هذه الرقصة الثنائية إباحية وتحاكي الحبّ الفاسد والفاسق تماماً. بالنسبة إلى رجلٍ مثل أبي، كانت رقصة التانغو تعني هذا التفسير تماماً. لقد كان رجلاً بارعاً في الإغراء ولا يُقاوم بحيث استطاع أن يغوي والدتي في حين أنّها بالكاد كانت تخرج من كنيسة القلب المقدّس، وهي كنيسة كانت تديرها راهبات فرنسيات. في تلك الفترة، كان من المفترض أن يمارس الشبّان تجاربهم الجنسية في المواخير ودور الدعارة مع العاهرات وليس مع الفتيات الشريفات من بنات الأسر الراقية في المجتمع مثل أسرة سيليا دي لا سيرنا.

كانت أمي تنحدر من أسرة عريقة وثرية، تنتمي إلى صفوة البرجوازية الأرجنتينية، ولكنّها مع ذلك، لم تكن تلك الفتاة المسكينة ضعيفة الشخصية والمطيعة مثلما حاولت الراهبات في الكنيسة أن يربّينها. كانت ذات شخصية واثقة من نفسها وصعبة المراس ومتمرّدة ومستقلّة في كيانها وفوق ذلك ذات ثقافة واسعة ورفيعة. كانت تلتهم الكتب بشغفٍ باللغة الإسبانية كما باللغة

الفرنسية ولم تكن تسمح لأيّ كان أن يأمرها أو ينهاها في أيّ شيء. كانت ناشطة نسوية قبل أوانها. فقد كانت إحدى أوائل الأرجنتينيات اللواتي قصصن شعرهنّ «على طريقة الصبيان» وارتدين السراويل ودخّنن السجائر وقدنّ السيارات. لا أعلم إن كان ذلك صحيحاً، لكنّ والدي كان يقول غالباً إنّه حينما التقاها وتعرّف إليها، كانت أمّي في غاية الإيمان والتقوى لدرجة أنّها كانت تضع الزجاج المكسور في حذائها تضرّعاً وتقرّباً إلى الله. حينما تعرّفتُ إلى أمّي، أي حينما وصلتُ إلى سنّ يمكنني فيه أن أفهم شخصيتها، كانت قد أصبحت صعبة المراس!

كان والدي إرنستو جيفارا لينش منبوذاً من عائلته وهامشيّاً وحالماً في حياته الخاصة، وبالتالي من المؤكّد لم يكن أمامه سوى أن يُعجَبَ بوالدتي. كانت في العشرين من عمرها وذات وجه مليحٍ بوجنتين بارزتين وأنفٍ طويلٍ وعينين غامقتين وثاقبتين ذات فرجتين تنسحبان نحو الصدغين وشعرٍ أسودٍ وقوامٍ ممشوقٍ. لم تكن على جمالٍ كلاسيكيّ ولكنّها متألقة. كانت ذات حضور ومغرية وتثير الانتباه وتشدّ الأنظار.

في الفترة التي تمَّ فيها زفافهما، كان والدي شريكاً في شركة إل أستيليرو ريو دي لا بلاتا لبناء السفن. وقعت الشركة في أزمة خانقة، فاقترح عليه أحد أصدقائه أن يشتري أراضٍ في محافظة ميسيونس لكي يزرع فيها المتّة. ميسيونس مقاطعة شبه استوائية ذات تربة غير خصبة ونائية تقع في أقاصي الحدود الأرجنتينية، وهي عبارة عن شريطٍ ضيقٍ من بقايا الحمم البركانية أو الانزلاقات الطينية، محصور بين البرازيل والباراغواي وأنهار بارانا والأوروغواي حيث تمَّ فيها تصوير فيلم المغامرات التاريخي الأمريكي **المهمّة** من إخراج رولاند

جوفي. وكانت هذه المقاطعة قد احتلّت من قبل اليسوعيين الأسبان في القرن السابع عشر وتمَّ توطين الهنود الغورانيين فيها. كانت تكثر عمليات القتل والسرقة في المقاطعة وتعمل بشكلٍ أو آخر خارج نطاق القوانين والنظام. ولكي يتمكّن الرجل من الدفاع عن نفسه في تلك المقاطعة، كان يجب عليه أن يكون قادراً على حمل الفأس أو المسدّس. وكانت مقاطعة ميسيونس عرضة أيضاً لتقلّبات مناخية دراماتيكية وفيها غطاء نباتي كثيف للغاية يخفي الكثير من الأخطار. في هذه الأرض النائية، كلّ حشرة -من ذوات الأسماء الغريبة والعجيبة مثل جيجين أو أورا أو مباريغي- تلسع أو تلدغ أو تنقل مرض الملاريا. حشرة المباريغي حشرة ناعمة جدّاً بحيث بالكاد تُرى بالعين المجرّدة وتمرّ من خلال أي شبكة كانت من شبكات الوقاية من الحشرات. كما تكثر فيها أنواع الثعابين.

ومع كلّ ذلك، كان العرض مغرياً بالنسبة إلى مغامرٍ مثل أبي. وكانت أمّي الزوجة المثالية التي اتبعت زوجها بكلّ طيبة خاطر في هذه الرحلة المجنونة والمغامرة. بدا وكأنّ كلّ منهما قد خُلِق للآخر. لم تكن سيليا دي لا سيرنا تخاف من أيّ شيء كان، بل تهوى المغامرة وركوب الأخطار ما أن تحين الفرصة لها. وإذا كانت قد تهيّأت لكي تخوض نمط العيش القاسي ذاك، وهي علاوة على ذلك حامل، فليس لمجرّد اللحاق بزوجها والسير في إثره دون تبصّر، بل لأنّ المغامرة قد استهوتها هي الأخرى. كما أنّ فكرة الابتعاد عن أهلها، الذين ربّوها تربية رهبانية، كانت تسحرها وتستولي على تفكيرها.

لقد كَتبَ العديد من كتّاب سيرة أخي تشي أنّ والدَيّ كانا ينحدران من طبقة أرستقراطية، من الطبقة الأوليغارشية الأرجنتينية

المنتمية إلى صفوة المجتمع البرجوازي. لطالما ابتسمتُ لهذه الكتابات. فالأوليغارشية تتكوّن من عنصرين: السلطة والمال. ولم يكن والداي يملكان لا الأولى ولا الثاني. على العكس من ذلك، لقد كانت لديهما قدرة مذهلة على القطع مع النظام السائد والانسلاخ عنه، مع ما كان يُتوقّع منهما. وإذا كانا ينحدران من أسرتين ميسورتين ونبيلتين، إلا أنّهما كانا يشكّلان زوجين غريبي الأطوار ومفلسين، أمضيا حياتهما وهما يجريان دون توقّف وراء المال. لم يكونا على أيّ صلة بالمجتمع المحافظ، بل على العكس تماماً، فقد عاشا حياة بوهيمية ومتحرّرة في حركة دؤوبة ودائمة وغير مستقرّة من الناحية المالية، مختلفة تماماً وبعيدة جدّاً عن حياة ذويهما. على الرغم من كلّ شيء، كان الجانب الغرائبي من حياتهما يستمدّ جذوره من عائلتيهما.

وِلِد جدّاي من جهة أبي، روبرتو جيفارا كاسترو وآنا لينش أورتيز، كأرجنتينيين فرّا من الحكم الاستبدادي المطلق والسياسة الضريبية لخوان مانويل دي روساس[1] -والذي كان يجنّد الرجال قسرياً في جيشه- لكي يذهبا بحثاً عن الثروة في كاليفورنيا. ولكي ينجح في ذلك، قام والد جدّي فرانسيسكو لينش -والذي كان ابن مهاجر أيرلندي- برحلة بحرية طويلة ومحفوفة بالمخاطر، والتي قادته من الأوروغواي إلى تشيلي مروراً بمضيق ماجلان والبيرو والإكوادور وصولاً في النهاية إلى سان فرانسيسكو حيث أمضى فيها ثلاثين

(1) هذا الضابط والسياسي أصبح فيما بعد حاكماً لإقليم بوينس آيرس بين عامي 1833-1846، وقد استخدم ميليشيات أطلق عليها تسمية مازوركا لكي يعمل على توطيد سلطته وتمكينها.

عاماً، والتي وُلِدت وترعرعت فيها جدّتي حتى بلغت سنّ الثانية عشرة. أمّا عائلة جدّي خوان أنطونيو جيفارا المتحدرة من إقليم ميندوزا الذي ساهمت العائلة في تأسيسه وتنميته، فهي الأخرى قد هاجرت من موطنها لأسباب سياسية: فقد تجاسرت على أن تتحدّى سلطة خوان مانويل دي روساس ولذلك كان عليها أن تعيش تحت وطأة التهديد بالردّ الانتقامي منها. حينما أصبحت التهديدات أكثر جدّية ووطأةً، قرّر خوان أنطونيو مع أشقائه أن يتركوا موطنهم ويسلكوا طريق الهجرة. عبروا سلسلة جبال الأنديز ليقيموا في البداية في تشيلي قبل أن يواصلوا رحلتهم نحو كاليفورنيا حيث يغريهم الاندفاع نحو الذهب. وإذا كان فرانسيسكو لينش قد جنى ثروة في «الولاية الذهبية»[1]، فقد فشل خوان أنطونيو فشلاً ذريعاً. لم يتوفّر الذهب أبداً لا له ولا لأشقائه. وبدت سنوات اللجوء التي أمضوها في منطقة ساكرامنتو، عاصمة الولاية، عقيمة وغير مثمرة.

أتاح سقوط خوان مانويل دي روساس في عام 1852 للعائلتين العودة من جديد إلى الأرجنتين والتقى جدّاي من جهة والدي مع بعضهما. كان لهما أحد عشر طفلاً قاما بتربيتهم في مزرعة بورتيلا، وهي إحدى مزارع مقاطعة بوينس آيرس.

كان روبرتو جيفارا كاسترو مهندساً جغرافياً ذائع الصيت والشهرة ولذلك تمَّ تكليفه بمهمّة رسم الحدود وتقسيمات الأراضي بين الأرجنتين وتشيلي من جهة وبين الأرجنتين والباراغواي من جهة أخرى، وكذلك تحديد مساحة إقليم ميندوزا الذي سوف يستغرق مدّة خمسة عشر عاماً لكي يستكمل تأسيسه ويستقرّ. كان يغادر لأشهرٍ

(1) الولاية الذهبية، لقبٌ يُطلق على ولاية كاليفورنيا.

طويلة برفقة رجالٍ وبغال. لم أعتبره قط مغامراً حقيقياً نظراً إلى الموارد الكبيرة التي كان يمتلكها. ولكنّه كان يميل نحو القيام بأعماله ومهامه في ظلّ ظروفٍ عصيبة، وبالطبع كان يحمل سلاحه باستمرار. خلال زياراته إلى بورتيلا، كان يتحدّث عن أسفاره ورحلاته العديدة. وقد رويت لنا تلك الطُّرف والنوادر فيما بعد من قبل الأعمام والعمّات، لأنّ جدّي توفي في عام 1918، قبل ولادتنا نحن الأخوة والأخوات بسنوات. كانت إحدى طرائفه تداعب على نحوٍ خاصّ خيالي: في أحد الأيام، حرنت إحدى بغلاته وتوقّفت عن السير معه لمسافة أبعد وألقت بنفسها في هاوية عميقة وهي محمّلة بأجهزة ومعدّات مهمّة ولا غنى عنها، الأمر الذي أوقع جدّي في مأزقٍ حقيقي وموقفٍ محرج. وهكذا علمتُ أن البغال هي الوحيدة، من بين كلّ الحيوانات، التي تُقدم على الانتحار.

بينما كان جدّي يتنقّل في الأراضي الجبلية الوعرة لكي يرسم ويحدّد الحدود، وهو يواجه كلّ صنوف الأخطار، بما فيها الهجمات المتكرّرة من قبل الهنود، كانت جدّتي تربّي بمفردها قبيلتها الكبيرة من الأطفال. كانت امرأة قيادية وحرّة ومستقلّة للغاية في شخصيتها. كانت ملحدة! وهي في بلدٍ كاثوليكيّ بعمق مثل الأرجنتين، دلّ هذا الخيار على روحٍ في غاية التحرّر والانعتاق. فيما بعد، أصبح جميع أولادها مؤمنين ومتديّنين، سواء كان ذلك من خلال الإكراه أو بدافع الطموح، باستثناء والدي فقط الذي قضى كلّ حياته وهو يسخر من العقائد الاجتماعية ويستهزئ بها.

كان إرنستو متعلقاً بجدّتي من جهة والدي ويحبّها حبّاً شديداً، وقد قام بزيارة بورتيلا في أوّل فرصةٍ سُنحت له. وهو من بقي إلى جانب سريرها حتى النهاية حينما مرضت. وفي أعقاب وفاتها، قرّر

أن يترك دراسته في الهندسة لكي ينتقل إلى دراسة الطبّ. وكانت جدّتي تبادله الحبّ أضعافاً مضاعفة: كان حفيدها المدلّل مثلما كان مدلّلاً لدى أمّي وعمّتي بياتريز. بياتريز هي شقيقة والدي. يا لها من شخصية! كانت ترتدي باستمرار قبّعتها الصغيرة. وفي بورتيلا، كانت تنام وإلى جانب سريرها بندقية. حينما تزعجها بعوضة، تُطلق عليها طلق ناري يتردّد دويه في جميع أنحاء السهل المعشوشب. فجأة فتح جدّي ثقباً بسبطانة البندقية في الناموسية الواقية من الحشرات، والتي لم تعد تجدي نفعاً في شيء من جرّاء ذلك. لم تتزوّج بياتريز أبداً. كانت تدلّل إرنستو وتعتني به. بعد انتصار الثورة الكوبية، أخذت على عاتقها مهمة البحث عن أيّ مقالات مكتوبة عنه ومن ثمّ قراءتها واقتطاعها من الصحف. وجمعت بذلك أرشيفاً توثيقياً في غاية الأهمية عنه. من حينٍ إلى آخر، كانت تزورنا في البيت على نحوٍ مباغت ومعها قصاصات الجرائد وهي تصيح غاضبة وحانقة: «لا أفهم لماذا يتّهم الجميع إرنستيتو بأنّه شيوعي. إنّه ظريفٌ للغاية، إنّه ظريفٌ للغاية، إنّه طيّبٌ للغاية!». بالنسبة إليها، الشيوعيون نوعٌ من البشر الذين لا يمكن معاشرتهم، أشرار وقساة. كيف يمكن إذاً أن يكون ابن شقيقها المدلّل شيوعياً؟ ومع ذلك، ظلّ إرنستو يرسل إليها باستمرار وانتظام رسائل ويوقّعها بعبارات من قبيل: «ابن أخيك الشيوعي»، «ابن أخيك البروليتاري»، «ستالين الثاني» وذلك لكي يثير حفيظتها وغضبها. ولكنّه كان يحبّها حبّاً جمّاً. كان يريد أن تفهمه لأنّه كان يشعر بأنّه قريبٌ جداً منها. كانت لديه تلك العادة في أن يستفزّ الناس لكي يحثّهم على التحرّك والتصرّف. كان ذلك يسليه ويبهجه. كان إرنستو رجلاً مثيراً، ولِدَ لكي يثير الجدل.

أمّا بالنسبة إلى أمّي، فقد أصبحت يتيمة وهي في سنّ الخامسة عشرة. كانت عائلة أمّها، إديلميرا إيلوسا، مقتدرة وذات نفوذ. فعلى سبيل المثال، أسّس آل إيلوسا أوّل ميترو في بوينس آيرس في عام 1908. ولم تكن عائلة والدها أقلّ شأناً. كان خوان مارتن دي لا سيرنا يتحدّر من عائلة عريقة من العهد الكولونيالي ذات تأثير ونفوذٍ بالغين في البلاد. شارك جدّنا الأكبر مارتن خوسيه دي لا سيرنا في الثورة ضدّ خوان مانويل دي روساس (وهو الذي فرّ جدّاي من جهة والدي من حكمه). وبعد أن تمَّ توقيفه وسجنه بسبب أنشطته التخريبية، استطاع أن يفرّ من السجن لكي يلتحق بقوات الجنرال خوان دي لافال في مونتيفيديو. وقد خاض إلى جانبه التمرّد العسكري إلى حين إسقاط دي روساس في مدينة كاسيروس عام 1852. ومن ثم أسّس مدينة باراكاس ديل سور (أفيلانيدا الحالية)، والذي أصبح عمدتها. وإذا كان آل دي لا سيرنا من كبار البرجوازيين، إلا أنّهم لم يكونوا يتقاسمون لا الأفكار ولا القيم مع أقرانهم في تلك الطبقة. كانت عائلة من المثقفين المرتبطين بالأرض، والمفكرين الأحرار المناهضين لرجال الإكليروس، حتى إن كانوا يرسلون بعض أطفالهم إلى المدارس الدينية.

كان جدّي خوان مارتن دي لا سيرنا محامياً ودبلوماسياً وأستاذاً جامعياً يدرِّس في كلية القانون في بوينس آيرس. وكان من بين طلبته العديد من القادة المقبلين للحزب الراديكالي، والذي أصبح هو بنفسه عضواً نشيطاً وفعّالاً جدّاً في صفوفه. وبحسب ما روي لي، كان رجلاً في غاية الذكاء ومثقّفاً وكان يجيد اللغة الفرنسية مثلما كان يجيد اللغة الألمانية. وهو علاوة على ذلك، كان أحد روّاد الطيران الأرجنتيني. كان يبدو عليه النجاح في كلّ المجالات، ومع ذلك فقد

رمى بنفسه إلى البحر من فوق جسر قارب في عام 1908. وقد حامت الشكوك لأمدٍ طويل حول أسباب هذا الانتحار. لقد قيل إنّه كان يعاني من داء الزهري. وكانت أمّي حينذاك تبلغ سنتين فقط من العمر.

بعد ذلك بثلاثة عشر عاماً، سقطت والدتها مريضة وظلّت راقدة في سرير المرض لمدّة طويلة. ورث الأولاد السبعة من آل دي لا سيرنا-إيلوسا ثروة ضخمة. فعاشوا في مزرعة رائعة تُسمى مانانتياليس وتقع على بعد مئة كيلومتر إلى الجنوب من بوينس آيرس. حينما لم تكن والدتي في صومعتها في كنيسة القلب المقدّس، كانت تتلقى تعليمها وتربيتها على يدي شقيقتيها الكبريين سارا وكارمن. ولأنّ نمط الحياة كان صارماً ومنظّماً في مانانتياليس، فقد كانت تجري نقاشات كثيرة في الأمور السياسية. وقد برز ثلاثة من أفراد عائلة سيرنا إيلوسا وتميّزوا: خالتي كارمن وخالي خورخي وأمّي.

وقعت خالتي كارمن، وهي في سنّ المراهقة بعد، في حبّ عاصف للشاعر المكسيكي أمادو نيرفو من خلال قراءة أعماله الشعرية. بدأت تكاتبه وترسل له الرسائل. وبخلاف كلّ التوقعات، ردّ الشاعر على رسائلها. وبهذه الطريقة، نشأ تواصل وتراسل منتظم بين هذا الرجل الناضج وهذه الفتاة البريئة. إلى درجة أنّها، حينما علمت بأنّه ينازع الموت في مونتيفيديو، سافرت على الفور إلى هناك وظلّت بجانبه إلى أن وافته المنيّة. كانت في الثامنة عشرة من عمرها آنذاك. بعد ذلك بعدّة سنوات، تزوجت من الشاعر والصحافي والناقد الفني كايتانو «بوليشو» كوردوفو إتوربورو. وقد حصلا معاً على بطاقة العضوية في الحزب الشيوعي الأرجنتيني وظلّا ينشطان في

صفوفه إلى حين طُرد بوليشو من الحزب بعد أربعة عشر عاماً من تاريخ انضمامهما إليه.

لم تمنع الروح النضالية والكفاحية للفكر اليساري خالتي كارمن أبداً من الاعتناء بمظهرها وأناقتها. حينما تمَّ توقيفها والإلقاء بها في السجن من قبل رجال بيرون، الذي حكم البلد بيدٍ من حديد، كان أكثر ما يزعجها ويضايقها هو المظهر الشنيع للباس الموحَّد، الذي يُرغَم المعتقلون على ارتدائه، أكثر ممّا يزعجها السجن نفسه. ذات يوم، حينما ذهبت للمشاركة في احتجاجٍ ضدّ نظام بيرون، أطلق رجال الشرطة النار على حشود المحتجين. ألقى جميع المحتجين أنفسهم على الأرض لكي يتجنّبوا الرصاص، إلّا هي، فقد بقيت واقفة منتصبة. ظلّت عمّتي واقفة فقط لكي لا يتّسخ فستانها الجميل! وسوف يكون للزوجين إتوربورو عظيم التأثير على إرنستو.

كان خالي خورخي دي لا سيرنا رجلاً مهووساً، ولم نكن نعلم أيّ منهما، هو أم أبي، أكثر جنوناً وطيشاً. كانت عائلة دي لا سيرنا قد اعتادت أن تنادي أبي «إيل لوكو جيفارا»، أي (جيفارا المجنون). ولكنّ خورخي كان أكثر طيشاً بقليل من والدي. بعد مرور سنوات عديدة على الزواج وإنجاب عدّة أطفال، وقع في حبّ موظّفة شابة ومن أجلها هجر زوجته وانفصل عنها. طار صوابها من فعلته هذه، واستطاعت بفضل علاقاتها المؤثّرة أن تستصدر تصريحاً رسمياً بأنّه مجنون. وبذلك وجد خورخي نفسه في مأوى للمجانين! وقد أمضى في المأوى بضعة أسابيع قبل أن يتمكّن من الإثبات أنّه سليم العقل. ذات يوم، حينما ناداه والدي بالعجوز المجنون (Viejo loco)، أثناء واحدة من مشاجراتهما العديدة، أخرج خورخي ورقة من جيبه وأخذ يلوّح بها بعنف تحت أنف أبي، ثمّ قال: «أنا، عجوز مجنون؟

صحيحُ أنّهم احتجزوني، ولكنّهم وافقوا على خروجي من المأوى! بل ولدي الوثيقة التي تثبت بأنني لستُ مجنوناً ولا أبلهاً! أمّا أنت، فصحيحُ أنّك طليقٌ في الخارج ولكنّك مجنون يجب أن تقيّد وتُربَط!».

كان خورخي مهندساً زراعياً. كما أنّه مغامرٌ ميال إلى المخاطرة وسبّاحٌ لا نظير له، اعتاد على أن يُلقي بنفسه في المياه الأكثر برودة والأكثر هياجاً، وغالباً ما يكون عارياً تماماً مثل دودةٍ ولكنّه كان يضع باستمرار طاقية بيضاء اللون على رأسه لكي يستطيع الآخرون رؤيته، لأنّه كان يكره المرور من دون أن يُلفت الأنظار ويثير الانتباه. في مار ديل بلاتا، كان يتعمّد أن يغوص في مياه المحيط حينما تكون شارة التحذير حمراء اللون وتكون التيارات المائية مندفعة وقويّة وتكون الأمواج عاتية وهائجة. كان ينطلق إلى عرض البحر ويواصل السباحة لأربع أو خمس ساعات. كانت حشود صاخبة من الناس تتجمهر من كلّ بدّ على الشاطئ. كان يفسد علينا نهارنا ويجعلنا نبقى في توتّر دائم لأننا كنّا نخشى عليه من الغرق. ذات يوم، وبعد أن أعيتهم أهوائه ونزواته واعتقاداً منهم بأنّهم سيتمكّنون من وضع حدٍّ لها، استدعى السبّاحون المراقبون للشاطئ الشرطة وتمَّ توقيف خورخي. وبالطبع، استأنف السباحة في المحيط منذ اليوم التالي. كان يمارس رياضات خطيرة لم يكن الناس قد سمعوا باسمها بعد. كان يحلِّق بطائرته القديمة وما أن يصبح في الأجواء حتى يوقِف محرّكها. كما كان يمارس الطيران بالطائرة الشراعية. كان رجلاً مرحاً وخفيف الظلّ ونحيلاً يتمتّع بروح الجرأة والإقدام، لم يكن قد درس أبداً في المدارس ولكنّه يكتب شعراً حصيفاً ورزيناً - وكان قد كرّس العديد من أشعاره في وصف شجرة

الأروكاريا، وهي جنس من الأشجار الصنوبرية يكثر في جبال الأنديز. ناضل في البداية في صفوف حزب قومي متشدّد، ثمّ انتسب إلى صفوف الحزب الشيوعي. كما كان على دراية جيّدة بمهنة الميكانيك حيث جال في طول البلاد وعرضها بوساطة درّاجة نارية. تزوّج من فتاة تنتمي إلى أسرة ذات مكانة اجتماعية مرموقة ليهجرها لاحقاً من أجل تلك الموظّفة التي سبق ذكرها، والتي سرعان ما ضجر منها أيضاً. ساء وضعه المالي من جرّاء طلاقه من زوجته: فقد خسر بسبب ذلك الانفصال الكثير من الأراضي والثروات. بعد أن ساءت أحواله المادية، بدأ بالعمل في وزارة الثقافة. وفي تلك الفترة بالضبط، ظهر في حياتنا العائلية وتعلّق به إرنستو، لأنّه قبل طلاقه كنّا نادراً ما نرى خورخي أو نلتقي به. كانت أمّي قد ابتعدت عن عائلتها: اعتبرت نفسها أنّها قد تضرّرت ولحق بها الإجحاف في موضوع الميراث بسبب اقترانها بالرجل الذي يُسمّى «إيل لوكو جيفارا» أي (جيفارا المجنون). كان من المفروض أن يتم توزيع ثروة جدّي بين ورثتهم السبعة. ولكن البعض من أعمامي وعمّاتي مارسوا نوعاً من التحايل والمناورات لحرمان والدتي من حصّتها من الميراث. وبالتالي، لم يكن بوسع والدَيّ أن يعيشا بيسرٍ ورخاء بفضل مداخيلهما كما تمَّ تصوّر ذلك في البداية. كان القانون في تلك الفترة يحظر على الفتاة أن تتزوّج قبل بلوغها سنّ الحادية والعشرين من دون موافقة أسرتها. كما يجيز القانون لأسرتها أن تحرمها من حصّتها من الميراث في حال رفضت الخضوع لإرادتها وتمرّدت عليها. والحال أنّ والدتي كانت قد تزوّجت بإلحاحٍ منها وخارج إطار ذلك القانون المعمول به آنذاك.

غادر والداي إلى منطقة ميسيونس بعد أن اشتريا فيها مزرعة للمتّة، مساحتها مئتي هكتار. استقرا في بويرتو كاراغواتاي، وهي منطقة نائية ومعزولة تقع على بعد ألفين وسبعمئة كيلومتر عن بوينس آيرس، أي ما يحتاج إلى أسبوعٍ كاملٍ من السفر. لم تكن منطقة بويرتو كاراغواتاي، بخلاف ما يوحي اسمها، على أي صلة بميناء. كانت عبارة عن منطقة أدغال كثيفة لا يمكن الولوج إليها مع رصيفٍ متواضع لركوب السفن. هذا كلّ ما في الأمر. لم يكن هناك أي طريق يؤدي إليها. كان يتمّ الوصول إليها عبر نهر ريو بارانا. وإذا كان هناك طريق ترابي يقود إليها اليوم، فمن غير الممكن سلوكها في الأيام الماطرة.

شرع أبي على الفور في بناء كوخٍ خشبي منصوبٍ على أعمدة مصنوعة من جذوع الأشجار. لم يكن يحمل أيّ شهادة علمية ولكنّه يتمتّع بالعديد من المواهب ويجيد الكثير من الحِرف. كانت نوافذ الكوخ الخشبي تطلّ مباشرة على ضفاف نهر بارانا الذي يبلغ عرضه ستمئة متر في ذلك المكان. كانت أمّي البارعة في السباحة، على غرار شقيقها، ومن ثمّ على غرار إرنستو، تسبح بانتظام في النهر على الرغم من التيارات المائية الخطيرة وعلى الرغم من احتجاجات واعتراضات والدي.

في انتظار قدوم مولودهما الأوّل، والذي لم يكن من المنتظر أن يولد في أدغال بيورتو كاراغاتواي تلك التي لا مستشفيات فيها، استأجر والداي شقّة في روساريو، عاصمة مقاطعة سانتا في. وفي تلك المقاطعة، ولِدَ إرنستو، في الرابع عشر من شهر يونيو من عام 1928. بعد عدّة أسابيع من ولادة إرنستو، سلك والداي من جديد الطريق إلى منطقة ميسيونس. كانا سعيدين بقدوم مولودهما الأوّل.

كانت أمي في الحادية والعشرين من عمرها بينما أبي في الثامنة والعشرين من عمره. تأقلم والداي سريعاً مع بيتهما المصنوع من جذوع الأشجار وتعلّقا به، وكذلك بحياتهما الشبيهة بحياة الكشّافة والرواد. كانا يمتطيان الحصان وينطلقان بانتظام ويجوبان الطبيعة. وعلى الرغم من المصاعب وانعدام وسائل الراحة، كانت حياتهما شيّقة ومليئة بالحماس، بعيدة جدّاً عن صومعة كنيسة القلب المقدّس بالنسبة إلى أمّي، وعن ضاحية سان إيزيدرو، الضاحية الثرية والباذخة في جنوب العاصمة بوينس آيرس التي عاش أبي فيها!

أمضى إرنستو أوّل سنتين من حياته في تلك الأرض الموحشة. كان يطيب لوالدي أن يُشير إلى أنّ ابنه البكر يشبهه كثيراً. فكان يقول: ابني البكر ناضج قبل أوانه وهو يفهم كلّ شيء. لكي يتزوّدا بالمؤن والحاجيات المنزلية، كان على والدَيّ أن يسافرا بوساطة سفينة إلى قرية مأهولة بسكانٍ يسمون مانسوس (وهذه تسمية مختصرة عن كلمة «مانسياليرو»، أي الرجل الذي يعمل لقاء أجرٍ شهري). كان هؤلاء السكّان المعذّبون عبارة عن عمالٍ زراعيين موسميين يتحدّرون من الشعوب الغورانية، وهي الشعوب المحلية التي كانت مكلّفة بحماية البعثات اليسوعية التبشيرية على مدى قرنين من الزمن في تلك المنطقة. بعد مضي مئة عام على مغادرة البعثات التبشيرية للمنطقة، لم يكن المانسوس قد نجحوا بعد في كسر قوقعتهم تلك والخروج منها. كانوا يُستخدَمون في مزارع المتّة ويعيشون في حالة شبه عبودية في ظروفٍ في غاية البؤس والقسوة. كان الظلم الذي يتعرضون له من لدن مالكي الأراضي شاملاً وفي غاية القسوة. كانوا يقبضون أجوراً عينية زهيدة حيث يتم تقديم المسكن العشوائي والبائس وبعض الغذاء الذي يسدّ رمقهم مقابل عملهم المجهد،

ويقترضون مبالغ زهيدة لكي يشتروا بها المشروبات الكحولية التي يشربونها في أوقات فراغهم القليلة. وإذا ما حاولوا الفرار، كان مالكو الأراضي يلقون القبض عليهم من جديد وينهالون عليهم ضرباً حتى الموت حتى يكونوا عبرة لغيرهم. سبّبت هذه المعاملة الظالمة صدمة شديدة عند والدتي، فثارت ضدّ هذا الجور الذي كانت أوّل شاهدة مباشرة على ممارسته. أمّا والدي فقد قرّر من جهته أن يدفع أجور الفلاحين العاملين لديه نقداً بالبيزو، الأمر الذي جعله منبوذاً وغير مرغوبٍ فيه من قبل أقرانه من المزارعين. تمَّ اتّهامه بالشيوعية وبالتخريب من قبل الآخرين من مزارعي المتّة الذين تآمروا عليه. وربّما لهذا السبب، بدت مغامرة العيش والعمل في ميسيونس على نحوٍ مفاجئ بأنّها محكومة بالفشل. عادت الأسرة إلى بوينس آيرس وفكّر والدي لبعض الوقت في أن يسلِّم استثمار مزرعة المتّة لشريكٍ له يقيم في المنطقة. في الحقيقة، كان ينوي العودة إليها بعد أن يتم إعادة الأمور إلى نصابها بشأن الأوضاع المنهارة لشركته إل أستيليرو ريو دي لا بلاتا لبناء السفن. لكنّ فصل بيورتو كاراغاتواي من المغامرة كان قد انتهى في الواقع. في سان إيزيدرو حيث حلّ والداي ضيفان على جدّتي، بدأ إرنستو يعاني من ربوٍّ حاد. كان المناخ شبه الاستوائي لمنطقة ميسيونس غير ملائم البتّة لرئتيه الضعيفتين. هذا الداء القاسي سوف يلقي بآثاره على حياة أسرتنا منذ تلك اللحظة. بسبب ذلك المرض، أصبحنا أشبه بالبدو الرحّل نجول في مناطق البلاد.

تدهورت الحالة الصحّية لإرنستو سريعاً في سان إيزيدرو. أدّت الرطوبة الناجمة عن القرب من نهر ريو دي لا بلاتا إلى تفاقم مرض الربو خلال بضعة أشهر. أصبحت صحّة إرنستو على رأس أولويات

والديّ. فحزما حقائبهما وأمضيا الأشهر التالية في التجوال في طول البلاد وعرضها بحثاً عن المناخ الملائم لحالة إرنستو. وإذ كانا مفلسين تماماً، أخذا يتنقّلان من بيتٍ عائلي إلى آخر: مزرعة جدّتي في بورتيلا، مزرعة أبناء أخوالنا من آل مور دي لا سيرنا غالارزا في منطقة غاوتشو، منزل إحدى عمّاتي في ميرامار. كانت فترة لم يحظوا فيها بمسكنٍ ثابت ومستقرّ.

منذ طفولتنا المبكّرة، اعتدنا على أن نكون هكذا في حركة وتنقّل دائم، وأن نتأقلم مع الظروف. لم نعرف قط لا الثبات في إقامتنا ولا الاستقرار في أوضاعنا المالية.

في عام 1932، كان إرنستو في الرابعة من عمره، وشقيقتي سيليا في الثالثة من عمرها. وكان روبرتو قد ولِد للتوّ. كان القلق يتضاعف عند والديّ من جرّاء نوبات الربو التي بدت أنّها تتفاقم. كانا على قناعة بأنّ مرض ابنهما البكر هو نتيجة التهاب في الرئتين والقصبات أُصيب به إرنستو في روساريو بعيد ولادته بقليل. عاشا على إيقاع النوبات التي أصبحت أكثر حدّة وأكثر إثارة لمخاوفهما. استشارا أفضل الأطبّاء الأخصائيين بأمراض الرئتين. وصف الأطباء أدوية مختلفة وقالوا إنّه من النادر ما رأوا حالة ربو بهذه الحدّة لدى طفلٍ صغيرٍ بهذا العمر. لم يجد أي علاج نفعاً. أصاب اليأس والدَيّ. في النهاية، نصحهما طبيبٌ مشهور بالذهاب للعيش في كوردوبا، وهي مقاطعة جبلية في وسط البلاد لم يسبق لهما قط أن زاراها ولا يعرفان فيها أحداً. لا يهمّ! إنهما على استعداد لتقديم كلّ التضحيات في سبيل تخفيف آلام أخي. أرخيا الأقلاس التي كانت تعيدهم دائماً إلى بوينس آيرس وانطلقا مباشرةً بواسطة القطار إلى كوردوبا، التي سيقضيان فيها السنوات الخمس عشرة التالية من

عمرهما. ربّما ليست لنا جذور على الإطلاق، ليس لنا مكان يمكننا القول عنه «هذا بيتنا، هذه مرساتنا». لكنّ آلتا غراسيا هو المكان الأكثر قرباً من هذا المفهوم. لقد كبرنا جميعاً في هذا الإقليم المجهول.

أحرارٌ كنسمات الهواء

كانت مدينة آلتا غراسيا، في أعوام الثلاثينيات، أساساً مدينة للاستشفاء، يقطنها حوالي 20 ألف نسمة في وسط إقليم كوردوبا، وتقع أسفل سفوح سلسلة جبال سييراس شيكاس. هواءُها نقيّ وصاف ومناخها جافّ ويعتبر ممتازاً للشفاء من الأمراض الرئوية. كان مكاناً وديعاً وهادئاً ومريحاً جدّاً لوالديّ اللذين لم يكن يهمّهما فيه سوى ميزة وجاذبية واحدة: إمكانية تحسّن صحّة إرنستو، وبالتالي جعل حياته أكثر راحة.

خلال الأعوام الخمسة عشر التي أمضتها عائلتي في تلك المنطقة، قامت بتغيير مكان إقامتها ومسكنها لعشرات المرّات. فقد أقامت في البداية في فندق لا غروتا لمدّة عامٍ واحد ومن ثمّ في فيلات تشيتشيتا وبعد ذلك في نيديا حيث يوجد فيها الآن متحف تشي ومتحف كارلوس بيليغريني. ثمّ انتقلت العائلة إلى شاليهات فوينتيس وبعدها إلى فورت وريبامونت لتعود في نهاية المطاف وتقيم في فيلا نيديا. كنّا نشكّل قبيلة متجوّلة في حالة ترحالٍ وعدم استقرار دائمين. أقصد ما تبقى من أهلي لأنني لم أكن قد ولدتُ بعد في تلك الفترة. كان كلّ مسكن تقيم فيه عائلة جيفارا يتحوّل حتماً إلى مكانٍ

فوضوي ومهمل. لم تكن العائلة تنظّف البيت باستخدام الماء إلّا في حالات زيارة الضيوف. كانت فيلا تشيتشيتا على نحوٍ خاصّ في حالة بائسة ويرثى لها، حيث تكثر الشقوق في أرضيتها وجدرانها وحتى سقفها. كان سقفها عالياً جداً وغير معزولة على نحوّ جيّد ولذلك كانت التيارات الهوائية تندفع في أرجائها دون عائق. كانت أجهزة التدفئة معطّلة ولم يكن والداي يملكان المال الكافي لإصلاحها. إخلاءً لمسؤولية والدي، يجب أن أقول إنّ آلتا غراسيا لم تكن مكاناً ملائماً للقيام بالأعمال والأشغال. ومع ذلك استطاع أن يحصل على عقدٍ لبناء فندقٍ هناك، وذلك بفضل دعم ومساندة أحد أصدقائه، ووضع التصاميم والمخططات لها ثمّ سرعان ما أهدر الأموال التي كسبها. وأعتقدُ أنّ من بين الأعمال التي مارسها، وضع مخططات إقامة ملعب للغولف. وفي كلّ مرة، لم تكن فترات الثراء وجني الأموال تستمر سوى بضعة أشهر.

في الشتاء، كان جميع أفراد العائلة يرتعشون برداً. ذات يوم، راودت أمّي فكرة شراء غطاءٍ كبير ينزل حتى الأرضية وتركيب جهاز تدفئة صغير أسفل الطاولة. أتاحت هذه الفكرة تدفئة الساقين والقدمين على الأقلّ. ما تبقى من غرف وأقسام البيت كانت زمهريراً. ومع ذلك، لم تكن أمي تشكي من أيّ شيء: كانت تبدو وكأنّها قد تأقلمت مع كلّ الأوضاع والظروف القاسية. هي التي كانت تمتلك في شبابها أجمل الثياب والزينة، أصبحت ترتدي بعد ذلك أكثر الألبسة تواضعاً في العالم. كانت ترتدي غالباً سروالاً وقميصاً بسيطاً، ومن حينٍ إلى آخر كانت ترتدي تنوّرة أو فستاناً. قصّرت شعرها وهو الأمر الذي لم يكن مألوفاً أبداً بالنسبة إلى امرأة. حينما كانت تمرّ أمّي بشعرها القصير، كان الناس يتهامسون:

«سيليا تقود السيارة! سيليا ترتدي السراويل! سيليا لا تذهب إلى القدّاس!»، كانت آلتا غراسيا واحدة من بلدات المقاطعة حيث يعرف جميع السكان بعضهم بعضاً ويثرثرون حول شؤونهم. وفي حين كانت أمّي تفكّر جديّاً في ارتداء الحجاب في شبابها، فإنّها أصبحت الآن تشعر بالاشمئزاز من القسّ. ظننا أنّ عداءها لرجال الدين وكرهها لهم يعودان إلى السنوات التي أمضتها في القسم الداخلي من الكنيسة حيث كان رجال الدين يرغمون الفتيات على الركوع والجثو على حبّات الذرة الشبيهة بالحصى لكي يردّدن الصلاة لعشرة آلاف مرّة متتالية. على كلّ حال، قد تنامى نفورٌ عميق في داخلها حيال الكنيسة منذ مغادرتها للصومعة واكتشافها للعالم. كان مجرد رؤيتها لدور العبادة يجعلها تشعر بالانزعاج والامتعاض. كانت تعلم أن ألسنة الناس تتناولها وتثير القيل والقال من حولها ولكنّها لم تبالِ قط بذلك. ونتيجة لذلك، ساءت سمعتنا بين الناس. كان والداي معروفين بأنّهما من الليبراليين الأصلاء الذين يتساهلان مع أطفالهما ويدعانهم يفعلون ما يشاؤون وما يحلو لهم كصبية يتسكّعون مع من يعجبهم. كان الأولاد من نسل آل جيفارا في الواقع أحراراً مثل نسمات الهواء. لا تُفرض عليهم أيّ مواعيد لخروجهم من البيت أو العودة إليه. علاوة على ذلك، كان والداي يعاملان بناتهما بنفس معاملة الصبيان: لم يمارسا أي تفرقة أو تمييزٍ بين الجنسين. كان الأمر الوحيد الذي على أولادهما الالتزام به هو الحفاظ على الاحترام ومواصلة التعليم. كانت حالة الوحدة والانسجام داخل العائلة عظيمة. لم يكن أحدٌ يبالي بما قد يُقال عنهم، وبخاصّة إرنستو.

لم تكن لوالدتي أيّ التزامات سوى أن تقوم بدورها كربّة

منزل، ولم يكن مطلوبٌ منها أن تنجز أيّ عملٍ سوى القيام بأعمال التنظيف وطهي الطعام ولذلك لم يكن لديها أيّ نوعٍ من أنواع الأفكار أو المبادئ. كانت تقرّ دون خجل زائف بأنّ إدارة الأعمال المنزلية ليس على الإطلاق موهبتها وأنّها ليست بارعة في هذا المجال وكانت أحياناً تعتذر عن ذلك وتبدي أسفها وبخاصّة في لحظات ممارستها للنقد الذاتي حيث كانت تقف على أخطائها بكلّ دقّة وتفصيل. ولكنّها كانت أمّاً مثالية وممتازة لأطفالها الخمسة (آنا ماريا وأنا ولدنا في عامي 1934 و1943 على التوالي). كانت دراستنا على رأس أولوياتها وتشغل اهتمامها الأكبر. وهي لم توفّر جهداً في هذا المجال. وكان هذا صحيحاً على نحو خاصّ بالنسبة إلى إرنستو -وعلى نحوٍ أقلّ بالنسبة إليّ فيما بعد- الذي علّمته القراءة والكتابة وكذلك اللغة الفرنسية. إلى حين بلوغه التاسعة من عمره، كان أخي يلتزم البيت لمراتٍ عديدة ولا يستطيع الذهاب إلى المدرسة بسبب مرض الربو الذي كان يعاني منه. وكانت أمّي تعطيه الدروس التي لا يستطيع أن يتابعها في المدرسة. وبفضل تفوّقه في الدراسة، لم يستطع اللحاق بزملائه فحسب، بل تجاوزهم وتفوّق عليهم.

كانت صرامة سيليا دي لا سيرنا وحزمها أسطوريين. لم تكن تُظهر لا اللين ولا العطف ولا رقّة القلب. كان الحصول على ملاطفة أو مجاملة منها أمراً لا يُصدّق. ولأنّها حطّمت كل قواعد وأنظمة التربية والتعليم، كانت ترغمنا على أن نتثقّف ونتعلّم ونعرف ونشكّ. كانت على شيء من الرواقية واليهودية-المسيحية التي تحثّ على التضحية. ولكنّها تمتلك أيضاً مخزوناً هائلاً من الرحمة وقدرة كبيرة على التضامن والتفهّم. كانت مختلفة عن والدي تماماً لأنّها

كانت صامدة وثابتة العزم. حينما كانت تريد أن تقرأ كتاباً من خمسمئة صفحة، كانت تختار الشعر لأنّه أقصر ويستغرق وقتاً أقلّ. بيد أنّها كانت تتصفّح الكتاب حتى الصفحة الرابعة منه ومن ثمّ تروي كامل الحكاية كما لو أنّها قد قرأت الكتاب من أوّله حتى نهايته.

في بيتنا، كان كلّ واحدٍ من أفراد الأسرة يقوم بما يروق له. لم يكن والدانا يفرضان علينا أيّ نظامٍ في البيت، مقتنعين بأنّه يجب أن يكبر الأطفال ويترعرعوا في جوٍّ من الحرية المطلقة في التفكير والعمل. منذ نعومة أظفارنا، كان علينا أن نحلّ مشاكلنا لوحدنا وبأنفسنا دون تدخّلٍ من والدينا. لم يحاول والدانا قطّ ان يجدا لنا الحلول لمشاكلنا. كانا يشجعّاننا على محاولة التغلّب على المشاكل وإيجاد الحلول لها بأنفسنا، مقتنعين بأنّه علينا أن نعيش حياتنا وتجاربنا على حسابنا نحن إن لزم الأمر. كانا يردّدان دائماً أنّ الحياة سوف تعلّمنا. لم يكن لنا الحقّ في أن نرسب في دراستنا أو نفشل أو نتراجع أو نشكو. إذا ما بكى أحدنا واشتكى، كانا يصرخان غاضبين: «النائحون إلى الكنيسة!»، كانا صارمين في طلب بذل الجهد والمثابرة. بالنسبة إلينا، كان كلّ شيء واضحاً وجليّاً. كنا نعرف تماماً ما يتوقّعانه وينتظرانه منّا.

كان بيتنا بيتاً للجنون والمجانين: كنّا جميعاً، جميعاً، جميعاً، جميعاً، على شيءٍ من الجنون والطيش، وذلك تحت صولجان قيادة أبي الذي كان يتزعّمنا جنوناً. كنّا نزعج ونضايق بعضنا البعض لأتفه الأسباب ونتشاجر ونغيظ بعضنا البعض. لم نكن نشعر بالملل والضجر أبداً. على العكس تماماً، كم كنّا نتسلى ونستمتع! كان أخي روبرتو على سبيل المثال قد وضع قانوناً ينصّ على أنّ: «من ينحني يتطوّع، القانون يفرض عليه ذلك». وكان ذلك يعني إذا

انحنيت لالتقاط شيءٍ ما، سوف تتلقى ضربة قوية على قفاك. ومن جراء ذلك القانون، لم يعد يجرؤ أحدٌ على الانحناء. إذا ما رأينا شيئاً ما على الأرض، كنّا نفكّر على الفور بأنّ فخّاً قد نُصِب لنا ولذلك كنّا نمتنع عن التقاط ذلك الشيء وندعه مرمياً في مكانه. ذات يوم وأثناء زيارة أحد أبناء عمومتنا لبيتنا، وضع شقيقي روبرتو مشواة صغيرة في سرواله من الخلف وارتدى قميصاً طويلاً بحيث يخفي المشواة ومن ثمّ انحنى متظاهراً بأنّه يلتقط شيئاً ما عن الأرض. والتزاماً بقواعد العقاب، هشّم ابن عمي عملياً قدمه وهو يركل مؤخرة روبرتو! وكذلك اخترعنا لعبة الفاكهة الناضجة. كان على جميع الأصدقاء في الحي أن يمرّوا بهذا الاختبار لكي يتم قبولهم في عصابة جيفارا. وكانت اللعبة تقوم على أن يتعلّق أحدنا بزراعه بغصن شجرة على ارتفاع ثلاثة أو أربعة أمتار إلى أن يسقط أرضاً من شدّة الإعياء. وكما هو الحال غالباً، كان إرنستو يبرع ويتفوق علينا في هذه اللعبة. كان يستطيع أن يبقى معلّقاً ويصمد إلى ما لا نهاية تقريباً. كان يتسلى أيضاً بالسير على أسوار الجسور وحوافها وهو ينظر في الفراغ. حينما كان روبرتو وإرنستو يتعاركان، كان إرنستو يتفوّق على شقيقه غالباً. لم يكن أكبر سنّاً فقط بل أكثر عنفواناً وسعاراً. ولكن روبرتو كان يجيد استغلال نقطة ضعف شقيقه الأكبر. لكي يثأر لنفسه، كان يخفي أحياناً سطلاً من الماء البارد في مكانٍ ما من الحديقة. وفي اللحظة المواتية، كان يصبّ الماء البارد على رأس إرنستو. كان ذلك يصيب إرنستو بالشلل وذلك بسبب معاناته من مرض الربو.

في سنّ مبكرة جدّاً، ظهرت على إرنستو علامات على أنّه سيكون شخصية قويّة ومتميّزة. ومع ذلك كان يميل إلى شيء من

الخجل والاستحياء. كانت خالتي كارمن تؤكّد أن خجله يعود بالتأكيد إلى سمو ذكائه ونباهته. في الحقيقة، كان يلتقط الأمور بسرعة وبداهة مذهلة. نادراً ما كان يحتاج إلى شرح الأمور وتوضيحها. وكان ذو إرادة حديدية وقدرة فائقة على اتّخاذ القرار وجرأة وإقداماً غير طبيعيين. كان قد ورث بعض السمات المتناقضة أحياناً من والديّ: فقد ورث الجانب التأمّلي والمغامر من والدي، بينما استمدّ الحزم والانضباط من والدتي. هذا المزيج الممتاز سمح له بأن يذهب في أحلامه حتى النهاية وأن ينجز مشاريعه ببراعة. كان والداي يصرّان دائماً على أن ننجز وننهي العمل الذي بدأنا به وألا نتراجع عنه. ولكن كانت المقاربة مختلفة كثيراً جداً بين أبي وأمي: كان والدي لا يبالي بالطريقة التي تبلغ بها هدفك ولا يهتم بمعرفتها، في حين كانت أمي تعتبر التصرّف بطريقة صحيحة ونزيهة أمراً أساسياً. بهذا الشأن، أتذكّر طرفتين ذاتَيْ دلالة: حينما كنت في المدرسة، كنت أوقّع بنفسي على جلائي المدرسي المتضمّن درجاتي الدراسية. لم أكن من التلاميذ المتفوقين والمتميّزين وكانت درجاتي متواضعة ولم تكن لدي أيّ رغبة في أن أسمع التوبيخات المملّة من جرّاء ذلك. علاوة على ذلك، لم يطالبني أحد بأن أقدّم جردة حساب وأكشف عن درجاتي، باستثناء إرنستو الذي كان يلحّ علي بأن أجتهد وأدرس على نحو أفضل. ذات يوم، وقع جلائي المدرسي بالصدفة بين يدَي والدي ووقّع عليه. في اليوم التالي، استدعتني مديرة المدرسة إلى مكتبها لكي أفسّر لها سبب الاختلاف بين التوقيعين الموجودين على نفس الجلاء. سردت لها كلاماً هراءً، إذ قلتُ لها إنّ والدي كان مريضاً ويرتعش ولا بدَّ أنّ يده قد ارتعشت بكلّ بساطة. ولكنّ المديرة استدعت والدي إلى المدرسة للتحقّق من

حقيقة الأمر. حضر والدي إلى المدرسة وشرحت له المديرة شكوكها بشأن التوقيعين المختلفين على الجلاء المدرسي. أصغى والدي إليها بانتباه وهو يرسم على وجهه تعابير الرصانة والرزانة بما لا يدع مجالاً للشكّ في جديّته. ومع ذلك، ما الذي فعله؟ لقد صادق على كذبتي بثقة غير اعتيادية بالنفس! حينما خرج من مكتب المديرة، قال لي: «غبيّ! ألم تستطع أن تخبرني أنّك قد وقعّت على جلائك المدرسي بنفسك؟ ثمّ ألم تستطع أن تقلّد توقيعي على نحوٍ أفضل؟». لم تعلم أمي أبداً بالموضوع: لا بدَّ أنّها كانت ستثور وتغضب. حينما كنت في الثالثة عشرة من عمري، تمَّ توقيفي من قبل الشرطة. عاتبني ووبّخني والدي لكوني سلّمت نفسي للشرطة من دون أن يحاول معرفة أسباب توقيفي. أمّا أمّي فأرادت أن تعرف ما الذي فعلته حتى تقوم الشرطة باقتيادي إلى المخفر. كان هذا نموذجاً للاختلاف بين منهجَي والديّ. كلّ ما كان يهمّ والدي هو النتيجة: لا تهمّ الوسيلة ولا الطريق المسلوك في الوصول إليها. بالنسبة إلى أمي، كانت الوسيلة والطريق الذي نسلكه لبلوغ الهدف أمراً في غاية الأهمية.

البسالة والجرأة هما من بين الميزات والخصال الأخرى التي ورِثَت من آل جيفارا. هنا أيضاً، كان إرنستو يقدّم خير مثالٍ ونموذج. لقد روي لي أنّ كبشاً، كان يروّع سكان الحيّ، قد أفلت من قفصه فطارده إرنستو -وهو في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره- وأمسك بقرنيه وأخذ يصارعه إلى أن طرحه أرضاً وسيطر عليه. كانت ركبتاه تنزفان دماً ولكنّه بدا كما لو أنّه لا يرى ذلك وذهب إلى المدرسة على تلك الحالة وكأنّ شيئاً لم يكن. كان جميع زملائه يعجبون به ويضعون أنفسهم تحت قيادته. لم تكن لديه

الحاجة على الإطلاق إلى أن يعطي الأوامر أو يتكبّر ويتفاخر: كانت لديه قدرة وقابلية فطرية على القيادة. كان روبرتو يشعر أحياناً بعبء أن يكون له أخٌ بهذه الصفات. وأصبحت الأمور تصبح أكثر تعقيداً بالنسبة إليه مع مرور السنوات. مع أنّ إرنستو لم يكن لا متبجحاً ولا متباهياً. كان ينجز الأمور بأقصى درجات البساطة دون أن يتفاخر أو يتباهى بذلك أبداً.

كانت هناك حركة دؤوبة ومستمرة في منزلنا حيث يزورنا الأصدقاء من كافّة الفئات الاجتماعية. كان باب بيتنا مفتوحاً على الدوام. لم تكن لدى والدينا أي أحكام مسبقة أو تحفظات بشأن الانتماء الطبقي. على العكس تماماً، كانا يرغبان في أن يختلط أطفالهما مع كلّ الأوساط الاجتماعية ويتعايشوا معها. فكان من بين أصدقائنا أبناء الفئات المسحوقة وأبناء الذين يخدمون في ملاعب الغولف وأبناء العمال وخدم الفنادق ولاحقاً أبناء اللاجئين الفارين من الحرب الأهلية الإسبانية. كافحت أمّي وناضلت من أجل أن تقدِّم المدرسة وجبات طعام مجانية للأطفال المحتاجين (وقد نجحت في تحقيق أهدافها). وفي كلّ عطلة نهاية الأسبوع، كانت تصحب معها سرية كاملة لكي يقوموا بنزهة في الجبل في سيارتنا من طراز كاترامينا، وهي سيارة قديمة وصدئة ومهترئة كان والدي قد اشتراها من أحد أصدقائه. كانت سيارة قديمة جدّاً ولم يعد فيها سوى مقعدٍ واحد. وفيما بعد، لم يعد فيها سوى بابٍ واحد، بينما خُلِعَت الأبواب الأخرى. لا يهمّ! المهم أنّها تسير. وستكون تلك السيارة الصدئة أوّل وآخر سيارة نمتلكها. لأنّ والدي كان من صنف أولئك الرجال الذين تصبح حالهم بشكلٍ عام من سيئ إلى أسوأ. بدأ مع سيارة جميلة وحديثة، ثمّ انتقل إلى عربة قديمة وبالية، وأخيراً انتهى

به المطاف بأن ظلّ بلا سيارة إلى الأبد! كان والدي قابلاً لأن يعيش في قصر أو في كوخ.

تحدّثت السير العديدة التي كتبت عن حياة تشي على نحوٍ خاصّ عن أمّي وتجاهلت الحديث عن أبي وكأنّه لم يكن موجوداً على الإطلاق، وكأنّه لم يكن لنا أب. كان هذا خطأً كبيراً! يجب اكتشاف هذه الشخصية المتناقضة والغريبة التي كان الجميع يحبّها ويجدها فريدة وساحرة ولامعة وبهية وموهوبة بل ربانية. كان ساحراً للثعابين ويمتلك بداهة لا تُصدَّق وموهوباً بقدرة هائلة على تخزين المعارف ومراكمتها مع فهمٍ مذهل لعلوم الرياضيات. المشكلة الوحيدة هي أن يكون هذا الرجلٌ والدك. لأنّه لم يكن يشعر بمسؤوليته وكان متقلّب المزاج ونادراً ما يحسن القيام بأعماله. ولديه باستمرار أفكار ومشاريع جديدة دون أن يُنجزها عملياً أبداً. كان فناناً جعلنا نعيش في حالة من عدم الاستقرار، كان رجلاً طموحاً ولكن من دون مثابرة أو إصرار. كان شاعراً لا يكتب الشعر وإنّما يبحث باستمرار عن المجاز، كان عاشقاً للحياة وتاجراً اعتباطياً، يقود السيارة بسرعات جنونية. هو حاضر وغائب في آن واحد، هو رفيقٌ أكثر منه أباً. كان يلعب معنا من دون أن يهتمّ بنا أو يقلق علينا.

من الناحية الجسدية، كان طويل القامة، وسيماً ومفعماً بالنشاط والحيوية، وراقصاً بارعاً ورياضياً مفتول العضلات ورشيقاً. كان يجذب النساء ويغريهنّ. وأعتقد بأنّه ربّما أقام الكثير من العلاقات قبل أن تضبطه أمي في النهاية. هناك طُرفة عائلية في هذا الشأن، كانت تضحكنا على الدوام: ذات يوم، بينما كان يتنزّه مع آنا ماريا في مار ديل بلاتا، صادفا امرأة كان على معرفة بها. فبدأ يجامل

المرأة ويحاول إغراءها. فجأة صرخت أختي قائلة: «ولكنك يا أبي، تقول نفس الكلام دائماً لكلّ النساء!» فأُصيب والدي بالإحباط والحرج!

كان على ذكاء خارق ولكن يجب أن يخضع كلّ ما يقوله للتدقيق والتمحيص: لم يكن بإمكانك أبداً أن تعرف فيما إذا كان يبالغ في كلامه أم لا. كان ينمّق كلّ شيء ويصيغ الواقع والحقيقة بأسلوبه الخاص بحيث لا يمكنك أبداً أن تتهمه بالكذب. في حين لم يكمل دراسته في الهندسة المعمارية، كان يبني بيوتاً وفنادقاً وذلك بفضل علاقاته المؤثّرة حيث أقام في الواقع شبكة واسعة من علاقات الصداقات. حينما كان الناس يخاطبونه بلقب «مهندس معماري» كان يهزّ برأسه في إشارة منه على تأكيد ذلك اللقب. وحينما كان الناس يخاطبونه بلقب «دكتور» كان يجيب بالإيجاب أيضاً. كان يزعم بأنّه عالِم في رسم الخطوط ولكنّه لم يكن قد درس علم رسم الخطوط أبداً. الأمر الذي لم يمنعه من القدرة تماماً على تحليل شخصية فردٍ ما من خلال دراسة خطّه في الكتابة.

كانت جيوبه دائماً خاوية. وحينما تمتلئ لبعض الوقت بفضل الأرباح التي يجنيها من مشروعٍ ضخم أنجزه، يسارع إلى إهدار الأموال التي جناها، فكان يأخذنا إلى أفخم المطاعم أو إلى السينما. كان يسألنا شكلياً عن الفيلم الذي نفضّل مشاهدته. وفي النهاية، لم يكن يفعل إلا ما يروق له هو: يختار الفيلم وينام في الأريكة ومن ثمّ يتحدّث عن الفيلم وكأنّه قد شاهده ويتجادل بحدّة معنا نحن الذين تابعناه حتى النهاية! كان ذلك يثير إرنستو ويُغضبه. كان يمكننا أن نتناول أشهى وأفخر الأطعمة ذات مساء، ومن ثمّ نعاني الحرمان ونعيش على الفتات في الأشهر التالية. إذا ما عاد أبي

إلى البيت وقد جلب معه باقة أزهار -وكان هذا يحدث غالباً-، كنا نعلم أنّه قد صرف آخر قرشٍ في جيبه. كان والدي يظلّ قانعاً وراضياً حينما يمتلك المال مثلما حينما يكون مفلساً. في أسرته، كان يُعتَبَر رجلاً فاشلاً وخاسراً. كان لدى جميع أخوته شهادات علمية وأعمال ووظائف. وإذا كان يُطلق على نفسه لقب جيفارا - لينش مثل أحد أبناء العائلة، إلّا أنّه كان يعيش حياةً طائشة ولا يستطيع أن يتفاهم وينسجم مع أحد. كان برجوازياً منسلخاً عن طبقته. الأمر الذي لا يعني أنّه كان ثورياً أو بروليتارياً أو اشتراكياً. كان شخصاً متقلّباً يتغيّر اتجاهه بتغيّر اتجاه الرياح مثل ريشة. أمضى سنوات وهو نصيرٌ لبلاد اليانكي ومعادٍ للشيوعية لكي ينتهي به المطاف شيوعياً متطرّفاً في كوبا وهو يمثّل دور الأب الروحي لأخي إرنستو، ويمجّد الدولة الكوبية ويغنّي «نشيدها العالمي»! حسناً، لقد زعم أنّه كان أيضاً معادياً لأنظمة بيرون وفرانكو وكان نصيراً للجمهورية بل ناضل في صفوف منظمة معادية للفاشية في كوردوبا. لقد ساند المنفيين الإسبان الذين كانوا يعيشون في آلتا غراسيا ويشكّلون مستعمرة ضخمة. من المستحيل تصنيفه. يسخر من كلّ شيء ويقع دائماً على قدميه مثل قطّ. كان الوضع جنونياً، حيث يعيش أولاده كل يوم بيومه. في بيتنا، كان يتوفّر كلّ شيء في بعض الأحيان ولا شيء في أحيانٍ أخرى.

كان يمزح دون انقطاع ويُطلق النكات ويمتلك حسّاً فكاهياً لاذعاً. كان أصدقاؤنا يقولون باستمرار إنّه الشخص الأكثر تسلية ولطفاً في العائلة. كان يُضحِك الجميع. كان مراقباً دقيقاً وحادّ النظر ويمتلك حسّاً مرهفاً في الرسم بحيث كان يمكنه أن يرسم صورة كاريكاتيرية مدهشة خلال خمس دقائق. يبدو أنّه كان يخاف

من كلّ ما هو جديد. فإذا ما حصل على شيءٍ جديد، يعمد إلى إفساده وإعطابه. كان ملحداً ولكن يؤمن بالخرافة إيماناً عميقاً بيد أنّه يحاول أن يخفي ذلك. غالباً ما كان يرتدي سترة فوق قمصانه، ويرتدي السترة ويخلعها لمرّات عديدة قبل أن يُبقي عليها أخيراً وذلك درءاً لسوء الطالع وطرد النحس. لم يكن بوسعك أن تبدي أيّ ردّ فعلٍ حول هذا الموضوع أو تدلي بأيّ تعليق: كان يستشيط غضباً ويقول إنّ هذا يقطع أنفاسه. إذا ما شاهد الرقم 13، يحرّك ذراعيه نحو الأعلى والأسفل كخفق جناحي عصفور وذلك لإبعاد نذير الشؤم الذي يوحي به هذا الرقم. حينما يصعد سلّماً، يتجنّب على الدوام الدرجة الثالثة عشرة. ذات يوم، أبديت ملاحظة على ذلك وقلتُ له إنّ القفز على تلك الدرجة لا يجدي نفعاً في أيّ شيء: مهما فعل، فإنّه يضع قدمه على الدرجة الثالثة عشرة حينما يضع قدمه بعد الدرجة الثانية عشرة. لقد تسبّبتُ له بملاحظتي تلك بمعضلة كبيرة بحيث ظلّ صامتاً ورفض أن يتحدّث معي لمدّة شهرٍ كامل. وبنفس الطريقة، كان يخرج دائماً من نفس المكان الذي دخل منه. ذات يوم، ذهبنا إلى بيت إحدى الصديقات ولكنّها كانت غائبة وبابها مقفلٌ. لم يكن معنا مفتاح الباب وبالتالي دخلنا من النافذة. حينما غادرنا المنزل، خرج أبي من النافذة. كان الخروج من الباب مستحيلاً بالنسبة إليه. كما كان مصاباً بداء وسواس المرض، معتقداً على الدوام بأنّه على حافّة الموت. لقد أمضى حياته كلّها في الشكوى من أمراض متخيّلة وموهومة. إن لم يكن مصاباً بشلل الأطفال، فحتماً بداءٍ آخر. لم يعد أحدٌ منّا يهتمّ بهواجسه ويبالي بأوهامه، ولذلك كان أصدقاؤنا يعتقدون بأنّنا قساة القلب وفاقدون للحسّ والمشاعر اتجاهه. كانوا يرون أحياناً أنّ

والدي ينهض من مكانه ويشكو ويئنّ وهو يضع يده على قلبه كما لو أنّه يعاني من احتشاء عضلة القلب. وكانوا يندهشون ويتعجّبون من أنّ والدتي لا تهبّ لطلب سيارة الإسعاف. وفي الوقت ذاته، كان قادراً على أن يجازف ويعرّض نفسه لمخاطر غير محسوبة وذلك بالذهاب إلى الأحياء السيئة السمعة لكي يرقص التانغو.

امتلأ بيتنا بالكتب. كنّا نهتمّ جميعاً بالأدب والفلسفة والثقافة. كان يمكننا أن نفتقر لأيّ شيء ويمكن لكلّ شيء من حولنا أن ينهار أو يعطب وأن تنسدّ أنابيب المياه دون أن يشكو أحد من ذلك أو يمتعض له. لكن أن تنقص الكتب في البيت، فهذا أمرٌ لا يمكن تصوّره! كانت لدينا كتبٌ باللغة الفرنسية لم تُترجَم بعد إلى اللغة الإسبانية حينذاك. أعمال لتروتسكي على سبيل المثال. كان أشقائي وشقيقاتي جميعهم مولعين بالمطالعة ومواظبين على الدراسة. كان إرنستو وسيليا، على نحوٍ خاصّ، عبارة عن آلة قراءة ومطالعة. كانا يقرآن الكتب ويكتبان لها الحواشي والملاحظات ويستوليان عليها. وإذا ما أردنا أن نقرأ كتاباً من بين تلك الكتب، كان علينا أن نتحمّل أعباء كل ملاحظاتهما المدوّنة في هوامش الكتاب. كان إرنستو أكثر سوءاً حتى من سيليا. كنّا نشعر بأنّه يتحاور مع الكاتب ويخوض معه نقاشاً عائلياً. كان يقرأ كثيراً باللغة الفرنسية، ومن عادته أن يأخذ معه كتاباً إلى الحمّام ويبقى فيه لأوقاتٍ لا تأتي نهايتها. والويل لمن يكون في حاجة للذهاب إلى المغاسل! وإذا ما توسّلنا إليه لكي يخرج من الحمّام، كان يبدأ بقراءة مقاطع من أعمال غوستاف فلوبير أو ألكسندر دوما أو بودلير باللغة الفرنسية، لكي يستفزّنا ونغضب أكثر! وكان الأمر ينتهي غالباً بالنقاش والجدال. كانت عبارة عن

نقاشات وحوارات لا تنتهي وتتردّد أصداءها في كلّ بيوت الجوار. في بيتنا، لم نكن نتكلّم، بل كنّا نصرخ بصوتٍ عالٍ. حتى الأحاديث الهادئة والمعتدلة تنتهي دائماً بنقاشات صاخبة ومجلجلة. لم يكن والداي ينطلقان أبداً من مبدأ أنّهما على حقّ دائماً. على العكس من ذلك، كان من حقّنا جميعاً، بل يجب علينا أن نناقش ونجادل ونورد حججنا. كانا يشجّعاننا على الروح النقدية ولا يرغبان في أن نكون من ذوي نزعة الإذعان والقبول بالآراء دون تمحيصها والمجادلة فيها. كان يعلّماننا باستمرار على ألّا نقبل أبداً بعقيدة أو معتقد خاصّ دون تبصّر. كان كلّ شيء يمرّ عبر الجدل. كان إرنستو أفضل مجادلي العائلة والأكثر ثقافةً وذكاءً في مجال الفكر وفي القدرة على التحليل والإثارة ويوجّه دائماً الانتقادات الأكثر عمقاً ووضوحاً ودقّة. فقد طوّر لديه، منذ نعومة أظفاره، منهجاً مدهشاً في القراءة مستفيداً من الأوقات التي لزم فيها السرير بسبب الربو لكي يقرأ بنهمٍ الكتب الأدبية.

ربّما كانت والدتي قد ورثت نزعتها النضالية والكفاحية من عائلتها. فآل دي لا سيرنا أيضاً كانوا يخوضون النقاشات والجدالات دون كلل أو ملل. كانوا مجبولين على نزعة الاعتراض والاحتجاج. فقد تخلّوا على سبيل المثال عن الجنرال فرانكو وعارضوا حكمه في وقت كانت كلّ الأسر المنتمية إلى الطبقة البرجوازية العليا في الأرجنتين تسانده وتدعم حكمه. ولكن حتى السنتين اللتين أمضيناها في ميسيونس، كانت السياسة بالنسبة إلى أمّي مفهوماً مجرّداً. لقد أيقظ الظلم والجور الممارَسان ضدّ المانسوس في داخلها وعياً سياسياً يغرف من التجربة والشهادة الحيّة على

الواقع. بين روح أبي الكفاحية المناهضة للفاشية ونشاطات أمي السياسية، انخرطت أسرتنا على نحوٍ حاسم في الحياة السياسية. ولكن لم ينتسب والداي على الإطلاق لأيّ حزب سياسي وإنّما ظلّا ينشطان في صفوف الحركات العامّة. في بيتنا، كان كلّ منّا حرّاً في أن يفكّر كثيراً أو قليلاً فيما يفعله، طبعاً شريطة ألّا يساند ويدعم أفكاراً فاشية. كان منزلنا مكاناً للقاءات الكثير من الشخصيات المناضلة. في هذا الجوّ العائلي السياسي بامتياز، نمت بذرة تشي.

في عام 1934، انخرط والدي في الحرب بين الباراغواي وبوليفيا. حينما هاجمت بوليفيا، مدعومة من الولايات المتحدة الأميركية، جارتها الضعيفة بهدف ضمّها، كان المدافعون عن الباراغواي يجتمعون بانتظام في بيتنا. فيما بعد، روت لي والدتي أنّ إرنستو، البالغ آنذاك الخامسة من عمره، كان يُصغي إلى النقاشات بانتباه شديد وغير اعتيادي بالنسبة إلى طفلٍ في هذا العمر ولم يكن يترك أيّ جزئية من تلك النقاشات.

حينما أُرسِل زوج خالتنا «بوليشو» إتوربورو إلى إسبانيا لتغطية الحرب الأهلية كمراسل لصحيفة **كريتيكا**، جاءت خالتي كارمن لتعيش معنا في البيت. ولأسباب تتعلّق باعتبارات أمنية، كان بوليشو يرسل تقاريره إلى بيتنا. فكانت عائلتي تقرأ التقارير قبل تمريرها إلى الصحيفة وبذلك كانت أوّل من تطّلع على الأخبار والأحداث. وكان إرنستو قد علّق خارطة كبيرة لإسبانيا على جدار غرفته. كان يتابع النزاع هناك ويلاحظ تقدّم الجمهوريين من ذوي الأعلام الصغيرة. كان في التاسعة من عمره ولديه أسباب أخرى لكي يكون مولعاً وشغوفاً بتقلّبات أحوال الشعب الإسباني: كان الطبيب والمناضل الجمهوري خوان غونزاليز أغيلار قد نُفي إلى آلتا غراسيا، متبوعاً

بالكولونيل وبطل معركة غوادالاجارا إنريكو خورادو. وكانت عائلتانا قد أصبحتا على علاقة صداقة وطيدة.

أيّاً كان المنزل الذي كنّا نقيم فيه، كانت أرضية البيت وجدرانه مغطاة بالمنشورات السياسية. في أعوام الأربعينيات، حينما أصبحت والدتي عضو في «لجنة ديغول»، وهي منظَّمة فرنسية-أرجنتينية لدعم المقاومة، زيّنت جدار الصالون بصورة للجنرال شارل ديغول. ثمّ انضمّت إلى منظّمة مونتاغيدو المناهضة لحكم بيرون، وشاركت في اجتماعات سرّية وتظاهرت في الشوارع ضدّ الجنرال خوان بيرون وهي تهتف: «تحيا الحرية، يسقط بيرون». حينما حاول رجال الشرطة اعتقالها ذات يوم وأمسكوا بذراعها ليأخذوها معهم عنوة، صرخت: «اتركوني، يا عملاء الغيستابو[1]!». في عام 1954، احتفلت منتشية بهزيمة الفرنسيين في معركة ديان بيان فو، بل أقامت احتفالاً في منزلنا في بوينس آيرس، بكلّ تأكيد مع وجود عددٍ من أسبوعية **باري ماتش** الفرنسية على طاولة الصالون، والتي كان عنوانها الرئيسي يتحدّث عن الجرح الذي أصاب فرنسا. أذهلني ذلك التناقض.

كانت السنوات التي أمضيناها في آلتا غراسيا سنوات جميلة، وإن كانت علاقات والديّ بدأت بالتدهور في تلك الفترة. كانت علاقتهما تتأرجح بين الحبّ والكراهية. أعتقد أنّ أمّي كانت متيّمة للغاية بوالدي في السنوات الأولى من زواجهما. كان لا بدَّ من الحبّ لكي تتزوّج رجلاً خيالياً مثل أبي وتدعمه في كلّ غرابة

(1) غيستابو: جهاز البوليس السرّي الألماني في عهد الحكم النازي. -المترجم-

أطواره! لكنّها ملّت وتعبت تدريجياً من مغامراته الطائشة. كما أخذ والدي بدوره يشعر باليأس والقنوط. كان يقول في نفسه إنّه قد أُصيب بوهن عصبي. كانت آلتا غراسيا مدينة بسيطة للغاية لم تكن خالية من الأحداث فحسب بل كانت علاوة على ذلك حاضنة للأمراض الخطيرة. بالنسبة إلى شخصٍ مثله ولِدَ في العاصمة بوينس آيرس وترعرع فيها ويعشق الخروج للسهر والتسلية في الليل، كان هذا الهدوء بمثابة محنة. كان يقضي جُلّ وقته في فندق سييراس، وهو المكان الأنيق والراقي لمواعيد البرجوازية الصغيرة المحلية. يضمّ الفندق مسبحاً رائعاً حيث كنّا نذهب جميعاً للسباحة فيه. كان إرنستو قد شرع بالسباحة وبات يبرع فيها على غرار خالي وأمّي، السبّاحة الماهرة. كما كان بطل سباحة الفراشة كارلوس إسبيجو قد أصبح على علاقة صداقة وطيدة معه وأصبح يعطيه دروساً مجّانية في السباحة. بعد سنوات من ذلك، أثناء الغزو الكوبي، سوف يستفيد إرنستو من مواهبه كسبّاح لكي يقطع أنهار سييرا مايسترا.

من أجل القيام بالخدع أو التشاجر مع بعضهما، كان إرنستو وروبرتو يتواطآن معاً على القيام بأعمال دنيئة. كانا على رأس عصابة من مصلحي الأخطاء والعيوب بسراويل قصيرة. كان والداي يشكّان في ألا تكون نشاطاتهما دائماً شريفة ونزيهة ولكنّهما تركا لهما الحبل على الغارب وذلك وفاءً لسياستهما في عدم التدخّل. عدا عن ذلك، لم يقم شقيقاي بأيّ فعل مشين يستحقّ الذمّ أو اللوم، بل قاما بمبادرة منهما بعملٍ بطوليّ ومشرّف بقي خالداً في سجلّات تاريخ آلتا غراسيا. كانت شركة الكهرباء (وهي فرع من الشركة السويسرية إرليسكا) قد رفعت تعرفتها على نحوٍ باهظ بطريقة

فاضحة. لم يكن سكّان مقاطعة كوردوبا قد اعتادوا على الخضوع والاستسلام لإجراءات وتدابير قسرية. ومع ذلك، وعلى الرغم من احتجاجاتهم المتكررة، لم تُخفّض الأسعار بمقدار إيوتا واحدة. فوجد شقيقاي حلّاً لهذه المشكلة. لقد اكتشفا أنّ قانوناً بلدياً كان ينصّ على أنّ أي مصباحٍ من مصابيح الإنارة العامّة في الطرقات إذا ما احترق، يجب أن يُستبدَل في نفس اليوم من قبل شركة الكهرباء. كما أنّ البلدية كانت تفرض على الشركة غرامة مقدارها عشرة دولارات لقاء كلّ مصباحٍ مخالفٍ للمواصفات. فشرع إرنستو وروبرتو وأفراد عصابتهما في تحطيم كلّ المصابيح! غضّ رئيس البلدية الطرف عن مصدر أعمال التخريب هذه، وأعادت شركة الكهرباء أخيراً النظر في تعرفتها. استخلص إرنستو درساً وعبرة من ذلك: التصرف العملي يكون أحياناً الدواء الوحيد الناجع في مواجهة الظلم والجور.

كرّس والداي نفسيهما لمرض إرنستو. كانا يجلسان إلى جانب سريره ويقرآن له دروسه ويساعدانه في إنجاز واجباته المدرسية. كان والدي يمضي ساعات وهو يعلّمه لعبة الشطرنج. ولم يتأخّر إرنستو كثيراً حتى أصبح يتفوّق عليه ويُغلبه. سُرعان ما أصبح لاعباً لا يجاريه أحد من أقرانه. وبفضل مناخ آلتا غراسيا، خفّت عنه نوبات الربو وباتت تأتيه على فتراتٍ متباعدة. وكذلك خفّت حدّتها. أصرّ والداي على أن يعيش حياةً طبيعية وذلك من خلال جعله يمارس الرياضة. وبذلك أصبح يلعب الغولف والرغبي ويبرع في ممارستهما. لم يكن قادراً على القيام بأنصاف الأمور، بل كان يجيد القيام بالأمور على أكمل وجه. كان إرنستو شرساً على ميدان كرة

الرغبي لدرجة أنّ أصدقاءه قد لقّبوه بلقب «فوسر»، وهو اختصار «فوريبوندو[1] سيرنا» (كان يستخدم لقب جيفارا-سيرنا، أي كنيتي والده ووالدته، لاغياً بذلك تلك الجزئية التقليدية البرجوازية جدّاً برأيه). لم يكن اللاعب الأفضل ولكنّه كان يستحوذ على الكرة دائماً. أمّا لقبه الآخر «شانشو»، أي الخنزير، فكان يعود إلى أنفه الأفطس وإلى حقيقة أنّه نادراً ما كان يستحمّ بعد الانتهاء من المباراة، بل كان يذهب إلى الرقص -وقد كان راقصاً متواضعاً لا يمتلك أيّ حسّ بالإيقاع- دون أن يستبدل ثيابه الرياضية. يتذكّر العالم إرنستو في بزّته الخضراء التي لا تشوبها شائبة، وحزامه العريض وقبّعته ذات النجمة. لقد بات نمط لباسه نموذجيّاً ورمزياً. كنّا غالباً ما نسخر منه في العائلة بسبب لباسه. كان إرنستو الشخص الأكثر تواضعاً في هندامه حيث يرتدي ثياباً رثّة ويقاوم بعناد الموضة والدرجة في الأزياء أيّاً كانت! كان يرتدي كلّ يوم نفس القميص الرثّ المنسوج من النايلون وهو يخرج في جزءٍ منه من تحت السروال، وينتعل حذاءً غير متجانسٍ وغير منسجم مع ثيابه يشتريه عادة أثناء موسم التخفيضات. كان يملك حسّاً قويّاً من الفكاهة والسخرية بحيث يسخر بنفسه من قميصه. كان يُطلق على قميصه لقب «الأسبوعي» لكونه لم يكن يستبدله إلا مرّة واحدة في كلّ أسبوع. حينما كان يقرّر أخيراً أن يستحمّ، كان يحدث له أن يفعل ذلك وهو يرتدي القميص دون أن ينزعه! كان يعتبر أن ذلك يجعله هو الآخر نظيفاً. وقد أصبح ذلك نكتة بين أصدقائه حتى أطلقوا عليه لقب «شانشو»، أي الخنزير، والذي لم يثر غضبه بل جعله يضحك، إلى

---

(1) فوريبوندو: أي الغضوب أو الهائج أو الحانق.

درجة أنّه حينما بدأ بكتابة مقالات لمجلة **تاكل**[1] الخاصّة برياضة الرغبي، كان يوقّع عليها باسم «شانشو». استاء والدي من ذلك وغضِب. لم يرق له أن يسخر ابنه من نفسه ويجعل نفسه أضحوكة للآخرين وشعر بالإهانة على نحوٍ شخصي. بروحه المعتادة، وجد إرنستو مخرجاً لذلك حينما أخذ يوقّع على مقالاته باسم «شانغ شو».

لم يكن يهتم بمظهره الخارجي وبدا أنّه لا يدرك جاذبيته الجنسية. ومع ذلك، كانت الفتيات يحتشدن من حوله منذ مراهقته، يجذبهنّ بكل تأكيد سحره وشخصيته. في الحقيقة، كان يُقال إنّه مثير للإغراء للغاية، بعينيه الواسعتين المعبّرتين والمرحتين وشعره الأسود الكثّ والسميك وابتسامته السهلة. علاوة على ذلك، كان جريئاً ومتهوّراً ورياضياً ولامعاً ومثقّفاً. كان «كامل الأوصاف[2]»، كما يقول الأرجنتينيون. وبعد سنوات عديدة، روى لي صديقه ألبيرتو غرانادو (الأخ الأكبر لتوماس، أحد أقرب أصدقائه في آلتا غراسيا)، والذي انطلق معه على متن الدرّاجة النارية في تلك المغامرة الشهيرة التي كانت سبباً في ولادة كتاب **رحلة على متن دراجة نارية**، أنّ جميع صديقاته من دون استثناء كنّ يتوسّلن إليه لكي يُعرّفهن إلى الوسيم إرنستو.

كان أخي يعيش علاقاته الغرامية بنفس الطاقة التي يعيش بها بقية شؤون حياته. يُطرح عليّ غالباً السؤال عن غراميات إرنستو: «كيف كان مع النساء؟» وأنا أجيب دائماً: «لقد عرفتُ بعض مغامراته

---

(1) Tackle: وتعني «إيقاف الخصم» أو «اصطدام» في لعبة كرة الرغبي. -المترجم-

(2) Todo el paquete: أي «كامل الحزمة» وتعني «الكامل»، أي من يتوفّر فيه كلّ الصفات المرغوبة.

العاطفية. طبعاً كان يحبّ النساء». ببساطة، كان يحبّ بعضهنّ بطريقة أكثر احتشاماً وسريّة من سواهنّ. لقد أباح، ذات يوم، لصحافيّ، قائلاً: «لن أكون رجلاً، إن لم أحبّ النساء». . . لقد كان رجلاً لطيفاً! لقد تغزّل غزلاً رقيقاً جدّاً بأليدا مارش. كان يكتب لها قصائد جميلة، ويأخذ وقته لكي لا يباغتها ويطلب منها أن ترتّب ياقة قميصه حينما يقود السيارة أو أن تسرّح له شعره حينما كانت ذراعه مكسورة، أكثر من أن يحاول تقبيلها. كانت الفتاة الثورية تصغره سنّاً بثمانية أعوام وكانت تعتبره رجلاً ناضجاً. تروي في سيرتها الذاتية، أنّ عينيه كانتا تغري النساء مباشرة وبخاصّة بالطريقة التي ينظر بها إليهنّ. كانت لديه هالة من نوعٍ ما، كان رجلاً شجاعاً تنطبع شخصيته بالرجولة والشاعرية في آنٍ واحد. أُغرِم بها إرنستو في سييرا مايسترا. وقد أباح لها لاحقاً، في رسالة بعثها في عام 1965 من الكونغو، بأنّه اضطرّ إلى أن «يتجادل مع نفسه (لبعض الوقت) في صراعٍ داخلي حيث يتصارع الثوري الذي لا تشوبه شائبة والإنسان الآخر». كانت أوّل هدية يقدّمها إرنستو لأليدا عبارة عن زجاجة عطر من خلاصة زهرة كارون الصخرية.

قبل أليدا، كانت ماريا ديل كارمن فيرييرا حبّه الكبير في شبابه. في عام 1950، عاشت تلك الفتاة الجميلة مع إرنستو تجربتها الأولى في الحبّ من أوّل نظرة. كانت تشيشينا -كان هذا لقبها- تتحدّر من عائلة تنتمي إلى الطبقة البرجوازية الرفيعة. وقد عاشت حياة الثراء والترف بين قصر فيرييرا ومزرعة مالاغينا. كان آل جيفارا دي لا سيرنا من الهامشيين المعروفين الذين لا يملكون فلساً واحداً ولكنّ كان اسم عائلتنا لا يزال قادراً على أن يفتح لنا أبواب الطبقات

الراقية في المجتمع. على الرغم من أنّ مصاحبة الطبقات البرجوازية الرفيعة لم تكن بالنسبة إلينا أمراً مهمّاً أو مغرياً، ربّما باستثناء أبي. وفي كلّ الأحوال، ليس بالنسبة إلى إرنستو بكلّ تأكيد. وقع إرنستو في حبّ ابنة عائلة مرموقة حبّاً عاصفاً وجنونياً، وقع في حبّ فتاة وارثة وهو كلّ ما كان يكرهه سابقاً. كان آل فيريبيرا من ملاكي الأراضي الكبار ومحافظين للغاية.

إنّ التقارب بين أبناء طبقة البروليتاريا والفلاحين في آلتا غراسيا عزّز روح العداء الشديد عند أخي في مواجهة الظلم والجور. اعتاد أبي أن يروي أنّ ابنه البكر، حينما كان في سنّ مبكّرة جدّاً، لم يكن يتحمّل أيّ شكلٍ من أشكال الظلم والإجحاف وأنّه يثور غاضباً ضدّ ذلك. فعلى سبيل المثال، كان من المستحيل فرض أمرٍ عليه إذا ما اعتبره قسرياً. فكان يثور في موجة غضبٍ عاصفة لا تهدأ إلا بعد أن يتم تصحيح الموقف ويُقدَّم له الاعتذار. يدافع عن مواقفه مهما كلّف الثمن ويقدّم حججاً وأدلّة دامغة لا يمكن دحضها. يعي ويدرك أنّ طبقة اجتماعية تضطّهد طبقة أخرى وبدأ في سنّ مبكرة بالتمرّد على هذا الظلم والاضطهاد.

كنّا نعيش ظروف حياة متناقضة بين العوز والرخاء، حيث نعيش في شحّ في آلتا غراسيا، بينما نعيش في نوعٍ من البذخ المعقول حينما نقضي الصيف من كلّ سنة في ضيافة أقاربٍ لنا، أحوالهم ميسورة وأفضل من أحوالنا. كان إرنستو يلاحظ الفوارق والتناقضات بين نمط حياتهم الميسورة ونمط حياة بعض أصدقائه المحتاجين. فبات ينهمك في قراءة كتب الفلسفة لعلّه يجد تفسيراً لهذا التفاوت والتمييز. في بورتيلا، غالباً ما بحث عن صحبة الفقراء والمشرّدين

حصراً. كانوا يذهبون سويّة ويشربون المتّة تحت الجسور. كان دائماً يخرج عن المألوف وينظر إلى الأمور نظرة مختلفة عن السائد وينجزها بطريقة مختلفة ومميّزة. ليس لممارسة التأثير أو للفت الأنظار إليه؛ وإنّما فعلاً كان شخصاً متميّزاً وفريداً. كانت والدتي تشجّع فيه روح الاختلاف والتمايز هذه. وتدرك أنّ لديها ابناً استثنائياً، موهوباً في دراسته وبارعاً في لعبة الشطرنج بمستوى يكاد يكون احترافياً ويطوّر نظريات سياسية وفلسفية مذهلة ومفاجئة مقارنة بسنّه الصغير. فتسهر على الاعتناء بتغذية وإشباع تعطّشه للمعرفة. أمّا بالنسبة إلى والدي، فيعلّمه كيفية السيطرة على المرض من خلال تحفيزه جسدياً عبر ممارسة الرياضة. أصبح إرنستو رياضياً بارعاً قويّ العضلات. وبات يُرافق غالباً خالي خورخي في رحلاته المغامِرة والطائشة الجوية أو البحرية أو الجبلية. كانا على نفس الجرأة والإقدام. لم يكن هناك ما يسلّي خورخي أكثر من رؤيته لأخي إرنستو وهو يحلّ في بيوت كبار البرجوازيين ويجادلهم بأفكاره الاحتجاجية، وهو يرتدي ثياباً رثّة كفتى مسكين، ويراقب ردود فعلهم.

أمّا فوسر-شانشو، فقد كان يزور على نحوٍ خاصّ بيت آل فيريرا وهو يرتدي ثياباً تجعله يبدو مثل الآس البستوني. آنذاك، كان إرنستو يدرس في كلية الطب. في البداية، لم يكن أمام والديّ تشيشينا، وهما زوجان عصريان جدّاً، سوى أن يفكّرا في هذا الشخص المجنون. لقد سُحِرا بثقافته الواسعة وذكائه الحادّ وتعمّقه الدراسي والعلمي، واحتارا في أمر ثقته الكبيرة في نفسه وجرأته التي تصلُ إلى حدّ الوقاحة وثيابه الرثّة كثياب متشرّد وروح الفيلسوف التي يطفح بها. كانت الأفكار والآراء التي يطرحها ويدافع عنها بالنسبة

إليهما مجرّد هراء وترّهات. كانا يقنعان نفسيهما بأنّه لا يزال شاباً متحمّساً ولديه الوقت الكافي لكي يتغيّر مع تقدّمه بالعمر. وبانتظار ذلك، كانا يسهبان معه في أحاديثٍ مطوّلة في جوّ من البحبوحة المدهشة في صالوناتهم العديدة المحاطة بفناء واسعٍ. هل يمكن أن يصبح هذا الصبيّ المتمرّد، هذا الهيبي الثائر، ذات يوم، شريكاً مناسباً لابنتهما؟

تقدّم إرنستو، مرّتين، لطلب يد تشيشينا للزواج، وتمَّ رفضه من قبل الفتاة الحسناء. لطالما تساءلتُ في نفسي إذا ما كانت قد ندمت على رفضه بعدما تحوّل إلى بطلٍ أسطوري. من الناحية السياسية، أعتقد أنّ الجواب بالنفي لأنّها لم تؤمن على الإطلاق بأفكاره ولا بدَّ أنّها لم تكن لترغب في أن تكون زوجة رجلٍ ثائر. ومع ذلك، لم يتركها الصحافيون قط أن تعيش حياتها بهدوء.

شخصية فريدة

لقد كبرتُ وترعرعتُ في ظلّ إرنستو. لم أستطع على الإطلاق الإفلات منه والتخلّص من تأثيره. حتى عام 1956، لم أكن سوى خوان مارتن جيفارا، «إيل تن»، أو «باتاتن» أو «توديتو» كما كان يلقبني. بدءاً من عام 1957، أصبحتُ شقيق الثائر إرنستو جيفارا، رفيق فيدل كاسترو، المحارب الشجاع الذي لا يعرف الخوف طريقاً إلى قلبه، والذي تحوّل لاحقاً إلى أسطورة. تعلّمت أن أعيش معه. لم يكن هذا الأمر سهلاً على الدوام. كان غيابه المتكرّر يقلقني ويؤلمني، أمّا موته فقد حطّمني. أقول دائماً إنّه من الضروري أن يكون للمرء شقيقٌ. لقد حرّرت نفسي من الصورة التي تكاد تكون غير واقعية للشخصية العامّة، صورة الأيقونة. كان يجب أن يحصل ذلك. في بوينس آيرس، كانت صوره تملأ كلّ مكان: تزيّن الجدران والأرصفة. وكان رجال سياسة فاسدون يدّعون انتمائهم إليه في حين كان إرنستو يجسّد النزاهة والاستقامة. كان إرنستو مدافعاً شرساً عن الحقيقة أيّاً كان الثمن الذي يتطلّبه ذلك ويعفّ عمّا هو غير ضروري.

كان إرنستو في الخامسة عشرة من عمره حينما ولدتُ في كوردوبا، في حي تشيلي. كان آنذاك كالتيار الهوائي، يدخل ويخرج

ويسافر ويعود ومن ثمّ يغادر ثانية. كان يعيش حياته كما يحلو له. حينما كان يتواجد في البيت، كان يعاملني كما لو أنني ابنه. يؤكّد لي الشهود على تلك الفترة أنّ إرنستو كان يحبّني كثيراً ويعتني بي، ويأخذني في نزهات ويمسك بي بين ذراعيه ويلاطفني. كان والدي يقول إنّ إرنستو يكنّ وفاءً شديداً لعائلته وأسرته وأنّه كان ليدافع عنها بكلّ ما لديه من قوّة إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، وإنّه كان يبدي عطفاً ومودّة عليّ بحيث كنتُ أنا نقطة ضعفه. كان يرسل إليّ الرسائل خلال كلّ أسفاره ورحلاته. بالطبع أنا لا أتذكّر ذلك. وقد شعرتُ بمدى تلك المحبّة والحنان من خلال الصور أو من خلال إعادة قراءة رسائله: في الأوضاع والمواقف الأكثر صعوبة، كان يسأل عن أخباري، حينما لم يكن يكتب لي مباشرةً. ما أن أصبحت في عمر يسمح لي بفهم الأمور والتكلّم، اعتبرته قدوة لي. كان جريئاً وجسوراً إلى حدّ التهوّر ويقظاً وماكراً ومدهشاً ومغامراً. كما كان شديد الإخلاص والوفاء غير مهتمّ بمصلحته الشخصية ويتميّز بنكران الذات. لم أعرفه قط في صورة الألم والعذاب التي تُظهَرُ لنا في بعض الأحيان. انظروا إلى صوره! إنّه يبتسم على الدوام، ويداعب ويمازح دون توقّف. كانت ابتسامته معدية تجعل كلّ من حوله يبتسم. كنّا نتناول، هو وأنا، غالباً وجبة الغداء معاً عند الظهيرة. لا أتذكّر أين كان الآخرون: ينصرف كلٌّ إلى مشاغله. كنتُ أعرف أنّه سيعود لتناول الغداء وكنتُ أنتظره. كنتُ أرغب في أن أستفيد أكثر ما أستطيع من حضوره لأنني كنتُ أعلم أنّه ضيف وسيعود إلى الرحيل. كنتُ أستلذّ وأستمتع بتلك اللحظات التي أمضيها معه. صحيحٌ أنّ إرنستو قد أصبح رحّالاً متنقّلاً في وقت مبكّرٍ جدّاً من عمره، إلاّ أنّه ظلّ متعلقاً بنا للغاية، وخاصة بأمّي. كان بمثابة شعاع

الشمس في بيتنا ولا يهمّني إن كان هذا الوصف يبدو مثل عبارة نمطية: كان هذا هو تماماً الأثر الذي يتركه في البيت. لا أدري كيف يمكنني أن أصفه بطريقة أخرى.

كان يروي لي حكايات طريفة وغريبة. كان ساخراً ويملك روح النكتة وقادراً على أن يبدي جدّية كبيرة مثلما كان قادراً على القيام بهزليات صبيانية. كان غالباً ما يطلب مني وبإلحاح وبشيءٍ من الغطرسة أن أعدّ له مشروب المتّة المفضّل لديه. كنتُ أستمتع كثيراً بغلي الماء له وأفرح كثيراً لكوني أستطيع أن أكون نافعاً له. وإذا ما برد الماء ونحن نثرثر، كان يحاول أن يرسلني من جديد إلى المطبخ لكي أقوم بإعادة تسخينه. كنتُ أرفض، فيتظاهر حينها بأنّه سيضربني. كنّا نتظاهر بأننا نتبادل اللكمات ومن ثمّ ينتهي بنا المطاف بالعناق.

كان أخاً رائعاً، بل كان أكثر من أخ: كان صديقاً ورفيقاً وفيّاً ومخلصاً. ومع ذلك، كانت علاقاته معنا معقّدة. لم يكن يلعب دور الأخ الأكبر المسيطر والمهيمن علينا، وإنّما الأخ الذي يحمينا. بالنسبة إليه، العلم والمعرفة أساسيان وضروريان، كما كان الأمر بالنسبة إلى والديّ، لم يحاول أبداً أن يفرض عليّ شيئاً، بل فضّل أن يمارس تأثيره ودوره لكي يقنعني. كان يكفيني أن يقول: «أعتقد أنّه سيكون من المناسب أن تفعل كذا وكذا». كان الخروج معه بمثابة حريّة وفرح وبهجة. حينما يصحبني معه إلى السينما، كان ذلك بمثابة عيد بالنسبة إليّ.

كان يتصرّف بنفس الطريقة مع بقية أخوتي وأخواتي، وإن كانت طبيعة علاقاته معهم مختلفة. كانت سيليا وآنا ماريا تحبّانه أيضاً حبّاً كبيراً. لم تكنا على وفاقٍ وتفاهم دائم بينهما -بل وصل الأمر بهما أحياناً إلى أن تتبادلان الحقد في بعض الفترات- ولكنّ مع إرنستو

كان كلّ شيء يسير على ما يرام. كانت سيليا -وظلّت- صعبة المراس جدّاً، لكي لا أقول كان من المستحيل التفاهم معها. كان من الممكن أن تكون ضحوكة في بعض الأحيان، ولكن الجدّية والصرامة كانتا طبيعتها السائدة. حينما بدأ إرنستو بقراءة أعمال كارل ماركس، بدأت هي بتقليده في هذا الأمر. كانت تسير في إثره وعلى خطاه، واثقة من أحكامه وخياراته. أصابها موت إرنستو في مقتل وحطّمها. لقد شعرت بألم لا يُطاق ظلّ يعتمل في داخلها إلى الأبد. كلّنا لم نتقبّل فكرة موته، لكنّ سيليا، من بيننا جميعاً، ظلت ترفض لزمنٍ طويل فكرة موته. حتى بعد عودة روبرتو من بوليفيا، رفضت أن تصدّق حقيقة موته. ظلّت تتشبّث بالتناقضات والشكوك. لم تذهب قط إلى كيبرادا ديل يورو لأنّها لم تستطع أن تتحمّل ذلك. حتى يومنا هذا، تكاد لا تستطيع أن تشاهد فيلماً وثائقياً حول تشي. إذا ما شاهدت مشهداً يظهر فيه إرنستو ميّتاً، تخفي وجهها بين يديها. لقد نذرت على نفسها ألّا تتحدّث عنه إلى الإعلام على الإطلاق وهي لا تزال ملتزمة بوعدها هذا. لقد عاتبتني بأنني أصبحتُ أتحدّث كثيراً لوسائل الإعلام وامتعضت من كوني أتحدّث عن إرنستو. تعتبر أنّ إرنستو شأنٌ يخصّ الإطار العائلي الخاصّ والمقدّس. الأمور بالنسبة إليها إمّا بيضاء وإمّا سوداء. هي لا تعرف اللون الرمادي. تستمرّ في التصرّف كأخت كبرى وتنسى أنني أبلغ من العمر اثنين وسبعين عاماً! لم أستطع أن أحدّثها عن أمر هذا الكتاب.

إلى حين بلوغه سنّ المراهقة، كان روبرتو وإرنستو قريبين جدّاً من بعضهما ومتفاهمين تماماً. كانا يسيران مع نفس الثلّة من الأصدقاء. لم يكن روبرتو على نفس درجة إرنستو من الطيش والتسكّع، بل يميل إلى الاستقرار والتعقّل. وإذ كان طالباً مجدّاً،

أكمل دراسته متفوّقاً وأصبح محامياً ومن ثمّ تزوّج فتاة من «عائلة مرموقة»، وهي ماتيلد ليزيكا، والتي أنجب منها خمسة أطفال واستقرا في سان إيزيدرو، قبل أن ينفصل عنها ويتزوّج للمرّة الثانية وينجب طفلين آخرَين من زوجته الجديدة. كان يقوم بكلّ شيء وفق معايير وضوابط دقيقة. لكنّه أيضاً كان مشاكساً محبّاً للمشاجرة. كان من نوع من يركلك من تحت الطاولة ومن ثمّ يعاتبك ويلومك على أنّك قد احتككت به. كان ما يجمعه من صفة مشتركة مع إرنستو إرادته الحديدية. أتذكّره جيّداً حينما شارك ذات يومٍ في ماراتون مع الأصدقاء جرى في الحيّ. كان مسار السباق يمرّ من أمام بيتنا. بعد قطع مسافة بضعة كيلومترات، ترك الآخرون السباق وهم يمرّون من أمام منزلنا. كانوا يسخرون تماماً من السباق لكونهم لم يأخذوه على محمل الجدّ. أمّا روبرتو، فكان على العكس من ذلك تماماً! لقد واصل السباق حتى النهاية. كرجلٍ جدير بحمل لقب آل جيفارا، كانت فكرة أن يتراجع غير واردة بالنسبة إليه أبداً. لقد أكمل الماراتون منهكاً تماماً وفي حالة يُرثى لها إلى درجة أنّنا اضطررنا إلى حمله حتى وصلنا إلى البيت. وقد قضى بضعة أيامٍ لكي يستعيد عافيته.

من بين ثلاثة أبناء، كان روبرتو أفضل من يستجيب لتوقّعات وآمال أبي. كان روبرتو بمثابة ظلّ إرنستو ولكنّه مع ذلك كان يخطّط من وراء ظهره. كان إرنستو مميّزاً في كلّ شيء، ويستمتع بأسفاره ويُظهر شخصيته على المسرح العائلي ومن ثمّ المحلّي، فالوطني وأخيراً العالمي. لقد نجح إرنستو على كلّ المستويات. لم يكن ذلك أمراً سهلاً بالنسبة إلى روبرتو على الرغم من أنّه لم يكن غيوراً ولا حسوداً. لم تثر السياسة اهتمامه على نحو خاصّ. لكنّه انخرط فيها في نهاية المطاف، مجبراً ومكرهاً تحت ضغط التطوّرات

والأحداث: موت إرنستو أوّلاً، ثمّ اعتقالي إبّان حكم الديكتاتورية العسكرية. وقد ترسّخت فيه الروح النضالية وتكرّست مع مرور السنوات، لدرجة أنّه وجد نفسه مسجوناً في المكسيك في عام 1981 -حاله كحال إرنستو في عام 1956- بسبب نشاطاته القيادية في صفوف حزب العمال الثوري (PRT)، وهو الحزب الذي من أجله تمَّ توقيفي بعد ذلك بستّ سنوات. في فترة اعتقالي، كان يعيش في المنفى، هارباً إلى الخارج لكي يفلت من حملة القمع البغيضة التي أغرقت الأرجنتين في الدماء. وقد ظلّ يمارس نشاطاته السياسية عن بُعد. علينا ألا ننسى بأنّه في الفترة الممتدّة من عام 1957 وحتى عام 1983، كان كون المرء من أقارب تشي جيفارا وحده كافياً ليكون معرّضاً للمخاطر.

وإذا كانت سيليا قد ظلّت ملتزمة ومناضلة، فلأنّها قد اندفعت بعنادٍ في الساحة السياسة في تلك الحقبة متجاهلة وغير آبهة بالمخاطر المحدقة بها. تزوّجت ومن ثمّ تطلّقت بعد عدّة سنوات من دون أن تنجب أطفالاً. خلال السنوات العصيبة، التي بدأت مع عام 1974 -قبل الانقلاب العسكري في 24 مارس من عام 1976- والتي امتدّت لغاية عام 1984، حاول روبرتو وسيليا -من دون جدوى- الترافع في قضيّتي والدفاع عنّي معرّضين بذلك حياتهما للخطر. كان زبانية الديكتاتورية لا يتردّدون على الإطلاق في ملاحقة «المخرّبين» أينما وجدوا لتصفيتهم والقضاء عليهم.

كانت آنا ماريا الأكثر تواضعاً وانزواءً منّا جميعاً. بعد زواجها من فرناندو «بوتيت» شافيز، الأستاذ في الجامعة والمناضل في صفوف حزب العمال الثوري، والذي تعرّض هو الآخر إلى الاعتقال السياسي، ذهبت لكي تعيش في الريف، فأقامت في البداية في

توكومان ومن ثمّ في جوجوي. كانت عنيدة مثل سيليا ولكنّها أيضاً مثابرة ومجتهدة: فقد تابعت دراستها للهندسة المعمارية في فترات حملها. كان من غير الوارد لديها أن تستسلم وتترك دراستها بسبب إنجابها لخمسة أطفال.

كان البعض من بيننا، نحن الأخوة والأخوات، يتفاهم على نحوٍ أفضل من الآخرين مع أمّي، بينما يتفاهم بعضنا الآخر مع أبي على نحو أفضل. من جانب أمّي: كنّا، إرنستو وأنا، أكثر من يتفاهم ويتوافق معها. من جانب أبي: كان روبرتو وآنا ماريا الأكثر تفاهماً وتوافقاً معه. أمّا سيليا، فكانت تتأرجح بين الفريقين بحسب الظروف والنزاعات الناشئة بيننا. كان إرنستو الأب وإرنستو الابن غالباً في نزاع وشجار. كان الأب يأخذ على ابنه آرائه السياسية وترحاله الدائم. بينما يأخذ الابن على والده عدم إحساسه بالمسؤولية وتقلّباته وعدم ثباته. على سبيل المثال: في رسالة مرسلة إلى أمّي من بوغوتا في عام 1952، يكتب إرنستو: «فلينشط العجوز ولينطلق إلى فنزويلا؛ حيث الحياة هناك أكثر غلاءً من هنا بكثير، ولكن أيضاً يدفعون هناك أجوراً أفضل بكثير من هنا، وبالتالي هذا خيارٌ ممتاز بالنسبة إلى شخصٍ مقتصد (!!!) مثله... أبي يجمع بين الذكاء والرعونة». أتصوّر أنّ أخي كان يتألّم لرؤية والدتنا وهي تعيسة. لقد أدّت خيانات زوجها وحالة عدم الأمان في أوضاعهما في النهاية إلى إرهاقها وإنهاكها. وقد أصبح انفصالهما، الذي تقرّر في آلتا غراسيا، واقعاً وحقيقة في بوينس آيرس. ومع ذلك ظلّت مسألة انفصالهما غامضة تماماً.

حينما كان في السادسة عشرة من عمره، انتسب إرنستو إلى كلية

كوردوبا لكي يدرس الهندسة ويبقى قريباً من تشيشينا. ظلّ يتردّد على أصدقائه كارلوس «كاليكو» فيرر والأخوين توماس وألبيرتو «ميال» غرانادو. ولكي يؤمّن احتياجاته ويعيل نفسه بنفسه، عمل في شركة الطرق البلدية التابعة للإدارة الإقليمية في فياليداد. في حين كان والداي قد قرّرا إعادة العائلة إلى بوينس آيرس. في البداية، أقمنا في منزل جدّتي لجهة أبي، ومن ثمّ، وبفضل النذر اليسير من الإرث الذي حصلت عليه أمّي في النهاية من خلال الدعوة القضائية التي رفعتها ضدّ عائلتها، اشترينا منزلاً قديماً متهالكاً في 2180 من شارع آراوز، في زاوية شارع مانسيلا، في حيّ باليرمو. في أيامنا، كان حيّ باليرمو يضجّ بالسكان. في تلك الفترة، كانت هذه الزاوية من الشارع تمثّل حدوداً فاصلة بين شارعي مانسيلا وسانتا في، حيث كنّا نلج إلى عهد العصرنة. في الاتجاه الآخر، كنّا نصل إلى الضواحي السيئة السمعة وأسواق البراغيث (أسواق البضائع الرديئة والتالفة) ومحالج القطن وأوكار البلطجية.

كان بيتنا عبارة عن مسكن قديم مبنيّ من الحجر. كان جميلاً ولكن لم يتمّ الاعتناء به جيّداً. بيتٌ مكوّن من طابقين يحتوي على أربع غرف صغيرة مع فناء واسع وشرفتين فسيحتين وقبو البيت عبارة عن مرآب للسيارات ولكننا لم نعد نمتلك سيارة. يتمّ الوصول إلى الطابق الأوّل عبر سُلَّم خشبي قديم متهالك وقاتم اللون. في الأيام الأولى من إقامتنا فيه، لم يُقفل باب المدخل أبداً لأنّه لا أحد كان يعلم أين اختفى المفتاح. وحينما عثرنا عليه أخيراً، كان ذلك لنضيّعه من جديد. لم تكن التفاصيل العملية من هذا النوع تهمّنا في شيء. كم من المرّات اضطررتُ إلى أن أصعد واجهة البيت وأنا أتشبّث بالمزراب لكي أفتح الباب. كان المارة والجيران ينظرون إليّ

مندهشين. لم يكن ذلك يزعج والديّ أبداً. لقد أدركتُ في تلك المرحلة بأنني بفضلهما، لم أكن أخجل على الإطلاق من أيّ شيء!

كان البيت من الداخل بمثابة نكتة حيث تدبّ الفوضى في كلّ أرجائه ويعمّ الخراب في كلّ أقسامه. كان دهان الجدران متقشراً والأسقف رطبة وتُرشّح ماءً وتفتقر الأرضيات إلى الألواح. لم يرمّم أحدٌ أيّ شيءٍ فيه. ذات صباح، تعطّل سخّان الماء. وبعد ذلك بعدّة أيام، انخلعت نافذة الحمّام بحيث أنّنا لم نعد نستحمّ منذ ذلك الحين بالماء البارد فحسب بل كان علينا أن نتحمّل أيضاً الرياح الجليدية التي كانت تندفع إلى داخل الحجرة في الشتاء. أصبح الاستحمام محنة وعذاباً أليماً. انخلع مقبض باب ثلّاجتنا ذات مساء بيد أحد ضيوفنا ولم يُستبدل المقبض، فكانت النتيجة أنّ من يفتحون باب الثلاجة كانوا يتعرّضون لشحنة كهربائية. وسرعان ما تحوّل هذا الهمّ إلى فكاهة ودعابة بحيث كنّا نرسل الزوّار إلى المطبخ ليجلبوا شيئاً ما من الثلّاجة، فنسمعهم وهم يصرخون ونستغرق في الضحك. كان لدينا القليل جدّاً من الأثاث في البيت وما كنّا نملكه كان رثّاً وبالياً. كانت طاولة السفرة في غرفة الطعام معوجّة السيقان ومزوّدة بمقعدين طويلين بلا مساند، نتصارع ونتشاجر دائماً لكي نشغل المقعد المسند على الجدار حتى نستطيع أن نسند ظهرنا إلى الجدار.

ومع ذلك، وكعرفٍ بالنسبة إلينا، كانت لدينا مكتبة متنوّعة ومشهورة. كان أصدقاؤنا ينهلون المعرفة من كتبها. كانوا يؤكّدون أنّ كتبنا قد فتحت أعينهم وجعلتهم يطرحون الأسئلة حول الآراء المحافظة لوالديهم. كانت والدتي مربّية: كانت تنصحهم بقراءات مختارة ومن ثمّ تتحدّث معهم عن السياسة والأدب والتاريخ والفلسفة والدين، الأمر الذي جعلها تحظى بشعبية واسعة بين فئة الشباب التي

كانت تتردّد باستمرار على منزلها. كانت الزيارات إلى بيتها كثيرة إلى درجة أنّها غالباً ما كانت تجهل أمي من يتواجد في البيت. كان «آراوز» داراً للشعب. حينما لم تكن أمي تطهو الطعام لضيق الوقت وكثرة الضيوف، كانت تُعدّ دائماً وعلى عجلٍ طبقاً من السلطة وتضع شرائح من اللحم على المشواة. ومع ذلك، كنّا نتناول في معظم الأحيان بيضاً وأرزّاً... وذلك لعدم امتلاكنا للأموال من أجل شراء شيء آخر. كان يطيب لأصدقائنا أن يردّدوا باستمرار بأنّ عائلتنا عائلة فريدة. وقد كانت فعلاً كذلك!

لم نكن نعرف تماماً أين يسكن أبي. اشترى شقّة في وسط المدينة، في 2014 من شارع باراغواي وأعطى مفتاحها لكلّ أصدقائنا لكي يتمكّنوا من الدراسة فيها بهدوء. ولكنّه كان ينام في بعض الأحيان في بيتنا ويحدث أحياناً أن يمضي قيلولته أيضاً فيه، سواء في غرفة الطعام أو في أحد الأسرّة الموضوعة فوق بعضها في غرفتنا، أي غرفة الصبيان. وكان دائماً يستلقي في السرير العلوي الذي يسقط منه أحياناً. كان في معظم الأوقات غائباً عن البيت وحتى حينما يحضر، كنت أتساءل حول ما بوسعه أن يقدّمه لنا.

كان والداي يختلفان ويتشاجران كثيراً. وحينما يحصل الشجار، كان من الأفضل لنا أن نفرّ من البيت. فجأةً، كنتُ أشعر بالقلق أكثر حينما أعلم أنّهما مع بعضهما. كان والدي لاعباً سيئاً للغاية. ذات يوم، حينما خسر لعبة الشطرنج أمام أمّي في حديقة بورتيلا، كاد أن يضربها. كانت فكرة الهزيمة لا تُحتَمل بالنسبة إلى أبي. حينما لاحت علامات هزيمته في الأفق، ظهرت دلالات تعكّر مزاجه من خلال تنهيدات غاضبة وعبوس وتقطيب الجبين. ثمّ فجأةً، نهض متوثّباً وقلب الطاولة وبعثر كلّ قطع الشطرنج. فاستشاطت أمّي

غضباً من جهتها بسبب تصرّفه هذا. فصرخ أبي فيها حانقاً: «ولكن كيف يمكنك أن تعتقدي بأنني قد فعلت هذا عمداً؟». لم يكن أبي يتردّد في ممارسة الغشّ لكي يفوز في اللعبة.

أُصيبَت جدّتي لينش بنزيفٍ دماغي. وما أن علم إرنستو بذلك، حتى ترك كلّ شيء في كوردوبا لكي يعود على الفور إلى بوينس آيرس. ظلّ إلى جانب سريرها، يحاول أن يجعلها تأكل وتشرب ويمسّد جبينها بصبرٍ لا ينفد. ولكنّه لم يستطع أن يفعل لها شيئاً، فقد توفيت بعد سبعة عشر يوماً من بدء مرضها.

أقام إرنستو في غرفتنا. كانت الغرفة ضيّقة ولكنّها تطلّ على شرفة واسعة. وكانت مفروشة بأسرّة موضوعة فوق بعضها وبمشجبٍ لتعليق الثياب وخزانة ثياب ورفّين وطاولة تتكدّس فوقها الكتب. ولأنني كنتُ الأصغر سنّاً من بين أشقائي، أرسلوني لأنام على الأريكة المتهالكة في غرفة الطعام ولكنّ ذلك لم يزعجني: فقد جاء إرنستو هذه المرّة لكي يبقى! كانت فرحتي كبيرة بذلك. لقد انتسب إلى كليّة الطب، وهو الفرع الذي تدرسه صديقته الأقرب بيرتا غيلدا «تيتا» إنفانتي. وعلى الفور، أصبحا لا يفترقان أبداً وشرعا بتقاسم اكتشافاتهما الأدبية والفلسفية والسياسية والطبية. حينما أبعدت الحياة أحدهما عن الآخر وفرّقت بينهما، احتفظا بعلاقتهما بفضل المراسلات الكثيفة الحميمية والرائعة، والتي استمرت حتى النهاية. كتبت تيتا أجمل نصّ يُكتب على الإطلاق عن تشي[1].

كانت درجات إرنستو الدراسية معقولة ولكنّه لم يكن متفوّقاً في

---

(1) وقد قمنا بإعادة نشر مقاطع مقتبسة منها في الفصل الأخير من هذا الكتاب.

الكلّية. تميّز بقدرته على أن يفهم ويستوعب عدداً كبيراً من الدروس في آن واحد. هل كان يحبّ دراسته؟ كلّا بالتأكيد. ذات يوم، عانت آنا ماريا وصديقتها أولغا من نوبة حساسية بدت أنّها حالة أكزيما. تغطّت سيقانهما على نحوٍ مفاجئ ببقعٍ حمراء اللون. قلقتا من جراء ذلك فاستشارتا إرنستو. أجابهما في ضحكة مجلجلة: «وما أدراني أنا؟ اذهبا إلى الطبيب!». كانت أولغا تخاف منه، أو بالأحرى كانت خجولة جدّاً في حضوره. كان يضايقها دائماً ويمازحها دون أن تعرف قط كيف تردّ عليه. كان إرنستو سريع البديهة ولاذعاً في تعليقاته أحياناً، ذكيّاً جدّاً ولعوباً مع الفتيات على نحوٍ خاصّ. كان ذلك يسلّيه ويفرحه. كانت النساء، في حضوره، يبدون مستسلمات.

عندما بدأ بالاختصاص في أمراض الحساسية تحت إشراف البروفيسور بيساني، وهو أخصّائي شهير في أمراض الحساسية، شرع باستخدامنا كحقول لتجاربه ولكنّنا رفضنا جميعاً ذلك. فمع إرنستو، لا يعرف المرء أبداً ما ينتظره! وفي الحقيقة، حينما وافق أحد الأصدقاء أخيراً على أن يخضع لتجاربه، تسبّب له إرنستو بعدّة التهابات أقعدته في فراش المرض. وبالتالي اقتصرت تجاربه واختباراته الطبّية على أرنبٍ وضعه إرنستو في الشرفة على الرغم من الاعتراضات الشديدة التي أبدتها أمي. لم يبالِ إرنستو باعتراضات والدتي. في تلك الفترة، ما عادت آراء أبي تهمّ أحداً وما عادت لديه أيّ سلطة علينا. بقي أن نقول إنّ الأرنب تمكّن من الإفلات من خلال القفز من الشرفة. صار سكان الحيّ بأكمله يبحثون عن الأرنب ويحاولون الإمساك به: كان جيراننا على قناعة بأنّ إرنستو سيكون قد لقّح الأرنب بجرثومة وأنّهم سيصابون جميعاً بالعدوى.

على غرار أبي، كان إرنستو يتنقّل بين عدّة منازل: منزل أمّي

ومنزل عمّتي بياتريز وكذلك الشقّة الواقعة في شارع باراغواي. نادراً ما كنّا نعرف مكان تواجده ولم يكن أحدٌ يطرح الأسئلة حول هذا الأمر. كان يظهر فجأة ويختفي فجأة. كان يحتاج إلى جوٍّ هادئ لكي يدرس بتركيز، في حين كان بيتنا في ثورة دائمة. في بيتنا، كان يفضّل الجلوس على الشرفة مع كتابٍ. حينما لم يكن في الكلية أو في متحف التاريخ الطبيعي مع تيتا إنفانتي، كان يملأ أوقات فراغه بالقراءة والكتابة ولعب الشطرنج ويحاول كسب بعض القروش. كان يبدو على الدوام في عجلة من أمره كما لو أنّ الوقت لا يكفيه. لقد انخرط في بعض المشاريع الغريبة وغير المنطقية لكي يكسب بعض المال. كان أوّل مشاريعه هو تصنيع مضاد حشري أعدّه في مرآب السيارات من خلال تجزئة المضاد الحيوي غاميكسان الممزوج بمسحوق للحصول على مضادّ للصراصير أطلق عليه اسم فيندافال ومن ثمّ اسم بريفيتا. وقد تمّت تعبئة المسحوق في علب مدوّرة خضراء اللون وقام ببيعها في الحيّ. وعلى الفور، عرض عليه والدي المساعدة وقدّم إليه بعض أصدقائه المستثمرين. كان جواب إرنستو هو: «ربّما تعتقد بأنّني سأدع أصدقاءك يقومون باستغلالي؟». كانت علاقات أبي جميعها مع شخصيات من مستويات رفيعة من سياسيين وأرباب الصناعة وملّاك الأراضي، وبالتالي كان إرنستو يرتاب منه بالأساس. اضطرّ لوقف صناعة وإنتاج المبيد فيندافال بعد بضعة أشهر: ليس فقط لأنّ منتوجه لم يلقَ النجاح والرواج المتوقعين، بل لأنّ المسحوق قد تسرّب إلى كلّ مكان وباتت رائحته لا تُطاق.

كانت أفكار إرنستو على الدوام غريبة الأطوار. وفي هذا المجال، كان يشبه أبي. بعد فشل مشروع إنتاج فيندافال، قرّر أن يشتري مجموعة من الأحذية من مركز كان يقوم بتصفية بضائعه لكي

يقوم بإعادة بيعها وجني بعض الأموال منها. حينما وصل إلى البيت، اكتشف أنّ البائع قد غشّه وباعه ما يقارب مئة فردة للقدم اليسرى فقط بدل أن يبيعه أزواجاً من الأحذية! وجد نفسه مع كلّ هذه الأحذية التي انتعل بجرأة بعض النماذج منها!

كانت إحدى أكبر مباهجه آنذاك هو أن ينجح في إعفاء نفسه من الخدمة العسكرية. كان يقول مومئاً إلى مرضه الربو: «هاتان الرئتان اللعينتان أفادتاني أخيراً في شيء». الزي العسكري الموحّد؟ كان لا يطيقه. كان يكره البروتوكول الذي كان والداي يقولان ضاحكين إنّ إرنستو لا يعرف حتى اسمه، وكان يسخر من البرجوازيين ويواصل عدم إعارة أيّ اهتمام بلباسه وهندامه.

كنتُ لا أزال طفلاً ولكنني مع ذلك كنتُ أدرك أنّ أخي الأكبر شخصية فريدة من نوعها. كنتُ أقارنه مع روبرتو الذي يتفاهم على نحو أفضل بكثير مع والدي ويتصرّف أكثر في هيئة جديرة بابن بورجوازيّ. كان أقلّ إثارة للمشاكل والقلاقل ويختلط مع أبناء وبنات الأسر الراقية ويمارس رياضة الرغبي في فريق سان إيزيدرو. في تلك الفترة، كانت رياضة الرغبي رياضة محصورة بالشباب والشابّات من أبناء الطبقة الثريّة. وقد سبق أن قلت إنّ إرنستو أيضاً كان ينتمي إلى هذا الفريق قبل أن يتوقّف عن ممارسة اللعبة، على الرغم من اعتراضات والدي. وقد اتّبعت فيما بعد نموذجه واتّخذته قدوة لي: كنتُ أكره هذا الوسط النخبوي.

اختلطتُ كثيراً مع كلّ فئات الناس، من البلطجية والمهمّشين. كنتُ أشعر بالراحة معهم. كنّا نلعب معاً كرة القدم في أجواء من النشوة التي نشعر بها من خلال الحرية في الشارع. تعلّمت معنى الصداقة وحرية التصرّف وقانون الصمت وقواعد السلوك التي أفادتني

كثيراً أثناء فترة اعتقالي. كان ألدّ أعدائنا هم رجال الشرطة. ذات مرّة، انتهى بي المطاف في مركز الشرطة بسبب جنحة صغيرة. كان الحيّ مليئاً بالبلطجية. كنّا نعرف أنشطتهم ولكن لم يخطر ببال أحدٍ منّا أن يذهب إلى شجبهم أو حتى استنكار أعمالهم السيئة. في حضورهم، كان عليّ أن أقلّل من الكلام، على الأقلّ إذا كنتُ أريد أن أستمرّ في عصابتهم. كانوا يتّهمونني بأنّني أتحدّث مثل شخصٍ كبيرٍ في العمر وأنّني ناضجٌ أكثر من عمري وأنني أعبّر عن آرائي بمنتهى اللباقة وهذا ما يتناقض مع قصر قامتي. كان الفضل في نضجي المبكر يعود إلى إرنستو. منذ أن كنتُ صغيراً، كان ينصحني بقراءات معيّنة ويشرح لي الأمور ويتحدّث لي عن السياسة كما لو أنّه يتحدّث إلى أحد أقرانه. لقد تأثّرت للغاية بأسلوب تربيته. كما علّمني سلسلة من البذاءات التي كنت أهرع وأردّدها على مسامع صديقات شقيقاتي. كان ذلك يصدمهنّ وكنت أروي ذلك لإرنستو: كان ينفجر ضاحكاً. كان إرنستو يمتلك حسّاً عميقاً في نقد ذاته. لم يكن يتساهل قطّ مع نفسه، ولا يتسامح مع أيّ شيء، ولا يمنح نفسه أي أفضلية أو امتياز. وسوف تتيح له صرامته واستقامته فيما بعد الحقّ في أن يكون متشدّداً مع الآخرين. ولكن لم يرغب الجميع في الخضوع لنظامه. كان منطقيّاً وصلباً لا يلين في نفس الوقت. بالنسبة إليه، كان الوقت يتوزّع بين القليل من أوقات الفراغ والتسلية والكثير من العمل الجادّ. لم يكن يتوقّف على الإطلاق، كان يواصل التفكير في المرحلة المقبلة وفي المشاريع المستقبلية. كان كالآلة! في كوبا، وبينما كان يمارس مهام وزير الصناعة ويعمل يومياً لمدة اثنتي عشرة أو أربع عشرة ساعة، كان يشارك أيضاً في قطع قصب السكّر في إطار برنامج العمل الطوعي الذي أقرّه بنفسه.

وقعت حادثة مهمّة حينما كنتُ طالباً في الثانوية. ربّما لا يعيرها الآخرون سوى أهمية بسيطة ونسبية، ولكن بالنسبة إليّ كطالبٍ في المرحلة الثانوية، وفي جوّ من الإلحاد والانشغال بالسياسة بدرجة فائقة، كانت تلك الحادثة بمثابة زلزالٍ وطوفان. أتحدّث هنا عن سنّ القانون رقم 1420 الخاصّ بالتعليم العامّ، العلماني والمجانيّ، والذي يسعى إلى إعادة تدريس مادة الدين في المدرسة. انخرطتُ مع بعض الطلبة في الكفاح ضدّ هذا القانون. وكانت تلك مواجهتي الأولى مع القمع ومع اليمين المدني. وقد أصبحت مع زملائي أحد المؤسسين لمنظّمة «مركز الطلبة». وفي تلك المرحلة بالذات بدأ عملي النضالي.

كانت والدتي تدعمني في نشاطي هذا. وهي الشخصية الأخرى التي ساهمت في صياغة شخصيتي بما أصبحتُ عليه. وإذا كنتُ أمضي الكثير من الوقت في الشارع، فذلك لأنني كنتُ حرّاً كنسمة هواء ولأنّها كانت قد تعبت من تربية الأطفال. كنتُ في السابعة من عمري، حين أُصيبت أمّي للمرّة الثانية بمرض السرطان -كانت قد أُصيب للمرّة الأولى بعد ولادتي مباشرةً- وتمَّ استئصال ثدييها. غاب أبي مطوّلاً أثناء تلك المحنة التي ألمّت بأسرتنا. وكان يُشَكّ آنذاك بأنّه على علاقة مع عشيقة جديدة. وعلى العكس من أبي، كان إرنستو دائم الحضور. كانت أمي لا تزال سنده. عكف على دراسة مرضها بجدّ وحماسٍ شديدين لأنّه كان يريد أن يكون قادراً على معالجتها وإيجاد الأدوية الناجعة لها.

كانت العلاقات مع والدي قد أصبحت حقّاً صعبة للغاية تشوبها النزاعات والمشاجرات الدائمة. ما أن تتاح له الفرصة حتى يبدأ بافتعال المشاكل والاعتراضات التافهة. بدأ والدي يغضب من هذا

الابن الذي يحمل أفكاراً صارمة جدّاً. كما أنّه فقد أيّ تأثيرٍ عليه. كان من المستحيل أن يتم ضبط إرنستو والتحكّم به. أصبح يبدي رغبته في التوقّف عن دراسة الطبّ لكي يسافر. كان يحلم بالمغامرات. كان إرنستو مسيّساً للغاية، وحينما اقترح عليه ابن خالتنا غييرمو مور دي لا سيرنا أن ينضمّ إلى الحركة المناهضة لحكم بيرون، والتي كان ينشط في صفوفها، أجاب إرنستو: «كلا، كلا، هذا لا يثير اهتمامي». أعتقد بأنّه يستطيع أن يروي ظمأه إلى الأسفار من خلال التوظيف كممرّضٍ على ناقلة نفطٍ تابعة لشركة النفط الوطنية YPF خلال فصل الصيف. ناقلة نفط، تخيّلوا قليلاً! لم ترق الفكرة أبداً لوالديّ، ولكن، طبقاً لقواعد فلسفتهما، لم يتدخّلا في الأمر ولم يفرضا عليه موقفاً. في كوردوبا، وقبل ذلك التاريخ ببضع سنوات، حينما كانا في الرابعة عشرة والحادية عشرة من عمرهما، كان إرنستو وروبرتو قد قرّرا ذات صباح أن يذهبا ويعملا في قطاف العنب. كانت الكروم بعيدة. فاستقلا الحافلة ومن ثمّ سارا مشياً على الأقدام لبضعة كيلومترات إلى أن وصلا إليها. أثار مشروعهما قلق والديّ كثيراً ولكنّهما لم يمنعاهما وتركاهما ينفّذان رغبتهما. عاد شقيقاي مريضين ككلبين بعد عدّة أيام: كانا قد تناولا الكثير من العنب. في تلك الفترة، كان العنب يُعتَبَر من الفاكهة الفاخرة.

أشعرت التجربة الفاشلة في مجال النفط إرنستو بمرارة وخيبة أمل، فبدل أن يتمتّع برؤية مناظر البلاد، لم يستطع أن يشاهد لعدّة أشهر سوى أعمدة وحبال سفينة ناقلة للنفط. وقد جعلته تلك الرحلة البحرية أن يقتنع بأنّ عليه من الآن فصاعداً أن يتجوّل في البلاد عبر الطرق البرية.

«البلد الأميركي الأفضل تغذية»

غالباً ما كانوا يسألونني عمّا أشعر به عندما يغادر إرنستو. ربّما كان الأحرى بهم أن يسألوني السؤال التالي: ما الذي تشعر به عندما يعود إرنستو، لأنّه كان على الدوام ارتجالياً في تنقّلاته يغادر فجأةً ويعود فجأةً من دون ترتيب أو إعداد، ولذلك كان دائماً يباغتنا بعودته. عندما كان يعود بعد غياب، كان ذلك بالنسبة إلينا بمثابة عيد واحتفال. كانت تتعالى صيحات التهليل والابتهاج وسط أفراد العائلة. «آه، أوه، لقد عاد إرنستو، إرنستو هنا!»، وكنّا نتّصل هاتفياً بالآخرين لنعلمهم بعودة إرنستو. كان جميع أفراد العائلة من والديّ وأشقائي وشقيقاتي وأخوالي وأعمامي وعمّاتي وأبناء عمومتي وأخوالي وخالاتي يرغبون في أن يروه ويستمعوا إليه.

كنتُ لا أزال صغيراً في تلك الفترة، ولكنّني أتذكّر تماماً حالة الغليان والهيجان التي تسبّب بها رحيله في الأوّل من شهر ديسمبر من عام 1950، وهي رحلته الأولى من بين سلسلة طويلة من الرحلات التي تبعده، في كلّ مرّة، عن الأرجنتين أكثر. كان في الحادية والعشرين من عمره وانطلق في رحلة طويلة بواسطة درّاجة وفي جيبه

مبلغ زهيد جدّاً من المال. وقد رفض آنذاك أن يتلقى أي مساعدة مالية من والديّ: كان حريصاً على أن يتدبّر أمره بنفسه وبمفرده.

كان خالي خورخي دي لا سيرنا قد ركّب محرّكاً صغيراً من ماركة ميكرون على درّاجته لكي يخفّف عليه جهد السفر. قبل أن يشرع بالانطلاق في رحلته، وقف إرنستو على درّاجته أمام المنزل لكي يلتقط صورة وهو يعتمر قبّعة ويضع نظّارة شمسية على أنفه ويحمل إطاراً احتياطياً وحزمة من الأغراض على كرسيّ الأمتعة. كنا نقف جميعاً في الشارع ونراه وهو يتوارى عن الأنظار في عمق الطريق المحاط بالأشجار. كانت غايته الوصول إلى شمال الأرجنتين دون أن يكون له هدفٍ محدّد، سوى أن يبتعد بأقصى ما أوتي من قوّة. كان يأمل في أن يكتشف سان خوان، سان لويس، ميندوزا، سالتا، جوجوي، توكومان. كانت بعض هذه الأقاليم لا تزال متخلّفة من الناحية التنموية. وإذا كانت بوينس آيرس مدينة عصرية، فقد كانت مقاطعات شمال البلاد مقاطعات غريبة على التقدّم والازدهار ومتخّلفة جدّاً. اليوم، أصبح الشمال الأرجنتيني منطقة عصرية جدّاً. في تلك الحقبة، كان الشمال عالماً آخر، عالماً منسيّاً ومهملاً. عالمٌ يذكّر مواطني العاصمة بأنّ الأرجنتين ليست بلداً أوروبيّاً وإنّما بلدٌ يقع في أميركا الجنوبية.

كانت المناظر الطبيعية في شمال البلاد -وما زالت- مذهلة ومدهشة. تُعتَبَر منطقة توكومان الخضراء والجبلية بمثابة حديقة الجمهورية. تمتدّ الوديان الشاسعة والمزروعة بكروم العنب لمنطقة ميندوزا على مدّ البصر وبلا حدود في ظلّ سلسلة جبال الأنديز وقممها المغطاة بالثلوج. وكانت منطقة سالتا شهيرة بأشجار الصبّار العملاقة وبصخورها القرمزية اللون وبهضابها المتماوجة الشبيهة

بأمواج البحر وبمدنها الكولونيالية ببيوتها البيضاء. بينما تقع منطقة جوجوي في سلسلة جبال الأنديز، قريبة جدّاً في ملامحها من بوليفيا من خلال قراها الجميلة المبنية باللَبِن الطيني في حماية سلسلة جبال كيبرادا دي هوماهواجا الشهيرة وهي سلسلة جبلية مخطّطة بسبعة ألوان بهيّة.

توقّف إرنستو في محطّته الأولى في آلتا غراسيا في بيت توماس غرانادو. في سان فرانسيسكو ديل شانار، قام بزيارة صديقه ألبيرتو «ميال»، والذي كان مختصّاً بالكيمياء الحيوية ويعمل في مشفى خاصّ بأمراض الجذام. هناك، واجه إرنستو للمرّة الأولى في حياته البؤس الشديد. وقد شوّش ذلك ذهنه بعمق.

خلال بضعة أشهر، اجتاز اثني عشر إقليماً وقطع مسافة حوالي 4500 كيلومتر. وعاش مغامرات لا تُنسى. في الطريق، تعرّف إلى السكان من الهنود الأيماراس وتقاسم معهم العيش تحت أسقفهم وشاركهم أرزاقهم الضئيلة. وتعلّم أن يقضي ليالي صقيعية في العراء ويمضي أياماً من دون طعام. وتغلّب على الربو الذي كان يعاني منه بمفرده وبرهن للمشكّكين -وربّما لنفسه- أنّه قادرٌ على يقوم على أكمل وجه برحلة بهذا الحجم.

خلال تلك الفترة، في بوينس آيرس، كان والداي يعانيان من اليأس والملل ينهشهما القلق. كانت الأخبار نادرة. كانا يعتقدان أنّ إرنستو في أوضاعٍ محفوفة بالمخاطر بسبب مرض الربو من جهة، وبسبب ميله إلى المخاطرة من جهة أخرى. لم يسبق له أن ابتعد عنهما بمفرده لهذه المسافة الطويلة من قبل. كان قد أطلق العنان لنفسه في مناطق لا يعرف فيها أحداً. ومع ذلك، نشرت صحيفة **إلتروبيكو** المحلية في إقليم توكومان أوّل مقالة عنه، مقالة قصيرة

تحت عنوان: «Guevara, un joven raidista cumplirá una extensa gira»، أي «جيفارا، رحّالة شابّ، يقوم بجولة طويلة». بطريقة أو بأخرى، كان إرنستو قد نجح في لفت الانتباه إليه في توكومان وإن كانت الأخبار لا تصل إلينا. في تلك الفترة، كان توزيع الصحف المحليّة يقتصر على المنطقة التي تصدر فيها هذه الصحف.

بعد ثلاثة أشهر، عاد إرنستو سليماً معافى. عمّت فرحة العيد بيتنا من جديد. كانت لديه قصص كثيرة لكي يرويها! كان قد تغيّر وربّما أصبحت بشرته غامقة أكثر. لم يراودنا الشكّ بأنّ القلق بسبب تلك المغامرة الأولى لم يكن سوى مقدّمة لسلسلة من حالات الذعر والهلع للعائلة في الأيام المقبلة. في الواقع، سوف لن يتوقّف إرنستو عن الرحيل. بعيداً عن إرواء تعطّشه إلى السفر، منحته هذه الرحلة المغامرة التجربة وأنضجت تفكيره. وقد كتب في يومياته آنذاك: «لقد تبيّن لي أنّ هذا الأمر، والذي نما على نحوٍ واسعٍ في ضميري كمواطن مديني، قد نضج وتعمّق: إنّه الحقد على التمدّن كصورة تقريبية فظّة لحشدٍ غفيرٍ يتحرّك كمعتوهٍ على إيقاع هذا الصخب الرهيب؛ ويبدو لي أنّ هذا هو نقيض السلام».

لقد أنهى الرحلة وهو يقود الدرّاجة باستخدام الدوّاسة لأنّ محرّك ميكرون كان قد تعطّل. أخذه إلى مصلّح في بوينس آيرس لكي يقوم بإصلاحه، لكنّ المصلّح اكتشف أنّ المحرّك قد اهترأ لطول المسافة التي عمل خلالها واقترح عليه أن يعطيه محرّكاً جديداً إذا ما وافق على الترويج لمزايا محرّك ميكرون في إعلانٍ تجاري. وكانت تلك هي المرّة الثانية التي تظهر فيها صورة إرنستو في صحيفة.

أخيراً، التأم شمل العائلة من جديد. وحده أبي كان يذهب ويأتي بحسب أهوائه ورغباته. كان روبرتو يتابع دراسته في كليّة القانون؛ وانتسبت سيليا إلى كليّة الهندسة المعمارية؛ وكانت آنا ماريا في المدرسة الثانوية، بينما كنتُ أنا في المدرسة الابتدائية. لم أكن أدرس جيّداً. لم تكن الدراسة رغبتي على الإطلاق. كنتُ حالة شاذّة في الدراسة مقارنة مع أخوتي وأخواتي. كنتُ أفضّل مدرسة الشارع والكرة. كان إرنستو قلقاً من افتقاري إلى النشاط والحيوية المدرسية. كان يوبّخني ويؤنّبني على ذلك على الدّوام ويكرّر علي باستمرار: «يجب أن تجتهد وتدرس وتتعلّم».

كان قد استأنف دراسته في كليّة الطب وينام غالباً في منزل عمّتي بياتريز التي تعتني به وتسهر عليه بمنتهى الحرص. حينما كان يعود إلى البيت، غالباً ما كان يعود ومعه أحد أصدقائه فيقيمان في الغرفة لكي يدرسا معاً. كانت أمّي قد وظّفت مستخدمة منزلية بوليفية اسمها سابينا بورتوغال (لم يكن هذا هو اسمها الحقيقي، الذي كان صعباً للغاية على اللفظ، ومثل الكثير من هنديات ألتيبلانو، اخترعت لنفسها اسماً إسبانياً). كانت سابينا تنتمي إلى قبيلة أيمارا. كانت امرأة نموذجية لنساء منطقة ألتيبلانو البوليفية: بسيطة جدّاً ومتواضعة جدّاً وتنجز واجباتها بحماس وحميّة شديدين ولكن في صمتٍ مطبق. كانت تتحدّث بلغة إسبانية ركيكة لأنّ لغتها الأمّ كانت لغة كيشوا. ومع ذلك، كان إرنستو يستطيع أن يفهم عليها دون عناء. كان يرغب في أن يمضي أوقاتاً طويلة معها حيث كان يريد بفضول أن يعرف عن حياتها وعن أصولها وعن شعبها. كان يمطرها بوابلٍ من الأسئلة وكانت تردّ بطيبة خاطر ومزاج رائق. كان من النادر جدّاً أن يهتمّ أرجنتينيّ متحدّر من هذا الوسط الاجتماعي بشخصٍ في وضعها. في

البداية، حارت واضطربت ولكن سرعان ما تحوّل إرنستو إلى الشخص الوحيد الذي تتحدّث معه وتعبّر عن رأيها بحريّة أمامه، بل أصبحا شريكين ويتواطآن معاً. كان يمكنه أن يعود إلى البيت في أيّ وقتٍ يشاء فتقوم سابينا بإعداد طبقه المفضّل. لم يكن إرنستو متعجرفاً ولا مدّعياً. وعلى الرغم من ثقافته وسعّة اطّلاعه، لم يكن يزعم أنّه يفهم أسرار العالم أكثر من مستخدمة المنزل البسيطة هذه. على العكس من ذلك تماماً، كان يعتبر أنّ هناك الكثير ممّا ينبغي تعلّمه منها. في الواقع، كانت سابينا تعلّمه الكثير من الأشياء. أدركتُ فيما بعد التأثير الذي استطاعت أن تمارسه سابينا على الفكر الثوري الذي تنامى في داخله. هي من نمّت في داخله الرغبة في أن يذهب لزيارة بوليفيا.

وإذا كان إرنستو يجتهد ويعمل بجدّية لكي يقدّم امتحاناته، إلّا أنّ فكرة وحيدة كانت تستولي على ذهنه: أن يشدّ الرحال. في سنة دراسية واحدة، نجح في عددٍ كبير من المواد الدراسية. أخبرنا برحلته الثانية. وهذه المرّة، كان قد عزم على الانطلاق مع صديقه ألبيرتو غرانادو في رحلة تستغرق ثمانية أشهر. حينما أبدى والدي استغرابه من قراره في ترك الحسناء تشيشينا كلّ هذه المدّة الطويلة، صرّح إرنستو قائلاً: «سوف تنتظرني إن كانت تحبّني». علاوة على ذلك، كان من المفترض أن تكون المحطّة الأولى من الرحلة ميرامار، وهو منتجع على شواطئ المحيط الأطلسي حيث كان لآل فيريرا منزلاً هناك. كان يعتقد بأنّ عليه أنّ يودعها من هناك.

من ميرامار، كان على إرنستو وصديقه ميال أن يعبرا البلاد من الشرق إلى الغرب باتجاه باتاغونيا ومن ثمّ سلسلة جبال الأنديز التي

عليهما عبورها لكي يصلا إلى تشيلي ومن ثمّ إلى البيرو وبعد ذلك إلى الإكوادور وهكذا... لم توضَع نهاية محدّدة ومعلومة لخطّ سير الرحلة ومحطّاتها. كان كلّ شيء يتوقّف على وسيلة تنقّلهم، وهي درّاجة من طراز بوديروزا اثنان، عبارة عن درّاجة قديمة سعة محرّكها 500 سم مكعب. كانا يأملان في أن تستطيع هذه الدراجة أن تقودهما حتى يصلا إلى الولايات المتحدة الأميركية. كان خالي خورخي دي لا سيرنا قد تلاعب بالمحرّك وعدّل في مواصفاته ليكون قابلاً للتصليح وقادراً على تحمّل المسافات الطويلة. كان ميكانيكياً بارعاً. كما تلقّى إرنستو الدعم المالي من زوج خالتي إرنستو «إيل باتو» موري (زوج إديلميرا دي لا سيرنا ووالد ابن خالتنا غييرمو، الذي كان والداي قد تزوّجا في منزلهما)، والذي فتح صندوق ودائعه لتمويل هذه الرحلة. كما ذكرت سابقاً، كان إرنستو محبوباً جدّاً. ويبدو أنّ مغامري العائلة، الذين لم يكن عددهم قليلاً، كانوا يجدون أنفسهم في شخصيته. إلا أنّ التاريخ سوف يبرهن على أنّه كان الأكثر جنوناً والأكثر جرأةً وإقداماً والأكثر حزماً ومثاليةً من أيّ منهم.

انطلق إرنستو وألبيرتو من كوردوبا، وسط ضجيج وهدير محرّك الدرّاجة، ذات صباحٍ من شهر يناير من عام 1952. وكنّا قد احتفلنا بمغادرة إرنستو قبل ذلك ببضعة أيام. كنتُ في الثامنة من عمري. بالنسبة إليّ، كانت هذه الرحلة على درّاجة رحلة رائعة ومذهلة. كنتُ أتساءل في نفسي كيف سينجحان في الوصول إلى الولايات المتحدة الأميركية، البلد البعيد جدّاً والذي ولدتِ فيه جدّتنا. كان ذلك يذكّرني بمغامرات مانشا وغاتو للكاتب والرحالة السويسري إيمي تشيفيلي التي كان إرنستو قد نصحني بقراءتها في كتابه **الركوب**.

يروي الكتاب حكاية حصانين ينطلقان من بوينس آيرس نحو واشنطن برفقة صاحبهما الأستاذ السويسري تشيفيلي. وكان الكاتب قد قام بهذه الرحلة الهذيانية لكي يبرهن على أنّ الخيول الأرجنتينية أكثر تحمّلاً ومقاومة من سواها. في الكتاب، يتوارى الفارس خلف الدابتين: تُروى الحكاية انطلاقاً من رؤية الحصانين. مات الحصان غاتو في الطريق، ولكنّ مانشا وصل إلى هدفه. لا بدَّ أنّ إرنستو أيضاً قد فكّر في هذين الحصانين حينما قرّر أن يكمل المغامرة حتى الولايات المتحدة الأميركية.

توسّل والداي إلى ميال لكي يعتني بابنهما، وأن يمنعه من أن يلقي بنفسه في مواقف وأوضاع خطيرة. لم تكن لهذه الرحلة الاستكشافية الجديدة أيّ معنى ذي قيمة بالنسبة إليهما. كانا يمنّيان نفسيهما بأنّ ميال سوف يستطيع أن يردع فورات جنونه وطيشه إذا ما تطلّب الأمر ذلك. كان يكبر إرنستو بستّة أعوام. لكن المضحك في الأمر هو أنّه بمجرّد بدء الرحلة وطيلة فترة سيرها، أصبح إرنستو هو المعلّم وميال هو التلميذ. وقد انتهى الأمر بإرنستو بأن أصبح هو المرشد والدليل للطريق. أمّا بشأن ردعه ومنعه عن القيام بأمرٍ ما، فبكل بساطة كان من المستحيل فعل ذلك. فعلى سبيل المثال، حينما قرّر أن يعبر نهر الأمازون سباحةً، عجز ألبيرتو عن إيقافه ومنعه عن ذلك. حاول أن يثنيه عن تلك المخاطرة وحذّره منها: «أنت مجنون ينبغي تقييده. النهر مليءٌ بأسماك الضاري المفترسة وسوف تلتهمك نيئاً!». لم يُصغِ إرنستو إلى تحذيراته وألقى بنفسه في النهر وسبح حتى بلغ الضفّة الأخرى منه. شرح فيما بعد الموقف لصديقه ألبيرتو الذي ذُهِل للأمر: «كنتُ قد وعدتُ نفسي بأن أفعل ذلك. وكان عليّ أن أحترم وعدي».

كانت أمّي حزينة لمغادرته وكان أبي غاضباً وحانقاً. لم يكن يستوعب أن يترك إرنستو دراسته على الرغم من أنّه وعدهما بإكمالها بعد عودته من تلك الرحلة. لا شكّ أنّ أبي لم يكن يقتنع بأيّ ضمانات لذلك الوعد بسبب تاريخه هو. علاوة على ذلك، ما الذي قدّمه هو بنفسه حتى يفرض الثبات على الوعود على أولاده؟ لم يكن يفعل أيّ شيء سوى المرور على المنزل لكي يتصرّف فيه كسيّد. كانا، هو وأمّي، يواصلان مشاجراتهما باستمرار وكنتُ أهرب إلى الشارع لكي لا أسمع أصواتهما. كانت مشاجراتهما عنيفة للغاية. كان أبي يعيش مع امرأة أخرى دون أن يعترف بذلك. وكانت أميّ تعاني من ألم الفرقة والانفصال وتتألّم أكثر حينما كنّا، روبرتو وأنا وأخواتي، نغادر البيت بدورنا. وكالعادة، كانت مواردنا شحيحة جدّاً وأحوالنا المالية سيئة للغاية. لم أعد أتذكّر جيّداً نشاط أبي المهني في تلك المرحلة. ولكنّه مع ذلك، كان من الواضح تماماً أنّه لم يكن يكسب الكثير من المال أو ما يكفي لتدبير أمورنا على الأقلّ أو أنّه كان ينفقه على أمورٍ أخرى أو مكان آخر. في كلّ الأحوال، عاشت أمي أوقاتاً وظروفاً عصيبة. وسرعان ما اضطرّت إلى أن تعمل بنفسها. في البداية، وجدت أمّي، التي كانت في غاية البساطة، عملاً في متجر للمجوهرات في فندق ألفيار، وهو أحد أفخم فنادق بوينس آيرس، ومن ثمّ انتقلت للعمل في مكتبة كان تضم أيضاً مكتباً لبائع زهور. كما قامت أيضاً بترجمة بعض الأعمال باللغتين الإنجليزية والفرنسية. لم تكن تشتكي أبداً وتحاول كعادتها أن ترى الجانب الإيجابي للأمور. على الرغم من كلّ شيء، كانت على وشك أن تغرق في حالة من الإحباط واليأس العميقين. فتر حماسها الأسطوري وتراجع التزامها السياسي. كانت محبطة

ومحطّمة. كان استئصال ثدييها وخيانات زوجها وغياب ابنها المحبّب إليها أموراً أكبر من طاقتها على التحمّل. الشيء الوحيد الذي منحها شيئاً من الراحة هي رسائل إرنستو التي كانت تتلقاها. كان إرنستو يرسل الرسائل إليها بشكلٍ متقطع، وكان يعتذر عن ذلك. كان يفتقر إلى المال لكي يشتري طوابع بريدية، بل كان في بعض الأحيان ليس لديه حتى ما يتناوله.

سوف لن أروي الرحلة المغامرة لإرنستو مع غرانادو. كان أخي قد نشر يومياته في كتاب تحت عنوان **يوميات درّاجة نارية**، وقد تمَّ تحويل الكتاب إلى فيلم سينمائي تحت اسم **مذكّرات درّاجة نارية** أخرجه المخرج الأميركي والتر ساليس ومثّل فيه كلّ من غايل غارسيا بيرنال ورودريغو دي لا سيرنا -تربطه بنا علاقة قرابة من بعيد- الأدوار الرئيسية. وفي المقابل، ما يمكنني قوله هو إنّنا، ومع مرور الأشهر، لاحظنا تطوّراً في وتيرة مراسلاته. وبمقدار ما كان يتقدّم في رحلته، كان إرنستو يشهد تغيّراً وتحوّلاً. كانت نبرته تتغيّر وتصبح أكثر عمقاً في التفكير وأكثر جديّة وأقلّ سياحيةً وأكثر التزاماً بالواقع وبالمشاكل الاجتماعية التي صادفها في طريقه. كان يُكثر على نحو مضطّرد الحديث في الشؤون السياسية وينخرط في تحليلات اقتصادية.

في نهاية الرحلة، انفصل عن ميال، الذي قرّر أن يبقى ويعمل في منتجعٍ في فنزويلا. بينما عاد إرنستو إلى الأرجنتين ليكمل دراسته كما كان قد وعد والديّ بذلك. كانت كلمته واحدة لا تصبح اثنتين، ويفي بما يعد به. ترك ميال هناك بعد أن أكّد له أنّه سوف يعود في وقت قريب. في كاراكاس، استقلّ طائرة استأجرها عمّي مارسيلو

جيفارا لنقل خيول السباق. وكان ينبغي أن تتوقّف الرحلة لمدّة غير محدّدة في ميامي. وقد وجد إرنستو نفسه عالقاً فيها لمدّة أسبوعين وهو مفلس تماماً. لا نملك جميع التفاصيل المتعلّقة باستراحته القسرية في فلوريدا. وقد صرّح فيما بعد بأنّه قد أمضى آنذاك «أسوأ أسبوعين في حياته». لقد خمّنا أنّ التمييز العنصري سيكون قد روّعه وصدمه. كانت حركة الحقوق المدنية الأميركية قد تأسّست لتوّها. ونتذكّر، من بين مهتمّين آخرين، أنّ السود كانوا محرومين من حقّ الجلوس في الحافلات. ولا بدَّ أنّ إرنستو سيكون قد صُدِم بشدّة لذلك.

كانت عودة إرنستو مناسبة جديدة لنقيم الاحتفالات. بدت والدتي وكأنّها قد استعادت بعض القوّة والعافية والحيوية. كانت عودة ابنها كافية لتمنحها السعادة. استأنف إرنستو دراسته في كليّة الطب. كانت قد تبقّت لديه خمس عشرة مادّة لكي يتخرّج من الكليّة. وكانت هذه مواد كثيرة في سنة دراسية واحدة ولكنّه عقد العزم على أن ينتهي منها جميعاً من خلال الدراسة الجدّية. بدا لنا ذلك مستحيلاً، بخاصّة بعد انقطاعٍ لمدّة ثمانية أشهر. كان الناس قد نسوا أنّ إرنستو تعلّم منذ صغره أن يدرس بطريقة متقطعة. وكان قد ابتكر منهجاً وطريقة خاصّين به في ذلك. كان يقرأ بسرعة فائقة. يدرس من دون أن يسعى إلى التعمّق فيما يتعلّمه. كان همّه الوحيد هو الحصول على الشهادة التي سوف تشتري حريّته.

ذات يوم، اتّصل بنا هاتفيّاً من بيت عمّتي بياتريز وأخبرنا: «نادوني دكتور». كان قد كسب الرهان الكبير الذي لم نكن نصدّق بأنّه قادر على كسبه. روى والدي، فخوراً ومختالاً مثل ديك، للجميع بأنّ إرنستو، وإن لم يكن الطالب الأكثر تفوّقاً في كليّة

الطبّ، قد حطّم كلّ الأرقام القياسية في النجاح بالمواد الدراسية لكي يحصل على شهادته.

ولكن على الرغم من حصوله على الشهادة من كليّة الطبّ إلا أنّه لم تكن هناك أيّ نية لدى إرنستو لمزاولة مهنة الطبّ. على الأقلّ في تلك الفترة التي تخرّج فيها، على الرغم من أنّ الدكتور بيزاني كان قد اقترح عليه أن يشغل وظيفة ومنصباً في مختبره الطبّي. لا شكّ أنّ أيّ طبيبٍ شابّ ومتمرّن كان سيتمنى الحصول على وظيفة كتلك. كانت لدى إرنستو مشاريع أخرى مختلفة. أراد أن يسافر من جديد.

في مساء السابع من يوليو من عام 1953، كان بيتنا قد امتلأ بالضيوف. مرّة أخرى، احتفلنا بانطلاق إرنستو في رحلة جديدة. ولكن هذه المرّة كان يغادر من دون ضمانات بالعودة. لم يعد هناك أيّ شيء يبقيه في بوينس آيرس. كانت تشيشينا قد رفضت للمرّة الثانية طلبه في الزواج بها وبالتالي انتهت علاقتهما وانفصلا. وكان ميال لا يزال في فنزويلا. وأراد إرنستو أن يلحق به إلى هناك متسكّعاً في الطرقات.

انطلق برفقة صديقه كاليكا فيرير. كانت المرحلة الأولى من رحلتهم تتضمن: بوليفيا تلك التي كانت سابينا بورتوغال قد حدّثته عنها كثيراً. والهدف من هذه الرحلة هو: أن يخالط ويتعايش مع شعب أيمارا وعمال المناجم الذين كانت ظروف حياتهم وعملهم عصيبة جدّاً وغير إنسانية. كان عمال المناجم هم الوحيدون الذين ينضمون إلى النقابات في بوليفيا. كان إرنستو يريد أن يفهم أو بالأحرى أن يراقب ويتابع صراعهم ونضالهم. ولكن في مساء السابع من يوليو، لم يكن يفكّر بذلك الأمر. كان يستمتع بآخر ساعاته مع

العائلة. كانت الموسيقى صاخبة. كنّا جميعاً نرقص ونضحك ونمرح: كان إرنستو يقوم بالكثير من الحركات بكلّ اتجاه من دون انسجام أو تناغم.

كانت أمّي قد فصّلت له بذلة رسمية. الآن وقد أصبح إرنستو طبيباً بشكلٍ رسمي، لا بدَّ أنّه قد أصبح في حاجة إلى تلك البذلة لكي يقدّم نفسه في الأوساط المهنية. لقد فصّلت له البذلة وخاطتها بكلّ الحبّ الذي تكنّه لابنها المحبّب والمدلّل إرنستو. كانت أمّي متواضعة في أداء الأعمال المنزلية ولكنّها مع ذلك كانت تجيد الخياطة وتفتخر بعملها هذا على نحوٍ خاصّ. لسوء الحظّ، بعد بضعة أشهر من رحلته، كتب لها إرنستو رسالة من كياكيل (الإكوادور) لكي يعلن لها الخبر المحزن: «يؤسفني أن أعلمك بأنّ تحفتك الفنيّة، بؤبؤ عينيك، قد مات على نحوٍ بطولي في عملية بيعٍ غادرة...». كان قد باع البذلة بسبب نفاذ النقود لديه ولكي يتخفّف من حمله.

تمّت رحلته النهائية في الثامن من يوليو من على رصيف محطّة ريتيرو جنرال بيلغرانو. مزّقت هذه المغادرة الجديدة قلب أمّي. الآن وإذ لم يعد هناك لا حدٌّ زمني ولا التزام على رحلة إرنستو، ماذا عساه أن يفعل هذا الابن المشرّد والمتمرّد والبعيد جدّاً عن حمايتها؟ ومع ذلك تظاهرت بالبهجة والسعادة لأنّها لم تكن من نوع الأمّهات اللواتي يُشعِرن أبناءهنّ بالذنب. كانت العائلة بجميع أفرادها واقفة على الرصيف في وداع إرنستو. حينما بدأ القطار بالتحرّك، أطلق إرنستو ضاحكاً هذه الجملة العرضية التي سوف تأخذ كلّ معناها فيما بعد: «Aquí va un soldado de América»، أي (هنا يغادر جنديّ أميركي) بينما كان والداي يجريان على الرصيف مع حركة القطار كما في الأفلام السينمائية.

لم يعد إرنستو قط من تلك الرحلة التي قادته حتى جبال سييرا مايسترا الكوبية مروراً ببوليفيا والبيرو والإكوادور وكولومبيا وبنما وكوستاريكا ونيكاراغوا والهندوراس والسلفادور وغواتيمالا والمكسيك. سوف لن أزيد في سرد تلك الرحلة. أوّلاً لأنني لم أكن هناك وثانياً لأنّ مراسلات تلك الفترة قد نُشِرَت. ولكنني في المقابل أستطيع أن أتحدّث عن أثار ذلك الغياب على أقربائه.

كان إرنستو يرسل إلينا الرسائل. بعضها موجّهٌ إلى كلّ العائلة وبعضها الآخر إلى فردّ واحدٍ من الأسرة. كان كلّ شيء يتوقّف على الأعمال الصغيرة التي يقوم بها في طريقه وكذلك على المال الذي يتوفّر لديه لشراء الطوابع.

وسواء كتب إلينا شخصيّاً أم لا، كانت النتيجة هي ذاتها. كانت كلّ رسالة تصلنا منه بمثابة الحدث الذي تجتمع العائلة بكلّ أفرادها من حوله. ويدلو كلّ منا بدلوه ويبذل جهوده: لم تكن كتابته واضحة الخطوط وكنّا نحتاج أحياناً إلى قضاء ساعات عديدة لنفكّ طلاسم رسائله. كان أحدنا، وغالباً ما يكون أبي أو أمّي، يقرأ الرسالة بصوتٍ عالٍ ويشدّد دون توقّفٍ على الكلمات في سعيٍ إلى تخمين معانيها. كانت المكالمات الهاتفية غير واردة في الحسبان بسبب غلاء كلفتها. وفضلاً عن ذلك، كان الحصول على خطّ هاتفي للاتصال مع بلدٍ بعيدٍ في أميركا اللاتينية أمراً يكاد يكون مستحيلاً. ولهذا السبب، لم نسمع صوت إرنستو لسنواتٍ طويلة.

كانت رسائله عبارة عن مزيجٍ من المرح والسخرية والأسئلة حول أوضاع العائلة وكذلك أطروحات اقتصادية وتاريخية وفلسفية. من خلال تواصله مع البلدان والفقراء الذين التقاهم في طريقه، كان وعيه السياسي يتفتّح ويتعمّق وسخطه حيال الظلم والجور ينمو

ويتعاظم. كنّا نشعر بالتحوّل الذي يجري عليه وبانشغالاته واهتماماته الإنسانية. كان يشير إلى استغلال الفقراء والضعفاء من قبل الأثرياء والأقوياء. لقد أصبح شيوعياً.

في بوليفيا، اكتشف بؤس وشقاء الضعفاء وعمال المناجم والطريقة المهينة والمذلّة التي يُعاملون بها، والاضطهاد بل القمع الدموي الذي يصبحون ضحايا له إذا ما تمرّدوا على أوضاعهم. في البيرو، رأى السكان الأصليين الذين كانوا يجهدون من أجل البقاء، محرومين من أبسط الحقوق الإنسانية. وهكذا في بقية البلدان. كان كلّ بلدٍ يمرّ فيه يقدّم النموذج على الهيمنة الظالمة للإمبراطورية الأميركية. وفي هذا الخصوص، كان يرفض -وقد فعلت أنا أيضاً نفس الشيء- أن يُطلق اسم أميركا على الولايات المتحدة الأميركية. كان يقول أن أميركا هي كلّ القارة. جميع شعوب القارة أميركيون.

كان احتقاره للولايات المتحدة الأميركية يزداد وتمرّده عليها يتنامى ويتعاظم. وكان يحقد على والدي الذي لطالما دافع عن البلد الأمّ لوالدته. كان يوجّه إليه انتقادات حادّة وجدّية يذكر فيها عبارة «أصدقائه اليانكيين». كان يُعامل أمّي وعمّتي بياتريز على نحوٍ أفضلٍ إلى حدّ ما، ساخراً أحياناً: كان يأخذ عليهما أنّهما تنتميان إلى الطبقة المضطّهِدة حتى إن لم تكونا على أيّ علاقة بتلك الطبقة. ومع ذلك، وفي رسالة مؤرّخة في شهر مايو من عام 1959 ومرسلة إلى مدير مجلّة **بوهيميا** الكوبية، صرّح قائلاً: «أنا أيضاً لستُ شيوعياً تماماً».

بعد مغادرته بعدّة أشهر، كتب إلى بياتريز: «على الرغم من تسكّعي وخفّتي المزمنة وعدم رزانتي إضافة إلى عيوب أخرى، إلّا أنني أمتلك قناعات عميقة ومحدّدة». ثمّ أضاف بفكاهته المعهودة

التي عادة ما يمزجها مع كلماته الأكثر جدّية: «توقّفي عن إرسال النقود إليّ، فهذا يكلّفك ثروة في حين ليس عليّ سوى أن أنحني لألتقط كلّ الأوراق النقدية المبعثرة على الأرض هنا، إلى درجة أنني أعاني من آلام في ظهري لكثرة الانحناء. ومن جرّاء ذلك، لم أعد أنحني سوى مرّة واحدة من أصل عشر مرّات، وذلك لكي أحافظ على الصحّة العامّة، لأنّ الكثير من قصاصات الورق التي تتطاير في الهواء ومن ثمّ تتهادى من جديد على الأرض تمثّل خطراً عامّاً». في شهر أبريل من عام 1954، كتب إلى والدتي: «سوف تكون أميركا مسرح مغامراتي وسوف تكون لها خصوصية وميزة أكثر أهمية بكثير ممّا تخيّلته عند مغادرتي. أعتقد أنني أخيراً فهمتها وأشعر بأنني فردٌ من الشعب الأميركي، الشعب الذي يتمتّع بمزايا وخصوصيات متميّزة عن أيّ شعبٍ آخر على الكرة الأرضية». باتت الصورة تتوضّح لدينا أكثر فأكثر بأنّ إرنستو يحرص على أن يُنظر إليه بجدّية وأنّ التزامه ينضج ويترسّخ. وفي الوقت ذاته، استمرّ في التشرّد والتجوال من دون أن تكون له مهمّة أو رسالة واضحة ومحدّدة. كان يبحث عن مخرجٍ ومتنفّسٍ، عن القضية التي قد تعطيه الدافع إلى الالتزام بها عميقاً حتى النهاية ويكرّس لها حياته. في انتظار ذلك، اتّخذ قراراً: أن يواصل رحلته غريباً شارداً لما يقارب عشر سنوات. كان أحد أحلامه الكبرى أن يزور باريس. كتب إلينا في عام 1955: «هذه ضرورة بيولوجية، إنّه هدفٌ يستحيل عليّ التخلّي عنه، حتى لو اضطررتُ إلى عبور المحيط الأطلسي سباحةً».

مع الغياب الطويل لإرنستو، اشتدّ إحباط أمّي واستبدّ بها اليأس. توقّفت عن الذهاب إلى العمل وباتت تمضي أيامها وهي

تلتحف بردائها المنزلي وتلعب لعبة سوليتير بورق اللعب وتدخّن سيجارة إثر أخرى. كانت مرحلة ظلماء ومحزنة في حياة أسرتنا. غادر شقيقاي وشقيقتاي منزل العائلة. وكنت أعيش حينها لوحدي معها. وأنا بدوري كنت أمضي معظم أوقاتي في الشارع. في تلك الفترة، كان حيّنا هادئاً إلى حدٍّ ما، على الرغم من أنّه يقع في وسط المدينة. كان بائع الحليب يبيع بضاعته على عربة صغيرة يجرّها حصان. ظلّ والدي يمرّ علينا في البيت بانتظام من فترة إلى أخرى. كان إرنستو يرسل الرسائل إلى أمّي أكثر مما كان يرسلها إلى أبي ولذلك كان يأتي ويقرأ رسائله في البيت. كنتُ أتنقّل بين أنماطٍ عديدة من الحياة. كانت حياتي مجزّأة ومبعثرة حيث كنتُ أنتقل من رفقة صبية الشوارع إلى رفقة عظام الأرجنتين، حيث كان والدي يصرّ ويلحّ عليّ لكي أرافقه في زياراته البروتوكولية إلى أصدقائه الكبار من ذوي النفوذ والسلطة. ربّما تصوّر أنّ اقترابي من هذا العالم الجميل قد يعطيني الدافع وينمّي في داخلي الرغبة في أن أدرس وأحصل على وظيفة راقية. فقد اعتدنا على سبيل المثال أن نزور بانتظام عائلة خوزيه ألفريدو مارتينيز دي هوز، وفيما بعد وزير الاقتصاد في حكومة خورخي فيديلان الحاكم العسكري المطلق للأرجنتين إبّان الدكتاتورية العسكرية. مع هكذا أنماطٍ من العلاقات، لم يكن من الغريب أن يمتعض إرنستو من أبي!

كان الوضع السياسي في الأرجنتين غير مستقرّ. ظلّ خوان بيرون في السلطة لولاية ثانية وتوفيت زوجته، الأكثر شعبية في البلاد، في عام 1952. وكانت البلاد منقسمة على ذاتها بعمق وهزّتها سلسلة من الهجمات الدموية. وكان سوء التفاهم بين البيرونية اليسارية والبيرونية «الأرثوذكسية» يشتدّ والتنافر بينهما يتعاظم. في

الخامس عشر من شهر أبريل من عام 1953، ألقت مجموعة إرهابية مكوّنة من طلّابٍ شباب مميّزين ومهنيين مناهضين لحكم بيرون قنبلة على ساحة ماي فأدّت إلى مقتل سبعة أشخاص وجرح العشرات بينما يلقي بيرون خطاباً من شرفة قصر كازا روسادا الرئاسي. وقد ردّ أنصاره بإشعال النيران في مقرّ الحزب الاشتراكي والحزب الراديكالي ومقرّ نادي الفروسية الأنيق جوكي كلوب.

أمام حالة الفوضى والفلتان، كان صبر القوات المسلّحة ينفد. كما أثار بيرون حفيظة الكنيسة الكاثوليكية وغضبها من خلال رغبته في إلغاء التعليم الديني في المدارس واقتراحه تشريعاً يبيح الطلاق بين الزوجين.

كان والدي مناهضاً متحمّساً لحكم بيرون. في تلك الفترة، لم أكن قد بلغتُ سوى العاشرة من عمري وكنتُ أحتار بين رؤيته الرجعية والمعادية للشعب ورؤية العوائل الأكثر تواضعاً والأكثر فقراً وبؤساً لأصدقائي في الحيّ. منذ ذلك الحين، بدأ وعيي يتنامى ويتطوّر. مع ما أعرفه الآن، تغيّرت وجهة نظري للأمور. أعتبر الآن أنّ البيرونية (بعيداً عن بيرون وبمعزل عنه) كانت حركة هامّة جدّاً ومبهمة ومعقّدة بالنسبة إلى بلادنا.

بقي أن نقول إنّ والدي، كأيّ أرجنتينيٍّ آخر، كان قد انضمّ إلى العنف السياسي الدائم في بلادنا، عنفٌ لفظيّ وجسديّ في آن واحد. لم يكن يخرج من البيت إلّا ويحمل سلاحه معه، مقتنعاً تماماً بأنّنا كنّا نسير نحو انقلابٍ عسكري. وكانت أمّي تغذّي فينا نفس المخاوف وتناهض النزعة العسكرية وحكم العسكر بشدّة وتشرح لنا باستمرار بأنّ الجيش قد ساند على الدوام اليمين الرجعي. كانت تفكّر كثيراً في مسألة فهم ما تعنيه القوات المسلّحة

ووظيفتها الأساسية: هل وظيفة القوات المسلّحة هي الدفاع أم الهجوم؟ في السادس عشر من يونيو من عام 1955، حصلنا على جوابٍ، لسوء الحظّ، لم يعد واضحاً بشأن هذا السؤال. أصدر الفاتيكان تصريحاً حول بيرون، وفسّره هذا الأخير بمثابة قرارٍ لعزله، فدعا أنصاره إلى تجمّع تأييد له في ساحة ماي. وبينما كانت الحشود تجتمع في الساحة، أرسلت القوات المسلّحة البحرية عدّة طائرات حربية، حلّقت على علوٍ منخفضٍ جدّاً وألقت بقنابلها على الساحة. لقي ثلاثمئة وأربعة وستون شخصاً حتفهم على الفور في حين جُرح المئات من المتجمهرين في الساحة. منذ تلك اللحظة، بدت أنّ أيام بيرون قد باتت معدودة. كان السيل قد بلغ الزُّبى بالنسبة إلى العسكر. فرّ بيرون في السادس عشر من شهر سبتمبر إلى إسبانيا عبر الباراغواي.

أثناء تلك الأحداث الدموية، كان إرنستو في المكسيك. كان قد وصل إليها في شهر سبتمبر من عام 1954 برفقة امرأة بيروفية تكبره بسبع سنوات كان قد التقى بها قبل ذلك بعام في غواتيمالا. وقد كتب لنا عنها قائلاً: هيلدا امرأة «ذات قلبٍ من البلاتين على الأقلّ». كانت هيلدا، وهي لاجئة سياسية، امرأة استثنائية: كانت أوّل امرأة أدارت الشؤون المالية للجنة التنفيذية للتحالف الشعبي الثوري الأمريكي «Alianza popular revolucionaria americana - APRA». كانت المكسيك في تلك المرحلة البلاد التي يلوذ بها المنفيون المطرودون من بلداهم بسبب ظروف القمع والاضطهاد.

أقام إرنستو مع هيلدا في شقّة صغيرة وتدبّر، في البداية، معيشته من خلال العمل كمصوّر صحافي مع وكالة صحفية. ثمّ أصبح طبيباً مختصّاً بأمراض الحساسية في مشفى عام. وترسّخ التزامه بعد أن

أمضى ثمانية أشهر في غواتيمالا. كانت رسائله أكثر عدوانية وسخطاً ممّا كانت عليه سابقاً. في كوستاريكا، كان قد عبر من المناطق التي تهيمن عليها شركة يونايتد فروت، وهي شركة خاصّة بزراعة وإنتاج الموز تجسّد أكثر من غيرها الإمبريالية اليانكية. وقد روى لنا أنّه «قد عبر من مناطق لا تُعدّ بلدانها دولاً بالمعنى الحقيقي وإنّما عبارة عن مزارع -أو حقول- خاصّة تمتلكها الشركات». كانت الأساليب الوحشية التي تتبعها الشركة متعددة القوميات لكي تبقي على هيمنتها في أميركا الوسطى قد أدّت به في نهاية المطاف إلى أن ينفر من الرأسمالية. في العاشر من شهر ديسمبر من عام 1953، كتب إلى العمّة بياتريز: «لقد أُتيحَت لي الفرصة في أن أمرّ عبر المناطق التي تحتكرها شركة يونايتد فروت، الأمر الذي جعلني أقتنع مرّة أخرى بحجم الخزي والعار الذي يمثّله هؤلاء الأخطبوطات الرأسمالية. لقد أقسمت أمام صورة الرفيق المسنّ والحزين ستالين بألّا يهدأ لي بال وألا تجد الراحة إليّ سبيلاً إلا بعد القضاء على هذه الأخطبوطات الرأسمالية. سوف أظلّ هنا في غواتيمالا لكي أحسّن قدراتي إلى أن أصبح ثائراً حقيقياً».

كانت شركة يونايتد فروت في تلك الحقبة عبارة عن آلة قمعية متوحشة تبقي موظفيها في حالة عبودية والحكومات في حالة إذعان وخضوع بمساعدة وكالة المخابرات المركزية الأميركية «سي آي إيه». أحدث عبور كوستاريكا تحوّلاً حاسماً في حياة إرنستو وبالتالي على حياتنا جميعاً. بدءاً من تلك اللحظة، سوف تتأثّر حياة كلّ فرد من آل جيفارا بالنشاطات السياسية لإرنستو.

حينما وصل إلى غواتيمالا في شهر يناير من عام 1954، كان ذلك البلد الصغير في أميركا الوسطى عبارة عن ديمقراطية فتية

يحكمها ابن صيدليٍّ سويسري هو جاكوبو أربينز غوزمان. وعلى الرغم من أنّه كان عسكرياً في وظيفته، إلّا أنّ أربينز كان في الوقت ذاته اشتراكياً. كان قد شارك في إسقاط دكتاتورية خورخي أوبيكو، فأصبح في البداية وزيراً للدفاع قبل أن يُنتَخَب رئيساً للجمهورية في عام 1951. وكان انتخابه هو أوّل انتخاب يجري بطريقة الاقتراع العام في تاريخ غواتيمالا.

وقد تميّزت حكومة أربينز بكونها قامت على نحوٍ مباشر وفوري بإجراء سلسلة من الإصلاحات التقدمية. لقد ساندت حقّ الجميع في التصويت وأصدرت قانوناً للعمل. كما سنّت قانوناً للإصلاح الزراعي نصّ على مصادرة الأراضي غير المستثمرة ليتم إعادة توزيعها على الفلاحين. ولأنّ شركة يونايتد فروت كانت أكبر مالكٍ للأراضي، فقد وجدت في هذه الإصلاحات قراراً سيئاً ومضرّاً بها. ولم يتأخّر التهديد في الصدور عن وزير الخارجية الأميركية جون فوستر دالاس -والذي كان أيضاً شريكاً مساهماً في شركة يونايتد فروت- خلال مؤتمرٍ ضمَّ وزراء الخارجية لعدّة بلدان وهو يتحدّث عن حكومة أربينز صارخاً بعنف: «شيوعيون!»، كانت تلك عبارة عن صيحة الإيذان بالبدء بالهجوم.

كانت شركة يونايتد فروت ووزارة الخارجية الأميركية ووكالة الاستخبارات الأميركية يُعدّون لعملية غزو. كانت غواتيمالا معزولة وتخلّت عنها دول جوارها. بينما كانت المؤامرة تُحبك، كان إرنستو وهيلدا يزوران أنقاض آثار حضارة المايا في مقاطعة بيتين. لم يعلما بالأحداث إلا عند عودتهما إلى غواتيمالا سيتي العاصمة. في بداية الأمر، لم يعتقد إرنستو بإمكانية الغزو الأميركي. وكان مقتنعاً بأنّ الغزو إن حدث، فسوف يقاومه الرئيس. والحال أنّ أربينز قد حاول

عبثاً أن يشتري أسلحة من أوروبا الشرقية. ولأنّه قُوبل بالرفض في النهاية، اضطرّ إلى أن يتّجه نحو تشيكوسلوفاكيا. لدى وصولها إلى الشواطئ الغواتيمالية، تمّت مصادرة الأسلحة المصنّعة في تشيكيا من قبل الأميركيين الذين باتت بين أيديهم ذريعة ممتازة للقول إنّ غواتيمالا «حليفة للاتحاد السوفيتي». فبدأت القنابل الأميركية تنهمر على العاصمة. فتحوّل تفاؤل إرنستو إلى تمرّد. وقد بدأ بالتحرّك على الفور بخروجه إلى الشارع. حاول أن ينظِّم المقاومة لدى مجموعات مختلفة: النقابيون والأحزاب السياسية وما إلى هنالك. صرّح لهيلدا بأنّ لديه «خطّة مُحْكَمة» تتضمّن «الاستيلاء على أماكن استراتيجية من المدينة والسيطرة على الاتصالات ونصب الكمائن لمن يحاول الدخول إلى المدينة»[1]. وقد كشف نفسه للمرّة الأولى للاستخبارات الأميركية التي جمعت المعلومات عنه.

في بوينس آيرس، كان القلق يستبدّ بوالديّ. كانا يتابعان الأحداث عن كثب، مقتنعين بأنّ إرنستو سيكون قد شارك في الكفاح. كانت نبرة رسائله الأخيرة لا تدع أيّ مجالٍ للشكّ حول رغبته في الالتحام مع السلطات. في العاشر من شهر مايو من عام 1954، أرسل إلينا رسالة يقول فيها: «سوف يكون بوسعي أن أصبح ثريّاً جدّاً في غواتيمالا، ولكن من خلال السير بالإجراءات الشاقّة لتعديل شهادتي وافتتاح عيادة لكي أكرّس نفسي لمعالجة أمراض الحساسية [. . .]. لكن القيام بهذا الأمر سوف يكون بمثابة الخيانة العظمى للكائنَين اللذين يتصارعان في داخلي، أي أنا الاشتراكي وأنا الرحّالة».

---

(1) غامبيني هوغو، *El Che Guevara* **(تشي جيفارا)**، ستوكسيرو، 2002.

كنّا من دون أخبارٍ عن إرنستو منذ عدّة أسابيع (في رسالته الأخيرة، أرسل لي طوابع وحثّني على تناول اللحم الأرجنتيني: «استمتع جيّداً يا أخي الصغير بكونك تعيش في البلد الأميركي الأفضل تغذية»). شعر والداي بأنّ ابنهما البكر، بدءاً من تلك اللحظة، سيصبح مصدراً دائماً للقلق والانشغال. لم تكن أمّي تدقّق فقط في الصحافة بحثاً عن أقلّ خبرٍ عن الوضع الغواتيمالي، بل أيضاً عن الأدب والتاريخ. باختصار، كلّ ما يتعلّق بهذا البلد. كانت تريد أن تعرف كلّ شيء وأن تفهم كلّ شيء. أيّ خطرٍ كان يحدق بابنها إرنستو؟

جعل وجود مخاطر حقيقية وجدية القائمَ بالأعمال الأرجنتيني في السفارة في غواتيمالا سيتي، ويدعى نيكاسيو سانشيز تورانزو، أن ينهمك يائساً في البحث عن إرنستو جيفارا هذا في شوارع غواتيمالا سيتي لكي يحذّره وينبّهه إلى الخطر الذي كان يحدق به. وكان في الواقع قد سمع أحدهم يلفظ اسم مواطنه هذا في واحدة من الصدف السعيدة التي تنقذ أحياناً حياة الناس. ركض في كلّ مكان: في مقرّات النقابات وفي الحانات وفي مراكز إيواء الطلبة. حينما عثر عليه أخيراً، تحدّث إليه من دون مواربة. قال لإرنستو: «غادر على الفور ودون إبطاء. إنّهم ينوون قتلك». سأل أخي وقد أُصيب بدهشة عميقة ولم يصدّق: «مَنْ ولماذا؟»، «لا تنصدم، ولكن اعلم أنّ السفارة الأميركية على علمٍ واطّلاعٍ بكلّ تحركاتك. أنت مراقَب. لم يبقَ لك سوى أن تنجو بحياتك. لقد جئت لكي أحذّرك». ظلّ إرنستو منذهلاً: «لم أكن أعلم بأنني على هذا القدر من الأهمية! ولكنني لا أعتقد بأنّ هذه الحكاية قد انتهت، إذا ما نجحت خطّتي...».

لم تنجح أيّ خطّة. سُحق جاكوبو أربينز تحت قوّة الضربة الأميركية فاستقال من منصبه في السابع والعشرين من يونيو وفرّ إلى المكسيك. تعاظم يأس وإحباط إرنستو. اختبأ لعدّة أيام قبل أن يجد الملاذ في السفارة الأرجنتينية. منحوه حقّ المغادرة، فآثر الذهاب إلى المكسيك.

اكتشاف العالم أم تغييره

ظلّ إرنستو في المكسيك لِما يقارب عشرة أشهر. وقد بدا وكأنّه أحبّ البقاء فيها. كتب إلى عمّتي بياتريز عند وصوله إلى بلاد بانشو فيا[1]: «لقد استقبلتني بلاد الرشوة بكلّ لا مبالاة حيوانٍ ضخم دون أن تلاطفني أو تكشّر لي عن أنيابها». وكان قد أقام علاقة منتظمة مع الشاعر أوليسيس بوتيت دي مورات، وهو شاعر وكاتب سيناريو على صداقة حميمة مع والدي، الأمر الذي أتاح لوالديّ أن يتلقيا أحياناً أخباراً غير مباشرة عن إرنستو.

كانت رسائل إرنستو توحي بشيء من القلق والتوتّر. يبدو أنّه كان حائراً بين خيارين متناقضين: الانخراط في معركة أو متابعة تجواله. في شهر أكتوبر من عام 1954، وكردٍّ على دعوة جديدة له من والديّ ليعود إلى الأرجنتين ويستأنف العمل في مهنته كطبيب، كتب إلى والدتي (التي كان يناديها بحنان «أمّي، يا أمّي العزيزة»):

(1) بانشو فيا: واحد من أبرز القادة الثوريين المكسيكيين. ولد سنة 1878 في سان خوان ديل ريو وتوفي سنة 1923 في باريلو في محافظة شيواوا في المكسيك. لُقّب بروبن هود مكسيكو حيث قاد ثورات عديدة، بخاصة ضدّ الإقطاعيين. -المترجم-

«. . . في العمق (وفي الظاهر)، أنا متشرّد عنيد وليست لدي أيّ رغبة في أن أنهي هذه المهنة وأستبدلها بأي نمطٍ من الاستقرار الدائم. لدي كامل الإيمان بأنّني سوف أحقّق الانتصار النهائي في ما أؤمن به، ومع ذلك لا أعلم بعد هل سأكون ممثّلاً فيه أو مجرّد مشاهد منبهر بالفيلم. إن علامات المرارة التي يستشفّها البعض منكم من رسائلي هي ممّا لا شكّ فيه بسبب هذا الوضع؛ الحقيقة هي أنّ ترحالي سيكون على الدوام أولوية وقبل كلّ شيء بالنسبة إليّ ولن أقرّر وضع حدّ ونهاية له». لا شكّ أنّ هذا الانقسام في داخله بين الشعورين قد سبّب له مشكلة أخلاقية، كما تظهره هذه الرسالة المرسلة إلى صديقته تيتا إنفانتي في شهر نوفمبر من عام 1954:

«. . . سيكون من النفاق أن أطرح نفسي كنموذج: الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أتفاخر به هو الهروب من كلّ ما يزعجني، واليوم، حتى وأنا على وشك الانخراط في النضال (بخاصّة على الصعيد الاجتماعي)، أواصل بهدوء أسفاري كما يحلو لي وبحسب الأحداث من دون أن أفكّر في المجيء إلى الأرجنتين وخوض الحرب فيها. لا أخفيكِ السرّ بأنّه هنا تكمن حيرتي الأساسية، لأنني في مأزق رهيبٍ بين العفّة (هنا) والرغبة (أي التجوال، وعلى نحو خاصّ في أوروبا) وأرى أنني مهيّأ لأن أمارس البغاء بمنتهى الوقاحة كلّما سنحت لي الفرصة لذلك».

لقد سبق وأن قلت: كان إرنستو يمتلك قدرة نموذجية على انتقاد ذاته. لقد كان قادراً على تحليل أدنى أخطائه ونقاط ضعفه وأفعاله بوضوحٍ مذهل. وفي إطار البحث عن مخرج ومتنفّسٍ لأفكاره، كان يعمل بتلهّف على إيجاده وعلى الاشتباك مع إمبرياليي ومستغلي وجلادي العالم أجمع أو أميركا كنقطة بداية. اكتشاف

العالم أم تغييره، أن يعيش أو يضحّي بحياته. تلك هي الأسئلة الأساسية التي كانت تثقل عليه وتعذّبه. في تلك الفترة، كان من الممكن أن تبدو هذه المسائل مجرّد شعارات طنّانة، بل حتى مزاودات. ولكن نظراً إلى ما أنجزه فيما بعد، فإنّ أسئلته تلك قد أخذت كلّ معانيها الحقيقية. فقد مات إرنستو في سبيل أفكاره. وهذا أيضاً أمر في غاية البساطة.

هذا الصراع الداخلي الذي لم يمهله أي فرصة سوف يجد له حلّاً حاسماً ونهائياً: لقد تعرّف إرنستو على راؤول كاسترو، الشقيق الأصغر لفيدل كاسترو. كان اللقاء بينهما بفضل هيلدا غاديا. كانت رفيقة إرنستو تنشط براحة وسط حلقات المنفيين السياسيين. كان إرنستو وهيلدا يحضران كذلك بانتظام الاجتماعات والسهرات التي تُنظّم من قبل القادة السياسيين للبيرو وغواتيمالا والأرجنتين و. . . كوبا. ومنذ لقائهما الأول، لم يعد راؤول وإرنستو يفترقان.

في السادس والعشرين من شهر يوليو من عام 1953، هاجم الأخوان كاسترو ثكنة مونكادا في سانتياغو دي كوبا[1]. انتهى الهجوم، الذي كان هدفه زعزعة الدكتاتورية القائمة آنذاك، بفشلٍ ذريع. وباختصار، تمَّ إعدام أو توقيف عناصر المجموعة المتمرّدة من قبل قوات فولغينسيو باتيستا. أثناء محاكمته، ترافع فيدل كاسترو بنفسه في المحكمة ودافع عن نفسه: كان محامياً، ويا له من محامٍ! استغرقت مرافعته الحماسية والرائعة عن الشعب الكوبي المضطّهد، والتي عنونها بعنوان «التاريخ سوف يبرئني»، مدّة ثلاث ساعات. لقد

---

(1) الإقليم الجنوبي من الجزيرة.

أثّر تأثيراً بالغاً على البلاد بحيث انتهى الأمر بالديكتاتور باتيستا، في شهر مايو من عام 1955، وتحت الضغط الشعبي، بالعفو عنه مقابل التعهّد -وهو تعهّدٌ لم يحصل عليه بالتأكيد- بألّا يعود لنشاطه. بعد إطلاق سراحه، غادر إلى المكسيك بهدف الإعداد لعودته إلى كوبا. أعاد تنظيم مجموعته الثورية التي أطلق عليها اسم حركة 26 يوليو.

التقى إرنستو مع فيدل كاسترو لأوّل مرة مساء السابع من شهر يوليو من عام 1955 في منزل صديقة لهيلدا تُدعى ماريا أنتونيا. إنّ صدفة جهنّمية شاءت أن يلتقي هذان الرجلان الاستثنائيان في اللحظة المناسبة حيث كان كلٌّ منهما في حاجة إلى الآخر! لقد أُعجِبَ كلٌّ منهما بالآخر على الفور وأمضيا الليل بأكمله وهما يتناقشان. كان إرنستو منبهراً كلّياً. أما فيدل، فلم يكن يحتاج إلى أكثر من بضع ساعات حتى يعرف قيمة إرنستو وقدراته. لا بدَّ أنّه قد قال في نفسه: «يلزمني هذا الرجل». فقد اقترح عليه أن يكون الطبيب المتجوّل لحركته. عند بزوغ الفجر، كان إرنستو قد جُنِّدَ في حركة كاسترو. لقد انتهت المماطلات والتسويفات والمعضلات. لقد وجد في النهاية ضآلته. أعتقد أنّه قد وافق على وظيفة الطبيب افتراضياً. كانت رحلته الأخيرة قد قادته إلى استخلاص نتيجة: مهنة الطبّ وحدها لا تكفي لتضميد جراح الإنسانية.

لم يكن إرنستو قد تلقّى أي تدريب عسكري لكونه قد أُعفي من الخدمة العسكرية في الأرجنتين. وبالتالي فإنّ شهادته في الطبّ سوف تخدمه على الأقلّ كجواز سفر للانضمام إلى حرب العصابات التي يخوضها الثوّار. بدأ التدريب والتأهيل بعد بضعة أسابيع من ذلك، تحت إشراف عقيد كوبي يبلغ من العمر ثلاثة وسبعين عاماً ويُدعى ألبيرتو بايو. كان بايو قد تلقّى تعليمه في إسبانيا، حيث درّب

الجماعات الجمهورية في الحرب الأهلية الإسبانية. ولكي يقوما بتدريب وتأهيل رجالهم البالغ عددهم اثنان وثمانون مقاتلاً، من دون إثارة الانتباه، اختار كاسترو وبايو مزرعة في مقاطعة شالكو الجبلية التي تقع على بعد حوالي ثلاثين كيلومتراً من العاصمة المكسيكية. كانت المزرعة الشاسعة ملكاً لأحد رفاق بانشو فيا القدامى. استمرت دورة التدريب والتأهيل التي مزجت بين الدروس النظرية والتدريبات العملية لثلاثة أشهر، أعلن العقيد بايو في ختامها فيدل كاسترو المتدرّب الأكثر مهارة وتطوّراً في الدفعة. لقد انبهر العقيد بذكائه وانضباطه وعزمه وإصراره وشجاعته وثقافته الواسعة وروحه الرفاقية.

في الجبل، كان إرنستو قد أصبح تشي، وقد أطلق عليه هذا اللقب، كما كان يُقال له في السابق، من قبل رفاقه بسبب هوسه بإضافة كلمة تشي إلى كلّ جملة، تقديراً له كأرجنتينيّ يستحق الاحترام والتقدير. لم يكن ذلك يزعجه، بل على العكس: كان يحبّ أن ينادى بأصوله الأرجنتينية. كانت المتّة وكلمة تشي عنوانين يدلّان على «أرجنتينيته». كانت لكلمة تشي معنى آخر أيضاً: إنّها مشتقّة من كلمة «مابوتشي» التي تعني «شعب الأرض» وتُطلق على السكان الأصليين في جنوب تشيلي وفي جنوب غرب الأرجنتين.

لم يخبرنا إرنستو أيّ شيء عن نشاطاته الجديدة. ومع ذلك، ظلّ يكتب إلينا بانتظام. أتذكّر على نحوٍ خاص رسالة تلقيناها منه في شهر أكتوبر من عام 1955 -بعد مغادرة بيرون إلى المنفى- بسبب ردّ فعل والدي عليها. كان إرنستو يستنكر فيها الأحداث التي وقعت في الأرجنتين، ليس لأنّه كان مناصراً لبيرون وإنّما لأنّه كان يعتقد بأنّ بيرون على الأقلّ كان يمتلك ميزة الوقوف في وجه الإمبرياليين

اليانكيين وأنه أقلّ سوءاً وضرراً، مقارنة مع العسكر. وصل والدي المناهض لبيرون حانقاً وغاضباً من شارع آراوز وهو يلوّح برسالة إرنستو في الهواء. صرخ غاضباً: «تعالوا واسمعوا قليلاً ما كتبه!».

كانت لهجته في رسائله قد تغيّرت. كان يستخدم على الدوام نبرة من الفكاهة والسخرية ويسأل عن أخبار الجميع. ورغم التلميح غير المباشر، إلّا أنّه لم يكشف لنا صراحةً عن مشاريعه وخططه. كان يعطي إشارات من دون أن يخوض في التفاصيل. كان يتحدّث عن «أصدقاء كوبيين» وعن مقالاته في مجلّة طبيّة؛ وعن «بيته المتنقّل» وعن الولادة الوشيكة لمولوده الأوّل، ابنته هيلدا بياتريز؛ وعن صعوده لثاني أعلى قمّة جبلية في المكسيك، وهو بركان بوبوكاتبتبيل (على ارتفاع 5426 متر)، وقد كتب لنا قائلاً: «لقد تسلّقت قمّة بوبو»، وكذلك عن أعماله العلمية. كان والدي يشتكي من الجانب الغامض والمتصوّف في خطاباته المرسلة إلينا. لا بدَّ أنّه كان يشفّر ليس فقط كتابته بل معنى كلماته أيضاً! وقد تبيّن لنا فيما بعد أنّ الصعود الخطر إلى تلك القمّة الشاهقة والتي عاد منها وقد تجمّدت قدماه واحمرّ وجهه كالجمر، كان في الحقيقة أحد تمارين التدريب العسكري الذي فرضه الكولونيل ألبيرتو بايو. في الحقيقة، كان في حاجة إلى لياقة جسمانية ممتازة لكي يتمكّن من خوض الوحول في سلسلة جبال سييرا مايسترا الكوبية.

أخبرنا في المقابل أنّه، وبعد أن «أفرط في شرب التيكيلا» ذات يوم، أقدم على «حركة فروسية عبثية»، من خلال طلب يد هيلدا للزواج[1]. كما ذكر أيضاً حضوره الوشيك لمؤتمرٍ طبيّ في فنزويلا.

---

(1) تمّ الاحتفال بالزواج في الثامن عشر من أغسطس في تيبوتزولتان.

كان على وشك أن يصبح أباً وبدا أنّه بات يأخذ عمله على محمل الجدّ. ربّما كان سيحوّل أخيراً ذلك المنزل المتنقّل إلى بيت مستقر. وكان من المفضّل أن يكون ذلك في الأرجنتين، قرب أهله وذويه. ومع ذلك، ظلّ والداي قلقين. لا شكّ أنّ ذلك بسبب شعورهما الغريزي والفطري كوالدين...

أُخبرنا بنبأ اعتقاله وحبسه في سجن ميغيل شولتز للاجئين أثناء صيف عام 1956. كانت الخلية الكوبية التابعة لحركة 26 يوليو قد اكتُشِفَت من قبل الإدارة الاتحادية لجهاز الأمن المكسيكي. لم يكن لديها أدنى شكّ في أنّ هذه المجموعة تُعدُّ نفسها للقتال في كوبا. في رسالة مؤرّخة في شهر أبريل من عام 1956، تحدّث إرنستو فعلياً عن اهتمامه المتنامي «بعقيدة سان كارلوس» أي (كارل ماركس)، «الأكثر إثارة للاهتمام من دراسة الفيزيولوجيا». ولكن في نهاية المطاف وجد نفسه في السجن! ولأنّ أخباره انقطعت لمدّة طويلة، استبدّ القلق بأبي وفعل كلّ ما بوسعه وبذل كلّ جهوده لكي يعرف ما حدث لابنه. كان ابن عمّه راؤول لينش، وهو أدميرال متقاعد، سفير الأرجنتين في كوبا. كان بوسعه أن يسأل عن أخباره عبر القنوات والطرق الدبلوماسية. وفي المكسيك، كان هناك أوليسيس بوتيت دي مورات والسفير الأرجنتيني فرناندو ليزيكا، والذي كان عم زوجة روبرتو. كان أبي قد استنفر كلّ هؤلاء الناس لكي يحصل على معلومات موثوقة. وهكذا عرفنا بوجود فيدل كاسترو.

وفي النهاية استطاع إرنستو أن ينفتح علينا وأن يخبرنا بحقيقة ما جرى. في رسالة إلى العائلة، تحدّث عن فيدل للمرّة الأولى: «فيدل زعيمٌ كوبيّ شاب طلب مني منذ فترة أن أنضمّ إلى حركته». وقد علمنا من خلال طرفٍ ثالث أنّ من بين جميع أعضاء المجموعة

الكوبية التي تمَّ اعتقالها، أظهر إرنستو أنّه الأكثر جرأة وصراحةً وصموداً. كان الوحيد من بين جميع المعتقلين الذي أعلن صراحة وبفخر اعتناقه للماركسية-اللينينية. وقد ختم رسالته قائلاً: «سوف أنتصر فيها (يقصد الثورة الكوبية) أو أنني سأموت هناك. وإذا كنتُ لا أستطيع أن أتنبّأ لسببٍ ما، وإذا ما استحال عليّ أن أكتب من جديد، وإذا ما خانني الحظّ فيما بعد، اعتبروا هذه الأسطر بمثابة وداعٍ لا كعبارات مفخّمة ومنمّقة، بل ككلماتٍ صادقة نابعة من القلب. بدءاً من هذه اللحظة، سوف لن أعتبر موتي خسارة أو فشلاً».

ذُعِرَت أمّي لكونها تعرف جيّداً الشخصية الكاملة لابنها فأخذت تلتهم كل ما يمكنها أن تقرأه حول فيدل كاسترو هذا الذي لم يسبق لها أن سمعت باسمه على الإطلاق. أرادت أن تعرف بين أيّ الأذرع ألقى إرنستو بنفسه. ما قرأته حول كاسترو لم يكن باعثاً على الاطمئنان لديها، بل على العكس تماماً. إنّ القلق العميق لوالديّ، القلق اليومي الذي بات يستبدّ بهما على الدوام، يضرب جذوره في تلك الفترة بالضبط. حاول أبي أن يستثمر علاقاته مع شخصيات مهمّة طالباً منهم الذهاب إلى مقابلة إرنستو في السجن. وردّ عليه إرنستو على الفور طالباً منه عدم إرسال «أشخاص من هذا النوع» إليه في السجن. حينما قام بوتيت دي مورات بزيارته، رفض إرنستو أن يتلقّى منه أي مساعدة لوحده طالما لا يستطيع رفاقه الكوبيون الآخرون أن يستفيدوا منها أيضاً. رفض على نحوٍ قاطع أن يتلقى أي معاملة تفضيلية أو محاباة. فوصف لنا بوتيت مورات آنذاك «تصرّفه الأخلاقي الرائع». بدا معجباً للغاية بنزاهة واستقامة إرنستو.

كان خبر اعتقال «الطبيب الأرجنتيني» قد شاع في كلّ أنحاء

أميركا اللاتينية. أُصبنا نحن أفراد عائلته وكذلك أصدقاؤنا بالذهول من «مشاريعه الجنونية». لم يمتنع الأصدقاء عن البوح لوالديّ بطريقتهم في التفكير. بدأ جرس الهاتف يرنّ دون انقطاعٍ في شارع آراوز. كان أقاربنا والأصدقاء المقربّون من العائلة ينصحوننا أن نسلك أسلوب القسوة مع إرنستو وأن نكون صارمين معه لكي نعيده إلى جادة الصواب. أمّا أنا، فكنتُ أرى الحكاية برمّتها حكاية رائعة ومذهلة. كان أخي شخصية استثنائية وفريدة!

كانت المرحلة التي يمكنني أن أسمّيها «ما قبل تشي» في طريقها إلى نهايتها لكي ندخل في مرحلة «ما بعد تشي»، التي تميّزت بالصراع بالنسبة إلى عائلتنا. في الحقيقة، رحنا نتحمّل عبء التزام إرنستو وعبء شعبيته المتنامية وعلى نحوٍ أخصّ عبء مواجهته ومجابهته للسلطات القائمة.

كنت بالكاد قد بلغتُ الثالثة عشرة من عمري وكان تأهيلي السياسي قد تقدّم بشكلٍ ملحوظ. كنّا، أمّي وأنا، نتناقش كثيراً في أحاديث عائلية ودّية. كانت علاقتنا علاقة صداقة أكثر من أن تكون مجرّد علاقة أمّ وابن. وبخلاف ما كان الحال مع أمّي، كنتُ مُقلّاً في الحديث عن الأمور السياسية مع أبي لأنّنا نادراً ما كنّا نتّفق في الرأي بشأن المسائل السياسية. في هذا المجال، كانت مرجعيتي هي أمّي وأختي سيليا. وبالطبع إرنستو، ولكنّه كان بعيداً عنّا. ورغم بُعده، ظلّت رسائله تصلنا بانتظام.

ما زلتُ أتذكّر المرّة الأولى التي وقّع فيها باسم «تشي». كان ذلك في رسالة موجّهة إلى أمي بتاريخ الخامس عشر من يوليو من عام 1956. لأنّ أمّي توصّلت حينذاك إلى قناعة بأنّ فيدل كاسترو سيعاود الهجوم على الجزيرة بمشاركة ابنها، أرسلت رسالة توبيخ

إلى إرنستو، عبّرت فيها عن عدم فهمها وشكوكها. لم تكن كوبا بلاده. إذا كان يريد النضال ضدّ الظلم، فلماذا لا يناضل ضدّ طاغيتنا المحليّ بدل الذهاب وتعريض حياته للخطر على بعد آلاف الكيلومترات من هنا؟ كانت الأرجنتين تُحكَم آنذاك من قبل بيدرو أوخينيو أرامبورو، وهو الجنرال المسؤول عن «الثورة التحررية» (Revolución Libertadora)، وبعبارة أخرى المسؤول عن الانقلاب العسكري ضدّ بيرون في عام 1955. لم يكن آرامبورو سوى دكتاتور آخر يضطّهد ويقمع أنصار بيرون أو يسجنهم أو يغتالهم. كان تعصّبه الأعمى يبلغ حدّ قيامه بسنّ قانون ينصّ على أنّه من غير القانوني ومن غير المشروع الترويج والدعاية للبيرونية وذكر اسمي إيفا وخوان بيرون، وكذلك حيازة صور أو رموز أو تماثيل تمثّلهما. وهذا القمع هو الذي أدّى إلى تقوية وتعزيز حركة «مونتونيروس» الناشئة آنذاك.

كانت أمّي ترتعد خوفاً وتموت قلقاً على ابنها، ولذلك حاولت لأوّل مرّة أن تضبطه وتفرض عليه الطاعة والانقياد على الرغم من بلوغه سنّ الثامنة والعشرين. من جانبه، كان إرنستو قد اعتاد على أن تسانده أمّي وتدعمه في كلّ شيء. أفترض أنّه قد فوجئ كثيراً من توجيه اللوم والعتاب له بهذه الدرجة من الشدّة والحزم. وسأعيد، هنا، نشر جزءٍ من رسالته الجوابية لأنّ هذه الرسالة الجوهرية أحدثت تحوّلاً في حياتنا:

«أنا لستُ المسيح ولا فاعل خير، يا أمّي العجوز، بل أنا النقيض التامّ للمسيح ويبدو لي فعل الخير نوعاً من [كلمة غير واضحة في نصّ الرسالة]، وللأسباب التي أؤمن بها، أناضل وأكافح بكلّ ما بحوزتي من أسلحة وأحاول أن

أطرح خصمي أرضاً بدل من أن أدع نفسي أُصلب على يد الخصم. فيما يخصّ الإضراب عن الطعام، فأنتِ مخطئة تماماً: لقد شرعنا بالإضراب عن الطعام لمرّتين؛ في المرّة الأولى، أطلقوا سراح واحد وعشرين معتقلاً من أصل أربعة وعشرين معتقلاً من مجموعتنا وفي المرّة الثانية، أعلنوا عن قرار إطلاق سراح زعيم الحركة فيدل كاسترو، والذي يجب أن يُنفّذَ غداً. وبهذا سيبقى شخصان فقط في السجن، أنا أحدهما. لا أريدكِ أن تعتقدي، مثلما ألمحت هيلدا إلى ذلك، بأننا نحن الشخصان المتبقيان في السجن بمثابة ضحايا، نحن بكلّ بساطة لا نمتلك أوراق ثبوتية قانونية، وهذا هو السبب في أننا لم نصل إلى نفس النتائج التي بلغها رفاقنا الآخرون. أنا أنوي أن أذهب وأبحث عن اللجوء في البلد الأقرب إلينا، وهذا أمرٌ من الصعب تحقيقه نظراً إلى الشهرة التي زيّنوني بها في البلدان الأميركية، وأن أنتظر هناك إلى أن تتمّ الاستعانة بخدماتي. أكرّر لكِ بأنّه من المحتمل ألّا أستطيع الكتابة إليكِ لمدّة قد تطول وقد تقصر. إنّ أكثر ما يذهلني وما يرعبني هو افتقارك لتفهّمي ونصائحكِ حول الاعتدال والأنانية... إلخ. بعبارة أخرى العيوب والسلبيات الأكثر خسّة ومقتاً التي يمكن لفردٍ أن يتّصف بها. لستُ غير معتدلٍ فحسب، بل سأسعى على الدوام ألّا أكون كذلك على الإطلاق وإذا ما تبيّن لي ذات يوم أنّ النداء المقدّس قد أخلى مكانه للوهن والتخاذل، فلن يبقى لي حينها سوى أن ألعن نفسي. فيما يتعلّق بدعوتك إلى أنانية معتدلة، أي إلى نزعة الخلاص الفردي

المبتذلة والجبانة، وبفضائل السيد إكس [صديق العائلة][1]، عليّ أن أقول لكِ إنني قد بذلتُ جهداً كبيراً لكي أتطهّر من تلك النزعة المقيتة؛ أنا لا أتحدّث على وجه الدقّة عن هذا النوع من النزعة الفردانية، الغريبة والجبانة، بل أيضاً عن النزعة الفردانية البوهيمية واللامبالية بالآخرين والتي تتغذّى من شعورٍ بالاكتفاء الذاتي السامّ للضمير، وليس من قوّتي الخاصّة. منذ تلك الأيام التي قضيتها في السجن وأمضيتها في التدريب، تماهيتُ تماماً مع رفاقي في الكفاح والنضال... [...] أحد أخطر أخطائك هو اعتقادك بأنّ الاعتدال أو «الأنانية المعتدلة» يجلبان الإبداعات والأعمال الرائعة والعظيمة. إنّ الأعمال العظيمة تحتاج إلى الشغف ولا يُمكن للثورة أن تُنجَز من دون جرعات كبيرة من الشغف والجرأة وهي صفات موجودة عموماً في الجماعات البشرية. ثمّ أنّني لاحظتُ أمراً غريباً آخر: أنتِ تردّدين اسم الله في رسالتك، آمل ألا يعني هذا بأنّكِ قد عدتِ إلى قفصكِ الذي كنتِ فيه في مرحلة المراهقة[2]. كما أودّ أن أخبرك أنّ سلسلة «نداء الاستغاثة» التي أطلقتِها لا تفيد في شيء. فقد تملّك الخوف بوتيت [دي مورات]، وتوارى ليزيكا عن الأنظار وألقى موعظة على هيلدا (بالضدّ من إرادتي) حول الالتزامات المترتّبة على اللجوء السياسي.

---

(1) لم يُفصَح عن هويّة هذا الصديق منذ نشر هذه الرسالة لأوّل مرّة.

(2) يُلمّح إرنستو هنا بكلّ تأكيد إلى صومعة كنيسة القلب المقدّس التي أمضت فيها أمّي سنين مراهقتها.

أحسن راؤول لينش التصرّف، عن بُعد، وقال باديلا نيرفا إنّ الأمر يتعلّق بوزارات مختلفة. أراد الجميع أن يقدِّموا لي المساعدة ولكن شريطة أن أتخلّى عن أفكاري؛ لا أعتقد أنّك قد تفضّلين ابناً حيّاً وفاسقاً وآثماً على ابن ميّتٍ في مكانٍ ما ولكنّه قد أنجز وأتمّ ما كان يعتبره واجباً عليه. [. . .] فضلاً عن ذلك، من المؤكّد أنني بعد أن جعلتُ من نفسي مقوِّماً للأخطاء في كوبا، سوف أنطلق إلى مكانٍ آخر. كما أنّه من المؤكّد سوف أُهلَك فيما لو تمَّ حبسي في مكتبٍ أو في عيادة لأمراض الحساسية. وأنا أقول هذا، يبدو لي أنّ هذا الألم، ألم أمٍّ، والذي استبدّ بك في سنّ الشيخوخة ويتطلّب أن يبقى ابنك على قيد الحياة، هو مكان احترامٍ ويفرض عليّ الواجب -وأيضاً لديّ الرغبة القوية في ذلك- أن أعترف به كما هو عليه. أودّ أن أراك، ليس فقط لكي أواسيكِ، بل أيضاً لكي أواسي وأعزّي نفسي على الحنين المشين والعرضي. أمّي العجوز، أقبّلك وأعدكِ بأنني سأحضر ما لم يجدّ جديد. ابنك، تشي».

أوصلت هذه الرسالة، التي فككنا رموزها عائلياً، والديّ إلى القناعة بأنّه لم يعد هناك ما بوسعهما فعله سوى أن يساندا ويدعما قرارات أخي. كنا نعرف مدى إصراره ودرجة عزمه الذي لا يلين. سوف يتبع فيدل كاسترو هذا الذي باتت أمّي أيضاً تعجب به. كانت قد قرأت مرافعته أمام المحكمة، الجوهرة الغنائية التي أدانت طغيان فولغينسيو باتيستا وذكرت بالتفصيل بؤس الشعب الكوبي. كان من الصعب أن نعثر فيها على ما ينبغي إعادة قوله. أمّا بالنسبة إلى

إرنستو، فقد كان يتحدّث عن مجيئه لرؤيتنا، وكنّا نتشبّث بتلك الفكرة. في الحقيقة، لم يأتِ قطّ إلى بوينس آيرس، إلّا في شهر أغسطس من عام 1961، وذلك في مرورٍ عابرٍ استغرق بضع ساعات بعد زيارة قام بها إلى مدينة بونتا ديل إيستي الأوروغويانية. ذهبت العائلة بأكملها، بما فيها العمّة بياتريز، للقائه آنذاك في المنتجع الأوروغوياني بهذه المناسبة. كانت تلك المرّة الأخيرة التي نراه فيها. في تلك الفترة، في عام 1961، كان إرنستو وزيراً للصناعة في الحكومة الكوبية ولم يكن لدينا أي سبب للاعتقاد بأنّه قد يفكّر في القتال بعيداً عن كوبا. ومع ذلك، كانت رسالة أخرى مرسلة إلى أمّي تحمل تنبيهاً وتحذيراً، وهي مؤرّخة بتاريخ شهر نوفمبر من عام 1956، أي بعد ثلاثة أشهر من تاريخ الرسالة السابقة. فقد كتب: «يبدو لي إذا ما أُصبتُم بالمرض الذي أعاني منه، سوف يتفاقم بمرور الوقت ولا ينفكّ عنكم إلّا في القبر». هذا المرض كان عبارة عن رغبته العارمة، أو بالأحرى حاجته الماسّة، إلى الذهاب للقتال ضدّ الظلم.

بعد مدّة وجيزة من إرسال الرسالة المؤرّخة بتاريخ الخامس عشر من شهر يوليو، أبحر إرنستو مع واحد وثمانين رجلاً آخر (من بينهم فيدل وراؤول كاسترو وكاميلو سيينفيغوس وخوان ألميدا وراميرو فالديز) على متن يخت «غرانما»، اليخت القديم البالغ طوله ثمانية عشر متراً والذي اشتراه فيدل بمبلغ خمسة عشر ألف دولار قبل ذلك التاريخ ببضعة أسابيع. استغرقت الرحلة الأوديسية، والتي انطلقت، وجميع أنوار اليخت مطفأة، من ميناء توكسبان المكسيكي ليلة الخامس والعشرين من شهر نوفمبر، مدّة عشرة أيام. وعلى الفور

استبدّ دوّار بحرٍ رهيب بأولئك الرجال الأشدّاء. من الأفضل أن ندع إرنستو يروي لنا تلك الرحلة البحرية: «من جديد بدأ البحث المحموم عن أدويتنا المضادة للهيستامين بين أمتعتنا؛ وبدأنا ننشد النشيد الوطني الكوبي ومن ثمّ نشيد حركة 26 يوليو لمدّة ما يقارب خمس دقائق، وبعد ذلك مباشرةً بدأت سفينتنا تظهر وجهاً مأساوياً على نحوٍ مضحك، وهي محمّلة برجالٍ يمسكون ببطونهم وتعكس وجوههم مشاعر القلق والاضطراب. دسّ بعضهم رؤوسهم في سطلٍ وآخرون أصبحوا في وضعيات غريبة للغاية، وهم جامدين بلا حراكٍ وثيابهم مغطاة بالقيء»[1]. بعد مضي أربعة أو خمسة أيام، بدأت الأطعمة والمؤن بالنفاد.

وصل اليخت «غرانما» إلى الشواطئ الكوبية في الخامس من شهر ديسمبر وعلى متنها رجالٌ في غاية الإنهاك والضعف. تحوّل النزول على شاطئ لاس كولوراداس مباشرة إلى كارثة مشؤومة. كانت الرحلة البحرية قد اكتُشِفَت ورُصِدَت حال اقترابها من شواطئ الجزيرة وكان جيش باتيستا جاهزاً ومستعداً لاستقبالها بمدفعيته الأميركية الصنع. أيضاً، ما أن وطئت أقدام رجال فيدل الأرض حتى بدأ سلاح الطيران بقصفهم، ما أسفر عن مقتل سبعين منهم من أصل اثنين وثمانين مقاتلاً كانوا قد أبحروا من المكسيك. لم يتبقَّ منهم سوى اثني عشر مقاتلاً وسبع بنادق لكي يجابهوا بها ثلاثين ألف جندياً مسلّحين تسليحاً فائق التطوّر يضمّ دبّابات ومدافع وطائرات وسواها من الأسلحة الثقيلة والمتطوّرة. ومع ذلك، سوف

(1) إرنستو لينش جيفارا، *Aquí va un soldado de América* **(هنا مرّ جندي أميركي)**، بلازا خانيز، 2000.

تنتصر هذه المجموعة من الرجال الجائعين على فولغينسيو باتيستا. وسوف يشرح إرنستو فيما بعد للصحافيّ الأرجنتيني خورخي ريكاردو ماسيتي، وهو أول صحافي من مواطنيه أجرى معه مقابلة في جبال سييرا مايسترا، بأنّ الحركة مُدينة بانتصارها لإيمان فيدل الراسخ الذي لا يتزعزع: «كان رجلاً استثنائياً لا مثيل له. كانت الأمور الأكثر استحالة هي بالتحديد الأمور التي يتصدّى لها ويجد لها الحلول. كان لديه ثقة استثنائية وغير عادية بحقيقة أنّه ما أن يبدأ بالإبحار إلى كوبا، فسوف يصل إليها. وما أن يصل إليها، فسوف يبدأ بالكفاح والقتال. وما أن يبدأ بالقتال، فإنّه سوف ينتصر». ففي حين قُتِلَ العديد من رجاله وفي حين ظلّ الجيش الكوبي يقصف مجموعتهم، كان فيدل يصرخ: «اسمعوا كيف يطلقون النار علينا. إنّهم مرعوبون. إنّهم يخافون منّا لأنّهم يعلمون أنّنا سوف نهزمهم في النهاية!». هل كان ذلك حسّاً داخلياً أم ثقة بالنفس، لن يعرف أحدٌ ذلك على الإطلاق.

وسط الفوضى العارمة والمذبحة الرهيبة، وجد إرنستو نفسه في مواجهة معضلة حقيقية. سقط أحد الرفاق، وهو يحمل علبة ذخيرة في المعركة، أمامه. في تلك اللحظة كان عليه الاختيار بين علبتين، علبة الطبيب أو علبة المقاتل، لأنّه لم يكن بوسعه أن يحمل الاثنتين معاً. قال في نفسه: «إمّا أن أكون طبيباً وإمّا أن أكون مقاتلاً» (وقد تحدّث عن هذا الموقف الحرج في رسالة له إلى أمّي). أمسك بعلبة الذخائر ودسّها تحت قميصه. بعد مرور بضع دقائق، أصابته رصاصة في صدره. وقد نجا بفضل تلك العلبة وجُرِحَ في رقبته. وفي المرّة الثانية، اخترقت رصاصة خدّه لتخرج من خلف أذنه.

لم يصلنا خبر الإبحار إلى كوبا مباشرةً، ولكن ما أن بدأت الصحف تتناقل أصداءها حتى بدأ الكابوس بالنسبة إلينا. لم نكن نعلم أنّه قد أبحر مع تلك المجموعة! كان قد تحدّث لنا عن التزامه مع فيدل كاسترو من دون أن يكشف لنا عن تفاصيل خطّتهم: كان يعلم أن أجهزة الاستخبارات المكسيكية تقرأ بريده وتطّلع على رسائله.

وفي الحال بدأت الصحافة الأرجنتينية تهتمّ بأمر «الشابّ الأرجنتيني الطبيب والثائر». وللمرّة الأولى، تمَّ الإعلان عن خبر وفاة إرنستو في شهر ديسمبر في صحيفة **لا برينسا**، وهي صحيفة يومية يمينية. كانت المقالة تقول: «من بين قتلى هذه المعركة هناك الدكتور إرنستو جيفارا دي لا سيرنا». في ذلك اليوم، وصل أبي فجأة إلى البيت. كان محموماً ومذعوراً، وهو الأمر الذي أقلقني. كانت أمّي غارقة في لعبة السوليتر بورق الشدّة. وقف والدي للحظة جامداً في مكانه، دون أن ينطق بكلمة واحدة. كان على ما يبدو غير قادرٍ على أن يعلمها بالخبر. أخيراً، رفعت أمّي رأسها وحينما رأته، سألته في الحال: «ما الذي حدث؟»، أجاب والدي: «أنا واثق أنّ هذا الخبر ليس صحيحاً». صرخت أمّي: «إرنستو؟» خلال ثانية واحدة، هاجت غضباً. لم يكن هناك حاجة إلى قول المزيد عن ذلك. قامت متوثّبة من مكانها وأخذت الجريدة من يده، وبعد أن قرأت العنوان، هرعت إلى جهاز الهاتف لكي تتّصل بوكالة أسوشيتد بريس. لم تكن لدى الوكالة أيّ معلومات إضافية عن الخبر. انتاب حزنٌ عميقٌ أمّي وأصابها إحباطٌ شديد. بدأ جرس الهاتف يرنّ في بيتنا دون انقطاع. كان أفراد العائلة والأصدقاء يريدون أن يعرفوا إن كان الخبر صحيحاً وإن كان لدينا أخبار ومعلومات عنه. كانت

صحف العالم أجمع قد أعلنت عن إحباط عملية مجموعة فيدل كاسترو والقضاء عليها. في الحقيقة، لم تكن تفعل شيئاً سوى ترديد أكاذيب باتيستا. بالنسبة إلينا، كان الأمر رعباً خاصاً. مرّة أخرى، استنفر والدي شبكة علاقاته.

بينما كنّا ننتظر بتوتّر وبفارغ الصبر معلومات من السفارة الأرجنتينية في هافانا، وصلتنا رسالة أرسلت من قبل إرنستو من المكسيك قبل مغادرته لها. كان يعلن فيها قراره المبرم والذي لا رجعة فيه بالذهاب والقتال من أجل استقلال وحرية كوبا. كنّا في حيرة من أمرنا لا نعلم ماذا نفعل ولا كيف نفكّر. هل هو على قيد الحياة أم ميّت؟ كان هذا الشكّ وعدم اليقين فظيعاً وقاتلاً. ومن ثمّ، في الثالث عشر من شهر ديسمبر، وبينما كنّا جميعاً مجتمعين في بيتنا في شارع آراوز، ظهر مغلّفٌ من تحت باب البيت. كان خاتم البريد يشير إلى «مانزانيلو، كوبا». كانت الرسالة عبارة عن كلمة قصيرة للغاية من إرنستو يقول فيها بكلّ بساطة: «أمّي وأبي العجوزان العزيزان، أنا في حالة ممتازة، لم أستهلك بعد سوى اثنتين وبقيت لي خمسة [كان يتحدّث عن أرواحه، اذ كان يقول إنّه بسبعة أرواح]. أنا أواصل العمل ذاته، سوف تكون أخباري متقطعة وسوف تبقى كذلك، ولكن كونوا واثقين بأنّ الله أرجنتيني. قبلة كبيرة للجميع. تيتي[1]». يا لها من فرحة شعرنا بها في تلك اللحظة! انقلبت السهرة إلى عيد وحفلة، حفلة لا تُنسى.

بعد هذه الحادثة المؤلمة، نشرت الصحافة العالمية خبر موت إرنستو خمس مرّات. وجعلت الصحف الأرجنتينية من نفسها صوت

---

(1) تيتي، هو لقب كان معروفاً فقط من قبل العائلة.

نظام باتيستا والناطقة باسمه. كانت تروي الأكاذيب تلو الأكاذيب. فعلى سبيل المثال، كانت تقول إنّ الكاجيروس (الفلاحون الكوبيون) يناهضون الثورة ويقاومونها، وأنّ جيش الديكتاتور قد فتل وحيّد أعضاء حركة السادس والعشرين من يوليو، وإلى ما هنالك من أخبار وإشاعات كاذبة. عملت حملة التضليل بكامل طاقتها لصالح النظام. وكانت الحقيقة مختلفة تماماً. كان الفلاحون الكوبيون يقدّمون الآلاف من أبنائهم إلى صفوف حركة السادس والعشرين من يوليو. وإذا كانوا عاجزين عن زيادة عدد الثوار المقاتلين في صفوف المجموعات التي كانت تخوض حرب العصابات ضدّ النظام، فذلك لأنّ الحركة لم تكن تمتلك السلاح الكافي لتسلّحهم به. ومع ذلك، كانت قوات الحركة تزداد حجماً وعدداً بحيث استطاع الجيش الثوري أن ينظّم عمليات تخريبية وينصب الكمائن لكي يستولي على ترسانة العدو وأسلحته ويستخدمها في القتال. بينما كان باتيستا مشغولاً بالأكاذيب والتضليل الإعلامي، كان الجيش الثوري يبني هياكله وينظّم صفوفه في سلسلة جبال سييرا مايسترا. وخلال عدّة أشهر، لم ينجح إرنستو في الشروع بالقتال فحسب، بل كذلك في تأسيس مدارس ومستشفيات ميدانية ومخابز ومعملٍ للقنابل وآخر لصناعة الأحذية. فضلاً عن ذلك، قام بتركيب محطّة إذاعية وأسّس صحيفة أسماها **الكوبي الحرّ** (*El Cubano Libre*)، وكان يصدرها باستخدام طابعة قديمة ويوقّع مقالاته فيها تحت اسم «المستقلّ»[1]. وكان يطبّق في مقالاته المبادئ الأخلاقية التي سوف يصيغها فيما بعد

(1) Franc-tireur (المستقلّ): هو مصطلح يُطلَق على مقاتل لا ينتمي إلى أيّ جيشٍ نظامي. -المترجم-

على الشكل التالي: «كلّ ما نطلبه هو أن يكون الراوي صادقاً؛ هو أن لا يلجأ على الإطلاق إلى قول بعض الأشياء الخاطئة لكي يوضّح موقفاً شخصياً أو يوهم الناس بأنّه موجودٌ في هذا المكان أو ذاك؛ نطلب من الراوي، بعد أن يكتب بضع صفحات بحسب إمكاناته ومستوى تعليمه وموهبته، أن يخضع نفسه لنقدٍ ذاتي جدّي قدر الإمكان لكي يحذف كلّ الكلمات التي ليس من شأنها أن تكون على صلة بواقعٍ صادقٍ على نحوٍ صارم ومحكم أو حول الصدق الذي قد لا يكون على يقين تامّ به». كان إرنستو يقوم، بالإضافة إلى عمله القتالي، بتعليم الفلاحين القراءة والكتابة ويثقّفهم ويصغي إلى شكاويهم ويعالجهم، بل قد أشرف شخصياً على بناء مدرج هبوط الطائرات التي تنقل الأسلحة إلى الثورة. بدا وكأنّه يمتلك موهبة التواجد في كلّ مكان: كان في كلّ مكان في آنٍ واحد ويقوم بحل وتسوية المشاكل المتعددة والمتنوّعة على نحوٍ متزامن.

كان تشي، من بين مقاتلي الجيش الثوري، أوّل من سُمّي **قائداً** من قبل فيدل كاسترو حتى قبل راؤول كاسترو. وقد علّقت المقاتلة الشهيرة في صفوف الثوار سيليا سانشيز النجمة الحمراء على قبّعته.

كانت أخبار موته تصعقنا وتثير القلق والذعر فينا. وماذا لو كانت هذه الأخبار صحيحة؟ ولكنّ في كلّ مرّة كان يتم نفيها وتكذيبها. كنّا نحاول باستمرار ألّا نعيرها الكثير من الاهتمام وبقينا نترقّب باستمرار وننتظر وصول أيّ معلومة إيجابية عنه مهما كانت صغيرة. وصل إلينا العامل الأكثر اطمئناناً في نهاية شهر فبراير من عام 1957، على شكل سلسلة من المقالات المنشورة في صحيفة **نيويورك تايمز**. كان الصحافي الأميركي هربرت ماتيوس قد التقى مع فيدل كاسترو في جبال سييرا مايسترا. كان لتقريره، الذي نشر على

ثلاث حلقات في ثلاثة أيام متتالية، تأثيراً بالغاً ووضع الأمور في نصابها. لم يكن كاسترو رجلاً مجنوناً هائجاً ومنهاراً معنوياً ومستعداً لإلقاء السلاح، بل على العكس من ذلك تماماً. كما لم يكن شيوعياً متشدّداً، بل وطنياً كوبياً يسعى إلى تخليص بلاده من طاغية دموي يرهب شعبه. كان الجيش الثوري الذي يقوده كاسترو منظّماً وحازماً ويزداد عدداً وعدّةً يوماً بعد آخر. كانت إحدى بنات عمّ والدتي، والتي كانت تقيم في منتجع في نيويورك، هي من اتّصلت بنا لكي تشير إلى نشر التقرير. وكانت قراءة التقرير بالنسبة إلينا بمثابة مناسبة جديدة لكي نحتفل في المنزل. بعد ذلك بعدّة أيام، اتّصلت بنا قريبتنا هذه نفسها لكي تخبرنا، هذه المرّة، بأنّها قد شاهدت إرنستو في التلفاز، في تقريرٍ لقناة سي بي إس (CBS)، وهو في زيّه العسكري الموحّد، وله لحية، وهو دائم الابتسام وواثق على نحوٍ مطلق من أنّ الجيش الثوري سوف ينتصر! بعد العذابات التي لا توصف والتي عانينا منها قبل ذلك، بتنا الآن في غاية الفرح والابتهاج.

بعد مرور عامٍ واحد على ذلك التاريخ، حان دور الصحافي خورخي ريكاردو ماسيتي لكي يزور جبال سييرا مايسترا، موفداً من قبل راديو إيل موندو، وهي محطة إذاعية أرجنتينية. حينما وصل إلى مخيّم تشي بعد أيام قاسية ومحفوفة بالمخاطر من السير على الأقدام عبر السلاسل الجبليّة[1]، رأى أخي في هذه الصورة التي رواها فيما بعد في تقريره: «لقد وصل وهو يمتطي ظهر بغلة، وقد تدلّت ساقاه

---

(1) كان نظام باتيستا يغتال الصحافيين الذين يقومون بتغطية حرب العصابات التي كان الثوار الكوبيون يخوضونها.

وانحنى ظهره وعلى خاصرته سبطانة مسدّس من طراز «بيريتا» وبندقية ذات ناظورٍ تلسكوبي، وقد بدا السلاحان وكأنّهما دعامتان تسندان جسداً نحيلاً ذا أطراف طويلة على نحوٍ ظاهر. حينما اقتربت البغلة، استطعتُ أن أرى جعبة جلدية مليئة بالخراطيش ومسدّساً يتدليان من حزامه ومجلّتين مدسوستين في جيبي قميصه وآلة تصوير تتدلّى في رقبته وبضع شعيرات تبزغ في ذقنه على هيئة لحية. [. . .] بدا لي تشي جيفارا الشهير شاباً أرجنتينياً نموذجياً من الطبقة الوسطى». أتاح راديو الثورة، وهي محطّة إذاعية منصوبة على قمّة تلّة وسط الغابة، للصحافي ماسيتي أن يبثّ تقاريره والمقابلات التي كان يجريها. بعد زيارة سريّة طويلة إلى جبال سييرا مايسترا، أرسل تسجيلاته الحصرية إلى الأرجنتين. لسوء الحظّ، لدى العودة إلى هافانا، علِمَ أنّ تلك التسجيلات لم تصل أبداً. فعاد من جديد إلى جبال سييرا مايسترا في ظروفٍ أكثر قسوة بكثير من رحلته في المرّة الأولى والتقى هناك مع فيدل وتشي واللذين بديا مبتهجين لرؤيته من جديد. وقد تعاطفا معه وأظهرا له الودّ. وفي النهاية، نُشرَت تسجيلاته في أربع حلقات. كانت تلك المرّة الأولى التي يسمع فيها الأرجنتينيون صوت تشي ويحصلون على شهادة مباشرة عن الثورة الكوبية.

لدى عودته إلى بوينس آيرس، قام ماسيتي على الفور بزيارتنا. أبهجنا ما رواه لنا وأمدّنا بالأمل من جديد. سلّمنا تسجيلات أرسلها إرنستو لنا بصوته. وقد أثار سماع صوته بعد كل تلك الأشهر الطويلة سعادة وراحة كبيرتين وسط عائلتنا.

لقد غدا خورخي ليس صديقاً مقرّباً من العائلة فحسب بل تلميذاً لإرنستو. كان بقاؤه إلى جانب فيدل وتشي والثوار الآخرين وسماع حججهم بشأن الثورة ورؤيته للأعمال الوحشية المرتَكَبة من قبل

باتيستا قد حرّك ضميره ووجدانه كثيراً بحيث أنّه، بعد أن أسّس مع إرنستو وكالة «برينسا لاتينا» للأنباء -وذلك بغرض بثّ أخبار ومعلومات موثوقة وصادقة لمواجهة البروباغاندا اليانكية المستعرة في بلدان أميركا اللاتينية-، ترك مهنة الصحافة وأصبح ثائراً. قاتل في البداية في الجزائر لصالح جبهة التحرير الوطنية (FLN)، ومن ثمّ في إقليم سالتا الأرجنتيني تحت اسم حرب القائد سيغوندو. كانت مهمّته فيها هي الإعداد لمجيء تشي وانتشار الثورة في القارة بأكملها. وقد اختفى في يوم الحادي والعشرين من شهر أبريل من عام 1964. ماسيتي هو كاتب أفضل رواية كُتِبَت على الإطلاق حول الجيش الثوري[1].

بعد أن ترسّخت دعائم الجيش الثوري بقوّة في جبال سييرا مايسترا، نجح إرنستو في أن يبعث إلينا إشارات تدلّ على أنّه على قيد الحياة وإن كانت متقطّعة وغير منتظمة. ظلّ يطمئننا مؤكّداً بأنّ الأمور تسير نحو الاستقرار. حينما علم والداي بوجود إذاعة الثورة، اشتريا على الفور مذياعاً مزوّداً بهوائيّ ضخم قادرٍ على التقاط الأمواج القصيرة التي تُبثُّ عليها أخبار الثورة وتفنّد أكاذيب باتيستا.

بعد أن سمعنا بخبر مقتل إرنستو مرّة أخرى، شعرنا بالارتياح ذات يوم من خلال رسالة من الإذاعة الثورية والتي كانت تعلن: «لكي نُطمئن والديه في أميركا الجنوبية وكذلك الشعب الكوبي، نريد

---

(1) ماسيتي خورخي ريكاردو، *Los que luchan y los que lloran* (**أولئك الذين يقاتلون وأولئك الذين يحزنون**)، نيوسترا أميركا، 2006.

أن نؤكّد لكم بأنّ إرنستو جيفارا حيّاً يُرزق ويُقاتل في الصفوف الأمامية، ليس هذا فحسب، بل أنّه يستعدّ لاقتحام مدينة سانتا كلارا».

بدأ صحافيون آخرون، مثل الأوروغوياني كارلوس ماريا غوتييريز، يقومون بزيارتنا في البيت. وبات شارع آراوز الممرّ الإجباري للصحافيين المعدّين للتقارير. كانوا يأتون بناءً على طلب إرنستو الذي كان يرغب في أن يهدّئ من مخاوفنا ويُطمئننا، ولكنّهم بدأوا أيضاً يهتمون بشؤوننا. من أين جاء تشي هذا، من هم والداه، أخوته وأخواته، أبناء عمومته وأخواله، أعمامه وأخواله، عمّاته وخالاته؟ ذات يوم، أسرّت أمي إلى غوتييريز، الذي كان قد أخبرها أنّ حقيبة الظهر خاصّة إرنستو كانت مليئة بالكتب وأنّه ينشد قصائد الشاعر ليون فيليبي منذ الصباح وحتى المساء، أسرّت إليه بأنّ أمرين رئيسيين يحرمانها من النوم: «احتمال أن يقتلوه واليقين بأنّه سيقتل»[1].

لم يكن الصحافيون لوحدهم يهتمون بشؤوننا. كان والداي قد أسّسا لجنة لدعم الجيش الثوري. وبذلك تحوّل منزلنا إلى مركز ثوري ارتجالي. في معمعة تلك الفترة، تقرّب صحافيٌّ أميركي من والدي كان يُدعى جول ديبوا، والذي قدّم نفسه على أنّه مدير مجلّة **دياريو دي لاس أميريكاس** ومقرّها في فلوريدا، وزعم بأنّه يساند الثورة. كان ديبوا يقوم برحلات مكوكية متواصلة بين ميامي وبوينس آيرس. ولم يتأخّر في الاتصال مع والدي والاتفاق معه على مواعيد

(1) كونستينلا جوليا، *Che Guevara: La vida en juego* **(تشي جيفارا حياةٌ في خطر)**، إيداسا، 2006.

في المقاهي حينما يكون موجوداً في العاصمة. كان يطرح أسئلة بشأن إرنستو، تحت ستار الرغبة في حمايته. كانت المعلومة الأكثر تلهّفاً وحرصاً على معرفتها هي أين يمكن أن يتواجد إرنستو في جبال سييرا مايسترا. وأمام إلحاحه على معرفة هذه المعلومة، انتهى المطاف بأبي بأن اشتبه في أمره وشكّ في أن يكون عميلاً لوكالة المخابرات المركزية الأميركية وقطع كلّ صلة به. كان وضعنا حسّاساً. كان الجنرال بيدرو أرامبورو -وثورته التحريرية المذكورة فيما سبق- في السلطة وشكّل حكومة عسكرية وتسبّب بالقمع ولكنّه لم يكن صديقاً للثوّار الكوبيين.

في بداية شهر يونيو من عام 1958، اتّصل بنا إرنستو في اتّصالٍ قصير عبر الإذاعة الثورية. كان ذلك الاتصال بالنسبة إلى أمّي بمثابة هبة من العناية الإلهية. فقد كانت تعيش في حالة من العزلة الشديدة والحزن العميق والقلق الشديد على إرنستو. بعد ذلك بفترة وجيزة، كتبت إليه رسالة مطوّلة، ولا أدري على أيّ عنوان أرسلتها. لا شكّ في أنّها قد سلّمت تلك الرسالة إلى صحافيّ متوجّه إلى كوبا لكي يوصلها إلى أخي. سوف أعيد نشر المقتطفات المؤثّرة جدّا منها:

عزيزي تيتي،

لقد تأثّرت بالغ التأثّر لسماع صوتك عبر الهاتف بعد زمنٍ طويلٍ جدّاً. لم أتعرّف إلى صوتك. لقد بدوت كشخصٍ مختلف. ربّما كان خطّ الهاتف رديئاً أو قد يكون صوتك قد تغيّر. فقط حينما قلت «أمّي العجوز» استرجعت نبرة الماضي في صوتك. الأخبار التي نقلتها إليّ مذهلة

ومدهشة. [. . .] لقد تزوّجت آنا من بوتيت[1] وغادرت إلى فيينا. . . أهداهما سيرجيو بطاقة الطائرة. يفكّران بالعمل هناك لتدبير أمور حياتهما وكذلك الاستمتاع بالسفر.

يبدو أنّهما سينجبان مولوداً عمّا قريب، وسيكون أرجنتينياً. يا له من حزنٍ عميق حينما يغادر أولادي! لقد ترك رحيلهم فراغاً كبيراً في المنزل. أنت تعلم كم كانت آنا حيويّة ومرحة وصاخبة في البيت. بقيت سيليا هنا، لكنّها تحوّلت إلى فأرة صغيرة تلزم الصمت منذ مغادرة أختها. لدى روبرتو طفلتان شقراوان في غاية الجمال، تبلغ الأولى سنتين من العمر وتبلغ الثانية سنة واحدة. وهو ينتظر وريثاً في شهر أغسطس. يعمل بجدّ ونشاط لكي يعيل أسرته الكبيرة. أنت تعرف كم هو مجدّ ومقدام. إنّه يبدو سعيداً. . .

نالت سيليا مؤخّراً جائزة هامّة جدّاً مع زوجها لويس رودريغيز ألغاراناز وبوتيت؛ وقد نال ثلاثتهم مليونين أو ثلاثة ملايين بيزو. من المؤكّد أنّ مسافرينا إلى فيينا سيضطرون إلى العودة والعمل هنا. وهذه ستكون فرصة لي حيث أشعر بأنني تائهة من دون صيصاني.

يغمرني الشعور بالفخر لأنّ لديّ أولادٌ موهوبون جدّاً.

طبعاً، كبرت قدما خوان مارتن: هذا لا يعني أنّه قد أصبح طويل القامة، لا يزال قصير القامة مثل أخوته وأخواته وقد أصبح مراهقاً ساحراً فعلاً. إنّه يُقبلُ على

---

(1) كان هذا لقب فرناندو تشافيز، الذي اكتسب هذا اللقب بسبب قصر قامته.

الحياة ويتشبّث بها بأسنانه وهي سوف لن تنهكه. تحدث له الأشياء بشكلٍ طبيعي وعفوي وهو يتلقاها بنفس البساطة. إنّه حنون وحسّاس. لديه صوتٌ ساخر يذكّرني بصوت روبرتو وذكاءٌ حادّ، ولكن ليس لديه نفس لدغة الفضول الموجودة لديك ولدى شقيقتك سيليا. أعتقد أنّه سيكون أحد أولئك الذين يبدؤون بالطيران حالما يمتلكون الأجنحة، هناك القليل من الشبّان ممّن لديهم هذه الرغبة الجامحة في اكتشاف الآفاق الجديدة مثلما هي لدى خوان مارتن. إلى أن يحين ذلك الوقت، سيبقى هو رفيقي.

[...]

أمّا بالنسبة إليّ، فأنا أواظب على السير في نفس الطريق. مع بضع سنواتٍ إضافية وعذاب لم يكن قطّ بهذه الشدّة ولكنّه تحوّل إلى حزنٍ مزمنٍ تتخلّله من حين إلى آخر أخبارٌ مفرحة. كانت الجائزة التي مُنِحَت إلى سيليا أحد تلك الأخبار السعيدة، وستكون العودة إلى الوطن خبراً سعيداً آخر، وكان سماع صوتك أحد أكثر الأخبار سعادة في حياتي. لقد أصبحتُ أعاني من وحدة موحشة وقاسية للغاية.

لا أدري كيف أكتب إليك، ولا ماذا أقول لك، لقد فقدت هذه العادة.

لم أحصل على الميراث بعد. نريد أن نبني بيتاً جديداً، وقد تمّت الموافقة على خططنا ولكن علينا أن ننتظر لبعض الوقت: لقد تمَّ توقيف الإجراءات القضائية المتعلّقة بالإخلاء. لحسن الحظّ، لا يزال جوّ هذا الشتاء معتدلاً

حتى الآن. سوف نضطرّ أن نتحمّل هذا البيت القديم والبارد وغير المريح لبعض الوقت أيضاً.

بهذا الشأن، لدينا شاغلٌ جديد في البيت... لقد دخل إلى المنزل من تلقاء نفسه ومن دون أن يُدعى إليه... وقد تعقّدت الأمور على نحوٍ خطير عندما دخل خوان مارتن إلى البيت. وبسلطة كبيرة، قلت: «في أيّ حالٍ من الأحوال، سوف لن أقبل بوجود كلبٍ هنا في البيت. خذه إلى مكانٍ آخر يا خوان مارتن». لقد مضى أسبوع والكلب ينام في المطبخ. يُطلق عليه خوان مارتن اسم نيغريتا. [...]

ترهقني الأعمال المنزلية وتهدّ قواي. لقد مضى زمنٌ طويل وأنا أقوم بنفسي بأعمال الطبخ وأنت تعلم مدى كرهي للقيام بأعمال التدبير المنزلي.

بات المطبخ بمثابة مقر هيئة الأركان بالنسبة إليّ وأمضي معظم أوقاتي فيه.

لقد حدثت مشاجرة كبيرة مع والدك تبادلنا فيها الصراخ والضرب، ولذلك لم يعد يمرّ على البيت أبداً.

في اليوم الثاني من شهر يناير من عام 1959، أعلنت الإذاعة الثورية خبر انتصار فيدل كاسترو. وكان إرنستو سليماً معافى في هافانا. أصبح أخي «المغامر الأرجنتيني» كما كانوا يلقّبونه، على الفور، بطلاً قومياً بالنسبة إلى بلاده. أمّا عائلتنا، فقد انقسمت حول هذا الأمر على الفور.

العودة إلى بوينس آيرس

أصبح هناك ما قبل تشي وما بعده، ما قبل الثورة الكوبية وما بعدها، بالنسبة إلى أميركا اللاتينية وكذلك بالنسبة إلينا. لدى العودة من كوبا، استعادت أمي طاقتها النضالية. أفرحها ما وجدته في الجزيرة. خرج ابنها سليماً معافى من جبال سييرا مايسترا مكلّلاً بالمجد، فاستطاعت أخيراً أن ترتاح وتنعم بالنصر والسلام. ما أن تحرّرت من الكآبة الطويلة، حتّى شكّلت لجنة لدعم ومساندة حركة 26 يوليو وأصبحت أحد أعضائها الأكثر نشاطاً في صفوفها. أصبحت، منذ ذلك الحين، متحمّسة بشغف للأحداث الكوبية وأجهدت نفسها من أجلها.

كانت ميولي إلى الكفاح والنضال قد ترسّخت وتعزّزت أيضاً خلال زيارتي إلى الجزيرة. كنّا، أمّي وأنا، من أوائل الذين رافقوا أخي في مسيرته السياسية بطريقة غير مشروطة. لم يكن من السهل على أمّي أن تتقبّل فكرة أنّ أخي لن يعود قط إلى مزاولة مهنته كطبيب وأنّه لن يعود إلى الأرجنتين. ولكن منذ اللحظة التي قبلت فيها بالواقع، كرّست نفسها للدفاع عنه. تركت إلى الأبد لعبة السوليتير بورق اللعب وباتت تسهب في الحديث والكتابة عن الثورة الكوبية

وأهدافها. وقد نشرت سلسلة من أربع مقالات تحت عناوين: «Cuba por dentro» أي «كوبا من الداخل»، و«La tierra para el guajiro» أي «الأرض للفلاح»، و«Vivienda para todos» أي «السكن للجميع»، و«Desarrollo industrial» أي «التنمية الصناعية» في مجلة **لا فانجوارديا** الأرجنتينية. وقد أبدت في تلك المقالات اندهاشها وإعجابها برؤية الكثير من القيادات الشابّة وهي تعمل دون كللٍ أو ملل في سبيل الصالح العام والمصلحة المشتركة: «إذا كان الثوار قد أجادوا القتال عندما قاتلوا، فاليوم يجيدون القيادة والحكم وهم يقودون ويحكمون. لقد اكتشف كلّ منهم في نفسه، رجلاً كان أو امرأة، قدرات لا يرقى إليها الشكّ وطاقات لا تنضب، صعدت إلى السطح من الأعماق الكامنة لشخصيتهم، قدرات وطاقات ومؤهلات جعلتهم قادرين على إنجاز المهام المتنوّعة والمختلفة الملقاة على عاتقهم».

لم تتوقّف عند هذا الحدّ، فحينما استقال نائب الرئيس أليخاندرو غوميز من حكومة آرتورو فرونديزي لكي يقوم بتأسيس Movimiento nacional de defensa del petróleo y la energía أي «الحركة الوطنية للدفاع عن البترول والطاقة»، وذلك بهدف منع القوى الأجنبية من استغلال مواردنا، بدأت أمّي تناضل في صفوف هذه المنظمة. وحينما أطلق المثقّف ومؤسّس مجلّة **كونتورنو**، إسمايل فيناس، حركته الخاصّة التي سمّاها (Movimiento de liberación nacional) أي «حركة التحرير الوطنية»، كانت أمّي أوّل من دعمت وساندت هذه الحركة. انتقلت من جمود مرضيّ مفرط إلى نشاطٍ سياسي محموم. خلال السنتين التاليتين، زارت كوبا مرّتين ومكثت فيها لمدّة طويلة استغرقت في كلّ مرّة خمسة أشهر. وخلال

ما تبقّى من الوقت، كانت تنتقل بين الأرجنتين والبلدان الأجنبية لتعقد فيها مؤتمرات حول الثورة الكوبية، التي أصبحت أمّي الناطقة الأكثر إخلاصاً ووفاءً باسمها.

وعلى الرغم من رفضي لإتمام دراستي العليا، إلا أنني انتسبت إلى كليّة الصحافة. ألحّت عليّ أمّي في ذلك. وكذلك فعل إرنستو فاضطررتُ إلى الخضوع والاستسلام لإلحاحهما. ولكنني تركت الكلية بعد عامٍ واحد من الدراسة فيها. كنتُ أرغب في أن أصبح بروليتارياً وقدً أصبحتُ فعلاً كذلك. حصلتُ على وظيفة سائق شاحنة.

أمّا أبي، فقد ظلّ يعيش حياته في بُعدٍ ومجالٍ مختلفَين. لقد ثابر على العمل في مشاريعه التجارية. بفضل شهادة سيليا في الهندسة المعمارية، استطاع أن يحصل على عقدٍ لبناء مجمّع سكني مخفّض الإيجار في العاصمة بوينس آيرس، وهو عبارة عن مبنى ضخم مخصّص لموظّفي البلدية. لا يزال ذلك المبنى موجوداً حتى الآن. إنّه يقع في زاوية تقاطع جادتي ريفادابيا ودونيسيتي. وخلال عامين، حصلت المعجزة وجنى أبي أموالاً.

جرفتني حماسة أمّي من طرف وألهمني المثال الذي قدّمه أخي إرنستو من طرف آخر، فانخرطت في النضال بنشاط وحيوية. كان السؤال الذي تطرحه الأحزاب اليسارية آنذاك على نفسها هو معرفة ما إذا كان عليها أن تلجأ إلى السلاح في الدفاع عن أفكارها. لم تنجح تلك الأحزاب في الاتفاق على رؤية موحّدة. كانت الثورة الكوبية هي المسؤولة عن هذا الشقاق. لقد قسّمت الحركة إلى أفرع واتجاهات مختلفة. حتى على مستوى العائلة، اختلفت الآراء وتباينت المواقف. كنّا، أمّي وأنا، مع فكرة الكفاح المسلّح وكان

إرنستو هو من أقنعنا بذلك. لقد صرّح لنا أنّ الإمكانية الوحيدة هي القتال وقال إنّه «يجب أن يستمر القتال لأنّه السبيل الوحيد للنصر». كان والدي معارضاً لهذا الرأي.

وإذا كنّا نفتخر بسمعة إرنستو وشهرته ومآثره، فإنّ ذلك لم يكن من دون عواقب ونتائج انعكست علينا. كانت تلك فترة إشكالية - ولكن، أيّ فترة من تاريخ الأرجنتين لم تكن إشكالية؟ لم يعد والداي مجرّد شخصين بسيطين من آل جيفارا لينش دي لا سيرنا، بل أصبحا الآن والدَي تشي. فتشكّلت هوّة داخل العائلة. بدت الثورة الكوبية في بدايتها مرنة ومعتدلة جدّاً. ولكن مع انحيازها شيئاً فشيئاً نحو اليسار، بدأ بعض أقاربنا والأصدقاء المقرّبين منّا يُجاهرون بمعارضتهم، على الرغم من المحبّة الكبيرة التي كانوا يكنّونها لإرنستو. ولكن مع ذلك، كان هناك أمرٌ يحظى بإجماعهم ألا وهو صدق تشي المثالي. لقد أثبت أنّه مستعدّ لأن يموت في سبيل آرائه. فرضت شجاعته الفائقة احترامه على الجميع، بما فيهم الذين ينتقدونه. ومع ذلك، إذا كان كلّ أفراد العائلة يفتخرون بصلة القرابة معه حينما غدا بطلاً ذا أبعاد أسطورية، إلا أنّ الحال لم يبقَ كذلك خلال سنوات الستينيات من القرن العشرين. من جهة أولى، لأنّ تشي بات متّهماً بالشيوعية، ومن جهة ثانية، لأنّ مجرّد معرفته باتت تشكّل خطراً جسيماً. كان الجبناء والتقليديون يتحدّثون عنه بسوء وينتقدونه بشدّة. كانت شقيقتا أبي، سوزانا ومارتا، تتحدّثان على نحوٍ خاصّ عنه بخبث وسوء، ولم تتفوّها بكلمة طيّبة واحدة بحقّه. كان كلّ كلامهما عنه عدائياً وحاقداً. طبعاً كانتا متزوّجتين من رجلين مقتدرين من ذوي النفوذ. كان زوج مارتا طبيباً جرّاحاً كبيراً ومعروفاً في البلاد. أمّا زوج سوزانا، فلم أعد أتذكّر ماذا كان يعمل. حينما توفّت أمّي، تجرأت مارتا على أن تأتي

وتمشي في الجنازة. كانت تلك مرحلة قاسية جدّاً وعصيبة علينا. كنّا نجهل مكان تواجد إرنستو وغرقت أمّي في الحزن والقلق. سألتها عمّا تفعله في المكان ودعوتها للمغادرة على الفور. كان آل جيفارا رجعيين، ربّما باستثناء عمَّتي بياتريز وماريا لويزا. ومع ذلك، كانت جدّتي امرأة مناهضة للعادات والأعراف. لكن ما هي السخرية الكبرى؟ كان السفير الأرجنتيني العامل في كوبا، أثناء دخول تشي إلى هافانا منتصراً، هو ابن عمّ والدي، والذي سبق وأن ذكرناه، راؤول جيفارا لينش، وهو الذي كان قد ساعدنا في الحصول على أخبار إرنستو، وهذا الرجل هو من كان قد وقّع شخصياً على شهادة ميلاد إرنستو. ولم يكن من المؤيدين للثورة!

تزايد الفراغ من حولنا اتساعاً. من جانب آل دي لا سيرنا، ظلّ خالي خورخي مخلصاً ووفياً لنا واستمرّ في الاهتمام بأمورنا. ولكن لم يزرنا قط أحدٌ من أولاده. وحافظ خالي غوردوفا وخالتي كارمن دي لا سيرنا على صداقتهم لنا، لكنّ كايتانو ظلّ آنذاك يكرّس نفسه حصرياً للاهتمام بالشعر والنقد الفني.

في كوبا، حاول فيدل وإرنستو وراؤول وكاميلو ورفاقهم الآخرون تعزيز دعم ثورتهم وتشكيل وتنظيم حكومتهم. كان يتحتّم عليهم القيام بكلّ شيء وكانت المهمّة جسيمة للغاية. وكانت إحدى أكبر الصعوبات أمامهم هو العداء الذي تكنّه الولايات المتّحدة الأميركية لنظامهم الجديد. أعلن فيدل أنّه يؤيّد ويفضّل تفاهماً ودّياً مع جارته القوية. لم يكن شيوعياً. كانت ثورته قبل كلّ شيء ثورة وطنية وقومية. لم تكن لها ميول أو مطامح عالمية ودولية. ومع ذلك لم تنجح تصريحاته المعلنة في تهدئة الإمبرياليين. كان باتيستا

الدموي رجلهم ودمية بين أيديهم. ولم يكونوا يحبّذون أن يتمّ خلع رجالهم. كان لهم وحدهم الحقّ في تشكيل الحكومات وحلّها، وبخاصّة في أميركا اللاتينية حيث كانت لديهم تركة ثقيلة في ممارسة القمع ومناهضة الديمقراطية.

وقع أوّل هجوم مباشر في الرابع من شهر مارس من عام 1960. وماذا كان هدف الهجوم؟ لا كوفر، وهي سفينة فرنسية كانت راسية في ميناء هافانا وتنقل ذخائر وأعتدة بلجيكية إلى مقاطعة أنتويرب. وقد أدّى الهجوم الدموي إلى مقتل ستّة وسبعين شخصاً بريئاً. رأى فيدل في الهجوم عملاً من أعمال وكالة المخابرات المركزية الأميركية. لقد اتّهم الولايات المتحدة الأميركية وأدانها. وبذلك خرجت الأعمال العدائية بين القوة العظمى والجزيرة الصغيرة المجرّدة من وسائل الدفاع عن نفسها إلى العلن. قبل الفرار من البلاد، كان باتيستا قد أفرغ البنك المركزي الوطني الكوبي من الأموال وأودع 424 مليون دولار في البنوك الأميركية، وهو المبلغ الذي لن يعود إلى الشعب الكوبي أبداً. وبالتالي كانت البنوك في البلاد فارغة من الأرصدة. طلب البنك الوطني الكوبي (BNC)، الذي كان يديره إرنستو، قرضاً لدعم العملة الكوبية. لكن مجلس الأمن القومي الأميركي رفض الطلب. وبالتالي قرّر فيدل أنّ يسرّع مشاريع وخطط الإصلاح الزراعي وأن يتّخذ إجراءات وتدابير ذات طابع اجتماعي واشتراكي. فقد أمّم كل ملكية عقارية تزيد على 420 هكتار من الأراضي لكي يعيد توزيعها على الفلاحين وعلى المستأجرين للأراضي الزراعية وعلى من ليست لديهم أراضٍ زراعية. كما قام بتأميم جميع الأصول الأجنبية وصادر كافّة الشركات الأميركية وممتلكاتها في البلاد. بدءاً من تلك اللحظة، لم

تكفّ حكومة الرئيس الأميركي دوايت أيزنهاور عن محاولات عرقلة مسيرة الثورة الكوبية ومساعي إفشالها. فردّ على الإصلاحات والتدابير التي اتّخذها كاسترو بإجراءات اقتصادية وبدأ بتخفيضٍ كبيرٍ لواردات السكّر الكوبي ومن ثمّ فرض حصاراً جزئياً في شهر أكتوبر من عام 1960 وصولاً في النهاية إلى فرض حصار شاملٍ وكلّي في شهر فبراير من عام 1962. والحال كانت مادّة السكر العنصر الرئيسي والمركزي في الاقتصاد الكوبي.

في شهر أغسطس من عام 1961، قام تشي بتحليل الوضع في مقالة نُشِرَت في مجلّةٍ -لم تعد موجودة الآن- تابعة لوزارة الصناعة، فكتب التالي:

> حتماً، ليست هناك في القارة الأميركية قوّة عسكرية قادرة على مواجهة الولايات المتحدة الأميركية؛ لكن ما تخشاه أميركا هو الظهور المفاجئ لقوى وسلطات شعبية وإمكانية أن تحصل هذه القوى والسلطات على القوّة التي يمكنها أن تتحدّى بها، كما هو الحال في كوبا، أوامرها وتطبّق سياسة اقتصادية واجتماعية تفقد الولايات المتحدّة الأميركية السيطرة عليها والتحكّم بها؛ ومن الناحية المنطقية، لا يمكن للولايات المتّحدة الأميركية أن تقبل بسياسة خارجية خارجة عن سيطرتها وتحكّمها. ولهذا السبب، يسعى الإمبرياليون إلى البحث عن حلفاء وداعمين جدد، ولكن من دون التخلّي عن مناهجهم ووسائلهم القديمة في فرض الهيمنة الاقتصادية والسياسية.
>
> إنّ تحالف الإمبريالية اليانكية مع البرجوازيين المحليين

يعني، على المستوى الاقتصادي، أنّ الوسائل «الجديدة» في استغلال الشعوب الأميركية اللاتينية تقوم بكلّ بساطة على تحويل الرساميل الوطنية والقومية الواردة من الأرض إلى صناعات متمّمة وملحقة بصناعات الولايات المتحدة الأميركية، أو استبدال المنتوجات الاستهلاكية المستوردة بمنتوجات وطنية أخرى ترتبط بالتكنولوجيا والمواد الأولّية الأميركية الشمالية.

هناك صيغة أخرى تتحالف بموجبها البرجوازية القومية مع المصالح الأجنبية؛ فهي تخلق معاً في البلد المعني صناعات جديدة، وتحصل لهذه الصناعات على امتيازات جمركية وتعريفية تتيح لها أن تقصي تماماً مهارات وكفاءات بلدان إمبريالية أخرى؛ وبالتالي، يمكن للفوائد المجنية بهذه الطريقة أن تخرج من البلاد وهي محمية بقوانين وإجراءات تفضيلية في مسائل المبادلات التجارية.

من خلال نظام الاستغلال هذا، الجديد والأكثر ذكاءً، يتكفّل البلد «القومي» بحماية مصالح الولايات المتحدة الأميركية، من خلال سنّ قوانين جمركية وتعريفية تفضيلية تتيح توليد منافع وأرباح أخرى (والتي تعيد الولايات المتحدة الأميركية نفسها تصديرها داخل ولاياتها). وبطبيعة الحال، يتمّ تحديد أسعار المواد، بغضّ النظر عن نوعيتها وجودتها، من قبل المحتكرين لها.

لم يكن أمام فيدل كاسترو من خيارٍ سوى توقيع اتفاقية تجارية مع اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية. كانت كوبا في حاجة

ماسّة إلى حليف. وقد رفضت الولايات المتحدة الأميركية كلّ العروض والاقتراحات المقدّمة من قبل كوبا. وانقطعت العلاقات الدبلوماسية تماماً ونهائياً بين البلدين. كان إرنستو حينذاك وزيراً للصناعة. كان يعمل بجدّ ويواصل الليل بالنهار في مكتب متواضع في أحد المباني والذي وصفه فيما بعد الصحافي روجيليو غارسيا لوبو بهذه الطريقة: «كان مكتبه يقع في مبنى من أربعة عشر طابقاً لا يزال قيد الإنشاء. [. . .] كانت جدران المكتب المبنية بالخرسانة الخام ترشح رطوبة. وقد جرى لقاءُنا في جوّ حميمي لا يمكن تفسيره، وسط تلك الأوضاع السياسية الخطيرة للغاية، إلا بالثقة التي أشاعها اسمِ تيتا إنفانتي لدى تشي حالما تمّ نطقه من قبل شقيقها كارلوس إنفانتي. لقد نسيت كلّ ما جرى في اللقاء تقريباً ولكنني أتذكّر جيّداً كوب المتّة الذي كان ينتقل من يدَي جيفارا إلى يدَي كارلوس، مثلما أتذكّر خارطة للجمهورية الأرجنتينية كانت معلّقة على أحد جدران المكتب العارية، من دون أي ديكور أو تزيين، جدرانٌ مهيّأة للانهيار والتي يتصوّرها المرء سيئة كمشهد يومي»[1]. بدا أنّ الروتين والبيروقراطية والجوّ الخانق الذي كان عليه أن يقود فيه الثورة قد ألقت بثقلها على كاهل إرنستو. خلال زيارة رسمية إلى الجزائر في عام 1963، كتب إلى عمّتي بياتريز: «من مدينة طيبة، عاصمة الحلم الأولى، هذا الشاعر الذي لا يكتب الشعر وتحوّل إلى بيروقراطي ذي كرشٍ واعتاد على الجلوس لفترات طويلة والذي

---

(1) «Un mate en La Habana, y la Argentina en los sueños» («كوب من المتّة في هافانا وفي الأرجنتين في الأحلام»)، روجيليو غارسيا لوبو، **كلارين**، 15 نوفمبر 2002.

يمشي محاطاً بهالة من الحنين وهو ينتعل نعالاً ويلتفّ من حوله أطفالٌ صغار، يُرسل لك تذكاراً».

في عام 1960، تمّت استمالة ابن خالتي غييرمو مور دي لا سيرنا من قبل مجموعة شركات فيات-سوميكا التي كانت قد استقرّت حديثاً في الأرجنتين. كان غييرمو مالكاً للأراضي. كما كان مهندساً زراعياً ويوزّع نشاطاته بين الأرجنتين ونيكاراغوا. وكان قد حصل حديثاً على شهادته في الطيران. كان هو وإرنستو قد أمضيا معاً عدّة مواسم صيفية في غالارزا في فترة شبابهما، في بيت خالتي إديلميرا وزوجها إرنستو مور. وكانت مجموعة شركات فيات-سوميكا ممثّلة آنذاك بالسيّد أوريليو بيتشي، الرئيس والمدير العام للمجموعة الإيطالية الاستشارية، وهي مجموعة شركات إيطالية تتّخذ من الأرجنتين مقرّاً لها. حينما علِمَ أنّ غييرمو كان على وشك أن يشتري طائرة من الولايات المتحدة الأميركية، قال له بيتشي: «بما أنّك تستطيع الطيران، لماذا لا تمرّ وتلتقي بابن عمّتك في كوبا في طريق عودتك؟». أدرك غييرمو بأنّ المهمّة التي يُراد بأنّ تناط به هي إقناع إرنستو بإملاء الفراغ الذي تركته القطيعة مع الولايات المتحدة الأميركية وذلك بالتحالف مع أوروبا بدلاً من التحالف مع الاتحاد السوفيتي. فاتّصل مع إرنستو لكي يعلمه بسفره الوشيك إلى كوبا. حينما علِم إرنستو بأّنه ينوي المجيء على متن طائرة مسجّلة في الولايات المتّحدة الأميركية، صرخ فيه إرنستو قائلاً: «لا يمكنك المجيء إلى هنا على متن هذه الطائرة، سوف يُسقطونك!»، يجب ألّا ننسى أنّ كاميلو سيينفيغوس قد قُتِل في حادث تحطّم طائرة غامض لم تتوضّح ملابساته في يوم الثامن والعشرين من شهر أكتوبر

من عام 1959 وكان إرنستو يرتاب منذ ذلك الحين من وسيلة النقل هذه. فسافر غيبرمو على متن طائرة في رحلة تجارية. تصادف أنّ أمّي كانت في ذلك الوقت بالضبط موجودة في هافانا. فأبهجتها فرصة أن تلتقي بابن أختها وأن تقوم بإرشاده. زار غيبرمو كوبا بعين المهندس الزراعي. ما شاهده هناك لم يعجبه أبداً وتوقّع أن تقع كارثة في البلاد. كانت مساحات شاسعة من الأراضي بوراً وغير مستثمرة وقد هجرها ملّاكو الأراضي. حينما فاتح إرنستو بهذا الأمر وصارحه، أجابه تشي قائلاً: «فليغادروا. هذه ثورة. وأخبر أصدقائك الأوروبيين أنّ الأوان قد فات بالنسبة إلى أوروبا. لقد قضي الأمر ولا سبيل للعودة إلى الوراء».

ظلّ غيبرمو لأسبوعين في كوبا. عند عودته إلى بوينس آيرس، أخبرنا أنّ إرنستو يعيش في بيتٍ متواضعٍ وبسيطٍ جدّاً مع أليدا شديدة الغيرة والتوجّس، بخاصّة حيال أولئك الذين كانوا قريبين من زوجها قبلها، وبالتالي كان من الصعب أحياناً التقرّب من إرنستو الذي يعمل لوقتٍ طويلٍ ولم يعد يرتدي سوى بذلة عسكرية خضراء زيتونية بالية ومهترئة، الأمر الذي بدا له مسليّاً مقارنة بأزيائه في سنّ الشباب؛ ويستيقظ في حوالي الساعة التاسعة صباحاً ويشرب كوباً كبيراً من القهوة السوداء؛ وحينما يحلّ المساء، يلعب غالباً لعبة الشطرنج، ويرغب في تناول كعكة الفواكه، حلواه المفضّلة، ويشرب خمراً مضافاً إليه بعض الماء -وكان ذلك تقليداً في الأرجنتين آنذاك- ومن ثمّ يستحمّ لكي يستريح قليلاً، وأنّ أكثر ما كان يهمّه أثناء تواجده مع غيبرمو كان الحديث عن العائلة وعن الأرجنتين. كان قد مضى آنذاك سبعة أعوام على مغادرته للأرجنتين وعدم العودة إليها.

ربّما كانت غيرة أليدا مبرّرة ولها أسبابها. كان تشي في غاية

التودّد واللطف. وكانت تأتي شخصيات من كافة أنحاء العالم لكي تلتقي به، بدءاً من الزوجين سيمون دي بوفوار وجان بول سارتر، مروراً بالممثّل جيرار فيليب، والصحافي في صحيفة **نيويورك تايمز** هربرت ماتيوس وجيشاً من النساء الحسناوات والجذّابات اللواتي كنّ يزرن هافانا تحت ذرائع مختلفة ومتنوّعة لكي يقابلن الثوري الوسيم ويتحادثن معه.

بينما كانت الحكومة الكوبية الفتية تتصارع مع الولايات المتحدة الأميركية، لم يكن النشاط السياسي لأمّي وكذلك زياراتها إلى هافانا أمراً سريّاً أو خفيّاً في الأرجنتين. ومنذ ذلك الحين، تمَّ دمغنا بختم الشيوعية واعتُبرنا شيوعيين. ولم تغيّر زيارة فيدل كاسترو إلى بيتنا، أثناء مجيئه لحضور المؤتمر الحادي والعشرين في شهر مايو من عام 1960، في الأمر شيئاً. كان فيدل يعرف والدتي جيّداً ومعجباً بها كثيراً. كان يتحدّث عنها للمحيطين به على أنّها امرأة استثنائية وذكيّة ومثقّفة. من جانبها، كانت أمّي معجبة به كثيراً. في الحقيقة، كنّا جميعاً معجبين به. سواءً تقاسمنا معه آراءه أم لا، كان رجلاً استثنائياً وغير عاديٍّ، وعبقرياً على نحوٍ مذهل. فمن كان يعتقد آنذاك بأنّه سوف يقاوم الولايات المتحدة الأميركية خلال أربعة وخمسين عاماً، دون أن تتمكّن تلك القوة العظمى من لي ذراعه!

باختصار، وبفعل صداقته مع أخي إرنستو ومجاملته لأمّي، أخبرنا عن زيارته لنا قبل موعدها ببضعة أيام. حدث آنذاك موقف هزليّ للغاية. منذ البداية، رفض والدي رفضاً قاطعاً أن تتمّ الزيارة في بيتنا المتهالك في حيّ آراوز. لم تكن أمّي تقيم اعتباراً لذلك ولكنّها تركته يفعل ما يريد. كانت أمّي تعيش حياة زاهدة ومتزمّتة

وتعلم أنّ فيدل لا يعير اهتماماً لهذه المسألة. بالتأكيد ما كان لفيدل أن يهتمّ بهذه الشكليات، أمّا أبي فهيهات! فقام بإعداد ترتيبات الاستقبال والاحتفاء في منزل أخته هيرسيليا. كانت تعيش في شقّة فاخرة في شارع ريبوبليكا دي لا إينديا، في منطقة راقية من حيّ باليرمو، بالقرب من الحديقة. وكانت عمّتي وزوجها من ألدّ أعداء الثورة، لكنّهما ما كانا ليفوّتا فرصة استقبال فيدل كاسترو في بيتهما بأيّ ثمنٍ كان! كانا يزهوان بالافتخار! كان ذلك شرفاً استثنائياً! المهمّ أنّ الشقّة قد امتلأت بما يقارب ثلاثين شخصاً: من الأعمام والأخوال والعمّات والخالات وأبناء العمومة والعمّات وأبناء الأخوال والخالات والأصدقاء الذين كانوا في معظمهم معادين لروح الثورة الكوبية.

وصل فيدل إلى الشارع كرئيس دولة مع حراسة مشدّدة ومرافقين وكل ما يلزم من تدابير وإجراءات أمنية، لكنه صعد لوحده إلى البيت. حينما دخل إلى البيت، قال وهو يبتسم: «أنا في بيت أخي». ثمّ صافح والدتي وقال لها: «أنتِ بمثابة والدتي. لقد تحدّثنا كثيراً «عن ماما» مع تشي! في كلّ مغامراتنا، كان يتحدّث عنك بكثير من الحبّ الذي أكنّه لكِ مثله تماماً». كانت أمّي تشعُّ فرحاً وبهجةً.

استُقبِلَ فيدل كبطلٍ وانهال عليه الضيوف. كان كلُّ واحدٍ منهم يرغب في التحدّث معه ويصغي إليه ويتبادل معه حديثاً خاصّاً قصيراً. بدا أنّ النساء يرغبن في أن يلتهمنه التهاماً. لا بدَّ أنّه قد رأى كيف أنّهن يلتهمنه بالنظرات! كان فيدل هو فيدل! ثائر منتصر وأسطوري، يبلغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً، يرتدي بذلة رسمية أنيقة، جذّاباً وذو كاريزما فائقة وساحراً للغاية وودوداً ولطيفاً. لم تهتمّ النساء بكونه ثورياً أم لا، بدا من نظراتهنّ وكأنهنّ يقلن: «يا له من رجلٍ شهيّ، كم

سيكون ممتعاً إذا ما أصبحنا بين ذراعيه القويّتين!» ولكن من بين كلّ تلك النساء، كان فيدل ينظر باهتمام إلى إحدى قريباتنا وإلى أختي سيليا فقط. وكلتاهما كانتا جميلتين. كانت سهرة رائعة لا تُنسى.

لم تتأخّر التداعيات التي أحدثتها هذه الزيارة في الظهور. تعرّض منزلنا ذات يوم لإطلاق الرصاص. لقد أصبح من الصعب أن يحمل المرء لقب جيفارا دي لا سيرنا. ليس للأمر أهمية. أصبحتُ آنذاك أشاطر أخي أفكاره وبدأتُ أفهم نضاله وأسانده. ربّما لم أكن تلميذاً مجتهداً ولكنني كنت أقرأ وأطالع بغزارة. كنت أراكم المعارف وسوف تتاح لي الفرصة عمّا قريب لكي أبرهن لإرنستو أنّني لم أكن رجلاً كسولاً.

في الواقع، خلال شهر يوليو من عام 1961، أخبرنا إرنستو أنّه سيكون في بونتا ديل إيستي في بداية شهر أغسطس لحضور اجتماع منظمة الدول الأميركية (OEA). سافرت العائلة بأكملها إلى الأوروغواي.

كانت اللقاءات العائلية في بونتا ديل إيستي في غاية التأثّر والانفعال والكثافة. كانت عمّتي بياتريز التي اشتاقت إليه طيلة تلك السنوات تنظر إليه بولع شديد! كانت ترغب في أن تأخذه معها إلى بوينس آيرس. كان يتملّكنا إحساسٌ شديد بأنّ ذلك اللقاء سيكون الأخير. لسوء الحظّ، كنّا على حقّ، وحدها أمّي التقت به مرّة أخرى في هافانا بعد عدّة أشهر من ذلك اللقاء العائلي. كان إرنستو يمثّل كوبا في اجتماع منظمة الدول الأميركية. وبالتالي كان من الصعب جدّاً أن نستطيع الاختلاء به لوحده. ومع ذلك تناول كلّ وجبات طعامه معنا، وهو يجلس على الدوام بين أمّي وعمّتي بياتريز، وتضع كلّ واحدة منهنّ ذراعاً على كتفيه لحمايته.

روى الصحافي روجيليو غارسيا لوبو أنّ بونتا ديل إيستي كانت تعجّ برجال أجهزة الاستخبارات السريّة والجواسيس وعملاء أجهزة أمن مقنّعين وبأميركيين وكوبيين وروس ونساء كنّ يردن رؤية تشي. كان ذلك جحيماً. كانت حادثة خليج الخنازير قد وقعت حديثاً[1].

ولكنني شخصياً لم أكن قد بلغت تلك الدرجة من النضج لأستطيع أن أنتبه إلى هذا الخليط الذي يستحقّ أن يكون مادّة لكتاب عن الجاسوسية. ولكنني مع ذلك، كنتُ قد بلغت درجة كافية من النضج لكي أرغب في خوض مناقشات جدّية مع إرنستو. أردت أن أتحدّث عن الاشتراكية وعن التغيّرات الجارية في العالم وعن مستقبل القارة الأميركية وكوبا. كان يجيب عن أسئلتي واستفساراتي بطيبة خاطر ولكنّه كان لا يزال يصرّ على مسألة إكمالي لدراستي. كنّا ندور في حلقة مفرغة في هذا الشأن. وبعد أن تعب من طرح هذا الموضوع، أعطاني كتاباً مكتوباً في عهد ستالين، وهو **موجز في الاقتصاد السياسي**، صادر عن أكاديمية العلوم في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، طالباً مني أن أتعمّق وأتبحّر فيه. والغريب في الأمر أنّ إرنستو سوف يصبح عنيفاً جدّاً في انتقاداته لهذا الكتاب فيما بعد: «هناك الكثير من اليقينيات في هذا الكتاب تبدو في صيغة الثالوث المقدّس؛ إنّها غير مفهومة ولكنّ الإيمان يحلّها. . . إنّ الفصل المعنون «بناء الاقتصاد الاشتراكي للبلدان الأوروبية في الديمقراطية الشعبية» يبدو وكأنّه قد كُتِبَ من قبل أطفال

---

(1) «Trece días entre espías y traficantes de armas» («ثلاثة عشر يوماً بين الجواسيس وتجّار السلاح»)، روجيليو غارسيا لوبو، **كلارين**، 19 أغسطس 2001.

أو من قبل أغبياء. وأين موقف الجيش السوفيتي من كلّ هذا؟ هل يبقى مكتوف الأيدي متفرّجاً؟».

ومع ذلك، وحتى في عام 1961، كان لا يزال مؤمناً باتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. وأنا كنت ساذجاً. بعد ذلك، كفّ عن الإيمان بالاتحاد السوفيتي وفقد الثقة به بل وجّه انتقادات قاسية له. خلال زيارته الأخيرة إلى براغ في شهر فبراير من عام 1966، قبل مغادرته إلى بوليفيا، لم يتحدّث على الإطلاق عن قضايا ومسائل حسّاسة مع زواره في غرفته في الفندق. كان يعتقد أنّه تحت المراقبة وأنّه يتمّ التنصّت على أحاديثه واتّصالاته. آنذاك، لم يعد الاتحاد السوفيتي كما الولايات المتّحدة الأميركية يرغب في محرّض يحثّ على قيام الثورات ويزعزع النظام القائم. ولذلك لدي شكوكٌ في أنّ عملاء من جهاز الاستخبارات السوفيتية (لجنة أمن الدولة (KGB)) قد تعاونت مع وكالة المخابرات المركزية الأميركية لتصفية تشي جيفارا في بوليفيا، لكن بالتأكيد من دون أن يكون لدي دليلٌ على ذلك.

بعد عدّة أيام من عودتنا إلى بوينس آيرس، علمنا من خلال صحيفة **لا ناسيون** أنّ إرنستو قد مرَّ في زيارة مفاجئة وخاطفة إلى العاصمة قبل أن يعود إلى كوبا عبر البرازيل. لم يخبرنا أيّ شيء عن تلك الزيارة الخاطفة. كان قد أصبح كتوماً للغاية معنا. كانت مهمّتان قد دفعتاه إلى زيارة بوينس آيرس: المرض الشديد لعمّتي ماريا لويزا جيفارا لينش واجتماعٌ مع الرئيس آرتورو فرونديزي.

كان قد غادر مونتيفيديو في صبيحة يوم الثامن عشر من شهر أغسطس إلى سان فيرناندو، وهي ضاحية تقع على مقربة من القصر

الرئاسي الأرجنتيني في كوينتا دي أوليفوس، برفقة النائب البرلماني السابق خورخي كاريتوني. ولا بدَّ أنّ الاجتماع مع الرئيس ظلّ سريّاً. ومن المحتّم أن العسكر كانوا يجهلون أنّ الرئيس فرونديزي كان على وشك عقد اجتماعٍ مع الثوري الماركسي. وأيضاً لعدم لفت انتباههم، كان كاريتوني قد تلقّى الأمر في البداية بأن لا يستقل نفس الطائرة التي كان تشي يستقلّها إلى مونتيفيديو. ولكن خشية من الوقوع في كمين لوكالة المخابرات المركزية الأميركية، رفض إرنستو السفر لوحده على متن الطائرة. فرضخ كاريتوني لرغبة تشي. حينما هبطت بهما الطائرة في مدرج مطار سان فيرناندو، تمَّ استقبالهما من قبل رجلين عسكريين من اللواء الخاصّ. حينما شاهدا تشي، فوجئ الرجلان العسكريان وذُهلا: لم يكونا على علمٍ بقدومه. كان وجوده على الأراضي الأرجنتينية غير متوقّع على الإطلاق وكان أمراً إشكالياً مربكاً. وإذ ارتبك العسكريان ولم يعرفا ماذا يفعلان، اتّصلا برئيسهما، وأعطى هذا الأخير الضوء الأخضر لهما باستقباله. فتمّ نقل إرنستو نحو مقرّ إقامة فرونديزي للقاء به. تباحث الرجلان لمدّة ثلاث ساعات. لم يعلم أحد على الإطلاق ما الذي قيل في ذلك اللقاء. انتهى الاجتماع، وغادر إرنستو المقرّ الرئاسي إلى بيت عمّتي في سان إيزيدرو. وقد استغلّ تلك الزيارة لكي يتناول شطيرة شوريبان[1].

بدا آنذاك أنّ الأحداث الأخيرة المرتبطة بتشي وكوبا قد أغضبت أكثر من جهة وطرف. تلقّت أمّي عدّة تهديدات بالقتل. ذات صباح،

(1) شطيرة أرجنتينية تقليدية ونموذجية تتكوّن من شريحة من اللحم أو السجق وتقدّم في خبز الصمون، وغالباً ما تُباع في الشارع.

لدى وصول مستخدمتنا سابينا بورتوغال إلى المنزل، اكتشفت قنبلة على درج البيت. هرعت نحو غرفتي وأخبرتني أنّ علبة غريبة الشكل مع فتيلة ينبعث منها دخان قد وضِعَت على درج البيت. أمسكتُ بوالدتي وأخذت مقصّاً من المطبخ. نزلنا السلالم بأقصى سرعة وقطعت تلك الفتيلة. في الشارع، اكتشفت أمّي أنّها قد نسيت طاقم أسنانها وهرعت نحو المنزل لكي تجلبه. ولأنني لم أكن أعلم فيما إذا كانت القنبلة قد أُبطلت أم لا، حذّرتها من أنّ الصعود مرّة أخرى إلى المنزل أمرٌ جنوني. ولكن ذهبت جهودي هباءً! أصرّت على الذهاب وتوجّهت نحو الباب. هكذا كانت أمّي، عنيدة وشجاعة. كانت على استعداد لأن تموت من أجل استرداد طاقم أسنانها! بالطبع لم أسمح لها بأن تصعد إلى البيت من جديد؛ بل ذهبتُ بنفسي بدلاً عنها. تمَّ استدعاء الشرطة. كانت عبوة محشوّة بمادة تي إن تي. لم يتمّ إلقاء القبض على الجناة أبداً.

كان لديّ ابن عمّ من العائلة، وهو فاشيّ اسمه خوان مارتن جيفارا لينش. كان يجري أحياناً الخلط بيني وبينه. على نحوٍ مفاجئ، تلقينا اتصالات هاتفية مجهولة من خصوم ومناصري إرنستو. كان بعضهم يقولون: «ابن العاهرة النازية» ويقول آخرون: «الشيوعي القذر». كانت تلك الحقبة حقبة فائقة التسيّس.

كانت أمّي حذرة جدّاً وفي الوقت نفسه تثير الكثير من الضجيج والصخب. في الاجتماعات أو المؤتمرات التي كانت تحضرها أو تشارك فيها، لم تكن تكشف أنّها والدة تشي. كانت تقدّم نفسها باسمها سيليا بكلّ بساطة وكانت تغفل عمداً لقب عائلتها. كان البعض يعلمون ذلك، وآخرون يخمّنون ذلك بينما لم يهتمّ آخرون بهذا الأمر. وفي كلّ الأحوال، لم ترغب أمّي في أن تستغلّ صلة

القرابة لكي تحصل على امتيازات أو معاملة خاصّة. على العكس من ذلك تماماً، كانت تشعر بالراحة أكثر في الأماكن الشعبية، محاطة بأناسٍ بسطاء. ولكنّها كانت تثير في الوقت ذاته الكثير من الضجيج والصخب بشأن الثورة الكوبية.

في الثالث والعشرين من شهر أبريل من عام 1963، بعد أن أمضت زيارة امتدّت لستّة أشهر في كوبا وأوروبا والبرازيل، توجّهت إلى الأرجنتين، فتمّ توقيفها في طريق عودتها في قرية كونكورديا الواقعة على الحدود الأوروغويانية. كانت قد صُنِّفَت على أنّها «خطيرة». أرادت أن تعود إلى بوينس آيرس عبر الطريق المارّ من ريو دي جانيرو لكي «ترى أميركا عن قرب». كانت في السابعة والخمسين من عمرها وكان وضعها الصحّي سيئاً. وضعت تحت مراقبة السلطة التنفيذية واتُّهِمَت بخرق المرسوم السامي 962/ 8161 وذلك بنشر الدعاية الشيوعية في البلاد. وكمروّجة للشيوعية، كانت أمّي تحتفظ بين أمتعتها صورة لأخي تشي وبضعة كتب ومخطوطة بيد إرنستو وعلمٍ صغير لكوبا.

سافرنا، خالتي كارمن ووالدي وأخي روبرتو وأختي سيليا وزوجها لويس، على الفور إلى كونكورديا. وقد ألهب اعتقال أمّي الصحافة التي لفّقت التهم لها: كانت أمّي قد مرّت خلال رحلتها من تشيكوسلوفاكيا فاتّهمتها بعض الصحف بالتجسّس. طلب القاضي إطلاق سراحها وهو ما حصلت عليه. لكنّ الرئيس الأرجنتيني خوسيه ماريا غيدو، من حزب الاتحاد المدني الراديكالي المتشدّد، ألغى القرار وأمر بإرسالها إلى سجن النساء ريفورماتوريو ديل بيون باستور في حيّ سان تيلمو في بوينس آيرس.

بسبب جنحة إنجاب تشي، ظلّت طيلة شهرين في السجن. كان

يمكن أن تبقى في السجن لعشرة أشهر أو عشر سنوات لأنّ العقوبات كانت كيفية واعتباطية لا تستند إلى قوانين مشروعة. كنّا نذهب لمقابلتها كلّ يوم عملياً. لم تكن تشتكي أو تتأفّف أبداً. من زنزانتها غير الصحيّة، التي كانت تتقاسمها مع نساء معتقلات أخريات، كانت تكتب رسائلاً إلى إرنستو: «إنّها «إفسادية»[1] مذهلة. لسجينات الحقّ العام مثلما هي للمعتقلات السياسيات. إذا كنت بارداً وخاملاً، تصبح هنا نشيطاً، وإذا كنت نشيطاً تصبح شرساً وعدوانياً، وإذا كنت شرساً تصبح صارماً لا تلين». بعد بضعة أشهر، وضعتها السلطة التنفيذية أمام خيارين: إمّا البقاء في السجن وإما مغادرة البلاد. فاختارت الحلّ الثاني. رافقناها إلى الحدود الأوروغويانية ولكنّها لم تمكث طويلاً في الأوروغواي: ففي أوّل تغييرٍ حكومي في البلاد، أُتيح لها أن تعود سريعاً إلى بوينس آيرس.

في تلك الفترة، كنتُ قد بدأتُ بالعمل في مكتبة لا بوهيميا. أوكلني مالكها بإدارتها فغيّرت اسمها إلى لا بولغا (أي البرغوث). كنتُ أبيع فيها كلّ أنواع الكتب الملتزمة ومنشورات مثل *Pekin Informa* أي (**مجلّة بكين**)، و*Lenguas extranjeras de Moscu* (**أي اللغات الأجنبية في موسكو**)، و*El Obrero Monthly Review* (**أي مجلة العامل الفصلية**)، وفصلية *Monthly Review* (**أي المجلة الشهرية**) التي كان يديرها ليو هوبرمان وبول سويزي، وكذلك أعمال خورخي ألفاريز. وسرعان ما تحوّلت مكتبة لا بولغا إلى مكان للقاءات واجتماعات المنظمات الثورية في تلك الفترة. كان الناس

---

(1) من كلمة Deformatorio، والأمر يتعلّق هنا بتلاعبٍ بالكلمات من خلال اشتقاق هذه المفردة المستوحاة من كلمة Reformatorio التي تعني «إصلاحية». كلمة Deformatorio ليست كلمة قاموسية.

يأتون إليها لكي يقرؤوا المجلات والكتب التي لا يجدونها في المكتبات الأخرى. وكانوا يمكثون في المكتب لساعات طويلة بأكملها. وكنت أنا أيضاً أقرأ وأطالع كثيراً. وفي تلك الفترة بالذات، بدأ اتصالي بالنضال الماركسي. ومن ثمّ تزوّجت، وأنا في التاسعة عشرة من عمري، وبدأتُ بدوري أُنجب أطفالاً. وإذا كنتُ قد فكّرتُ جدّياً في الانضمام إلى إرنستو في كوبا، فقد تلاشى هذا السراب. لقد ترسّخت جذوري عميقاً في الأرجنتين.

«قد تكون هذه رسالتي الأخيرة»

علمتُ بنبأ مقتل إرنستو من خلال صحيفة في يوم العاشر من أكتوبر من عام 1967. كنتُ أعمل آنذاك سائقاً على شاحنة لتوزيع منتوجات الألبان. لم تكن الشمس قد بزغت على بوينس آيرس بعد وكنت قد وصلتُ إلى مكان عملي للتوّ. كان عنوان صحيفة **كلارين** اليومية، ومعه صورة إرنستو وهو يدخّن السيجار، أمامي صاعقاً ومدمّراً: «بوليفيا تعلن أنّ تشي قد قُتِل». نشرت الصحيفة في صدر صفحتها الثانية الصورة الشهيرة لتشي وهو جثّة هامدة، عاري الصدر، مفتوح العينين، وذراعاه ممدودتين على جنبيه، وشعره الأشعث يتبعثر على الغطاء الإسمنتي لمغسلة مشفى فاليغراند. أُصبتُ بصدمة فظيعة. كان الجميع من حولي يعلّقون على الحادث. ولم يكن زملائي في العمل يعلمون أنّه شقيقي، ولم أقل شيئاً عن ذلك.

لم أشكّ للحظة واحدة أنّ هذه الجثّة الهامدة وهذه النظرة الجامدة كانتا جثّة ونظرة إرنستو، حتى إن كنتُ لا أعلم أنّه كان في بوليفيا، قريباً جدّاً من الأرجنتين. كانت العائلة قد فقدت أثره منذ مغادرته لكوبا. لم يكن أحدٌ يعلم شيئاً عن مكان تواجده، باستثناء فيدل والذين كانوا يقاتلون معه في منطقة نانكاهوازو. بعد عامين

ونصف من مغادرته، في يوم الثامن عشر من شهر مايو من عام 1965، أُصيبت أمّي بمرض السرطان قهراً وحزناً على غيابه. قبل موتها ببضعة أسابيع، ومن دون أن تكشف له بأنّها مريضة ولا أمل في شفائها، أخبرت إرنستو برغبتها في أن تعود إلى كوبا في أسرع وقت ممكن. وكان قد ردّ عليها في رسالة: «هذا مستحيل، عليكِ أن تتسلّحي بالصبر. سوف أذهب لقطع قصب السكّر لمدّة شهر». وأضاف أنّه قد تخلّى عن وزارة الصناعة لكي يكرّس السنوات الخمسة التالية لإدارة مشروعٍ. كانت أمّي تعرف أخي أكثر من أيّ شخصٍ آخر. شوّش هذا الردّ ذهنها عميقاً: فبدل أن يمنعها إرنستو، كان يلحّ عليها أن تأتي إلى كوبا. كانت مقتنعة تماماً أنّه يخفي أمراً عنها. لم يستطع أحدٌ أن ينتزع هذه الفكرة من رأسها. لم تصدّق لثانية واحدة حكاية الاستقالة هذه، ولا حكاية إدارته لمشروع ولا كذلك حكاية ذهابه لقطع قصب السكّر، حتى إن كان قد أسرّ لها ذات يوم بأنّه يعشق «المشاركة في الحصاد الذي يعدّ بمثابة هروبٍ وراحة ذهنية فضلاً عن أنّه تمرينٌ جسدي». كان تشي قد أطلق نظام العمل الطوعي وهو نظام يشتمل على إرسال المواطنين إلى العمل في المزارع أو المصانع لمرّة واحدة في الأسبوع لزيادة الموارد. علاوة على ذلك، كان على كلّ فردٍ -بما فيه هو نفسه- أن يساهم في بناء المجتمع الثوري الذي أراده أن يكون تضامنياً وتعاونياً يتميّز بالإيثار والسخاء. كان العمل التطوعي إحدى لبنات ولادة الإنسان الجديد، ولادة كائن بشريٌّ يُعاد بناؤه بحيث يتغيّر وعيه وعاداته وتقاليده وقيمه جذرياً بفعل نكران الذات لصالح الخير العام ومصلحة الكلّ المجتمعي. ولكي يقدّم النموذج والقدوة، كان إرنستو يشارك بانتظام في الأعمال الصعبة والمضنية في الحقول أو في المصانع يوم الأحد، بل كان يكرّس بضع

ساعات من وقته كلّ مساء في العمل بشكلٍ تطوّعي في مصنعٍ. ومن هنا كانت شكوك أمي حول صحّة أن يكرّس إرنستو كلّ وقته لقصب السكّر في حين أن هناك الكثير من الأمور الأساسية والجوهرية التي ينبغي القيام بها... لقد تذكّرت برعبٍ أمراً كان إرنستو قد أخبرها به في بونتا ديل إيستي حينما طلبت منه أن يكون حذراً ويقظاً: «كوني متأكّدة، يا أمّي العجوز، بأنني سوف لن أموت في سريرٍ». كان الردّ السلبي من إرنستو بشأن زيارة رابعة إلى كوبا قد وصل إليها في بداية شهر أبريل. بدءاً من تلك اللحظة، حاولت بجنون أن تتصّل به بأيّ وسيلة كانت، ولكن عبثاً. تدهورت صحّتها للغاية واشتدّ بها الحزن. كانت تلك فترة قاسية ومؤلمة للغاية بالنسبة إليها.

لم تفعل ولادة ابني بابلو في الثاني من أبريل أيّ شيء للتخفيف عن جدّته. لم تكن تفهم صمت إرنستو المطبق حيالها. لم يكن ذلك يشبه إرنستو ولم تكن تلك عادته. كان دائماً حريصاً على الاتصال بها ومجاملتها وملاطفتها والاطمئنان عليها وسماع أخبارها. كيف يمكنه أن يتركها هكذا مهملة ومنسية دون اهتمام بها أو السؤال عنها؟ وكانت المعلومات المضلّلة وغير الصحيحة التي تتداولها الصحافة الأرجنتينية والعالمية تساهم في تفاقم ألمها وعذابها. كانت أسوأ الإشاعات والافتراءات تسري حوله. كان بعض من يقف خلف نشر تلك الإشاعات يؤكّدون أنّ تشي يعاني من مرضٍ قلبي خطير ناجم عن إصابته المزمنة بالربو؛ وأنّ قطيعة نهائية مع فيدل قد أرغمته على اللجوء إلى سفارة المكسيك لكي يتجنّب الإعدام أو السجن؛ وأنّ انتقادات فيدل اللاذعة له قد جعلته مجنوناً وحبيساً في ملجأ في هافانا؛ وأنّه أُعدِم رمياً بالرصاص بسبب اتّخاذه لمواقف مؤيّدة للصين ومناهضة للاتحاد السوفيتي؛ وأنّه بسبب إصابته بمرضٍ خطير

قد سافر إلى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية لكي يخضع لعملٍ جراحيّ هناك وأنّ الاتحاد السوفيتي قد قام بتصفيته بسبب مواقفه المؤيدة للتروتسكية؛ وأخيراً، بأنه قد باع أسرار عسكرية خطيرة للولايات المتحدة الأميركية مقابل عشرة ملايين دولار وأنّه علاوة على ذلك كان عميلاً لوكالة المخابرات المركزية الأميركية وأنّ فيدل كاسترو قد حكم عليه بالموت...

كانت كوبا تعيش مرحلة صعبة وحرجة من تاريخها، قبل الاختفاء الغامض لإرنستو الذي تزايدت انتقاداته للاتحاد السوفيتي. كان لخطابه الأخير الذي ألقاه في الجزائر في الرابع والعشرين من شهر فبراير من عام 1965[1] أثر إلقاء حجرة كبيرة في مياه المستنقع الراكدة. لقد انتقد الاتحاد السوفيتي وأخذ عليه تصرّفه مثل بلدٍ رأسمالي وإغرائه لمواطنيه بالنزعة المادية المفسدة لهم. فقد كتب: «كلّ شيء يبدأ من المفهوم الخاطئ الذي يسعى إلى بناء الاشتراكية مع عناصر رأسمالية دون أي تغيير حقيقي في معناها. وهكذا نصل إلى نظامٍ هجين يقود إلى مأزقٍ شديد يصعب فهمه على الفور، وإنّما يرغم على تقديم تنازلات جديدة للعناصر الاقتصادية، أي العودة إلى الوراء»[2]. والحال أنّ الاتحاد السوفيتي كان الحليف الرئيسي لكوبا ولم يكن من الحكمة تحويلها إلى عدو. لم يكن فيدل معارضاً لآراء إرنستو في العمق والجوهر، ولكنّه كان تحت الضغط. كان هو رئيس الدولة ويتحمّل مسؤولية مواقفها.

---

(1) انظر إلى الملحق رقم 1.

(2) إرنستو جيفارا، *El socialismo y el hombre en Cuba* (**الاشتراكية والإنسان في كوبا**)، بحث مرسل إلى كارلوس كيجانو، مدير مجلة **مارشا** الأوروغويانية، 12 مارس 1965.

لدى عودته من آخر زيارة رسمية له إلى الخارج، خاض إرنستو نقاشاً طويلاً مع فيدل. أخبره إرنستو برغبته في الرحيل لكي يوقد الثورة في بلدٍ آخر.

في كتابه عن السيرة الذاتية لإرنستو، تحت عنوان **تشي جيفارا**، يروي الكاتب الأرجنتيني هوغو غامبيني أنّ فيدل حاول إقناع إرنستو بالبقاء في كوبا. وسيكون تشي قد ردّ عليه، قائلاً: «تحتاج الثورة الكوبية إلى حليف يمكنها الاعتماد عليه في أميركا اللاتينية لكي تحظى بنقطة دعم ومساندة أخرى وتتعزّز وتترسّخ دعائمها. والحليف الذي أتحدّث عنه لا يمكن توفيره إلا بإيقاد الثورة في بلد آخر، ولتحقيق هذا الأمر، يجب وضع زعيم على رأس الثورة، زعيم يحظى بخبرة كبيرة في مجال خوض حرب العصابات ويتوفّر على الكاريزما والهيبة الضروريتين لتأمين قيادة الحركة السياسية. هذا الزعيم، هو أنا. لا يمكنك أن توقد الثورة في بلدٍ آخر لأنّه عليك أن تواصل قيادة هذه الثورة في هذا البلد. أمّا أنا، فيمكنني وسوف أفعل ذلك، تبّاً!».

بقي أن يحدّدا في أيّ بلد أميركي لاتيني يجب أن تُعلَن الثورة. كانت البؤرة الثورية التي التهبت في إقليم سالتا الأرجنتيني من قبل خورخي ماسياي، والتي كان من الممكن أن تُستخدَم كنقطة انطلاق لحركة أكثر اتساعاً، قد ألغيت. كان ماسيتي قد دخل الأدغال في شهر سبتمبر من عام 1963. بعد سبعة أشهر من ذلك التاريخ، أصبح في عداد المفقودين. لم يره أحد بعد ذلك على الإطلاق.

لم تصدّق أمّي بالضرورة كلّ تلك الإشاعات العبثية التي تُطلق بشأن إرنستو، ولكنها مع ذلك عاشت أسابيعها الأخيرة في قلقٍ وحزنٍ مستمرين. كان همّ أمّي الأوّل هو ألّا يكون أخي إرنستو

غاضباً من موقفها. هل يكون قد غضب في أعقاب الرسالة التي كتبتها إليه في يوم الرابع عشر من أبريل من عام 1965، والتي وجّهت فيها إليه عتباً مريراً، وأودعتها لدى ريكاردو روخو، وهو مواطنٌ أرجنتيني كان إرنستو يعرفه منذ زمنٍ طويل؟ في تلك المرحلة، كانت العلاقات الدبلوماسية بين كوبا والأرجنتين مقطوعة. وبالتالي، كنا نودع رسائلنا لدى مراسلين موثوقين. وكان على روخو أن يسلّم الرسالة إلى وسيطٍ لدى مغادرته إلى كوبا، ولكنّ رحلته كانت قد ألغيَت في اللحظة الأخيرة وبقيت الرسالة في بوينس آيرس. وبالتالي لم يكن إرنستو على علم بتلك الرسالة ولا بمضمونها. وقد أُعيدَت تلك الرسالة بعد ذلك بمدة طويلة إلى العائلة، بعد وفاة والدتي.

في بداية شهر مايو، أخذتُ أمّي إلى بيت جدّتي في بورتيلا، معتقداً بأنّ ذلك قد يخفّف عنها ويواسيها بعض الشيء. بعد بضعة أيام، تدهورت حالتها الصحية على نحوٍ خطير. كانت تعاني من آلام شديدة، فأعدتها إلى بوينس آيرس حيث أودعناها المستشفى لتلقي العلاج. لم تكن تفكّر إلا بأمرٍ وحيد: أن ترى إرنستو مرّة أخرى في حياتها، أو على الأقل أن تتكلّم معه.

بعد محاولات عديدة، نجحت أخيراً في الاتصال مع أليدا مارش عبر الهاتف. حاولت زوجة أخي أن تطمئنها قائلة ألّا تقلق: إرنستو ليس في هافانا، ولكن لا يمكنني أن أكشف عن مكان تواجده، ولكنّه بخير وهو يعمل. لم يرح هذا الشرح الغامض والدتي في شيء. فماتت وهي تعاني العذاب والأسى، متسائلة عن مكان تواجد إرنستو وسبب انقطاع أخباره لكلّ هذه المدّة الطويلة.

خلال مراسم دفنها، تمَّ لفّ نعشها بعلم أرجنتيني وعلمٍ كوبي

وبلافتة لحركة التحرير الوطنية «Movimiento de liberación nacional».

ظلّ سرّ اختفاء تشي غامضاً، بما في ذلك في كوبا. لم يكن أحد قد رآه منذ زيارته الأخيرة إلى نيويورك ومن ثمّ إلى مالي وغانا والجزائر وداهومي وغينيا والكونغو وتنزانيا. وكان الكوبيون على نحوٍ خاصّ متفاجئين بغيابه عن مراسم جنازة آنيبال أيسكالانت، وهو عضوٌ هامٌ في الحكومة. كان العالم يجهل آنذاك بأنّ تشي قد سلَّم إلى فيدل رسالة يقدّم فيها استقالته ويودّعه خلال آخر زيارة سرية له إلى كوبا، وهي الرسالة التي أعيد نشرها هنا والتي قرأها الليدر ماكسيمو[1] علناً في يوم الثالث من شهر أكتوبر من عام 1965:

فيدل،

تراود أشياءٌ كثيرة ذاكرتي في هذه اللحظة: اليوم الذي عرفتك فيه في بيت ماريا أنتونيا، حيث عرضت عليّ أن أرافقك وكلّ التوتّرات والقلاقل التي رافقت التحضيرات.

ذات يوم، جاء من يسألوننا من تريدون أن نُخبر في حالة موتكم، وقد وقعت علينا جميعاً إمكانية الموت كالصاعقة، ثمّ أدركنا أنّ الموت أمرٌ حقيقي تماماً وأنّ في ثورةٍ (إن كانت حقيقية وأصيلة) يجب إمّا أن ننتصر وإما أن نموت، وقد سقط عددٌ كبيرٌ من رفاقنا على طريق النصر.

اليوم، أصبحت نبرتنا أقلّ مأساوية لأننا أصبحنا أكثر

(1) الليدر ماكسيمو، لقبٌ يُطلق على قائد الثورة الكوبية فيدل كاسترو. -المترجم-

نضجاً؛ ولكن الوقائع والحقائق تتكرّر. أنا أشعر بأنني قد أدّيت جزءاً من الواجب الذي كان يربطني بالثورة الكوبية على أرضها، والآن أطلب الإذن منك ومن رفاقي ومن شعبك الذي بات منذ الآن شعبي أيضاً.

أستقيل رسمياً من مهامي في قيادة الحزب ومن منصبي الوزاري، وأتخلى عن رتبتي كقائد وكذلك عن جنسيتي الكوبية. لم تعد تربطني أيّ صلة قانونية بكوبا سوى تلك العلاقات الطبيعية الأخرى العميقة التي لا تُبلى كما تُبلى الوثائق الرسمية والألقاب والرتب. وإذا قمتُ بجرد حصيلة حياتي، فأعتقد أنني قد عملتُ بما يكفي من الشرف والإخلاص والتفاني في سبيل تعزيز وترسيخ دعائم انتصار الثورة. ربّما تكون خطيئتي الوحيدة التي ارتكبتها هي أنني لم أثق بك تمام الثقة منذ اللحظات الأولى التي أصبحنا فيها معاً في جبال سييرا مايسترا وأنني لم أستطع سريعاً أن أؤمن بما فيه الكفاية بصفاتك كقائد ثوري. لقد أمضيتُ أياماً رائعة وشعرت بجانبك بفخر الانتماء إلى شعبنا في تلك الأيام المشرقة المفرحة والحزينة أثناء أزمة الكاريبي. نادراً ما يكون هناك زعماء دول يكونون بهذا التألّق في ظلّ هكذا ظروف. أهنّئ نفسي على كوني قد سرتُ في إثرك دون تردّد، وتقاسمت معك طريقتك في التفكير وفي رؤية وتقدير الأخطار والمبادئ.

إنّ مناطق أخرى في هذا العالم تستنجد بجهودي المتواضعة. يمكنني أن أقوم أنا بما لا تسمح به مسؤولياتك في قيادة كوبا لتقوم به أنت. لقد آن الأوان لكي نفترق.

يجب أن تعلم أنني أقدم على هذه الخطوة بمزيج من الفرح والألم؛ فأنا أترك هنا أنقى آمالي في البناء والتطوير وأحبّ الناس وأعزّهم إلى قلبي... وأترك شعباً تبنّاني واحتضنني كابن له. أعاني العذاب والألم بين هذين الشعورين. في الساحات الجديدة للمعركة، سوف أحتفظ في داخلي بالإيمان الذي أمدتني به وبالروح الثورية لشعبي وبالشعور بأداء أقدس المهام والواجبات: الكفاح ضدّ الإمبريالية أينما وجِدَت؛ فمهمّة كهذه تريح دائماً وتشفي أعمق الجراح.

أكرّر مرّة أخرى بأنني أبرّئ كوبا من كلّ مسؤولية باستثناء مسؤولية إبداء المثال والنموذج. وإذا ما حانت ساعتي الأخيرة ذات يوم تحت سماوات أخرى، فسوف ينصرف فكري الأخير إلى هذا الشعب وإليك بصورة خاصّة. أشكرك على تعاليمك ومثالك التي أدين لك بها؛ وسوف أسعى جاهداً إلى أن أبقى أميناً عليها ووفيّاً لها حتى النتائج النهائية لأفعالي.

لقد كنتُ على الدوام متّفقاً مع السياسة الخارجية لثورتنا وسوف أبقى كذلك. أينما ذهبت وأينما وجدت، سوف أشعر على الدوام بمسؤوليتي كثائر كوبي، وسوف أتصرّف على هذا المنوال.

لم أترك أي ثروة مادية لأطفالي ولزوجتي، ولستُ آسفاً على ذلك؛ بل يسرّني ويسعدني ذلك، ولا أطالب بأيّ شيء لهم، لأنني أعلم أنّ الدولة سوف تمنحهم ما يلزمهم من متطلبات العيش والتعليم.

ربّما لديّ الكثير ممّا أقوله لك ولشعبنا إلّا أنني أشعر أنّ لا جدوى من ذلك لأنّ الكلمات لا يمكنها أن تعبّر عمّا أشعر به، ولا فائدة من تسويد المزيد من الورق عبثاً.

نحو النصر دائماً! الوطن أو الموت! أعانقك بكلّ حماستي الثورية.

هكذا وبدل أن يقطع قصب السكّر، كان تشي يتدرّب على القتال ويخطط للمرحلة التالية من حياته. وقد كتب لوالديّ رسالة الوداع التالية في الأوّل من شهر أبريل من عام 1965:

العجوزان العزيزان،

مرّة أخرى تستبدّ بي رغبة شديدة في التشرّد والتيه؛ فها أنا أستأنف السير في طريقي ودرعي تحت ذراعي. قبل ما يقارب عشرة أعوام، أرسلت إليكما رسالة وداع أخرى. إذا ما كنتُ أتذكّر جيداً، كنت ألوم نفسي لأنني لم أكن أفضل جندي ولا أفضل طبيب؛ لم يعد يهمّني أن أكون طبيباً جيّداً، كما أنني لستُ جندياً سيئاً إلى ذلك الحدّ. لم يتغيّر شيء في جوهري، سوى أنني أكثر وعياً بكثير، وأن ماركسيتي أكثر تجذّراً وصفاءً. أؤمن بالكفاح المسلّح كحلٍّ وحيد للشعوب التي تناضل من أجل تحررها وأنا منسجم مع قناعاتي. سوف يعتبرني الكثيرون مغامراً وإنّي لكذلك حقّاً، سوى أنني مغامرٌ من نمط آخر، من نمط أولئك الذين يخاطرون بحياتهم في سبيل إثبات حقائقهم.

قد تكون هذه رسالتي الأخيرة. أنا لا أبحث عن الموت

ولكنّه جزء من الحساب المنطقي للاحتمالات. إذا كان الأمر كذلك، فلتكن رسالتي هذه احتضاني الأخير لكما: لقد أحببتكما كثيراً، سوى أنني لم أحسن التعبير لكما عن محبّتي هذه، أنا صارمٌ جدّاً في أفعالي وأعتقد أنّه حدث في السابق ولم تفهماني جيّداً. لم يكن من السهل فهمي وكلّ ما أطلبه منكما اليوم هو أن تصدّقاني. من الآن فصاعداً، فإرادة صقلتها بتلذّذ فنان سوف تدعم ساقين مرتخيتين ورئتين منهكتين. سوف أفعل ذلك. تذكّرا من حينٍ إلى آخر كوندوتييرو[1] البسيط هذا من القرن العشرين. قبلاتي لسيليا وروبرتو وآنا ماريا وباتاتين وبياتريز وللجميع. عناقٌ كبير من ابن ضالٍ وعاص.

لم تصل تلك الرسالة، التي توقّفت في هافانا، إلى مقصدها قبل وفاة والدتي. علم إرنستو بالخبر المفجع في الكونغو في العشرين من شهر مايو وكتب في رثائها النص الرائع «لا بييدرا»، والذي أعيد نشر مقتطف قصيرٍ منه هنا:

أخبرني أحدهم بموت أمّي كما ينبغي أن يُخبَر بهكذا أمور رجلٌ قويّ ومسؤول، وشكرته على ذلك [. . .] ما الذي أعرفه؟ حقّاً، لا أعرف. أعرف أنني أشعر بضرورة حسيّة لكي أرى أمّي تظهر من جديد، وأن أضع رأسي على

(1) كوندوتييرو مصطلح يعني زعيم حرب العصابات وقد استُخدِم هذا المصطلح في إيطاليا للإشارة إلى زعيم المرتزقة أو جندي مُغتني يجمع من حوله ميليشيا تابعة له. -المترجم-

صدرها الضامر وأن تقول لي «يا عزيزي» بحنان تامّ، وأنا أشعر في شعري بيدها الحانية وهي تلاطفني بطبطبات مثل دمية، مثلما كان الحنان يفيض من عينيها ومن صوتها، لأنّ حبالها الصوتية التالفة لم تسمح لها بأن يبلغ الصوت نهاياته. وترتعش يداها وتلامس شعري أكثر من أن تلاطفه ولكنّ الحنان ينبع من المسامات فأشعر بأنّي في حالة ممتازة مثلما أشعر بأنني صغيرٌ جدّاً وقويٌّ جدّاً. ليس ضرورياً أن أطلب منها السماح والمغفرة؛ فهي تفهم كلّ شيء ونعرف ذلك حينما نسمعها تطلق عبارتها «يا عزيزي».

كان تشي قد سافر إلى أفريقيا في نهاية شهر أبريل وأوائل شهر مايو من عام 1965[1] بهوية واسم رامون بينيتيز. وقد وصل إلى الكونغو-كينشاسا بعد ثلاثة أسابيع[2] مع اثني عشر رفيقاً كوبياً - وانضم إليهم ما يقارب مئة شخص آخر فيما بعد- وذلك بهدف تقديم المساعدة لحركة سيمبا المتمرّدة بقيادة لوران ديزيريه كابيلا. كانت الكونغو غارقة في حربٍ أهلية منذ نيلها للاستقلال. على الأرض، كانت الفوضى رهيبة. تصل الأسلحة فاسدة وتالفة، وتفتقر المعلومات إلى الدقّة ويصرف الرجال جزءاً من أموال الثورة على العاهرات ويعانون من الأمراض التناسلية؛ وكان الإدمان على الكحول ظاهرة مستترة والخدمات اللوجستية لم تكن موجودة عملياً. بالنسبة إلى مقاتل وثائر في منتهى الانضباط مثل أخي، كان من

(1) التواريخ تختلف بين المصادر.
(2) لتضليل أجهزة الاستخبارات السرية، كانوا قد مرّوا من عدّة بلدان.

الصعب التساهل مع هكذا فوضى وتسيّب. أمّا بالنسبة إلى لوران ديزيريه كابيلا، أحد قادة الثورة، فقد أثار إعجاب إرنستو في البداية ومن ثمّ خيّب أمله. كان يفتقر إلى الجدّية ولم يكن قطّ كما توقّعه. كان الوضع يتّجه نحو الهاوية. اشمئزّ إرنستو من الوضع وغادر الكونغو في شهر نوفمبر مع إحساسٍ بأنّه لم ينجز شيئاً حقيقياً وملموساً ومع اعتلال صحّته بسبب الظروف المناخية. كان قد خسر ما يقارب عشرين كيلو غراماً من وزنه. ولأنّه كان يقدّر بأنّه لا يستطيع العودة إلى كوبا الآن وأنّ فيدل قد قرأ علناً رسالته الوداعية، أمضى الأشهر الستّة التالية بهويّة مزوّرة في دار السلام في تنزانيا، حيث ذهبت أليدا للقائه هناك وأيضاً بهويّة مزوّرة، ثمّ انتقل إلى براغ حيث أقام اتصالاً مع تانيا بونكه، وهي ثائرة أرجنتينية من أصولٍ ألمانية[1] تقيم في لاباز في بوليفيا. وقد كتب آنذاك في يومياته: «لم أشعر قط بأنني وحيد إلى هذه الدرجة في الدرب الذي أسلكه».

في بوينس آيرس، لم تكن لدينا أيّ أخبار عنه وكان القلق يقتلنا. فيما بعد، علمنا أنّ فيدل كان قد أقنعه في النهاية بالعودة إلى هافانا بانتظار أن يغادر من جديد. لقد عُرِفَت القصة وانكشفت. لدى عودته إلى كوبا تحت اسم رامون بينيتيز، عبر سويسرا، أو الأرجح عبر باريس (روى بعض الأشخاص أنّهم قد شاهدوه يتنزّه بجانب جامعة السوربون وهو يعتمر قبّعته الشهيرة دون أن يبالي بانكشاف هويته)، وألمانيا وموسكو حيث قام إرنستو بحلق لحيته وشعره وشاربيه لتضليل جواسيس محتملين وأصبح من المتعذّر التعرّف إلى

(1) كان يُشتبه بأنّها عميلة مزدوجة لجهاز استخبارات ألمانيا الشرقية ستازي وجهاز الاستخبارات السوفيتي كي جي بي.

شخصيته الحقيقية من خلال انتحال هيئة ممثل تجاري محترم. وكان التمويه فاعلاً ومجدياً لدرجة أنّ أطفاله هيلدا (عشرة أعوام) وأليدا (ستة أعوام) وكاميلو (أربعة أعوام) وسيليا (ثلاثة أعوام) وإرنستو (عام واحد) لم يتعرّفوا إليه حينما قاموا بزيارته للمرّة الأخيرة قبل أن يغادر إلى أميركا الجنوبية. قدّم نفسه إليهم على أنّه أحد أصدقاء والدهم وقد صدّقوه.

حينما بلغني الخبر المفجع عن موت إرنستو، ذهبتُ إلى منزل والدي في حيّ باراغواي، والصحيفة في يدي. اجتمعنا مباشرة في منزل سيليا. كانت وحدها آنا ماريا غائبة عن اجتماعنا: كانت تعيش في توكومان وكان لديها خمسة أطفال صغار في السنّ. كانت صديقته أولغا حاضرة معنا. تفحّصنا معاً الصورة المنشورة في الصحيفة. لم يشأ أحدٌ أنّ يصدّق أنّ الصورة المنشورة هي صورة إرنستو. كانت سيليا تردّد: «وأنت، ما رأيك بذلك؟ بكلّ تأكيد هذه عملية تركيب للصورة». وكان والدي يعتقد الأمر ذاته. كان الأمر رهيباً جدّاً بالنسبة إلينا. كنتُ على يقين تامّ بأنّ الصورة لجثّة إرنستو فعلاً، وأنّ ليس هناك أيّ تحوير فيها. كانت أولغا على نفس القناعة من دون أن تتجرأ على الإفصاح عن ذلك. كانت تنظر محدّقة في يدي إرنستو في الصورة وتتعرّف إليهما تماماً. كانت تردّد طيلة الوقت: «كانت لنا جميعاً نفس الأيادي، كانت لنا جميعاً نفس المشية». لم تستطع سيليا أن تتقبّل فكرة أنّ إرنستو قد مات. وقد تسبّبت لها هذه الفكرة بألم فظيع. ردّد والدي: «أقول لكم بأنّ الصورة مزيّفة ومركّبة، هذا ليس إرنستو».

كان على أحدنا أن يسافر على الفور إلى بوليفيا لكي يتبيّن

حقيقة الأمر ويحصل على الخبر اليقين. فتناقشنا في الأمر لكي نختار من منّا سوف يذهب إلى بوليفيا. كان والدي وسيليا متأثّرين للغاية، فلم يبقَ سواي أو روبرتو للقيام بهذه المهمّة. وقد وقع الاختيار عليه هو، فهو في الخامسة والثلاثين من العمر ومحامٍ، والذهاب إلى بوليفيا للتعرّف إلى جثّة تشي لم يكن من دون عواقب بالنسبة إليه. فكانت المهمّة بحدّ ذاتها بمثابة تمرّد علاوة على كونها مؤلمة للغاية. كانت الأرجنتين في تلك الفترة تعيش تحت حكم الدكتاتور العسكري خوان كارلوس أونغانيا. كان الأمر يحتاج إلى شجاعة ولم يكن روبرتو يفتقر إلى تلك الشجاعة.

طار أخي على متن طائرة صغيرة خاصّة إلى فاليغراند صبيحة الحادي عشر من شهر أكتوبر، أي بعد يومين من مقتل إرنستو، بصحبة صحافيَين من مجلّة **غينتي**. كانت الأمطار تنهمر بغزارة على بوينس آيرس والرؤية معدومة. وكانت معظم رحلات الطيران قد ألغيت بسبب رداءة الأحوال الجوية. ولكنّ رحلة روبرتو لم تكن قابلة للتأجيل، إذ كان مستعجلاً على الوصول إلى بوليفيا ومعرفة الحقيقة. هل حقّاً مات إرنستو؟

وسرعان ما تحوّلت الرحلة البسيطة إلى ملحمة. اضطرّت الطائرة إلى الهبوط أوّلاً في سالتا حيث أُرغِم روبرتو والطيار والصحافيان على قضاء الليل فيها. كانت الساعة قد بلغت الخامسة مساء وتوقّفت المطارات البوليفية عن العمل بحلول الليل. في سالتا، قدّم روبرتو اسمه لموظّف الاستقبال في الفندق فاستنفر هذا الأخير الصحافة ونتيجة لذلك حضر في الحال كوكبة من الصحافيين إلى الفندق. كان خبر مقتل رجل حرب العصابات الأشهر والمطلوب

الأكبر على الكرة الأرضية قد انتشر بكلّ تأكيد في كلّ أنحاء العالم.

كانت الصفحات الأولى لكلّ الصحف تنشر نفس العنوان: جثّة تشي. نظر روبرتو إليهم بثبات وهو يتفحّص كل تفاصيل جثة القتيل، محاولاً بكلّ جهده أن لا يتعرّف فيها إلى أخيه. ورداً على الصحافي الذي سأله عن رأيه وهو يراه كيف يقاوم الصور ذهنياً، قال: «بكل تأكيد الأمر مقلق ولكنّه غير جازم. حينما أقف أمام الجثّة، سوف أؤكّد لكم موقفي». ولكنّه سوف لن يتمكّن من رؤية جثّة إرنستو بسبب سلسلة العقبات التي وضعها الجيش البوليفي في طريقه لكي يمنعه من ذلك.

لدى وصوله إلى فاليغراند، طلب روبرتو أن يقابل الرجل المسؤول عن احتجاز جثّة إرنستو، وهو الكولونيل خواكين زينتينو آنايا. كان الرجل قد توارى عن الأنظار. في الشارع، كان بائع صحفٍ ينادي بعنوان الصفحة الأولى للجريدة المحلية: «دُفِن تشي البارحة عند الفجر». كان روبرتو يرتاب في الأمر. كيف بوسعهم أن يجرؤوا على دفن جثة تشي بهذه السرعة من دون أن يعلموا أسرته بذلك؟ حينما عاد الكولونيل المسؤول إلى الظهور، أكّد لروبرتو الحكاية. في الواقع، كانت مراسم دفن جثمان تشي قد تمّت بسريّة تامّة ولم يكن من المسموح الكشف عن مكان قبره. وحده القائد الأعلى للجيش البوليفي كان يعرف ذلك، وفق سياسة تُطبّق بشأن كلّ رجال حرب العصابات. كما أكّد الكولونيل زينتينو آنايا بأنّه قد رأى الأدلّة التي تثبت هوية إرنستو. كان الجيش قد عثر على دفتر يومياته معه وكذلك بصماته أكّدت ذلك فضلاً عن أنّ تشي قد كشف عن هويته بنفسه قبل مقتله. طالب روبرتو باستخراج الجثّة بناءً على حقّه في ذلك كأخٍ للقتيل. فردّ عليه الكولونيل بأنّه ليس مخوّلاً باتخاذ هذا

النوع من القرارات، ونصحه بأن يذهب ويقابل قائد الجيش، الجنرال ألفريدو أوفاندو كانديا في العاصمة لاباز. فغادر روبرتو إلى لاباز وذهب مباشرة إلى الثكنة العسكرية فور وصوله. لم يكن أوفاندو كانديا موجوداً في الثكنة. ذهب روبرتو ليدقّ باب منزله الخاصّ. وبدأ يعتقد بأنهم يسخرون منه، وبأن القادة العسكريين البوليفيين يتجنبونه بتعمّد. فقد أخبره ضابطٌ برتبة نقيب وهو يفتح له الباب: «لدى الجنرال مبدأ بأن لا يستقبل أبداً زيارات رسمية في بيته». قدّم روبرتو اسمه وأصرّ على مقابلة قائد الجيش. جاء الجنرال لاستقباله بالكلمات التالية: «أنا آسفٌ حقّاً. كنتُ أفضّل لو أنّ بطلاً مثل شقيقك خرج حيّاً من الأدغال البوليفية». عاود روبرتو طلبه في استخراج الجثّة. حينذاك، اخترع الجنرال حكاية أخرى: «أسمح لك بالعودة إلى فاليغراند ولكنّك بكلّ تأكيد سوف تصل إلى هناك بعد فوات الأوان. سوف لن أتفاجأ إن تمَّ حرق جثّته هناك». لم تنطلق الرحلة الجوية التجارية المتوجّهة نحو سانتا كروز، المطار الأقرب إلى فاليغراند إلّا في صبيحة اليوم التالي. فأمضى روبرتو تلك الليلة في فندق كريلون. وبمحض الصدفة، أُعطيَت له الغرفة التي شغلها قبل ذلك ببضعة أشهر والدا الفيلسوف الفرنسي ريجيس دوبريه حينما جاءا لمقابلة ابنهما في السجن. وكان قد تمَّ توقيف دوبريه لدى خروجه من أدغال نانكاهوازو برفقة الثائر سيرو بوستوس الذي كان قد غادر الأدغال باتفاقٍ مع تشي.

تزايدت شكوك روبرتو حول حقيقة مقتل إرنستو. كانت كلّ حكاية تبدو متعارضة ومتناقضة مع سابقتها. كان الجيش البوليفي يكسب الوقت من خلال جعله يذهب ويأتي دون جدوى. لماذا يفعل الجيش هذا؟ عبثاً حاول أن يعثر على جوابٍ لهذا السؤال الذي

يؤرقه، لكنّه لم يفهم ذلك. كما أعاد قراءة التقرير الطبي الذي كان يؤكّد بأنّ أسنان «المقاتل القتيل» كانت كاملة، وبأنّه لم يكن ينقصه سوى ضرسٍ واحد فقط، وكان هذا الأمر خاطئاً. في العائلة، كنّا جميعاً نعاني من أسنانٍ مسوّسة. في سنّ السادسة والثلاثين، كان روبرتو قد ركّب طقم أسنان بديلة. وكانت أسنان إرنستو قد بدأت بالتساقط منذ سنّ العاشرة. كان كلّ شيء غامضاً.

لم ينجح روبرتو في حجز رحلته إلى سانتا كروز. جرى كلّ شيء على عكس رغبته. عند الفجر، وصل إلى مطار لاباز. في البداية، أكّد له موظفو شركة الطيران بأنّ مقاعد الطائرة محجوزة بالكامل وليس فيها أيّ مقعد شاغر، ومن ثمّ أخبروه أنّ الأمر ليس كذلك ولكنّه قد تأخّر كثيراً على شراء بطاقة. أيّاً كان السبب الحقيقي، بدا من الواضح أنّه من المستحيل أن يسافر ضمن هذه الرحلة، إلّا حينما راودت روبرتو فكرة أن يعرض ثلاثة أضعاف قيمة البطاقة على الموظفين، حيث شغرت الأماكن بأعجوبة. من سانتا كروز، استقلّ طائرة أخرى إلى فاليغراند. كان مدرج المطار محروساً بجيشٍ مكوّنٍ من مئتي جندي. لدى خروجه من الطائرة، وجد روبرتو نفسه وجهاً لوجه مع الكولونيل زينتينو آنايا وهو يسير على مدرج المطار في سيارة جيب. بدا الكولونيل متفاجئاً ومنزعجاً من رؤيته من جديد. كان يعتقد أنّه قد تخلّص نهائياً من هذا الرجل الذي يُدعى جيفارا هو الآخر. وإذ لم يستطع أن يتجاهله، دعاه إلى الثكنة العسكرية لكي يقابل هناك الجنرال خوان خوسيه توريس، والذي أكّد كذبة زميله أوفاندو كانديا في لاباز، أيّ أنّ جثّة تشي قد أُحرِقَت في نفس ذلك الصباح. نصح الجنرال روبرتو بأن يعود إلى الأرجنتين.

كان خمسة عناصر من الكيريلا[1] قد نجحوا في النجاة من الفخّ وكانوا لا يزالون على قيد الحياة في ناحية ما من تلك المنطقة: هاري «بومبو» فيليغاس تامايو، ودانيل «بينيغنو» آلاركون راميريز، وليوناردو «أوربانو» تامايو نونيز، ودافيد «داريو» أدريازولا، وغيدو «إينتي» بيريدو ليغ. أصبح روبرتو حينذاك على قناعة بأنّ إرنستو لم يُقتَل، وبأنّه قد نجا مع أولئك الثوار. لقد أُعلِنت نهايته مراراً وتكراراً ليكذّب الخبر فيما بعد! ثمّ كان البوليفيون قد رووا له الكثير من القصص والحكايات المتناقضة. كما وجد أنّ أنف إرنستو في الصورة رفيعٌ جدّاً ومدبّب بينما كان أنف إرنستو في الحقيقة أفطساً.

لم يتلقَّ روبرتو آراءً مقنعة ولا مساندة لمساعيه، فغادر بوليفيا متردداً وغير جازم. وبدل أن يعود مباشرة إلى بوينس آيرس، قرّر أن يذهب ويقابل أختي آنا ماريا في توكومان. كانت بكل تأكيد قد شاهدت الصور ولن تختلق الكثير من الأوهام.

لم يستفد من السفر إلى بوليفيا في أيّ شيء. لم يعرف روبرتو أيّ شيء أكثر ممّا كان يعرفه قبل سفره إلى هناك. لدى عودته، اجتمعت العائلة من جديد. لم نكن نعرف كيف نفكّر. كانت بعض الإشارات والدلالات تشير إلى أنّ إرنستو قد قُتِلَ فعلاً بينما تشير أخرى إلى عكس ذلك. فيدل كاسترو هو من وضع حدّاً لشكوكنا من خلال الاتصال بنا في اليوم التالي لكي يؤكّد لنا حقيقة مقتله. أراد أن يُطلعنا على الأدلّة، فطار روبرتو إلى هافانا. وقد استُقبِل بهذه الكلمات من قبل فيدل: «اعذرني، ولكن لا يمكننا إنكار الحقيقة. لدينا كلّ الأدلّة التي تثبت بأنّ القتيل هو إرنستو». كان عسكريٌّ

---

(1) المقاتلون في حرب الشوارع.

بوليفي قدر أرسل المذكّرات الشخصية ويدَي تشي المبتورتين إلى كوبا. كانت يداه قد بُتِرَتا لكي يتمّ حفظ بصماته. انهار روبرتو لتأكيد الخبر. عاد إلى بوينس آيرس، هذه المرّة، وهو مقتنع تماماً بأنّ شقيقنا قد قُتِل فعلاً. هزّ الخبر والدي. ومن خلال سياق الأحداث، علمنا بأنّ إرنستو لم يُقتَل في معركة الثامن من شهر أكتوبر مثلما أعلن الجيش البوليفي ذلك في البداية، وإنّما تمَّ إعدامه في التاسع من أكتوبر (لم تُنشَر صوره أسيراً في مدرسة لا هيغويرا إلا بعد ذلك بوقت طويل). لم يُصدِّق أحد حكاية حرق الجثّة. كانت هذه عبارة عن خرافة اختلقوها لمنع نبش القبر والكشف على الجثّة. كان الجيش البوليفي قد رفض الانتظار إلى حين وصول الشرطة الاتحادية للتحقّق من هوية الجثّة، بل تمَّ صرف سكرتير السفارة الأرجنتينية في لاباز، ميغيل كريمونا، بصلافة.

كنّا جميعاً في حالة صدمة مروّعة. دون أن يتفوّه أحد بكلمة، تمَّ اتخاد قرارٍ في ظلِّ صمتٍ مطبق: لن نتحدّث بعد الآن عن إرنستو أبداً إلا فيما بيننا. تحدّث في الاجتماع العائلي كلّ من روبرتو وسيليا. ظلّت آنا ماريا حتى وفاتها تردّد بأنّها لن تتحدّث أبداً عن تشي. أمّا أنا، فسوف أشرح لاحقاً الأسباب التي دفعتني أخيراً إلى التحدّث عنه.

في كوبا، أُعلن عن وفاة تشي من قبل فيدل في الخامس عشر من شهر أكتوبر. وأُعلن الحداد الوطني العامّ في البلاد لمدّة ثلاثة أيام. بعد مضي الأيام الثلاثة، وفي ساحة الثورة، ألقى فيدل خطاباً مطوَّلاً في رثاء صديقه الراحل أمام مليون كوبيّ، كان الخطاب بمثابة تشييعٍ مدوٍّ انتهى على النحو التالي:

إذا كان علينا القول كيف نريد أن يكون مناضلونا الثوريون، مقاتلونا، رجالنا، سوف نقول دون أدنى تردّد: فليكونوا مثل تشي! إذا أردنا القول كيف نتمنى أن يكون رجال الأجيال القادمة، سوف نقول: مثل تشي! إذا أردنا القول كيف نرغب في أن يتربّى أطفالنا، علينا أن نقول دون تردّد: نريد أن يتربّوا على روح تشي! إذا أردنا نموذج رجلٍ لا ينتمي فقط إلى الزمن الحاضر بل إلى المستقبل، في الحقيقة، أقول لكم إنّ هذا النموذج الناصع في سلوكه المثالي، وفي تصرّفاته، وفي طريقة عمله، هو تشي! ومن كلّ قلوبنا كثوارٍ متحمّسين، نتمنى أن يكون أبناؤنا مثل تشي!

عرفنا في النهاية الحقيقة بشأن قبر إرنستو في أواخر عام 1995 بفضل الصحافي الأميركي جون لي أندرسون[1]. راودته فكرة أن يحاور الجنرال المتقاعد ماريو فارغاس مسلّحاً بقارورة ويسكي. في الحقيقة ساعدت بعض الكؤوس المترعة الضابط العسكري لكي يفرغ ما في جعبته: لقد كشف الحقيقة. وهكذا عَلِمَ أندرسون بأنّ جثّة تشي لم تُحرَق وإنّما أُلقيت في قبرٍ جماعي قريبٍ من المقبرة ومدرج مطار فاليغراند مع جثث رفاقه الستّة الذين أُسروا معه: أورلاندو بانتوجا تامايو وأنيسيتو ريناغا غورديلو ورينيه مارتينيز تامايو وألبيرتو فيرنانديز مونتيس دي أوكا وخوان بابلو تشانغ نافارو وسيميون كوبار سارابيا. حضر شاهدان فقط «الدفن» السريّ الليلي: سائق الشاحنة

(1) مؤلّف السيرة الذاتية **تشي جيفارا، حياة الثوري**، غروف بريس، 1997.

المكلّف بنقل الجثّة وسائق الجرّار المكلّف بحفر القبر. وقد أقسما، تحت التهديد بالموت، اليمين بأن يحتفظا بالسرّ إلى الأبد.

سمحت الحكومة البوليفية بنبش القبر واستخراج الجثّة بعد بضعة أيام من كشف الجنرال لمكان الدفن. وتحلّلت الألسن فجأة من لجامها فظهر كمّ مذهل من الشهادات المتناقضة إلى العلن. بدأت عمليات البحث والتنقيب عن الرفاة. وصلت فِرق أرجنتينية وكوبية تضمّ جيولوجيين وأطباء شرعيين إلى فاليغراند، تسبقها فصيلة من مئة وعشرة جنود تلقّوا التعليمات الصارمة بمراقبة أدنى الأحداث أو التحرّكات. استمرّت أعمال البحث والتنقيب لأكثر من عامٍ كامل. استُخرِجَت بقايا رفاة الجثث السبعة في الثامن والعشرين من يونيو من عام 1997. كانت إحدى الجثث مقطوعة اليدين. فاتّصل بنا حينذاك كولونيل الفصيلة العسكرية لكي يخبرنا بأمر الاكتشاف. حدّد الأطبّاء الشرعيون هويّة كلّ بقايا رفاة الجثث، بما فيها رفاة تشي.

في كوبا، كان الرجل المكلّف بمعالجة القضية والتحقّق من الحمض النووي الصبغي (DNA) لإرنستو هو راميرو فالديز، الرفيق القديم على اليخت «غرانما» وفي جبال سييرا مايسترا. اتّصل بنا هاتفياً لكي يسألنا عمّا نريد أن نفعله برفاة إرنستو. كان الأمر يتعلّق بسؤال محض مجازي، الغاية منه أن يُظهِر لنا بأنّنا مأخوذون بعين الاعتبار غير مهمَلين. لسوء الحظ، لم تكن هناك وسيلة لجلب رفاة إرنستو إلى الأرجنتين. لم يكن لذلك من معنى. لم تكن البلاد مستعدة لأن تستقبله كما يستحقّ. فنُقِل رفاته إلى هافانا في الثاني عشر من يوليو من عام 1997، ومن ثمّ إلى سانتا كلارا، المكان الذي انتصر فيه، حيث دُفِن هناك رسمياً بحضور أفراد العائلة: أولاده الأربعة الأحياء (كانت هيلدا بياتريز قد توفّت قبل ذلك

بعامين) وزوجته أليدا مارش وروبرتو وسيليا وأخوتي غير الأشقاء الذين يحملون لقب جيفارا إيرا وأنا.

أُضيف إلى الألم الناجم عن موت أخي ألم فشل ثورة. تحدّث البعض عن حملة نانكاهوازو كمهمّة انتحارية. بحسب رأيهم، كان تشي عدمياً، حيث كان قد أطلق هذه الجملة: «أنا هنا الآن وسوف لن أخرج من هنا إلا على نعش». كانوا على خطأ. لم تكن بوليفيا غاية بحدّ ذاتها. لا بدَّ أنّها كانت نقطة انطلاق، منصّة للانطلاق نحو ثورة جديدة ينبغي لها أن تمتدّ إلى كامل أميركا اللاتينية لتحرير الأمم الشقيقة من الإمبريالية اليانكية. كان إرنستو يقول: «إنّ الموقع الجغرافي لبوليفيا يجعل منها منطقة استراتيجية لانتشار شعلة الثورة في البلدان المجاورة»، (لبوليفيا حدود مع خمس دول: تشيلي والأرجنتين والبيرو والبرازيل والباراغواي).

لم يكن هناك أيّ شيء في دفتر يوميات إرنستو يسمح بالاعتقاد بأنّه قد ألقى بنفسه عن دراية في فم الذئب. لقد احتفظ بالأمل في الانتصار حتى النهاية. واعتقد البعض الآخر، وأنا واحدٌ منهم، بأنّ جهاز الاستخبارات السوفيتي قد تعاون مع وكالة المخابرات المركزية الأميركية لأسره. لم يكن الاتحاد السوفيتي يحبّ الثوار. كما قيل إنّ عمال المناجم البوليفيين لم يهبّوا لنجدته وأنّ الحزب الشيوعي البوليفي قد تخلّى عنه. من المؤكّد أن أمينه العامّ ماريو مونخيه قد أراد قطع العلاقة مع تشي على الرغم من وعوده الأولية بتقديم المساعدة. حينما ذهب للقائه في الأدغال وطالب بقيادة جيش التحرير الوطني البوليفي (Ejercito de liberación nacional de Bolivia - ELN)، تحت ذريعة أنّ تشي أجنبيّ وأنّ (ELN) يحتاج

إلى أن يكون على رأسه بوليفي، كان يعرف تمام المعرفة أنّ تشي سوف لن يقبل بذلك على الإطلاق. لم يكن مونخيه يمتلك أيّ خبرة في حرب العصابات. ولكي يتيح لنفسه خيانة تشي من دون أن يبدو وكأنّه يخون قضية الشيوعية، كان عليه أن يجد ذريعة، وكانت تلك هي ذريعة مونخيه. وقد شرح غيدو «إينتي» بيريدو، وهو أحد رفاق تشي، بأنّ انشقاق الحزب الشيوعي كان قد قطع صلة المتمردين عن المدن وبالتالي انعدمت إمكانية تقديم مساعدة لوجستية أساسية وحاسمة من أجل إنقاذ الحركة.

في بوليفيا، كان تشي قد أتى بغرض خلق بؤرة ثورية وتنمية ما كان كامناً فيها من طاقة ثورية في الأساس. كانت أميركا اللاتينية برمّتها تعيش حالة غليان وهيجان في تلك الفترة، وذلك بوجود حركات احتجاجية ومنظمات ثورية نشيطة في العديد من بلدان القارة. وكما نعلم، كان لإرنستو تعلّقٌ خاصّ ببوليفيا بسبب مستخدمة منزلنا سابينا بورتوغال. وكان قد زار تلك البلاد للمرّة الأولى في عام 1953، في أوج الحقبة الثورية، في عهد حكومة فيكتور باز إستنسيرو. وقد كتب لنا آنذاك رسائل طويلة يصف فيها ما كان يراه من تعبئة الشعب في الشوارع والإجراءات والتدابير التقدمية التي يتمّ تبنّيها مثل قرارات التأميم أو الإصلاح الزراعي. كان يؤمن بقدرات وطاقات ثورة البوليفيين.

يمكننا أن نفترض هنا أنّ إرنستو قد بالغ في تقدير حجم مساندة ودعم الفلاحين. كان معظمهم من الفقراء والمنتمين إلى السكان الأصليين. وكانوا يتحدّثون باللغات المحلية مثل كيشوا أو أيمارا بدل الإسبانية التي قلّما كان بعضهم يتحدّثون بها. لم يكن لديهم من قدوة سوى باشاماما (أي الأرض التي تهبُ الغذاء) وكانوا يعيشون

في عالم مختلف. ولكونهم مقطوعين عن العالم، كانوا يفتقرون إلى ذلكَ الأفق الذي قد يجعلهم يؤيدون ثورة. كان كلّ من يمتّ إلى الإسبانية بصلة غريباً بالنسبة إليهم، وبالتالي يرتابون في أمره ولا يثقون به. بالتأكيد لم يكونوا قد سمعوا من قبل باسم تشي جيفارا الذي لا ينتمي لقبه إلى موطنهم. وفي هذا السياق، كان من الصعب للغاية خلق حلفاء ومؤيدين.

في الحقيقة، أنّ فلاحاً هو من أخبر قوات الجيش بوجود رجال حرب العصابات في كيبرادا ديل يورو. مع أنّ الثوار عاملوا المزارعين الفقراء من الطبقة الاجتماعية «كامبيسينو» من الشعوب الأصلية في بوليفيا باحترامٍ ومودّة. كان إرنستو يعالج ويداوي أطفالهم المرضى ويعلّمهم القراءة والكتابة. أسّس مدارس متنقلة وعيّن مقاتليه الأكثر ثقافة وتعليماً لكي يقوم كلّ واحدٍ منهم بشكلٍ يومي من الساعة الرابعة عصراً إلى غاية السادسة مساءً بإعطائهم دروساً في القواعد والحساب والتاريخ والجغرافيا. وقد شارك إرنستو بنفسه في الجهد التعليمي وأعطى دروساً إضافية في اللغة الفرنسية للمهتمين من بينهم. وكانت دروسه في الاقتصاد السياسي إلزامية. كان يقول: «بعد الانتصار، سنحتاج إلى أناسٍ مثقّفين ومتعلّمين لتوطيد السلطة وترسيخها». كما كان يردّد دائماً: «لا ينبغي أن يكون الثائر «مجرّد مطلقٍ للرصاص»، بل يجب أن يمتلك ثقافة عامّة».

كان تشي يُطلق سراح أسرى الجيش البوليفي بعد أن يُضمِّد جراحهم. كان أخي إنسانياً عظيماً. فقد صرّح ذات يوم: «ربّما أبدو مضحكاً بهذا الكلام، ولكنني أؤكّد أنّ الثوري الحقيقي يسير قبل كلّ شيء بهدي مشاعر حبّ عظيمة. من المستحيل التفكير بثوري صادق وأصيل يكون مجرّداً من خصاله. [. . .] إنّه في حاجة إلى جرعات

كبيرة من الإنسانية والعدالة والحقيقة لكي لا يقع في فخّ الدوغمائية والجمود المدرسي والعزلة عن الجماهير»[1]. قبل مغادرته، كان قد أعطى أليدا قائمة بالكتب التي ينبغي اقتناءها. كان من ضمنها أعمال سوفوكليس وديموستيني وهيرودوت وأفلاطون وبلوتارخس ويوربيديس وأريستوفان وأرسطو ودانتي وراسين وغوته وشكسبير وبندار.

استمرّت حملة نانكاهوازو أحد عشر شهراً. خمسة وأربعون أسبوعاً مرهِقاً من الحركة المستمرّة. كان إرنستو يعاني من نوبات ربو تزداد وتيرتها يوماً بعد آخر وقد أوهنته حتى إن لم تستطع إبطاء تقدّمه. لم يكن يسمح قط للآخرين بأن يعاملوه باحترامٍ يزيد عن سواه أو يقدّموا له طعاماً أكثر ممّا يقدَّم لسواه.

كان إرنستو قد وصل إلى لاباز وسط أقصى درجات السرية في مطلع شهر نوفمبر من عام 1966 في عملية تخفّيه الشهيرة في شخصية تاجر. في السابع والعشرين من الشهر نفسه، التقاه الثائر البوليفي غيدو «إينتي» بيدرو للمرّة الأولى وسط الأدغال، والذي وصف اتصالهما الأوّل ذاك في كتابه **حملتي مع تشي** كالآتي: «كان تشي جالساً على جذع شجرة. كان يدخّن وهو يستمتع على نحوٍ واضح برائحة التبغ. كان يعتمر قبّعته الشهيرة. حينما وصلنا إلى هناك، التمعت عيناه فرحاً. كان الرجل الأكثر ملاحقةً من قبل الإمبريالية، الثائر الأسطوري، واضع الاستراتيجيات ومنظّر المخطّطات ذات الأبعاد الدولية، رمز النضال والأمل، حاضراً هنا

(1) إرنستو جيفارا، **الاشتراكية والإنسان في كوبا**، مصدر سبق ذكره.

حقّاً، يجلس بهدوء في قلب أحد أكثر البلدان استغلالاً واضطهاداً في القارة. [. . .] كانت رحلته إلى بوليفيا أحد أكثر الأسرار سحراً في التاريخ»[1].

لم تكن المواجهات الأولى مع الجيش البوليفي برغبة من الجيش الثوري. اضطرّ إلى أن يخوض تلك المواجهات بعد أن تمَّ انكشاف أمره. لم يكن يضمّ في صفوفه حينذاك سوى ما يقارب خمسين رجلاً. ولكنّ نجاحه في تحقيق النصر، في الأشهر الأولى من عام 1967، في عدّة معارك، جعله يضلّل الجيش البوليفي الذي تخيّل أنّه أكبر حجماً وقوّةً مما كان عليه بالفعل. وكردّ على هذا، عزّز الجيش البوليفي وسائل محاربته وقتاله. تمَّ الاستنجاد بوكالة المخابرات المركزية الأميركية، فأقامت الوكالة في قصر الرئيس الدمية رينيه بارينتوس وأعطت الأوامر إلى الدول المجاورة بإغلاق حدودها في وجه الثوار ومنع وصول أيّة مساعدات وإمدادات إليهم.

في نهاية شهر سبتمبر، كان جيش التحرير الوطني قد تقلّص إلى كتيبة تضمّ سبعة عشر رجلاً منهكاً، أضناهم الجوع والعطش، ويعانون من سوء التغذية. في صبيحة الثامن من أكتوبر، كان الجوّ بارداً جدّاً في كيبرادا ديل يورو. ولأنّه كان يعلم بأنّه محاصر، أرسل تشي ثلاث مجموعات تضمّ كلّ واحدة منها مقاتلين لكي تقوم بتحديد مواقع الجيش البوليفي. وبهذه الطريقة نجا بعض أولئك الرجال من الكمين المنصوب لهم.

---

(1) بيريدو غيدو، *Mi campaña junto al Che y otros documentos* (**حملتي مع تشي ووثائق أخرى**)، جامعة بارانينفو، 2013. نُشر لأول مرة في عام 1970 في شكل كتيّب.

لا يمكنني أن أخوض في تحليلٍ أسباب فشل حملة نانكاهوازو. اليقين الوحيد الذي يتملّكني هو أنّ تلك الحملة قد انتهت بهزيمة. لستُ قادراً على تحديد أسبابها، فهي تتجاوز إمكاناتي. كلٌّ يبحث فيها ضمن قناعاته الخاصّة. يرى البعض أنّها قد تكون خيانة من فيدل كاسترو، ويقول آخرون إنّ عمّال المناجم لم يساندوا تشي، أو أن الفلاحين قد قاموا باستدراجه إلى الفخّ، أو أنّ المقاتلين الذين تمَّ أسرهم أو فرّوا من القتال قد اعترفوا وأفشوا الأسرار. الحقيقة المؤكّدة هي أنّ الثائر الأسير سيرو بوستوس قد وافق على أن يصف ملامح شخصية «رامون بينيتيز» أثناء جلسة استجواب، وأنّ هذه الصورة التي قدّمها قد أقنعت العسكر في النهاية بأنّ «رامون» هو في الحقيقة تشي، وهو الأمر الذي كانوا يشكّون فيه منذ بضعة أشهر ويسعون إلى التأكّد منه. الدرس الأكثر أهمية هو أننا عشنا هزيمة على مستوى القارة الأميركية للمشروع الثوري الذي كان تشي يمثّله. بالنسبة إلي، الفشل في بوليفيا لغزٌ من الصعب للغاية حلّه.

والحقيقة المؤكّدة الأخرى هي أنّه كان هناك خمسة ناجين سبق أن ذكرنا أسماءهم. وعلى الرغم من الحضور الكثيف للجيش، كان غيدو «إينتي» بيدرو أحد الذين نجحوا في الخروج من الأدغال لكي يلجأ إلى كوتشابامبا. اتّصل «إينتي» من مخبأه بشخصٍ من الحزب الشيوعي البوليفي. وماذا قال له هذا الشخص؟ أخبره أنّ عليه ألا يكشف بأيّ حالٍ من الأحوال عن مكان إرنستو في كوتشابامبا لزعيم الحزب الشيوعي لأنّ هذا الأخير سوف يخونه. ظلّ «إينتي» متخفّياً لعدّة أسابيع. وقد تمَّ اغتياله في عام 1969 من قبل القوات الأمنية. هل حقّاً تمَّ الغدر به من أحد أعضاء حلقته؟

ثمانية أعوام وثلاثة أشهر وثلاثة وعشرون يوماً

كنتُ أمشي بهدوء في أحد شوارع كوردوبا حينما تمَّ توقيفي للمرّة الأولى من قِبل رجالٍ يرتدون الزيّ الرسمي، في الثالث من شهر مايو من عام 1974. كنتُ عائداً من هافانا حيث تركتُ فيها زوجتي ماريا إيلينا وأطفالنا الثلاث. كنتُ أخشى على أمنهم وسلامتهم في الأرجنتين. كان الجوّ السياسي في البلاد قد أصبح مسموماً وخطراً على المناضلين من أمثالنا، ناهيكم عن صلة القربى مع تشي التي كانت لوحدها كافية لتعريضنا للخطر. وصلنا إلى دركٍ بحيث لم يكن حمل كنية جيفارا أمراً سهلاً. وعلى الرغم من المخاطر المحدقة، قرّرت العودة إلى البلاد، عازماً بلا تردّد على أن أواصل نشاطاتي السياسية والنضالية. وكنتُ قد دفعتُ والدي إلى اللجوء إلى كوبا في العام السابق. كنتُ أنخرط على نحو أكثر في النضال حينما كنتُ أعلم أنّ أقربائي في مأمن من الأخطار، لأنني كنتُ أتحرّر من الخوف عليهم.

كنتُ أناضل بنشاط وحيوية في إطار منظمة حزب العمال الثوري (Partido revolucionario de los trabajadores – PRT)،

وهي منظّمة سياسية-نقابية مهمّة كانت تضم في صفوفها العديد من الحركات. كنتُ أنتمي إلى جناح الجبهة المناهضة للإمبريالية من أجل الاشتراكية (Frente anti-imperialista por el socialismo).

كان خوان بيرون ضعيفاً ومنهكاً جدّاً من الناحية البدنية ولكنّه ظلّ يمارس حكم البلاد. كانت عودته من المنفى بموجب اتفاقٍ تمَّ إبرامه مع الحكومة العسكرية بقيادة أليخاندرو أوغستين لانوس الذي سمح له بالعودة إلى البلاد بهدف كبح جماح تقدّم الثوريين. ولكنّ أيام بيرون كانت معدودة. مات في الأوّل من شهر يوليو من عام 1974 وحلّت محلّه على رأس الدولة زوجته الثالثة إيزابيل[1]، وهي راقصة سابقة في الملاهي ولم تدرس في المدرسة سوى إلى الصفّ الخامس ومع ذلك كانت تشغل رغم أنف الجميع منصب نائب الرئيس. ولأنّها لم تكن قادرة على أن تحكم لوحدها، فقد عاونها، أو بالأحرى سيّرها شخص شرير ومؤذ، وهو ضابط شرطة رفيع بارع في إخفاء نواياه، يُدعى خوسيه لوبيز ريغا ألياس ويُلقّب بلقب «إيل روخو» (أي العرّاف). كان لوبيز ريغا قد خطّط على مدى سنوات لكي يتقرّب من إيزابيل. وقد بذل جهوداً كبيرة لكي يعزّز صِداقته بها. وقد كوفئ على تلك الجهود: فقد تمّت دعوته إلى الانضمام إلى الزوجين بيرون في منفاهما الإسباني بصفة السكرتير الخاصّ.

عند موت الجنرال، أخذ بشكلٍ طبيعي دور مستشار إيزابيل.

---

(1) تولّت المنصب باسمها الحقيقي وهو ماريا إيستيلا مارتينيز كارتاس دي بيرون. توفّت الزوجة الأولى لبيرون، أوريليا غابرييلا تيزون، من جرّاء سرطان الرحم في العاشر من شهر سبتمبر من عام 1938، بعد تسع سنوات من زواجهما. أمّا زوجته الثانية، إيفا الشهيرة، فقد توفّت هي الأخرى من جرّاء سرطان الرحم في عام 1952 وهي في الثالثة والثلاثين من عمرها.

ومذ أصبحت هذه الأخيرة أرملة، لم تعد تتّخذ أيّ قرارٍ من دون استشارته فيه. وهكذا سوف يتزايد تأثير ريغا على نحوٍ ملحوظ. لقد استغلّ سلطته ونفوذه لتشكيل سريّة تضم فرق الموت تحت مسمّى «التحالف الأرجنتيني ضدّ الشيوعية» -والذي كان يُعرف أكثر باسم تريبل إيه (Triple A)- وكان هدفها «اجتثاث التسلل الماركسي إلى البيرونية»، والذي تجسّد، من بين حركات أخرى، في حركة مونتونيروس، وحركة القوات المسلحة الثورية (FAR) أو أيضاً الجيش الثوري الشعبي (ERP). اتّجهت بلادي من جديد نحو حقبة جديدة من القمع الذي بات يُعرف الآن بأسماء «الحرب القذرة» و«سنوات الرصاص». ينبغي التوضيح هنا أنّ السياق السياسي لتلك المرحلة كان في غاية التعقيد والتشابك. وما لم أقم بشرحه، سيكون من المستحيل فهم أسباب اعتقالي لمرّتين وكذلك النفي المتتابع لكل آل جيفارا إلى كوبا.

في الأساس، كانت البيرونية حركة شعبية ونقابية. كان أنصارها ينشدون الشعار التالي: «لسنا يانكيون، ولا ماركسيون. نحن بيرونيون!»، وكانت عبارة عن حركة تفسح المجال لأيٍّ كان لكي يجد فيها ما يسعى إليه أكثر من أن تكون حزباً سياسياً. كان خوان بيرون بمثابة القدوة للجماهير يتّفق عليه أنصار كلّ التيارات المختلفة. سواء كانوا من اليمين أو من اليسار، كان يصعب عليهم التواجد والاستمرار من دون مباركة منه، بما في ذلك، بل بخاصّة، أثناء فترة وجوده في المنفى.

وبالتالي، كانت البيرونية قد ولدت من تيارين متنافسين: حراكٌ يساري، تمثّله مجموعة منظمات مثل شباب مونتونيروس والشبيبة البيرونية (Juventud Peronista – JP) ومنظمة العمال الأرجنتينيين

(CGT)[1] تحت قيادة أوغستين توسكو، وحركة «أرثوذكسية» يمينية تمثّلها نقابة CGT[2] القوية. كان كلٌّ من التيارين مقتنعاً بأنّه يجسّد البيرونية الأصيلة وينازع الآخر في حبّه لزعيمه. ولكن في كلّ مرّة، كانت تلوح فيها إمكانية انحياز البيرونية نحو اليسار، كان بيرون يقضي على هذا التوجّه في المهد. حينما انتُخِبَ هيكتور خوسيه كامبورا، والملقّب بلقب إيل تيو (أي العمّ)، رئيساً للبلاد في شهر مارس من عام 1973، أرغمه بيرون على الاستقالة بعد شهرين من مباشرته لمهامه، في حين كان هو بنفسه قد قام بتسميته مرشّحاً بيرونياً[3]. كان إيل تيو قد ارتكب ثلاثة أخطاء لا تُغتَفر: إصدار العفو عن أعضاء التنظيمات الثورية؛ إعادة إقامة العلاقات الدبلوماسية مع كوبا؛ تعيين شباب اشتراكيين في مناصب حكومية. بعبارة أخرى، كان قد فضّل وجامل العناصر من ذوي الميول اليسارية.

توقف أنصار البيرونية عن ترداد اللازمة الشائعة آنذاك: «كامبورا في الحكومة، بيرون في السلطة». أتاحت استقالة كامبورا في الثالث عشر من شهر يوليو -والذي خضع لأوامر تقديمها من دون إظهار أي امتعاض- أتاحت هذه الاستقالة للجنرال بأن ينظّم انتخابات جديدة وأن يفوز في الاقتراع. استعاد السلطة في الثاني عشر من شهر أكتوبر وعيّن إيزابيل في منصب نائب الرئيس. فبدأت عملية الانتقال الأساسية إلى «اليمين» اعتباراً من تلك اللحظة.

---

(1) الاتحاد العام للعمال الأرجنتينيين.

(2) ليس لها علاقة بالكونفدرالية العامّة للشغل الفرنسية CGT.

(3) كان الدكتاتور أليخاندرو أوغستين لانوس قد مُنِع بمرسومٍ من بيرون من تقديم نفسه كمرشّحٍ للانتخابات الرئاسية.

حاول بعض أنصار البيرونية النأي بأنفسهم عن الأحداث المأساوية التي عصفت بالبلاد وهزّتها، وبخاصّة فيما يتعلّق بالانقلابَين العسكريَين اللذين وقعا في عام 1955 وفي عام 1976، وحاولوا أن يلقوا بمسؤوليتها على آخرين. ومع ذلك، فقد تحمّلوا مسؤولية جزء من تلك المآسي. حينما غادر بيرون إلى المنفى بعد ثلاثة أشهر من قصف ساحة مايو في السادس عشر من يونيو من عام 1955، وجد ألف سبب وسبب لكي يبرّر قفزه من السفينة. كان يعارض معارضة شديدة لعملية حقيقية في التحوّل الاجتماعي. وكان على سبيل المثال يرتاب في أمر الشبيبة التي كانت تمثلها حركة مونتونيروس ولا يثق بها. وبعد أن تودّد إلى التيارين المتعارضين وحاول أن يلفّ مواقفه منهما بشيء من الغموض، انتهى به المطاف بالكشف عن نواياه لدى عودته من المنفى: كان يكره الجناح اليساري في الحركة.

وانتهت القطيعة النهائية مع حركة مونتونيروس بشكلٍ دموي في العشرين من شهر يونيو من عام 1973، أي في نفس يوم عودته من إسبانيا، لكي يقوموا باستقباله استقبالاً حافلاً وصاخباً، قرّر أنصاره ومؤيدوه من التيارين التجمّع عند مفترق الطريق الرابط بين بوينس آيرس ومطار إيزايزا الدولي (تمَّ تقدير العدد فيما بعد بثلاثة ملايين وخمسمئة ألف شخص). كان بعض الأنصار قد جاؤوا مسلّحين نظراً إلى شدّة العداء بين الجناحين المتنافسين. لم يستطع التياران أن يتفاهما ويتّفقا على كيفية اتّخاذ أمكنتهم على الطريق الذي كان الجنرال سيسلكه إلى بوينس آيرس بعد ثمانية عشر عاماً من المنفى. دون استشارة أنصار حركة مونتونيروس، قام أتباع حركة «الأرثوذكسيون» بوضع منصّة على عجل. فكانت لهم ميزة الارتفاع

عن مستوى التيار الآخر. حينما اقترب منهم أنصار حركة مونتونيروس، أطلق قنّاصة النارَ عليهم، موقعين ثلاثة عشر قتيلاً وثلاثمئة وخمسة وستين جريح. من دون أن يدين المجزرة، قال بيرون: «لا يمكن بناء وطنٍ بالصياح والصراخ. نحن، البيرونيون، علينا أن نستعيد قيادة حركتنا ونضعها على المسار الصحيح ونقضي على أولئك الذين يسعون إلى تشويهها من القاعدة أو من القمّة». وقد كانت تلك المجزرة بداية الأعمال العدائية الحقيقية. لقد تمَّ الغدر بأنصار حركة مونتونيروس من قبل قدوتهم ومعهم الشبيبة الأرجنتينية.

لقد ورثت إيزابيل إذاً نظاماً ملائماً للعمل الثوري. ألمح البعض إلى أنّ بيرون قد وقع تحت تأثير وسحر لوبيز ريغا[1]. وفي الحقيقة لم يكن ذلك صحيحاً البتّة. كانت هذه عبارة عن دعوة تهدف إلى إخفاء حقيقة أنّ بيرون كان رجعياً بشدّة وتابعاً للإمبريالية. كان رأسمالياً قومياً يمينياً وشعبوياً ولم يكن يُطيق في أيّ حالٍ من الأحوال لا الماركسية ولا الشيوعية ولا الاشتراكية ولا الثورة. في أواخر أيامه، كان هذا الميل هو الذي يملي عليه أعماله وتصرّفاته. تقرّب من العسكر ورتّب تولّي زوجته للسلطة لكي يمنح للقوات المسلّحة الوقت الكافي لإعداد وتدبير الانقلاب العسكري في الرابع والعشرين من شهر مارس من عام 1976.

تحت تأثير لوبيز ريغا، كثّفت إيزابيل من أعمال القمع. علاوة على ممارسة المذهب الباطني والعداء للشيوعية، كان «العرّاف» يخضع للأوامر الهادفة إلى اقتلاع البيرونية من بين أنصارها اليساريين

(1) من الممكن أنّ الرجلين كانا عضوين في المحفل الماسوني P2.

وكبح التحركات التعبوية أو احتمالات تنامي الحركات الشعبوية والثورية. تحت ضغط المطاردة من قبل سريّة فرق الموت تريبل إيه التي كانت تعتقل وتعزل وتغتال أعضائها في ظلّ حصانة كاملة من العقاب، تحوّلت حركة مونتونيروس شيئاً فشيئاً إلى جماعة مسلّحة. تعاظم التمرّد وتشكّلت مجموعات صغيرة مسلّحة أخرى وتزايدت الهجمات والاعتداءات المسلّحة. كان الجيش الثوري الشعبي أحد الأهداف الأخرى لفرق الموت. وفي مواجهة تحوّل الأحداث، كانت اجتماعاتنا تدور آنذاك حول سؤال مركزي: هل علينا اللجوء إلى السلاح؟ وإذا كان الجواب بنعم، فهل هذه هي اللحظة المناسبة للقيام بذلك؟ كنّا منقسمين حول هذا الموضوع. في كلّ بلدان القارة، كان المناخ السائد هو المجابهة العسكرية مع حركات ثورية في الأوروغواي وفي بوليفيا وفي تشيلي وفي فنزويلا وفي كولومبيا وفي البرازيل. كان مثلهم الأعلى وقدوتهم كوبا، مهد الكفاح المظفّر ومنارة أميركا. مثّلت الجزيرة الكوبية الأمل في تغيير اجتماعيّ حقيقي.

في الأرجنتين، كان الصراع بين اليمين واليسار يشتدّ أكثر بمرور كلّ يوم. كنّا نشاهد تعبئة عمالية ونقابية ضخمة في البلاد. وكانت الشرائح الاجتماعية من الجماهير البروليتارية والعمال والطلّاب تتجمّع في منظّمات، في مواجهة تحالف بين مجموعات اقتصادية وأجهزة المخابرات السريّة للأرجنتين ودول أخرى والقوات المسلّحة واليمين النقابي والسياسي. كان العدو الأساسي لهذا التحالف هو اليسار وكان الهدف النهائي له هو القضاء عليه تماماً. وكذلك بدأت عملية ابتلاع رفاقنا بأعداد متزايدة ومثيرة للقلق والخطر من قبل مراكز الاعتقال والتعذيب السرية التي انتشرت في كامل أنحاء البلاد. كان

رفاقنا يختفون دون أن يُترَك لهم أثر أو يظهرون بعد الاختفاء على هيئة جثث مشوّهة. كان الوضع في كوردوبا أشدّ خطورة من بقية أنحاء البلاد. منذ الانقلاب العسكري الذي قام به الجنرال خوان كارلوس أونغانيا في عام 1966 وسنّ قانونه القمعي المناهض للشيوعية، تحوّلت المدينة إلى عاصمة النضال في الأرجنتين وتعزّز تقليد متجذّراً للاحتجاج في المدينة قبل ظهور سريّة لوبيز ريغا التي كانت تضمّ فرق الموت. حملت حركة التمرّد اسم كوردوبازو ووحّدت في صفوفها الطلاب والعمال والنقابيين في سلسلة لا متناهية من حركات التمرّد والمظاهرات والهجمات المسلّحة، وقد نظّمت حركتها المسلّحة الكبيرة الأولى في شهر مايو من عام 1969. أعلن بيرون من منفاه أنّ كوردوبا هي «بؤرة العدوى».

وفي كوردوبا، تأسس التحالف الأرجنتيني ضدّ الشيوعية (تريبل إيه) وحدثت القطيعة القاتلة مع الشرعية المؤسسية في مجال القمع. كنت قد وصلتُ إلى المدينة قبل توقيفي ببضعة أشهر، تماماً قبل الانقلاب العسكري المحلّي الذي وقع في الثامن والعشرين من شهر فبراير من عام 1974. في ذلك اليوم، قام العقيد في الجيش وقائد الشرطة أنطونيو دومينغو نافارو باقتحام قصر الحكومة وأوقف الحاكم ريكاردو أوبريغون كانو، ومساعد الحاكم آتيليو لوبيز، وكلاهما من البيرونيين اليساريين، وكذلك اثني عشر مساعداً لهما. على الرغم من أنّ أوبريغون كانو ونائبه كانا قد حصدا أكثر من 50% من أصوات المقترعين في الانتخابات الرئاسية. لم يكن ذلك مهمّاً: لقد تمَّ زجّهما في السجن. لم يكن هناك أدنى شكّ في أنّ الأمر قد صدر عن أعلى دوائر الدولة. من جهة أخرى، حدث الأمر ذاته في إقليم بوينس آيرس بعد مرور شهرٍ من ذلك. لقد أُقيل الحاكم أوسكار

راؤول بيديغان من منصبه من قبل البيرونيين اليمينيين الذين كانوا يرتابون في الشباب التقدميين في حكومته.

وفي هذا المناخ المسموم والضارّ والمتفجّر، تمَّ توقيفي في يوم الثالث من شهر مايو من عام 1974. فجأةً، ومن دون أن ألاحِظ قدومهما، ظهر رجلان يرتديان الزي الرسمي أمامي في الشارع. أمسك كلّ واحدٍ منهما بإحدى ذراعيّ. حينما حاولت أن أقاوم وأدافع عن نفسي، صوّبا فوهة سلاحهما عليّ. أرغماني على الصعود إلى عربة للشرطة. وانطلقت بنا العربة كالإعصار نحو مركز الشرطة. في الطريق، شرحا لي أنّ شقّتي قد فُتِّشَت بينما كنتُ في المصنع. وكانوا قد عثروا فيها على وثائق تعود لمنظّمة الجيش الثوري الشعبي وكُتب «تثبت تهمة التورّط في الجريمة». كنتُ عاملاً وعضواً نشيطاً في الجيش الثوري الشعبي وأحمل كنية جيفارا. وعلى الرغم من أنني كنتُ أحمل حينذاك أوراقاً ثبوتية مزوّرة لكي أتخلّص من خطر العبء الذي يمثّله اسمي، إلا أنّه تمَّ التعرّف إلي، ولكنني لم أكن أعلم إن كانوا قد اكتشفوا هويتي الحقيقية. ربّما اعتقلوني فقط بسبب انتمائي إلى الجيش الثوري الشعبي.

كان رفاقي في الحزب أيضاً يجهلون هويتي الحقيقية. بالنسبة إليهم، لم أكن شقيق شخصية معروفة، كنتُ فقط خوان مارتن. لم أكن أجاهر وأتفاخر بأنّني شقيق تشي: كان هذا الأمر في غاية الخطورة ليس بالنسبة إليّ فحسب، بل أيضاً بالنسبة إلى رفاقي والجيش الثوري الشعبي.

اليوم، أتمنى أن أنشر فكر تشي. في تلك الحقبة، لم يكن الأمر كذلك. كانت شكوكنا تتزايد حول إمكانية اختراق الحزب من

قبل سريّة تريبل إيه. وكان علينا أن نرتاب في كلّ شيء. كانت مجموعات مسلّحة عديدة، والتي اندمجت معاً فيما بعد، تعمل بقسوة في كوردوبا.

أمضيتُ ثلاثة أشهر وثمانية عشر يوماً في سجن سان مارتن على ذمّة التحقيق. وعلى الرغم من المخاطر المحدقة، أصبح شقيقي روبرتو محامي الدفاع عنّي ما أن علِمَ بأمر اعتقالي. جاء على الفور إلى كوردوبا ودافع عني مترافعاً بكلّ ما أوتي من قوّة. في السجن، تمَّ الاعتداء عليّ بالضرب وأُسيئت معاملتي وتمَّ استجوابي ولكن لم يقوموا بالإفراط في تعذيبي. تمَّ اتّهامي بتزوير «وثائق رسمية»، وهي التهمة الوحيدة التي استطاعوا تثبيتها ضدّي. وبالتالي، استنتجت من ذلك بأنّهم كانوا يعرفون هويتي الحقيقية. وفي النهاية، أطلقوا سراحي، ولكن بشروط. ولكن منذ ذلك الحين، تمَّ إعداد ملف عنّي وأصبحت في قائمة سجلّاتهم. وقد ظلّ رفاقٌ، كان قد تمَّ اعتقالهم في نفس اليوم الذي جرى فيه اعتقالي، في السجن. وقد علمتُ لاحقاً بأنّ آخرين قد قُتِلوا رمياً بالرصاص أو عُذّبوا حتى الموت. لم يكن أحدٌ يعلم لماذا يتمّ إطلاق سراح سجين ويتمّ رمي آخر بالرصاص.

بعد الانقلاب العسكري في الرابع والعشرين من شهر مارس من عام 1976، لم يعد هناك لا إطلاق لسراح السجناء ولا حتى عمليات توقيف للمعارضين: أصبح الموت العقاب الأكثر شيوعاً. على سبيل المثال، موت خوسيه رينيه موكارزيل، الذي أُلقي به مجرّداً من الثياب في فناء السجن وسط بردٍ قارسٍ ومن ثمّ سكب الماء المثلج عليه بانتظام وذلك بسبب تلقّيه قليلاً من الملح من أحد سجناء الحقّ العام.

اعتقدتُ أنّني أستطيع الإفلات من القمع والعقاب بعد إطلاق سراحي، في شهر أغسطس، من خلال الانتقال إلى روساريو، عاصمة مقاطعة سانتا في. كانت الأمور تبدو أكثر هدوءاً هناك، وأقلّ تفجّراً مما كانت في كوردوبا. وجدتُ فيها عملاً في مصنع لعشبة المتّة. وفي ذلك المصنع، التقيت مع رفيقتي فيفيانا بيغوان، الملقّبة باسم لا نيغرا، والدة ابنتي دولوريس. كانت فيفيانا تناضل مثلي في صفوف الجيش الثوري الشعبي. فأصبحنا نناضل معاً. كنّا نحضر الاجتماعات ونذهب إلى الجامعة في محاولة منّا لتوحيد صفوف الحركة أمام الانقلاب العسكري الذي كان يلوح في الأفق. في الحقيقة كنّا على قناعة راسخة بأنّ القوات المسلّحة سوف تستولي على السلطة بالقوّة. وهذا ما كانت تفعله القوّات المسلّحة في كلّ حقبة من أحقاب عدم الاستقرار في الأرجنتين - وعبر التاريخ، كان لنا نصيبنا من ذلك! كانت نقاشاتنا داخل حزب الجيش الثوري الشعبي تتواصل حول الاستراتيجية التي ينبغي علينا تبنّيها. كانت قيادة الحزب تنحو بشكل متزايد نحو تبني الكفاح المسلّح، ولكن بعض الأعضاء كانوا يعارضون هذا التوجّه، مقتنعين بأنّ هذا العمل سوف يجازف بتسريع وقوع انقلاب عسكري بدل منعه. في نهاية المطاف، كنّا نسبح وسط الشكوك والظنون: لم نكن متأكدين من أننا قادرين على تجنّب حدوث الانقلاب عبر تعبئة بسيطة ولا متأكّدين من اللحظة المناسبة للتحرّك والتصرّف. وكان موت بيرون قد عقّد كلّ شيء. وكانت حكومة إيزابيل قد اتّخذت تدابير تزيد من حدّة القمع وتحدّ من هامش المناورة أمامنا.

في نهاية شهر سبتمبر من عام 1975، أجاز مجلس الشيوخ، برئاسة إيتالو لودر، حملة القمع الواسعة من خلال تبنّي قانون الأمن

الوطني ذي الرقم 20840، الذي سُمي بقانون مناهضة الشيوعية والتخريب. كانت بنوده الأربعة عشر تسمح للحكومة بتوقيف الناس تحت ذريعة واهية وهي حيازتهم لوثائق تحثّ على التخريب ومنشورات وكتب وسواها وتجرّم النشاط النقابي والحركات العمالية وتحظر نشر بعض الصحف وتجيز سجن أيّ مشتبهٍ به. في نفس تلك الفترة، أرسلت الحكومة الفيدرالية إلى كوردوبا بيرونياً فاشياً، هو البريكادير راؤول أوسكار لاكابان، لكي يقوم بتنظيم عملية «تطهير أيديولوجي».

بعد عام واحدٍ من وقوع الانقلاب العسكري، لم يتردّد قائد الطغمة العسكرية والدكتاتور رافائيل فيديلا في التصريح قائلاً: «إذا لزم الأمر، سوف يُقتَل جميع أولئك الذين يعارضون فرض السلام في البلاد». وبأوامرٍ منه، سوف تتخصّص مجموعة القمع GT4 بملاحقة أنصار جيفارا وكاسترو. ولحسن حظّي، إذا ما تجاسرتُ على القول، كنتُ في السجن حينما أصبح القمع منظّماً ومنهجياً.

تمّت عملية اعتقالي وحبسي الثانية في الخامس من شهر مارس من عام 1975 في روساريو. كنّا، فيفيانا وأنا، نائمين في بيت أصدقاء لنا، في حيّ توكومان، حينما أيقظنا أربعة رجال يرتدون الزيّ المدني ومدجّجين بالسلاح وهم يضعون فوهات مسدّساتهم في رأسينا. كانوا قد خلعوا الباب. دُفِعَت فيفيانا إلى زاوية من الغرفة تحت تهديد فوّهات عدّة بنادق رشّاشة من طراز ستين إم كي تو. أمّا أنا فقد وضعوا قناعاً في رأسي. سُمع صوت إطلاق الرصاص في الخارج. اعتقدتُ أنّ تلك نهايتنا وأنّهم كانوا على وشك إخراج تمثيلية في الشارع لكي يوهموا الناس بأننا كنّا مسلّحين وأننا

قاومناهم بالسلاح أثناء المداهمة. كانت تلك طريقة عملهم بشكلٍ عامّ: كانوا يختلقون ذريعة للقضاء على «المخرّبين» من دون الحاجة إلى أي شكلٍ آخر من المحاكمة. ولكن لم يحدث ذلك في هذه المرّة. أصعدونا إلى سيارة سوداء أقلعت بسرعة جنونية نحو مركز الاعتقال السرّي. لم أكن أرى أيّ شيء، ولكنني كنتُ أشعر بالصمت المطبق في الشوارع الخالية. ولأنّها كانت سريّة، كانت منظّمة تريبل إيه تتصرّف وتتحرّك بشكلٍ عام أثناء الليل.

حينما وصلوا إلى وجهتهم، ألقوا بي في حجرة تحت سلالم، اعتقدتُ أنّه قبو، تفوح منها رائحة العفونة. وأنا مقنّعٌ ولا أعرف الاتجاهات، كنتُ أعلم فقط أنّني بين يدَي الشرطة السرّية. تمَّ فصلي عن فيفيانا وكنتُ أجهل إلى أين أخذوها. بعد مرور بضع دقائق، جاء رجال وقاموا باستجوابي والتحقيق معي. تعرّضتُ لتعذيبٍ نفسي. هدّدوني بالضرب والتكسير والقضاء عليّ.

أرادوا أن يعرفوا أسماء الأشخاص الذين أتواصل معهم ومسؤولياتي ضمن الجيش الثوري الشعبي. لم أكشف عن أيّ شيء، عن أيّ شيء على الإطلاق. فأرسلوا إليّ بعد ذلك ضابطاً من الشرطة الفيدرالية. التزمت الصمت المطبق أمام أسئلته. لم أطالب حتى بمقابلة قاضٍ. كان سكوتي هو أفضل سلاحٍ بين يدي لكي أستطيع أن أنقذ حياتي. خلال عدّة أيام، تناوبوا على التحقيق معي من دون أيّ نتيجة. بعد أن أعياهم التعب وفقدوا الأمل في الحصول على أيّ شيء منّي، أحالوني إلى قاضٍ للتحقيق في جلسة محاكمة صورية. كان قانون الأمن الوطني يعاقب على «النشاطات التخريبية بكلّ مظاهرها». وكان تعريف هذه «الأنشطة التخريبية» غامضاً بغية تسهيل عمليات التوقيف والاعتقال بحقّ كلّ من يعارض حكومة

إيزابيل بيرون. بعد الانقلاب العسكري وعملية إعادة التنظيم الوطني التي أطلقتها الخونتا العسكرية، عمد الجنرالات إلى إلباس الناس من أمثالي رموزاً بالأحرف الأولى (كانوا يعشقون الرموز بالأحرف الأولى)، من قبيل: BDS (Banda de delincuentes subversivos) أي «عصابة مجرمين مخرّبين»، الأمر الذي كان يتيح لهم تجاهل اتفاقية جنيف بشأن معاملة السجناء السياسيين: وبموجب هذا التطبيق الجديد، أصبحنا في الواقع سجناء الحقّ العام. وعلى نفس الطراز الأورويلي، كانوا يسمّون مراكز الاعتقال والتعذيب السرية LRD (Lugar de reunión de detenidos) أي «مكان لقاء المعتقلين».

استغرقت مهزلة إجراء المحاكمة لمدّة نصف ساعة وكانت غير رسمية كاملةً. أمام الوقائع العبثية التي أخذوها عليّ، اكتفيتُ بالردّ بأنني عضو في منظمة تناضل ضدّ الظلم. نقطة على السطر والسلام عليكم. سألني القاضي إن كنت أوافق على التهم الموجّهة إليّ، فأجبت بالنفي. أصرّ القاضي، قائلاً: «ولكنّنا عثرنا في شقّتك على...»، فأجبت قائلاً: «هذه ليست شقّتي».

ومن ثم تمَّ تحويلي إلى سجن فيلا ديفوتو الإصلاحي في حي بيرموديز، في ضواحي بوينس آيرس. كان السجن مكاناً غير صحّي، وهو عبارة عن سلسلة من العمارات العالية مبنية من الأسمنت ويعود تاريخ تشييدها إلى عام 1927. كانت مفاجأة سعيدة أن ألتقي مع فيفيانا لدى وصولي إلى هناك. لم نكن ندرك الموقف بعد ولكننا كنّا محظوظين بكوننا أصبحنا منذ ذلك الحين سجناء رسميين ولنا أضابيرنا. ما أن أصبح اسمنا داخل نظام السجلات، أصبح من الصعب -وليس من المستحيل كما سنرى ذلك- أن يتمّ إخفاؤُنا وتصفيتنا. كان أقاربنا يعرفون على الأقلّ ما حدث لنا ومكان

تواجدنا، على العكس من آلاف عائلات ضحايا الدكتاتورية في الأعوام التالية، والذين ظلّوا لا يعلمون شيئاً عن مصير أبنائهم واستمروا يعانون من آلام ذلك لسنوات عديدة. كان لنا عظيم الحظّ لاعتقالنا قبل الانقلاب العسكري. لأنّ الخونتا العسكرية راحت تجعل من القمع الممارس من قبل منظمة تريبل إيه حِرفة ومهنة لها. كنا نعتقد أنّنا قد رأينا الأهوال وقد انتهت لكنّ ما كان ينتظر الأرجنتين في نهاية عقد السبعينيات من القرن العشرين كان أسوأ بكثير من سابقه.

على الرغم من الأخطار المرتبطة بكنيتنا وبوضعي كمعتقل متّهم بالتخريب، جاءت أختي سيليا على عجلٍ إلى ديفوتو لدى سماعها خبر اعتقالي وسجني. أمّا أخي روبرتو، فقد قرّر مرّة أخرى أن يصبح محامي الدفاع عنّي. كان ذلك أمراً محفوفاً بالأخطار. كانت آلة القمع تهاجم أصلاً ذوي المعتقلين. منذ اعتقالي في المرّة الأولى، كان الإرهاب قد تزايد واشتدّ على نحو مضاعف. بدأت عمليات نفي أو إخفاء لمحامين مدافعين عن سجناء سياسيين. وكان بعضهم قد ضُرِب كالكلاب في الشوارع؛ بينما تمَّ اختطاف آخرين. كما مارس العسكر الكثير من الهجمات ضدّهم خلال «سنوات الرصاص» بحيث لم يبقَ منهم أحدٌ ليدافع عنّا. آخر اثنين من بينهم ممّن امتلكوا شجاعة المواجهة مع الخونتا العسكرية كانا المحامي بروكوين والمحامي آنجيل جيراردو بيساريلو. وقد تمَّ اختطاف هذا الأخير يوم الرابع والعشرين من شهر يونيو من عام 1976 ومن ثمّ أُضيف إلى قائمة من يُعدّون من «المفقودين». وبعد بضعة أيامٍ من اختطافه، عُثِرَ على جثّته المشوّهة وقد قيّدت يداه خلف ظهره. ورغم

كلّ تلك المخاطر، تشارك روبرتو مع محامية أخرى في روساريو، وهي ديليا رودريغيز آرايا، امرأة ذات شجاعة استثنائية، لكي يقوما بإعداد مرافعة الدفاع عني. كان ذلك بمثابة جهدٍ ضائع. كان يمكن لدعوى قضائية أن تستغرق ألف عام أو أن لا يتمّ النظر فيها على الإطلاق. لم يكن لنا أيّ ملاذ ولا أيّ حقّ. لم نعد أشخاصاً لنا وجود وكيان.

ذات يوم، قابلتُ فيفيانا. كان أصدقاء لنا قد اختارونا كي نكون إشبين وإشبينة وليدهم الجديد. أتاح لنا ذلك أن نعمّد الطفل في السجن وأن نجتمع لبضع دقائق فقط (وسرعان ما أصبحت هذه الحيلة غير ممكنة). فالتقينا على جرن المعمودية في المُصلّى. بعد ذلك، لم أعد أرى فيفيانا خلال ثمانية أعوامٍ وثلاثة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً وهي المدّة التي استغرقها اعتقالي.

كانت ظروف الاعتقال في السجون الأرجنتينية قاسية جدّاً. كانت السجون عبارة عن أمكنة قذرة تفوح منها روائح العفونة الكريهة. وكانت ظروف العيش في سجن ديفوتو على نحوٍ خاصّ مروّعة. كان أحد الأسباب الرئيسية للموت في السجن هو الإصابة بالوذمة الرئوية. كان الحرّاس والجلّادون يضربون بعنف ووحشية على صدر السجين بحيث تتسبّب الضربات بآفات وأضرار عميقة في الرئتين. كان عددنا كبيراً في الزنزانة الواحدة وكنّا مختلطين مع سجناء الحقّ العام الجنائيين والفساد في السجن رهيباً. كان من المفترض أنّ الميزانية الضخمة التي تتلقاها إدارة السجن من الدولة مخصّصة لتلبية احتياجات ثلاثة آلاف معتقل ولكنّ مسؤولي السجن بتراتبيتهم الوظيفية يضعون الأموال في جيوبهم ويتركوننا نهب الجوع ويبيعون كميات اللحوم المخصّصة لنا إلى متاجر اللحوم المحلية

ويبيع الحراس المثليين جنسياً ويسلّمونهم للمعتقلين الأثرياء ليتم اغتصابهم. كان السجناء السياسيون يحتجّون على هذه الممارسات القذرة. قمنا بإدانة هذه الممارسات واحتججنا عليها ولكن لم يتحرّك شيء. ولذلك اتّخذنا قراراً بأن نبدأ بإضرابٍ عن الطعام. ولكي يفكّوا إضرابنا، قاموا بنقلنا إلى سجون أخرى. كان السجناء السياسيون يربكون بطريقة ما تلك التجارات الرابحة للفاسدين. كنّا نثير ضجّة وكانت لنا اتصالات كذلك مع الخارج، والتي بإمكانها أن تفضح وتدين الوضع المزري في السجون. كان ذلك يزعج مدير السجن الفاسد وزمرته وبالتالي كانوا يفضّلون استقبال السجناء الجنائيين الأكثر ليونة وطاعة.

تمَّ نقلي مع رفاقٍ آخرين على متن طائرة عملاقة إلى سجن راوسون، قرب تريليو[1]، في باتاغونيا. كانت عملية «النقل» تلك بمثابة بداية لما أسميته سياحتي السجنية. خلال ثمانية أعوام، تمَّ نقلي خمس مرّات: من ديفوتو إلى راوسون ومن راوسون إلى ديفوتو ومن ديفوتو إلى لا بلاتا ومن لا بلاتا إلى سييرا تشيكا ومن ثم من سييرا تشيكا إلى راوسون من جديد. وكانت ظروف الاعتقال تتدهور أكثر مع كلّ عملية نقل جديدة.

كان سجن راوسون سجناً خاصّاً بالمحكومين الذين لا أمل في إطلاق سراحهم، هو نوعٌ من سجنٍ للأشغال الشاقّة غائر في أعماق أرضٍ باردة تضربها الرياح الجليدية للمحيط الأطلسي، على بعد ألف ومئة كيلومتر إلى الجنوب من بوينس آيرس. كانت عزلته تجعل من الزيارات إليه صعبة للغاية، حتى لا نقول مستحيلة تماماً. وكان

(1) إقليم شوبوت.

انقطاعنا عن أهلنا هو الهدف الحقيقي الذي كانوا يسعون إليه إضافة إلى تحطيمنا نفسياً وجسدياً وذهنياً.

في سجن راوسون، كان هناك ممثلون للدين، ولكن بأيّ طريقة! كان القسيس -الذي يحمل رتبة عسكرية- رجلاً ساديّاً يعاملنا على أننا إرهابيون وقتلة ويساريون أقذار بل كان يقوم باستجوابنا في استجوابات قاسية يستخدم فيها أحياناً عضلاته... وكلّ ذلك باسم الربّ. لحسن الحظّ، تمَّ استبداله بأسقف كومودورو ريفادافيا، المونسنيور مور الذي أقمتُ معه علاقة صداقة وطيدة[1]. كان آرجيميرو مور مسيحياً حقيقياً. في المرّة الأولى التي دعاني فيها إلى الاعتراف، اعترفتُ له بأنني ملحد. أجابني بأنّ ذلك ليس مهمّاً. لم يأتِ كهادٍ إلى الدين بل كإنسان يقدّم لنا إمكانية خوض حوارٍ إنساني ولطيف. كانت أغلبية المعتقلين يحرصون على الذهاب إلى القدّاس كلّ أسبوع لكي يستمعوا إليه.

كان الجهاز القمعي يزيد من مراقبته لزوّار السجناء، وكان كون المرء من أقارب أحد المعتقلين السياسيين يكفي ليتمّ التوقيع على حكم الإعدام بحقّه. لم يقم والدا فيفيانا بزيارتها في السجن أبداً. ولم يكن قد تمَّ نقلها مثلما تمَّ نقلي (في الحقيقة، أمضت سنواتها الثمانية من الاعتقال في سجن فيلا ديفوتو في الزنزانة رقم 90، في الطابق الثالث، في المبنى رقم 5، دون أن ترى الشمس ولا القمر على الإطلاق). ومع اشتداد النظام وقسوته وأصداء عمليات الاختفاء التي كانت تصلها، خافت على والديها وطلبت منهما مغادرة البلاد على الفور. كانا يعيشان في كوردوبا. وبدل أن يغادرا

(1) راجع الملحق 2.

البلاد إلى المنفى، انتقلا سرّاً إلى العيش في آفيلانيدا، وهي ضاحية من ضواحي بوينس آيرس -لم تعلم فيفيانا في أيّ حيّ من تلك الضاحية أقام والداها- وأمضيا حياتهما هناك بطريقة متخفية. ذات يوم من شهر أكتوبر من عام 1977، تلقّت إحدى صديقات طفولة فيفيانا، والتي كانت أيضاً معها في نفس الزنزانة، زيارة من ثلاثة شبّان إلى السجن. كانوا قد قدموا من آفيلانيدا ورووا كابوساً: كان والدهم قد اختفى بفعل موجة القمع ومن ثمّ لحقت به بعد عدّة أسابيع الصديقة التي استقبلتهم ورعتهم. فتكفّل بهما زوجان متقاعدان من الحيّ بعد تلك المأساة المزدوجة التي حلّت بهم. بعد ذلك ببضعة أيام، لاقى الزوجان نفس المصير المشؤوم. ومن شدّة الصدمة التي أصابتهم من جراء عمليات الاختفاء المتتالية، كان الشبّان قد نسوا اسم الزوجين. ولكن من خلال الاستماع إلى الحكاية والأوصاف التي قدّمها الشبّان، تملّك فيفيانا شعورٌ فظيع: كان الزوجان اللذان تحدّث الشبّان عنهما والديها. لم ينفع تحذيرها إذاً في أيّ شيء. كانا يبلغان الستين من العمر ولم يسبق لهما أن مارسا السياسة في حياتهما. عند إطلاق سراحها، علمت فيفيانا بأنّهما قد تعرّضا للاعتقال التعسّفي وأودعا مركز الاعتقال السريّ كامبو دي مايو، ومن ثم تمَّ تعريضهما للتعذيب وألقيا وهما على قيد الحياة من على متن طائرة في نهر ريو دي لا بلاتا. كانت هذه الأحداث قد وقعت في شهر سبتمبر من عام 1977. وقد علمتُ بها لدى خروجي من السجن.

تختلط اليوم ذكريات فترات اعتقالي مع بعضها. كان كلّ يوم منها يكاد يكون مطابقاً لسابقه. وأتذكّر منها على نحو خاصّ بعض

التواريخ الرئيسية وبعض المواقف الطريفة التي لا تُنسى. وأتمنى أن يسامحني القارئ إذا ما أوردتها اعتباطياً ودون ترتيب على الصفحات.

كان هناك ما قبل الانقلاب العسكري وما بعده. في عام 1975، كانت لدينا في السجن إذاعات وصحف ونتلقى الزيارات ولنا ساعات مخصّصة للتنزّه في باحة السجن. اعتباراً من الرابع والعشرين من شهر مارس من عام 1976، أُلغيت كلّ هذه الحقوق. شاهدنا تشديداً ملموساً في معاملة السجناء السياسيين. بدأت مجموعات عسكرية تنتشر منذ ذلك الحين في باحات السجن وهي تسدّد فوهات بنادقها صوب كوّات الزنازين. وتزايدت عمليات ضرب السجناء وتفتيشهم وتهديدهم وإهانتهم.

نزلتُ مرّتين في سجن راوسون. لم أفهم أبداً ماذا كنتُ أفعل هناك، ولا الفائدة والجدوى من كلّ عمليات النقل تلك. في الزيارة الثانية، حبسوني في زنزانة باردة مثل الجليد من دون حشية ومن دون غطاء، وأُصبتُ من جرّاء ذلك بداء الروماتيزم في المفاصل والذي لا زلتُ أعاني منه حتى يومنا هذا وتفاقم التهاب الكبد الذي كنتُ أعاني منه قبل اعتقالي.

قضيتُ ما مجموعه ثلاث سنوات ونصف في الزنزانة المنفردة. استغرقت فترتي الأطول من العزلة التامّة ستّة أشهر. كنتُ أمشي وأفكّر، لم يكن هناك شيءٌ أفعله سوى ذلك. كان الطعام الذي يُقدّم إليّ قليلاً جدّاً بحيث لم يكن كافياً لأستطيع أن أمارس التمارين الرياضية. فقدت الإحساس بالزمان والمكان وبما كان يحدث ليس في خارج السجن فحسب بل حتى في ممرّ السجن الذي يبعد عنّي بضعة أمتار فقط. من حينٍ إلى آخر، كانت تصلني معلومة. حينما

كان السجين يتواجد في الزنزانة المنفردة، معزولاً عن الآخرين، كنا ننجح في التواصل فيما بيننا سواءً من خلال المغاسل وسواءً من خلال الشقوق الموجودة في الجدران، وسواءً من خلال الرموز. حينما كنّا نفهم الرسالة، كنّا ننقر على الجدار نقرة واحدة، وإذا لم نفهمهما، فكنّا ننقر نقرتين. كانت حالات التفاعل والتواصل تلك، حتى إن كانت مختصرة وعلى فترات متباعدة، تمنعنا من أن نفقد عقلنا ونجنّ تماماً. ومع ذلك، بدأت أعاني من حالات هلوسة في فترة من الفترات. كانت إحدى الزنازين التي تمَّ حبسي فيها معتمة وذات زوايا مدوّرة، ولم يكن من المسموح لي أن أخرج منها. كانت في سقفها كوّة ضيّقة جدّاً بالكاد تسمح لي بأن أرى إن كان الوقت ليلاً أم نهاراً. في بعض السجون، كان الطعام يُقدّم عبر شقّ تحت الباب. لم يكن السجين يعرف مَنْ الذي يُقدّمه. في سجونٍ أخرى، كان حارسٌ يفتح الباب ولكنّه كان من الأفضل عدم رؤية وجهه. يقول فيكتور هوغو في إحدى رواياته إنّ آخر من يصبح إنساناً هو السجّان وليس السجين. لا شكّ كان هناك حرّاس أسوأ من سواهم ولكنّهم جميعاً كانوا يثيرون الرعب والترهيب. فلا بدَّ أن يكون لدى المرء ذهنية مشوّهة ومنحرفة حتى يختار هذه المهنة!

حينما لم نكن منعزلين في الزنازين المنفردة، كنّا متكدّسين في زنزانة واحدة. لم يأتِ أيّ شخص لزيارتنا في تلك الفترة. لم يعد هناك محامون لكي يدافعوا عن قضايانا. كانت لبعض المهاجع صالات مشتركة يُسمح لنا على نحوٍ عشوائي بأن نقضي فيها بعض الوقت. كان يحصل أحياناً أن ينسى أحد الحرّاس صحيفة في المغاسل. وكان الأمر يتعلّق غالباً بصحيفة يومية يعود تاريخ صدورها إلى عدّة أيام، ولكنّها كانت تتيح لنا أن نحصل على نتفٍ من

الأخبار. كما كنّا نسمع أخبار عمليات خطف واسعة عن طريق معتقلين جدد كانوا هم أيضاً ضحايا عمليات الخطف وينزلون في السجن بين حينٍ وآخر. كان الحظ يحالف بعضهم بأن يتحوّلوا إلى سجناء رسميين. كانوا يتحدّثون لنا عن عمليات الاختفاء والمجازر التي تُرتكَب. وكان آخرون يتبخّرون ولا يعود لهم من أثر. وأصبحنا ندرك شيئاً فشيئاً المستوى الذي بلغه القمع في البلاد.

على فترات متقطّعة ومنتظمة، كان جلّادون يدخلون إلى الزنازين لكي يقوموا باستجوابنا والتحقيق معنا، إن لم يأخذونا إلى غرفة للتعذيب. كانت لنا طريقة منهجية في تجنّب الكلام: كنّا نسميها «فمٌ مغلق، لا شيء». كان ذلك يعني أن نظهر في هيئة خالية من التعبير لأننا لم نكن نعلم أبداً ما الذي سوف يحدث. حينما كانوا يسألوننا: «هل قرأت هذا الكتاب؟»، كنّا نجيب: «كلا». «هل تمارس الرياضة؟ - كلا». كان الجلّاد يختم قائلاً: «يا لك من كسول. أنت لا تفعل أي شيء!».

ذات يوم، دخل كولونيل يرتدي زيّه العسكري الرسمي إلى الزنزانة التي كنتُ أتقاسمها مع معتقلٍ آخر. سأله: «هل أنت من حركة مونتونيروس؟» أجابه رفيقي في الزنزانة: «كلا، أنا بيروني». كان الفرق كبيراً. كانت حركة مونتونيروس مجموعة مسلّحة في حين أنّ البيرونية كانت حركة سياسية. أصرّ المحقّق إصراراً شديداً عليه. تمسّك زميلي المعتقل بتاريخه كبيروني. فجأةً، التفت الرجل نحوي: «وأنت، هل أنت عضو في الجيش الثوري الشعبي؟» أجبت على غرار رفيقي: «كلا، أنا اشتراكي». كانت الخدعة هي أن نُبقي الأمر غامضاً وأن لا نعترف بالانتماء إلى حزب سياسي محدّد.

كان يحدث أيضاً أن يثير المحققون مسألة صلة القرابة بيني وبين

إرنستو. كان الذين يعلمون بأنني شقيق تشي يأتون لمقابلتي. بدا أنّ ذلك يُشبع فضولهم. أصبحتُ الوحش العجيب. كان يمكن لذلك أن يلعب دوراً لصالحي أو ضدّي. كان من الصعب توقّع ردود الفعل لأنّ ذلك يتوقّف على السجّان أو الضابط العسكري.

ذات يوم، كنتُ وحيداً في زنزانتي في سجن سييرا تشيكا، انفتح الباب عليّ ليدخل رجلٌ يرتدي الزي الرسمي العسكري وعلى كتفه رتبة عسكرية. طلب من الحارس أن يتركنا لوحدنا. كانت المصطبة التي أنام عليها عبارة عن طبقة من الأسمنت. جلبوا لي حشيّة لمدّة اثنتين وعشرين ساعة ليأخذوها منّي في الساعة السادسة صباحاً. كان الجو بارداً للغاية. حينما يدخل عسكري أو حارس إلى الزنزانة، كان على السجين أن يقوم ويقف مستنداً إلى الجدار في صدر الزنزانة ويضع يديه خلف ظهره. بعد أن تمعّن طويلاً في هيئتي، قال لي الضابط: «استرح واجلس». جلس إلى جانبي. بدأ معي الحديث بالسؤال إن كنتُ أمارس الرياضة، وعن رأيي بالطعام الذي يُقدّم إليّ، وأمور من هذا القبيل. أجبت بكلمة «كلا» على كلّ سؤالٍ طرحه، كما كانت العادة. كنتُ أريد أن يخرج بأسرع وقت. لم يكن لدي أيّ شيء لأقوله لهذا الرجل القذر. حينما أدرك أنني سأثابر على صمتي، حاول أن يكسر الجليد صارخاً: «هكذا إذاً، أنت شقيق تشي!» وبدأ يلقي خطاباً مطوّلاً عن إرنستو. تحدّث لي عن فن حرب العصابات وعمّا يمثّله تشي وختم حديثه قائلاً: «يا له من رجلٍ استثنائي وعظيم شقيقك!»، ذُهلتُ لحديثه عن شقيقي بهذه الطريقة. كان ذاك الضابط مختصّاً في قمع التمرّد، وكان يعلم أنّ تشي قد كرّس حياته للكفاح ضدّ وحوشٍ وبهائم من أمثاله، باختصار، كان عدوّاً يكنّ إعجاباً شديداً به! في مرّة أخرى، أثناء

جلسة تحقيق، تحدّث الضابط منذ البداية عن تشي. قال لي: «يا لها من خسارة أن يختار شقيقك المعسكر الخاطئ والسيئ! لأنّه رجل قيم ومبادئ». وتابع وهو يروي لي كلّ ما يعرفه عن إرنستو، وكلّ ما قرأه عنه. لا يسعني أن أنكر أنّه كان ملمّاً بالموضوع...

ذات ليلة، أثناء نزولي الأوّل في سجن راوسون، جاؤوا يسألون عن أربعة معتقلين من بيننا. أخبرونا أنّهم سيأخذوننا إلى القاعدة الجوية في آلميرانتي زار دي تريليو ضمن «عملية نقل إداري». كنّا على قناعة بأنّهم سوف يقتلوننا. في تلك القاعدة، كان قد تمَّ قتل ثلاثة عشر سجيناً سياسياً يسارياً بشكلٍ جماعي في يوم الثاني والعشرين من شهر أغسطس من عام 1972. كانت إحدى الوسائل المستخدمة من قبل العسكر لرمي السجناء بالرصاص «شرعياً» هو التظاهر بأنّ السجناء قد حاولوا الفرار. وكانت الخونتا العسكرية قد سنّت في الواقع قانوناً حول حالات الفرار لتبرير هذا النوع من القتل. في لحظة من اللحظات، توقّفت العربة التي كانت تقلّنا إلى القاعدة الجويّة في مكانٍ مهجورٍ تماماً. كانت هناك عربة أخرى متوقّفة على قارعة الطريق وجميع أنوارها مطفأة. أنزلونا من العربة. نظرنا إلى بعضنا وفهمنا الموضوع. كنّا منهارين تماماً. سوف يتّهموننا بأنّنا حاولنا الفرار لكي يُطلقوا النار علينا ويقتلوننا.

في الحقيقة، أمرونا بأن نصعد إلى العربة الأخرى. حينما وصلنا إلى القاعدة الجوية، دفعونا إلى داخل طائرة صغيرة. ووجدتُ نفسي من جديد في سجن فيلا ديفوتو. وضعوني في زنزانة مع معتقلين آخرين. مع مرور السنوات، علمنا أنّ العسكر قد قسّموا السجناء السياسيين إلى ثلاث فئات: السجناء الذين يمكن إطلاق

سراحهم والسجناء الذين يصعب إطلاق سراحهم والسجناء الذين لا يمكن إطلاق سراحهم. كنتُ أنتمي إلى الفئة الثالثة بحسب تصنيفهم. لا بدَّ من القول إنني لم أكن سجيناً نموذجياً. كنتُ أحتجّ وأعترض من دون توقّف. ما الذي كان يمكنني فعله بخلاف ذلك مع التربية التي تلقيتها وأخي الذي كان يمثّل قدوة ومثالاً لي! فوجدت نفسي مرّة أخرى في زنزانة انفرادية. هناك، كلّ ثلاث أو أربع ساعات، كان السجانون يأتون إليّ ويأخذونني ويضعونني تحت الماء المتجمّد إلى أن أكاد أنفق برداً. ثمّ يُعيدونني إلى زنزانتي، مبلّلاً وشبه عارٍ. كان بين الحين والآخر، يأخذون منّي الحشية والغطاء ولا يقدّمون لي ما أسدّ به رمقي. كانت أيّ هنّة مهما كانت تافهة تنتهي بعقابٍ شديد، وكان غالباً عبارة عن ضربٍ وجلدٍ لكي تفقد توازنك وتنكسر. ولكن بالنسبة إلى غالبية المعتقلين من بيننا، لم يكن ذلك يفيد في شيءٍ معنا لأننا كنّا نمتلك قناعات راسخة: لم نكن مجرمين. ونعرف لماذا نحن في السجن. ولأننا استطعنا أن نبقى على تواصل مع بعضنا. لم يستطيعوا أبداً أن يمنعوا تواصلنا أو أن يحطّمونا. كنّا منظّمين داخل السجن، بل استطعنا أحياناً أن نتواصل حتى مع زملائنا المعتقلين من الأطباء.

خلال عملية نقلي الرابعة، اقتادوني إلى سجن لا بلاتا الذي يقع في إقليم بوينس آيرس. لا يمكنني حقّاً أن أصف ما كان خارج السجن: فقد وصلت إلى هناك ليلاً داخل عربة. وقد تمَّ استقبالنا بالضرب والركل. كان سجناً رهيباً، عبارة عن مكانٍ للتعذيب واعتقال المختفين قسراً. عزلوني عن بقية المعتقلين واقتادوني إلى مكتب مدير السجن. كانوا قد اختاروني مندوباً عن المعتقلين لكي يبلّغوني أنّهم لا يريدون إثارة المشاكل وأنّهم سيحافظون على حياتنا

وعلى بعض حقوقنا -وهو الأمر الذي سوف لن يفعله العسكر-، على الأقل إذا ما حافظنا على الهدوء وامتثلنا للأوامر. كان مدير السجن يرغب في أن يصل إلى التقاعد من دون مشاكل. في الواقع، سرعان ما تمَّ استبداله بضابطٍ عسكري. مع تزايد أعمال القمع، تحوّلت إدارات السجون تدريجياً إلى إشراف الجيش. كان عددٌ كبير من السجناء السياسيين، من أمثال عضوي حركة مونتونيروس هوراسيو رابابورت وأنجل جيورجيافيس قد اغتيلوا في سجن لا بلاتا، بزعم أنّهم قد حاولوا الفرار من السجن. كان المهجعان رقم واحد واثنان مخصّصين للسجناء غير القابلين لإطلاق سراحهم من أمثالي. كان الفصل صيفاً والحرارة حارقة لاذعة وكان علينا أن نرتدي الزيّ الخاصّ بالسجن، المصنوع من قماش سميكٍ يلتصق بجلدنا. وبالطبع كان من الممنوع أن نخلعه. اعترضت على ذلك وتمَّ إيداعي في الزنزانة الانفرادية. بدأت أعتاد على ذلك. في فصل الشتاء التالي، فعلوا العكس. وزّعوا علينا ألبسة رقيقة كنّا نتجمّد فيها ونرتعد برداً.

في ليلة الثاني والعشرين من شهر أغسطس، جاء السجّانون وأخذوا خمسة معتقلين من جناح العزل. كان لذلك التاريخ رمزيته بسبب مجزرة تريليو التي ذكرتُها قبل قليل. مرّة أخرى، استنتجنا من هذه الحركة أنّه سيتمّ رمينا بالرصاص، وفقدنا كلّ أمل بالنجاة حينما سأل الضابط الذي كان يرافقنا الحارس عن مكان تواجد أمتعتنا الشخصية وأجابه هذا الأخير بأنّه لن يعود لنا من حاجة إليها بعد الآن. كنّا قادمين من زنازين مختلفة ولكنّنا كنّا نعرف بعضنا البعض. لقد أدركنا أننا جميعاً معروفين تماماً من الناحية السياسية. كان هناك رفيق برازيلي وأحد قادة منظمة مونتونيروس وثائر سبق له أن قاتل إلى

جانب فيدل كاسترو في كوبا وقياديّ في الجيش الثوري الشعبي. وضعونا في عربة توقّفت بنا في أرضٍ مكشوفة.

مرّة أخرى، كانت هناك مركبة في انتظارنا، أضواؤها منارة هذه المرّة، متوقّفة على قارعة الطريق. هذه المرّة، كنّا متأكّدين من أننا سوف نموت. لم يحدث ذلك! لقد نقلونا إلى سجن سييرا تشيكا. علمتُ فيما بعد أنّ مجزرة قد وقعت بحقّ مجموعة من السجناء في تلك الليلة نفسها وأنّ مجموعتنا الصغيرة قد أُنقِذَت من تلك المجزرة في آخر دقيقة من قبل بعض الضباط لسببٍ ما زلتُ أجهله حتى يومنا هذا. لم نعرف قطّ لماذا تمَّ إنقاذنا آنذاك، ولكننا توصّلنا إلى خلاصة: في اللحظة التي كان سيتمّ فيها رمينا بالرصاص، تلقى شخصٌ ما أمراً معاكساً. كان لدى الضباط العسكريين مناطق نفوذ وعددها أربع مناطق على مستوى البلاد، مقسّمة هي الأخرى على 19 منطقة مصغّرة و117 قطّاع وقطّاع مصغّر. كان كلّ جنرال رئيساً لمنطقة وكان له الحق في حياة أو موت السجناء العائدين إلى هذه المنطقة.

أمضيتُ ثلاثة أعوام في سجن سييرا تشيكا (الذي كان يقع هو الآخر في مقاطعة بوينس آيرس). كان سجناً على شكل مروحة، وهو قديم جدّاً ومخيف، فيه اثنا عشر جناحاً طول كلّ واحدٍ منها مئة متر. كان قد بني في عام 1890، قبل استخدام الكهرباء، قريباً من بلدة تُدعى أولافاريا، وسط حقول ومناجم المعادن التي كان المعتقلون يعملون فيها. في وسط كلّ جناح، كان هناك باحة تطلّ عليها نوافذ الزنازين. كانت إحدى خصوصيات ذلك السجن هي أنّ نوافذه مزوّدة بمصاريع حديدية تصدر ضجيجاً لا يُطاق وتعطي الانطباع بأنّك في سجنٍ للأشغال الشاقّة وذلك لمنع المعتقلين من

محاولة قطع القضبان الحديدية للنوافذ. كانت الزنازين مقعّرة وجدرانها بسماكة 80 سنتمتراً وأبوابها مصنوعة من الخشب وفيها فتحات ضيّقة لتقديم الطعام، ويوجد في الزنازين مرحاضٌ وصنبور ماء. كان يمكن للمعتقل أن يمضي أسبوعاً كاملاً من دون أن يخرج من زنزانته. كنتُ أتقاسم زنزانتي مع زعيم منظمة «الشباب البيروني» خوان كارلوس دانتي «إيل كانكا» غولو، وقد أصبح فيما بعد نائباً برلمانياً موالياً للرئيس كيرشنير، والذي اعتُقِلَت أمّه تعسفياً ومن ثمّ شقيقه أيضاً وأصبحا في عداد «المفقودين» أثناء فترة اعتقالنا.

كان الجناح رقم 12 هو «جناح العقاب». كان معزولاً تماماً عن الأجنحة الأخرى. وكان الجناح رقم 11 هو «جناح الموت». لم تعد لدينا أسماء: أصبحنا مجرّد أرقام. كنتُ الرقم 449. في فترة من الفترات، سمحوا لنا أن نخرج إلى الباحة المركزية لثلاث مرّات في الأسبوع، إلّا أنّه لم يكن لنا الحقّ في أن نمشي في مجموعات أو أن نقترب من النوافذ أو نتوقّف عن المشي. حينما كان أيّ تفصيل صغير يخرج هذا النظام الآلي الصارم عن مساره، كان السجّانون يدخلون إلى الزنازين ويخرّبون كلّ شيء ويرشّون المعتقلين بالماء المثلّج، وهي «الحمامات» الوحيدة التي كان لنا الحقّ فيها في سجن سييرا تشيكا. في يوم الرابع والعشرين أو يوم الحادي والثلاثين من ديسمبر من عامٍ لا أتذكّره، كنتُ أتقاسم زنزانة مع معتقلين آخرين. مرّ السجّانونَ لرؤيتنا. وجدوا بعض السكاكر في زنزانتنا. لم أعد أتذكّر كيف وصلت تلك السكاكر إلى أيدينا. جنّ جنونهم لذلك وبالطبع تمَّ وضعنا في زنازين انفرادية.

في الخارج، كانت الحرب القذرة قائمة على قدمٍ وساق. كانت

بعض التنظيمات المسلّحة مثل مونتونيروس قد أصبحت راديكالية متشدّدة، وأصبحت عقوبة الخيانة الموت. كانت هذه المجموعات تعتبر اعترافات السجين مثلاً خيانة، حتى إن انتُزِعَت هذه الاعترافات من السجين تحت التعذيب. كانت الأرجنتين تعيش حقبة من الوحشية الفظيعة، حلقة جهنّمية يستدعي فيها كلّ موت حالات موت أخرى. ذات يوم، جلبوا أحد الأعضاء في جماعة مسلّحة وكان قد تحدّث تحت التعذيب وأدلى باعترافات ضدّ رفاقه. حكمت عليه المنظمة التي ينتمي إليها بالموت. تركه الضباط العسكريون في قفص الأسود الهائجة، وسط المعتقلين، لكي يقتلوه. أصبح في حالة مزرية، بين تعذيب البعض وتهديد البعض الآخر. وجدت مجموعة من السجناء، كنتُ أيضاً جزءاً منها، في هذا الأمر قسوة ووحشية لا تُقبل، فقرّرنا أن نحميه ونبقيه في منأى عنهم وذلك من خلال تشكيل حلقة حماية من حوله. كان الحرّاس ينتظرون بفارغ الصبر أن يقتله الآخرون. ولكننا كنّا حذرين ويقظين. لم نتركه أبداً لوحده. فاستعاد شيئاً فشيئاً قواه. وذات يوم، انتحر بقطع حبل وريده. شرح لنا زميل معتقل مختصّ في الطبّ النفسي أنّه كان من الضروري بالنسبة إلى هذا السجين أن يستردّ عافيته قبل أن يقرّر أنّ حياته لم تعد تستحقّ عناء العيش. لقد هزّنا موته.

تدهورت صحّتي. عانيتُ من الفتق والتهاب الزائدة الدودية بالإضافة إلى التهاب المفاصل الروماتويدي. أجروا لي عمليتين جراحيتين. مرّة في سجن سييرا تشيكا ومرّة أخرى في سجن راوسون. تعرّضت لنوبة قلبية بينما كنتُ راقداً في المستشفى.

كنّا نتبادل الرسائل بيننا كمعتقلين من خلال كتابة أحرف كبيرة على السكاكر التي كنّا نحتفظ بها في أفواهنا. وكانت هذه الرسائل

تُنقَل غالباً في غرفة التمريض. كنّا ننتظر اللحظة المناسبة حيث لا أحد ينظر إلينا وننقل السكاكر التي تحمل الرسالة. كانت عملية التواصل بطيئة ولكنّها مجدية. حينما نقلوني إلى المستشفى لكي يجروا لي العملية الجراحية في المرّة الأولى، كانت واحدة من تلك السكاكر في فمي. كنتُ ضعيفاً جدّاً ومنهكاً للغاية. قاموا بتخديري. حينما استيقظت من تحت تأثير المخدّر، محاطاً بحارسَين، لم يكن أوّل سؤال سألتُه في نفسي عمّا إذا كانت العملية قد تمّت بنجاح وإنّما إن كانت لا تزال السكّرة في فمي. كانت لا تزال تحت لساني!

تمَّ نقلي مرّة أخرى إلى سجن راوسون، وكانت تلك آخر وأطول رحلة سياحية لي بين السجون. كنّا في عام 1979 وقد أمر العسكر بعملية نقل واسعة النطاق للسجناء السياسيين بين سجنَي سييرا تشيكا وراوسون. هبطت الطائرة العملاقة التي تقلّنا من جديد في القاعدة الجوية الشهيرة آلميرانتي زار دي تريليو. حينما وصلنا إلى السجن، صرخ أحد الحرّاس: «آه، أرى أنّهم قد عاملوكم معاملة حسنة في سييرا تشيكا!» كانت تلك سخرية قاسية جدّاً: كنّا نتضوّر جوعاً.

مع ذلك، وعلى الرغم من كلّ المعاملة السيئة معنا، بدأنا نؤمن بأنّنا سوف ننجو ذات يوم من الجحيم. كان السؤال متى سيكون ذلك. كان يمكن لعملية التطهير أن تستمرّ وقتاً أطول، لكنّ الأمور سارت وتطوّرت في الاتجاه الصحيح. بفضل النشاط الذي قادته أختي سيليا في أوروبا، تلقيتُ ثلاث زيارات متعاقبة، زيارة من القنصل النمساوي في بوينس آيرس وزيارة من منظّمة للدفاع عن حقوق الإنسان وزيارة أخرى من منظمة الصليب الأحمر الدولي. وإذا كان حجم ووحشية القمع في البلاد قد بديا وكأنّهما يفلتان من

فطنة ونباهة الصحافة الوطنية، فالأمر لم يكن كذلك في الخارج. كان أرجنتينيون في المنفى يكافحون دون هوادة من أجل قضيتنا، ويفضحون الظروف غير الإنسانية في السجون. إلى درجة أنّ الخونتا العسكرية أُرغِمَت في النهاية على أن تسمح بالتفتيش الجزئي على سجونها. كان العسكر يفكّرون في أن يضربوا عصفورين بحجر. كانوا يعتقدون بأنّ اعتقال هذا العدد الكبير من السجناء السياسيين سوف يبرهن على أنّ الإشاعات عن عمليات الحبس غير الشرعي خاطئة. بالطبع، لم يفسّر وجودنا في أيّ شيء حالات اختفاء عشرات الآلاف من الناس الذين سوف لن يراهم أحد مرّة أخرى وإلى الأبد والذين لم يتمّ تسجيل أسمائهم وتوثيق ملفات اعتقالهم في أيّ سجنٍ من سجون البلاد. كان المفقودون قد فُقِدوا بالمعنى الدقيق للكلمة. كانت حرب جزر المالوين[1] -التي اندلعت في الثاني من شهر أبريل من عام 1982- بداية النهاية بالنسبة إلى الخونتا العسكرية. كان كلّ شيء في البلاد يسير من السيئ إلى الأسوأ. انتهت سياسة خوسيه ألفريدو مارتينيز دي هوز وزير الاقتصاد في حكومة الدكتاتورية بكارثة على البلاد. سعى الجنرالات إلى إثارة العصب الوطني للمواطنين من خلال حشدهم خلف غزو غبي وغير مسؤول للجُزر البريطانية، معتقدين أنّهم بذلك سوف

(1) تُسمّى حرب الفوكلاند أو حرب جزر الفوكلاند وأيضاً حرب المالفيناس، اندلعت يوم 2 أبريل 1982 بعد اجتياح الأرجنتين عسكرياً لجزر الفوكلاند (جزر المالوين) قصد تحريرها واسترجاعها، إلا أن بريطانيا لم تتخلَّ عن هذه الجُزر، فدخلت بأسطولها البحري والجوي في حرب مع الأرجنتين وأنهت الحرب لصالحها يوم 14 يونيو 1982، وأعلنت نهاية الحرب رسمياً يوم 20 يونيو 1982. -المترجم-

يجعلونهم ينسون القمع والتضخّم المالي المتسارع والمشاكل الاجتماعية الهائلة التي كانت تعصف بالبلاد آنذاك. بعد سبعة أعوام من الدكتاتورية العسكرية، أصبحت الأرجنتين مستنزفة بالكامل. علاوة على كونهم قتلة، كان الجنرالات يفتقرون إلى الكفاءة والأهلية. لقد فشلوا فشلاً ذريعاً. وسوف تنتهي حرب جزر المالوين العبثية بهزيمة نكراء ومهينة بعد أربعة وسبعين يوماً من اندلاعها. لقد استخفّت الخونتا العسكرية استخفافاً كبيراً بردّ فعل البريطانيين والأميركيين. فمن جهة، اعتقدوا أنّ لدى رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر شؤون أهمّ من الدفاع عن جزر المالوين البعيدة، ومن جهة أخرى، كانوا مقتنعين بأنّ الرئيس الأميركي رونالد ريغان سوف يدعم حليفته الأميركية الجنوبية، أو في أسوأ الأحول، سيبقى على الحياد في هذا النزاع، لكن الأمر لم يكن كذلك.

لقد تحدّد مصير الخونتا العسكرية بانهيار قواتها العسكرية التي مات بعض جنودها جوعاً بسبب عجز قيادتهم في تزويدهم بوسائل العيش. أمّا مصيرنا نحن فقد كان في طريقه إلى التحسّن. إلا أننا كنّا نجهل ذلك، لأنّ الدعاية المتواصلة التي تمَّ إخضاعنا لها كانت تتحدّث بالطبع عن الانتصارات المتكرّرة لجيشنا، عن انتصارٍ وشيكٍ وحاسم. منذ بدء عملية الغزو، فجأة أصبح لنا الحقّ في الاستماع إلى المذياع من جديد!

كان الموقف الأكثر سوريالية بالنسبة إلي هو رؤية بعض السجناء السياسيين وهم يدافعون عن جلّادينا، بذريعة الروح الوطنية، كما توقّعت الخونتا العسكرية. تسبّبت حرب جزر المالوين بانقسام صفوفنا. كان أولئك السجناء يقولون إنّه يجب دعم ومساندة جيشنا ضدّ الإمبريالية البريطانية؛ بل كان هناك من يريد الذهاب إلى التطوّع

في صفوف الجيش والانضمام إلى جبهة القتال! كنّا نسبح وسط الهذيان! كانت هذه الحرب جنوناً إضافياً من الزمرة الفاشية في السلطة!

بعد الهزيمة، بدأنا فجأةً نتلقى زيارات من قبل محامين ومنظمات الدفاع عن حقوق الإنسان وسواها. أدركنا أنّ هناك انفراجاً وتخفيفاً للضغط. ومن ثمّ في صبيحة العاشر من شهر مارس من عام 1983، جاء حارسٌ للقائي لكي يقول لي: «لملم أمتعتك الشخصية. سوف تغادر». اعتقدتُ أن تلك مزحة سيئة، كذبة. ولكن بعد بضع دقائق، أحضروا أمتعتي. لم أكن أعرفها ولكنّها سافرت معي. لم يكن ينقص منها أيّ شيء.

أيام إطلاق السراح من السجن

خرجت من سجن راوسون وفي جيبي ستّة وعشرون بيزو وبطاقة ركوب الحافلة من تريليو إلى روساريو مقدّمة من إدارة السجن. لم يكن أحد في انتظاري لدى خروجي من السجن. كانت كلّ عائلتي قد نُفيَت إلى كوبا أو إسبانيا. كان أخي روبرتو يقود من شبه الجزيرة الإيبيرية منظّمة تُدعى موديبا (Movimiento democrático popular antiimperialista – MODEPA)، وكانت هذه المنظمة أحد آخر الفروع المتبقية من الجيش الثوري الشعبي الذي اختفى وتلاشى تحت وطأة حملات القمع. كانت أختي سيليا لا تزال تناضل في أوروبا في سبيل إطلاق سراح السجناء السياسيين.

كان مبلغ ستّة وعشرين بيزو مبلغاً زهيداً. أنفقته في شراء زجاجة من النبيذ وسافرت بالحافلة إلى روساريو. بفضل الاتصال مع أحد الأصدقاء عرفت مكان تواجد فيفيانا. كان قد تمَّ إطلاق سراحها وكانت منهمكة في مواجهة مأساة اختفاء والديها.

كان إطلاق سراحنا مشروطاً، إذ لم يكن لنا الحقّ في التنقّل داخل البلاد، فما بالكم بالسفر إلى الخارج، من دون أن نحصل على إذنٍ قضائي. في روساريو، اتّصلت مع محامية عملت على

ترتيب أموري بحيث أستطيع الإقامة في بوينس آيرس ومن ثمّ السفر إلى كوبا لكي ألتقي بعائلتي هناك. كنّا نقيم، فيفيانا وأنا، في حيّ سان تيلمو القديم. وأوّل شيء قمنا به هو زيارة شقّة والدَي فيفيانا في آفيلانيدا. وجدنا الشقّة على حالها كما تُرِكت في اليوم الذي تمَّ فيه اعتقالهما تعسفياً. كانت لحظة رهيبة بالنسبة إلى فيفيانا.

كنّا مراقَبَين ليلاً ونهاراً. وكانت سيارة فيها شخصان تقف على الدوام في شارع بيتنا. كان العسكر لا يزالون في السلطة وعمليتهم التي أسموها إعادة التنظيم الوطنية مستمرّة[1]، حتى إن كانت أيامهم قد باتت معدودة آنذاك. هدأت عملية القمع ولكنّها كانت تثور بين حين وآخر على نحوٍ مفاجئ. بعد إطلاق سراحي بعدّة أيام، تمَّ اعتقال اثنين من رفاقنا تعسفيّاً ومن ثم تمَّ الإعلان عنهما على أنّهما مفقودان.

كنتُ مسكوناً بشعورٍ من اليأس والإحباط والفشل. كان قد تمَّ القضاء على كلّ جهد ثوري ولم يبقَ له من أثر. كان ذلك فشلاً ذريعاً. كانت الخونتا العسكرية قد تسبّبت بفقدان وإخفاء ثلاثين ألف شخص؛ وتمَّ اعتقال وسجن عشرة آلاف آخرين بسبب أفكارهم وآرائهم؛ وغادر عشرات الآلاف من الأرجنتينيين إلى المنافي. وقد ولّد إرهاب الدولة رعباً ومناخاً مروّعاً. كان هناك الكثير من عمليات الوشاية!

لقد تغيّرت الأرجنتين تغيّراً عميقاً. وكانت الشبيبة مرعوبة ومرهقة وغير منظّمة وبلا مستقبل وبلا أمل وبلا رغبة في الحياة. كان

---

(1) كان رينالدو بيغنوني آخر رئيس من الخونتا العسكرية. وقد تمَّ استبداله بالرئيس راؤول ألفونسو. منذ استقالة رفائيل فيديلا، توالى أربعة رؤساء على السلطة خلال عامين.

ذلك هدراً رهيباً للطاقة بالنسبة إلى البلاد. وكانت منظماتنا السياسية والنقابية مستنزفة ومنهكة تماماً. في السجن، كانت لدينا فكرة غامضة عن حجم الكارثة التي حلّت ببلادنا في أثناء غيابنا، ولكن لم يكن بين أيدينا أيّ شيء ملموس يثبت لنا ذلك. لقد عشنا «سنوات الرصاص»(1) مسجونين ومقطوعين عن العالم. أدركنا، فيفيانا وأنا، شيئاً فشيئاً، أنّنا كنّا محظوظين جدّاً لكوننا قد اعتُقِلنا قبل أن يتحوّل القمع إلى آلة وحشية تلتهم كلّ شيء دون رحمة. كان الاعتقال قاسياً جدّاً، ولكن بقي أقلّ وطأة مقارنة بأولئك الذين تمَّ اختطافهم وتعذيبهم وإلقاءهم أحياء من الطائرات في المحيط أو في نهر لا بلاتا، وبأولئك الذين تمّت إبادة عائلاتهم بالكامل فقط لمجرّد وجود صلة قرابة لهم بأحد «المخرّبين». أمام هذه الوحشية التي عانى منها عشرات الآلاف من الضحايا، لا يشكّل اعتقالنا علامة فارقة في التاريخ. بالنسبة إلى العسكر، كان السجناء السياسيون عبارة عن غنائم حرب.

علمنا أنّ قبل حرب جزر المالوين في الثلاثين من شهر مارس من عام 1982، كانت هناك عملية تعبئة واسعة وعفوية في البلاد. كانت الأمور كلّها تسير على نحوٍ سيئ. كانت نسبة التضخّم السنوي قد بلغت 924%. وكانت أعداد أمّهات المفقودين، «أمّهات بلازا دي مايو الشهيرات» تتزايد وتتضخّم. بات من المستحيل تجاهل هؤلاء النساء الشجاعات اللواتي كنّ يجلن في حلقات دائرية في

---

(1) سنوات الرصاص هو مصطلح يُطلَق على فترات من حكم الأنظمة القمعية التي تشتدّ فيها انتهاكات حقوق الإنسان وتشهد عمليات تصفية دموية للمعارضين تقوم بها الأجهزة والمنظمات السرّية التابعة للسلطة. -المترجم-

ساحة مايو وهنّ يضعن على رؤوسهنّ الغطاء الأبيض. كنّ يطالبن بعودة أبنائهنّ أحياءً أو يعرفن، في أسوأ الأحوال، ما الذي جرى لهم وما هو مصيرهم وفي أيّ ظروفٍ ماتوا وعلى أيدي من قُتلوا وأين أخفيت جثثهم. كانت القوى العاملة من جهتها تنشط وتثور. بلغت نسبة البطالة في البلاد أعلى مستوياتها ولم تحصل زيادة على الرواتب منذ عدّة سنوات على الرغم من أنّ معدّلات التضخمّ استمرت في القفز إلى مستويات قياسية. كانت حرب جزر المالوين محاولة -فاشلة- في استرداد القوى واستعادة زمام المبادرة من جديد. كانت السلطة تفلت من بين أيدي العسكر.

كانت العزلة المفروضة على السجناء السياسيين بمثابة درسٍ وتعليمٍ لهم. كان أمامنا خياران لا ثالث لهما: إمّا أن نشعر بأنّنا محبطين ومنهارين بفعل الهزيمة وبالتالي نصبح غير فاعلين ويتفاقم ضياعنا ويأسنا، وإما أن نُبدي تفاؤلاً ونحافظ على الإلهام الذي كنا ننضح به قبل الكارثة التي حلّت بنا. في نهاية المطاف، برزت الحالتان بين السجناء. ظهرت حالات كثيرة من الانتحار والإحباط في صفوفنا وتخلّى عددٌ من رفاقنا عن النضال وعن أفكارهم. إلا أنّ هؤلاء لم يكونوا الأغلبية في صفوفنا.

لدى العودة إلى بوينس آيرس، قمتُ بزيارة إلى ابنة عمّتي هيرسيليتا، وهي ابنة إحدى شقيقات أبي. كانت متزوّجة من رجلٍ ثريّ ينتمي إلى الطبقة البرجوازية العليا، وهو أحد أبناء عائلة كاساريس المالكة لمصنعٍ لإنتاج مشتقّات الحليب كان يُدعى مارتونا. حينما سمعا خبر إطلاق سراحي من السجن، وجّها إليّ دعوة لتناول العشاء في منزلهما. حينما وصلتُ إلى بيتهما، طرحت

عليّ هيرسيليتا سؤالاً وجدته ساخراً إلى حدّ الهلوسة: «الآن والحكومة العسكرية على وشك الرحيل، ما الذي ستفعلونه أنتم المخربون؟» لم أفهم شيئاً من سؤالها. صُدمتُ للغاية بمفاهيمها القاصرة. كنتُ قد أمضيتُ ثمانية أعوام في السجن وابن خالها إرنستو قد مات وتمَّ نفي بقية أفراد العائلة، ومن بينهم خالها (والدي) وكان هذا السؤال كلّ ما وجدته لكي تطرحه عليّ! أجبتها: «لقد قام العسكر بانقلابٍ عسكري. يبدو لي واضحاً أنّهم هم المخربون، أليس كذلك؟ وبالتالي لماذا لا تتّصلي بأحد العسكريين وتطرحين عليه هذا السؤال؟» وبعد أن أسمعتها هذه الكلمات، صفقتُ الباب وخرجت من بيتها. بعد ذلك ببضعة أيام، اتّصل بي أحد أعمامي. كان عجوزاً يشارف على الموت وكان قد تصرّف بنذالة بعد اختفاء إرنستو واعتقالي. اتّصل بي ودعاني إلى بيته لكي ينال الصفح والعفو منّي. توسّل إليّ قائلاً: «امنحني الطريق لكي أصل إلى الجنّة». قلتُ له أن يغرب عن وجهي ويذهب إلى الجحيم. لم يعد لدي الصبر على تحمّل هكذا نماذج من الشخصيات.

بعد أن صرفت الستّة وعشرين بيزو التي كانت بحوزتي، لم يعد في جيبي حتى كوبيكاً واحداً. أمّنت لي أختي سيليا اتصالاً مع شخصٍ يُدعى شوفاليه، وهو رجلٌ سويسري كان قد قدّم لها الدعم والمساندة أثناء إطلاقها حملة للدفاع عن السجناء السياسيين. أرسل إلي شوفاليه شيكاً بخمسين فرنكاً سويسرياً. كنتُ مشوّش الذهن للغاية وأجهل الشعارات المختلفة للمؤسسات بعد ثمانية أعوامٍ من الاعتقال إلى درجة أنني دخلتُ إلى فرعٍ للبنك السويسري في جادة كورينتيس، معتقداً أنني أستطيع أن أصرف الشيك وأقبض أوراقاً

نقدية. صعدتُ إلى مصعدٍ وقد فوجئتُ بحداثته وإنارته التي أضاءت حالما دخلتُ إلى مقصورته. اعتقدتُ أنّ على المرء أن يُطفئ أنوار المقصورة قبل مغادرته المصعد نحو وجهته، لم أكن أفهم شيئاً. في البنك، توجّهتُ إلى رجلٍ في منتهى الجدّية ويرتدي بذلة رسمية وقلتُ له إنّ لديّ فرنكات سويسرية. سألني الرجل: «كم المبلغ؟» وهو يعتقد بكلّ تأكيد أنّ الأمر يتعلّق بمبلغ ضخم. قلت: «خمسون». نظر إليّ نظرة ارتياب. لقد اعتبرني بكلّ تأكيد رجلاً أبلهاً وأرسلني إلى مكتبٍ لتحويل العملات. ظلّ شوفاليه يرسل إليّ نقوداً إلى أن تحسّنت أحوالي بعض الشيء.

ما أن تلقيت الإذن الإداري بالسفر، غادرت على الفور إلى كوبا. كان أطفالي مارتن وبابلو وآنا قد كبروا مع والدتهم أثناء غيابي عنهم. كانوا قريبين من أطفال إرنستو. كان والدي قد تزوّج من جديد من فنّانة أرجنتينية تصغره سنّاً وأنجب ثلاثة أطفال. أمضيتُ عدّة أسابيع في هافانا، اتّصلت خلالها مع بعض الناشرين بفضل جهود أختي سيليا التي كانت لديها شبكة واسعة من العلاقات. كانت تلك التجربة حلوة ومرّة في آنٍ واحد. أثناء فترة غيابي، كان تشي قد أصبح شخصية تاريخية ورجلاً أسطورياً باتت مآثره تُدرّس في المدارس. أن يكون المرء شقيقاً لتشي كان يفتح كلّ الأبواب أمامه، على العكس تماماً ممّا كان عليه الأمر في الأرجنتين!

قرّرتُ أن أبيع وأنشر كتباً كوبية لم تكن موجودة إلى ذلك الحين في الأرجنتين. كانت عائلتي تمتلك صلات وروابط قويّة ووثيقة جدّاً مع كوبا. كان فيدل يعاملنا كما لو كنّا من أفراد أسرته.

كانت تلك طريقته في تكريم صديقه المفقود. أتاحت لي هذه العلاقات المتميّزة أن أصل إلى العالم الثقافي الكوبي.

عدتُ إلى بوينس آيرس مسبوقاً بأطفالي لفترة قصيرة والذين عادوا من جديد وبسرعة إلى كوبا، حيث ارتبطت حياتهم بها. سقطت الدكتاتورية العسكرية في الأرجنتين.

بدأت حينذاك بالعمل في مكتبة تقع في جادة كورينتيس، وهي إحدى أكثر الشرايين التجارية في بوينس آيرس، مع صديقي كارلوس داميان هيرنانديز، وهو ناشر وصاحب مكتبة. تلقيت آنذاك اتّصالاً من الملحق التجاري في السفارة الكوبية وبهذه الطريقة بدأت ببيع الكتب الكوبية غير المنشورة سابقاً وأصبحتُ وكيل معهد الكتاب والمنشورات الكوبية. ومن ثم افتتحنا مركزاً ثقافياً وأسميناه نيوسترا أميركا. وقد حالفنا النجاح مباشرةً. كان الحديث عن الثورة الكوبية قد مُنِع منذ زمنٍ طويل بحيث كان الأرجنتينيون متعطّشين لمعرفة الكثير عنها. كانوا يرغبون في أن يعيدوا بناء ذاكرتهم عنها. قمتُ بتنظيم مهرجانٍ للكتاب وقد حضرته حشودٌ غفيرة من الناس. كان الناس يتوافدون على المهرجان ويتصفّحون الكتب بصمت، غير قادرين على التحدّث أو التعبير عن رأيهم، فقد علّمهم القمع المديد أن يبقوا ساكتين. مرّ علينا الكثير من الدكتاتوريين ومن موجات القمع والاضطهاد بحيث لم يكونوا يعلمون إن كانت هذه الديمقراطية الجديدة ستستمر طويلاً أم لا. كان ذلك أمراً مرعباً.

حينما وصلت أخبار نجاح المهرجان إلى الاتحاد السوفيتي، طلبت الحكومة السوفيتية مني أن أفعل نفس الشيء في موسكو. رفضتُ الدعوة إذ لم يكن لدي أيّ شيء أفعله في ذلك البلد المتعصّب وضيّق التفكير. فضلاً عن ذلك، كان تشي قد استنكر سياسات اتحاد الجمهوريات السوفيتية بل توقّع انهيار ذلك الاتحاد. وكان قد أطلق عليه اسم «كورتيزون» نسبة إلى اسم الدواء المسكّن.

بحسب رأيه، كانت الشيوعية على الطريقة السوفيتية قد انحرفت عن مسارها وبالتالي لم يعد لها أي معنى أو مضمون. وكان قد قال في تصريحٍ إلى الصحافي جان دانييل: «إذا لم تهتم الشيوعية بعناصر الوعي فيمكنها أن تكون طريقة لإعادة التوزيع ولكنّها بالتأكيد لن تعود أخلاقاً ثورية»[1].

شيئاً فشيئاً، بدأتُ أبيع منتوجات كوبية أخرى غير الكتب: شراب رم ومربّيات الجوافة والسيجار، أي بشكلٍ رئيسي المنتوجات التي لم تكن تُباع من قبل في الأرجنتين. اعتباراً من تلك الفترة، تسارعت كلّ الأمور. فقد أصبحتُ المستورد الأوّل للسيجار الكوبي. ثمّ اقترحت عليّ شركة هابانوس ش. م. الكوبية أن أصبح شريكاً فيها بحصّة كاملة، وبعد ذلك أصبحتُ أحد نوّاب رئيس الشركة. أصبحتُ أتنقّل بين بوينس آيرس وهافانا. أتاح لي بيع السيجار الكوبي فرصة مواصلة بيع الكتب ونشرها. أصبحتُ رجل أعمال. كنتُ أستورد الملايين من السيجار الكوبي الذي أبيعه في ألف وخمسمئة مركزٍ للبيع من شمال البلاد إلى جنوبها وصولاً إلى أوشوايا في محافظة أرض النار. تعلّمتُ فنون التسويق والترويج. فكّرتُ في أن أنصب صناديق هوميدور الخشبية الخاصّة بالسيجار في محطات الوقود والأسواق الحرّة والأكشاك ومحلّات السوبر ماركت. جلبت من كوبا لفّافي السيجار الذين يقدّمون عروضاً في لفّ السيجار؛ كما غيّرت مظهر السيجار لكي يصبح أكثر جاذبيةً: وضعته في أنابيب أنيقة من الألمنيوم أو غلّفته في ورق السلوفان.

---

(1) جان دانييل، «مسألة عائلية، إلى أين وصلت كوبا؟ تشي جيفارا يجيب على أسئلة جان دانييل»، **الإكسبريس**، 25 يوليو 1963.

بعد ذلك، في عام 2000، بيعت 40% من أسهم شركة هابانوس ش. م. للإسبان من أصحاب شركة ألتاديس ووضعتُ حدّاً لتعاوني معها. لم أكن موافقاً على بيع الأسهم. كان الوضع آنذاك معقّداً جدّاً في كوبا. ذات يوم، اكتشفت بالصدفة منتوجاً ممنوعاً في شحنة من السيجار كانت قادمة من شمال البلاد ومتّجهة نحو أوروبا. اعتقدت أنّ تلك المادة هي كوكايين إلّا أنني لم أكن متأكداً من حقيقة الأمر. سألتُ صديقاً كانت لديه علاقات مع مسؤولين في الجمارك إن كان يمكنه طلب إجراء تحقيق في الموضوع. ردّت الجمارك بأنّها تحتاج إلى أموالٍ لإجراء التحقيق حول هذا الموضوع. فدفعتُ المبلغ المحدّد. بعد ذلك بثلاثة أيام، ضرب لي صديقي موعداً. أعاد إليّ المبلغ الذي دفعته وقال لي: «لا يريدون أن يفعلوا أيّ شيء ولا أن يعرفوا أيّ شيء». كان من الغريب أن لا تكتشف الكلاب البوليسية للجمارك أيّ شيء. علاوة على ذلك، تأكّدت من أنّ السيجار أيضاً لم يكن أصلياً: كانت كمية من السيجار المغشوش والمهرّب! كان ذلك أمراً مقلقاً بالنسبة إلي.

بفضل الأموال التي كسبتها من خلال شركة هابانوس ش. م. قرّرتُ أن أفتتح في حيّ لاس كانيتاس في بوينس آيرس محلّ إيبيكوريوس، وهو محل استخدمته كمقهى ومطعم وحانة لبيع الخمور والسيجار. كانت مبادرة متواضعة استمرّت لمدّة ستّة أعوام والتهمت كلّ حياتي وكلّفتني كلّ مدّخراتي الاقتصادية. لم ينجح العمل لقلّة الزبائن. لم تؤلمني خسارتي للمبلغ الكبير من المال الذي ذهب هباءً بقدر ما آلمني الشعور بالفشل. بعد عدّة أشهر من خروجي من السجن، كنتُ أبيع ما يوازي قيمته ستمئة ألف دولار من السيجار شهرياً، وكنتُ أسافر وأقابل عدداً كبيراً من الناس

المثيرين للاهتمام. اعتقدتُ بكلّ سذاجة بأنّه سيمكنني أن أجدّد التجربة مع محلّ إيبيكوريوس. لقد أخطأتُ التقدير، فبيع السيجار ليس مثل إدارة مطعم ومقهى. ولذلك عشتُ أوّل تجربة فشل مهني بالنسبة إلي.

السفر إلى هافانا

كان والدي، من بين أفراد العائلة، أوّل من غادر إلى كوبا ليعيش فيها، وذلك في عام 1974. كان لديه اهتمام كبير بجني الأموال. عاش في شقّته في حي باراغواي مع زوجته الجديدة آنا ماريا «توتي» إيرا وطفليهما ماريا فيكتوريا ورامون. كانا، زوجته وهو، آنذاك فنانين تشكيليين. قرّر والدي، علاوة على ذلك، أن ينشر كتاباً عن ذكرياته مع إرنستو ولكنّه واجه مسائل تتعلّق بحقوق المؤلّف استعصت على التسوية. لم نكن، روبرتو وسيليا وآنا ماريا وأنا، موافقين على نشر ذلك الكتاب، الذي بدا لنا بأنّه يصدر عن أنانية والدي أكثر مما يصدر عن واجبه اتجاه ذكرى ابنه. بدا لي أنّ هذا المشروع بالنسبة إليه هو وسيلة لكي يقول: «أنا مَنْ أنا، أنا والد الثوري الشهير، وأحوّل ما لي من حقّ إلى نقود». والحال أنّ الكتاب لم يكن ليخلّد المثل العليا لأخي لأنّه كان يكيّف بعض الأشياء ويزيّن ويزخرف أشياء أخرى. كان أبي ينوي على سبيل المثال أن ينشر في الكتاب رسائل إرنستو بعد أن يحذف منها المقاطع التي تكشف عن خلافهما ونزاعهما. أمّا أنا، فقد كنتُ أعتبر أنّه يجب نشر كامل الرسائل بما فيها المقاطع الناقدة بلا

مجاملة. باختصار، كان مشروع أبي ذاك يثير حفيظتي ويغضبني. كان يعلم أنّه يستطيع أن يروي في الكتاب ما يريد: فنحن سوف لن نقول أبداً ما يناقض كلامه بشكلٍ علني. حينما كان إرنستو يكتب إلينا عن أسفاره، كان يصطدم غالباً مع والدي في المسائل السياسية. كان يردّد دائماً عبارة: «أصدقاؤك اليانكيون»، ولكن حينما تحوّل إرنستو إلى أسطورة غيّر والدي خطابه السياسي تماماً وبدأ بانتقاد الولايات المتحدة الأميركية وصار ينعتها بالولايات الإمبريالية. لم أعرف قط إن كان هذا التحوّل في خطاب وموقف والدي نابعاً من حسابات مصلحية أو عن قناعة حقيقية. كان له بالتأكيد الحقّ في تغيير رأيه. منْ يدري؟ ربّما استطاع إرنستو أن يؤثّر عليه ويقنعه بآرائه. ففي الحقيقة، كانت لديه قدرة هائلة على الإقناع.

لم يكن أخي روبرتو متّفقاً معي بشأن هذه المسألة وحدث أن تشاجرنا أيضاً بشأن أبي. كان أخي يعتقد بأنني شديد القسوة مع أبي. ربّما يكون هذا صحيحاً. كنتُ الأصغر سنّاً وعشتُ تجربة مختلفة ومتمايزة عن تجربة أخوتي وأخواتي. لقد عشتُ لعدّة سنوات وحيداً مع أمّي وأنا أراها تعاني وتتألّم بسبب انفصالها عن والدي ومن ثمّ بسبب المرض الذي أصابها. كان والدي رجلاً معقّداً للغاية ومن الصعب التحكّم به. كان لديه عددٌ كبير من الأصدقاء وشبكة واسعة من العلاقات: كان يتكيّف مع كلّ الأوضاع ويلقى غالباً الإعجاب والتقدير. كان مجنوناً. ولكن أيّ جنون؟ كان من الصعب إيجاد الجواب على هذا السؤال. كنتُ أمضي وقتي في الشجار معه، وأعاتبه على عدم نضجه. مرّت فترة علينا، لم أكن أتكلّم معه إلّا نادراً. وقد تدهورت الأمور بيننا في أعوام السبعينيات على نحوٍ خاصّ. أدركتُ حينذاك أننا لا نستطيع أن نستمرّ على هذه الحال إذا

ما أردنا أن نحافظ على شيءٍ من وحدة الأسرة. فكان عليّ أن أتّخذ قراراً: إمّا أن أقبل به كما هو عليه وإما أن أكفّ عن رؤيته واللقاء به، فتكون بيننا القطيعة التامّة. فاخترتُ الحلّ الأوّل.

على الرغم من تقدّمه في السنّ وبلوغه ثلاثة وسبعين عاماً، ظلّ يناضل في سبيل مشاكل غير قابلة للحلّ في الأرجنتين وكان عليه أن يكافح على عدّة جبهات. لم يكن لطفليه الصغيرين أي ذنبٍ وكانا يعانيان من جرّاء ذلك. ولكي يزيد الطين بلّة، كان يناضل في صفوف المنظمة الشيوعية «الحركة الوطنية للدفاع عن النفط والطاقة» (والتي كانت أمّي عضواً فيها). كان خوان بيرون في السلطة ويضطهد اليساريين ويقمعهم. كنّا نشعر بأنّ ملزمة القمع تشتدّ من حول عائلتنا. لم يكن الوضع السياسي وحده إشكالياً بالنسبة إلى أيّ فرد من عائلة جيفارا، ولكن أيضاً الطريقة التي كان والدي يردّ بها على هذا الوضع كانت تفاقم من المخاطر المحدقة بنا. لم نكن نعرف أبداً بأيّ كلمات مشؤومة سوف يتلفّظ وبأيّ طريقة غير منطقية وغير عقلانية سوف يتصرّف. في بداية عام 1974، كانت منظمة تريبل إيه الرهيبة في أوج عملها ونشاطها.

راودتني فكرة أن أرسله إلى كوبا. كانت مشاكله ستزول ما أن تطأ قدماه أرض هافانا. فهو في نهاية المطاف والد تشي. كان روبرتو يرفض أن يتدخّل في هذا الموضوع. كان من المجازفة بالنسبة إليه أن يتّخذ الموقف لصالح الجزيرة الكوبية. كانت آنا ماريا تقيم بالأساس هناك: كان زوجها فيرناندو تشيفيز قد نُفي من قبل الدكتاتورية العسكرية للجنرال أليخاندرو أغوستين لانوس[1] في عام

(1) شهدت الأرجنتين 17 دكتاتورية عسكرية بدءاً من عام 1954.

1972. كان فيرناندو أستاذاً جامعياً ويناضل هو الآخر في صفوف منظمة الجيش الثوري الشعبي. كان قد تم توقيفه ومن ثمّ إطلاق سراحه مقابل التعهّد بمغادرة البلاد. في اليوم الذي غادرا فيه إلى المنفى، رافقتهما العائلة بأكملها إلى مطار إيزيزا. في المطار، تمّ تفتيشنا جميعاً. كان هناك جيشٌ من ضبّاط الشرطة وعلى الأرجح أزلام منظمة تريبل إيه. وجّهت إليهم أختي سيليا حركة استهزاء وسخرية بيدها لكي تهينهم، وهي حركة تضعها في خانة الاتهام بجريمة، ولكنّ أختي سيليا كانت هكذا، متهوّرة ومتمرّدة وسليطة اللسان.

تحدّثتُ عن المشروع لأبي، أو بالأحرى، ناشدته بأن يغادر لكي يحرّرنا من نقطة الضعف التي يفرضها وجوده في بوينس آيرس علينا. لم يُجادلنا في الأمر معنا فاتّصلتُ مع فيدل الذي أعدّ ترتيبات وصوله. كما قلتُ سابقاً، كان فيدل يعاملنا كما لو أننا أفرادٌ من أسرته وكان يقدّم لنا يد المساعدة في الأوقات الصعبة والحرجة. رتّبتُ إجراءات المغادرة، وذات يومٍ من شهر فبراير من عام 1974، طار والدي وأسرته الجديدة إلى هافانا. أقاموا في البداية في فندق هابانا ليبر، هلتون سابقاً، الذي كنّا قد نزلنا فيه عام 1959. ومن ثمّ منحهم فيدل منزلاً يقع في المبنى رقم 7617 في شارع سيبتيما في حيّ ميرامار. وسوف يتكفّل والدي بتقديم واجب الشكر والعرفان إلى كوبا وذلك من خلال التضحية بابنه في سبيلها.

في هافانا، تقمّص إرنستو جيفارا لينش على نحوٍ طبيعي شخصية «والد تشي»، وهي الحالة التي سرعان ما تحوّلت إلى شغله الشاغل وشبه مهنة بالنسبة إليه. كان والدي الفخور للغاية بإرنستو على أتمّ الاستعداد لأن يستغلّ ويستفيد من تبعات وضع ابنه البكر كبطلٍ

قومي. حينما علم الكوبيون أنّ والد تشي يعيش بينهم، جاؤوا يقدّمون له آيات الاحترام والتقدير كما لو أنّه صاحب مقامٍ رفيع. كان من بين حشود الزوّار سوّاحٌ أجانب قادمين جاؤوا لقضاءِ عطلتهم في هافانا بدوافع سياسية. كانوا يأتون بشكلٍ عامّ على نحوٍ ارتجالي وغير متوقّع ويطرقون باب بيته. كان والدي يستقبلهم جميعاً ومن دون استثناء! كانوا يسألونه إن كان معمارياً فيجيبهم: «نعم!»، ويسألونه إن كان مهندساً، فيجيبهم: «نعم!»، وإن كان حقّاً والد تشي؟! فيجيبهم: «نعم، نعم، نعم!». في كوبا، أن يكون المرء والد تشي أمرٌ مدهش. كان ذلك يمنح المرء في الحال مكانة استثنائية. حينما كنتُ أنا بنفسي في كوبا، لم أكن أصرّح أبداً بأنني شقيق تشي. وحينما كان الناس يعلمون بالأمر على الرغم من كلّ محاولاتي إخفاء ذلك، كانوا يتقرّبون إليّ. كان إرنستو مبجّلاً في كوبا. وانعكس شيء من ذلك الطقس التقديسي علينا. كان ذلك أمراً مثيراً.

اعتاش والدي من الدولة الكوبية التي حلّت جميع مشاكله. حتى أنّه أنجب، وهو في الخامسة والسبعين من عمره، طفلاً ثالثاً أسماه راميرو! بعد ذلك بعامٍ واحد، كانت الأرجنتين تحثّ الخطى نحو دكتاتورية جديدة، فأرسلتُ زوجتي وأطفالي الثلاث إلى كوبا. كان هذا المنفى أفضل من أن يؤخذ أطفالي بجريرة أبناء عمومتهم الذين بالكاد كانوا يعرفونهم.

بعد ذلك، غادر روبرتو وعائلته البلاد. كان روبرتو قد سبق له وأن سافر إلى فاليغراند في بوليفيا في عام 1967. وكان موت إرنستو قد هزّه بعمق وفي الوقت نفسه حثّه على التمسّك بقناعاته. وقد تعزّزت مواقفه المنحازة إلى اليسار المسلّح وتعمّق نشاطه

السياسي. كانت عمليات اعتقالي المتكرّرة وموجات القمع العنيفة قد أدّت في النهاية إلى أن يقتنع بالانخراط في الكفاح. كان شقيقه الأكبر قد عاش وناضل ومات في سبيل أفكاره وآرائه؛ وكان شقيقه الأصغر، الذي هو أنا، قد اعتُقِلَ وسُجِن في سبيل أفكاره وآرائه. وبالتالي لم يكن بوسعه أن يبقى لا مبالياً وفاقداً للإحساس بما يجري من حوله. على الرغم من الأخطار المحدقة، رأيناه يحاول أن يؤمّن الدفاع عنّي وارتبط مع محامٍ آخر مختصّ بالقانون الجنائي ومدافع عن حقوق الأنسان يُدعى غوستافو روكا[1]، وهو أحد أصدقاء إرنستو. كان زملاؤه الآخرون من المحامين الذين تواصل معهم بانتظام هم أيضاً قد واجهوا مصاعب شديدة من جرّاء دفاعهم عن أعضاء حركة مونتونيروس أو أعضاء في مجموعات ثورية أخرى.

طلبتُ من روبرتو أن يفرّ من البلاد وأن يكفّ عن الدفاع عني. في البداية رفض طلبي رفضاً قاطعاً. لم أشأ أن أفقد الأخ الوحيد الذي تبقّى لي من بين أخوتي. ولا هو أيضاً أراد ذلك. وقد أوقعتنا رغبتنا في حماية بعضنا في مأزقٍ حرجٍ. كان من الصعب جدّاً بالنسبة إليه أن يتركني لقدري. في الوقت ذاته، كانت لديه زوجة ومعها خمسة أطفال كانوا هم أيضاً في حاجة إلى حمايته. أمام إلحاحي عليه، انتهى به الأمر بأن استجاب لطلبي. تعدّدت التهديدات وتزايدت كثيراً. أدرك روبرتو حينها أنّ ليس أمامه سوى مخرجين محتملين لا ثالث لهما: إما أن يختفي كغيره من المفقودين وإما أن يغادر إلى المنفى. في البداية سافر إلى كوبا، ومن ثمّ انتقل إلى

(1) وهو ابن تيودورو روكا، المحامي الشهير والصحافي وقائد النضال في الجامعة والمناضل في سبيل حقوق الإنسان.

إسبانيا. سافر كثيراً وجاب بلدان عديدة في محاولة منه لحشد وتعبئة مواقف الدول الأجنبية ضدّ الخونتا العسكرية وأعمالها الوحشية وفظائعها ضدّ أبناء الشعب الأرجنتيني. ناضل في صفوف منظّمة الجيش الثوري الشعبي التي اختير رئيساً لها من قبل الأرجنتينيين في المنفى.

في شهر أكتوبر من عام 1981، بينما كان يحضر مؤتمراً في مكسيكو، تمّ توقيفه. اتّهمته السلطات المكسيكية بالمشاركة في اختطاف ابنة شقيق مرشّح حزب العمل الوطني المكسيكي (PAN) إلى الرئاسة بابلو إميليو ماديرو. ما هو الدافع المزعوم لعملية الاختطاف؟ جمع أموال لصالح منظمة الجيش الثوري الشعبي. وقد تمّ إطلاق سراحه بعد عدّة أسابيع من توقيفه وذلك لعدم توفر الأدلّة على تورّطه. وغنيّ عن القول إنّ أخي روبرتو لم يختطف قط أيّ شخصٍ. ولكن بسبب الكنية التي نحملها، يبدو أنّه كان كلّ طرف يمنح لنفسه الحقّ في أن يتّهمنا بأيّ تهمة كانت. كنّا نُعتَبَر افتراضياً من «المخرّبين» الخطيرين. وكلّما كان يجري اتّهامنا ظلماً وعدواناً، كنّا نزداد اشمئزازاً من النظام ونشعر أكثر بضرورة معارضته والوقوف في وجهه.

كانت أختي سيليا آخر من تفرّ من البلاد. ففي حين كانت أصلاً تحت الضغط مثلنا جميعاً، ازداد وضعها خطورة بسبب زياراتها المنتظمة لي في السجن، بل وصلت بها الجرأة إلى حدّ أن تزورني في سجن راوسون، وهي مبادرة لها رمزيتها التي تُظهر عزمها وتصميمها وشجاعتها وروحها الثورية المتمردة وهي السمات التي لا يمكن للآلة القمعية أن تتسامح معها بكلّ تأكيد. في عام 1975، وصلت الأعمال الإرهابية المروّعة لمنظمة تريبل إيه إلى أوجها. وفي

تحدٍّ منها للقمع ولأنّها أيضاً لم تستطع أن تتّخذ القرار بالتخلّي عنّي، حافظت سيليا على إيقاع زياراتها المتكرّرة لي في السجن. بعد الانقلاب العسكري، توسّلت إليها أن تقطع زياراتها ولكنّها بعنادها الاستثنائي رفضت ذلك. منذ شهر مارس من عام 1976، شعرنا باشتداد وتيرة القمع. من خلال مراقبة وتيرة الزيارات، صعّد العسكر من ضغوطهم على أُسر المعتقلين والمتعاطفين معهم والذين أصبحوا في نظرهم مذنبين. كانوا يختطفونهم ويخفونهم نهائياً. بدأت عمليات الاختطاف والتغييب القسري الواسعة في تلك الفترة وقد اقتربت شيئاً فشيئاً من حلقتنا العائلية. ذات يوم، اختُطِفَ أحد أصدقاء سيليا من الشارع وأمام أنظار المارّة. اعتباراً من تلك اللحظة، أصبحتُ على يقينٍ بأنّها سوف تكون التالية التي تُختَطَف. أصبحتُ آنذاك أخشى أن أفقد شقيقتي. ومع ذلك جاءت إلى السجن وتحدّثت لي بشيء من اللامبالاة عن اختطاف صديقها. وهنا، احتججتُ عليها بشدّة وقلتُ لها: «حقّاً أنت مجنونة! ماذا تفعلين هنا؟ أنا في السجن بطبيعة الحال بينما أنتِ لستِ كذلك! لا يمكنكِ أن تفعلي أيّ شيء من أجلي! غادري، اهربي».

ارتحتُ حينما قرّرت سيليا أخيراً أن تغادر البلاد في شهر أغسطس من عام 1976 بعد أن نهب العسكر شقّتها من خلال رجالهم المنظّمين في إطار خلايا القمع التي كانت تُسمّى «Grupos de tareas» (أي فرق العمل). لقد أخذوا من البيت كلّ ما استطاعوا حمله وخرّبوا ما تبقّى فيه. وقد شملت حملة القمع في بعض الأحيان الأبرياء ممّن كان العسكر يطمعون في ممتلكاتهم. أنا هنا لا ألمّح إلى أنّه كان هناك أناسٌ مذنبون وآخرون أبرياء، فأنا لا أعتبر المناضلين مذنبين، وإنّما أتحدّث عن أناس لم يكن يمارسون

السياسة ومع ذلك وجدوا أنفسهم وقد اجتاحتهم موجة القمع والنهب التي كانت تأخذ كلّ شيء في طريقها.

كانت سيليا بالفعل هدفاً لعمليات ترهيب وكانت تتلقّى مكالمات هاتفية من مجهولين يقومون بتهديدها منذ شهر نوفمبر من عام 1975. حينما كانت تقوم بزيارتي في السجن، كان الحرّاس والسجّانون يهدّدونها أيضاً. كانت تكافح بكل ما أُوتيت من جهد وقوّة في سبيل تحرير السجناء السياسيين. في تلك المرحلة، كانت لوحدها. وكان زوجها لويس الذي انفصلت عنه قد توفي.

فرّت على عجلٍ من البلاد وعبرت حدود الأوروغواي مشياً على الأقدام (كان مطار إيزيزا تحت أقصى درجات الرقابة). كان الوصول إلى الأوروغواي لا يعني نيل الحرية تماماً: كانت أرض جارتنا الشمالية هي الأخرى مزروعة بالألغام. في الواقع، كانت الأرجنتين قد وقّعت آنذاك اتفاقيات حول تسليم «المخرّبين» مع البلدان المجاورة. لقد نجحت أختي في العبور إلى الأوروغواي دون أن يتمّ اكتشاف أمرها.

وجدت صديقتنا أولغا الشجاعة في أن تذهب، بصحبة زوجها كارلوس، إلى بيت سيليا بعد مغادرتها مباشرةً. أرادت أن ترى ما الذي يمكنها أن تنقذه من البيت من عمليات النهب. بينما كانت تعاين البيت وتقدّر حجم الأضرار التي لحقت به، رنّ جرس الهاتف في البيت. بعد عدّة ثوانٍ من التردّد ونظرة تواطؤ إلى أولغا، رفع كارلوس سماعة الهاتف. خلال سنوات الرصاص، كان لأقلّ القرارات شأناً أن تعرّض حياة شخصٍ للأهوال. سأل شخصٌ ينتحل صفة أخي روبرتو إن كانت سيليا موجودة في البيت. عرف كارلوس مباشرة بأنّ هذا الصوت ليس صوت أخي. كان رجال «فرق العمل»

يعرفون بكلّ تأكيد بأنّه كان يتّصل غالباً مع سيليا هاتفياً من كوبا أو من أيّ مكانٍ آخر. بحمد الله وشكره، كانوا لا يعلمون بأنّ سيليا قد عبرت الحدود وأنّها قد أصبحت بعيدة الآن. تظاهر كارلوس بأنّه قد صدّق بأنّ المتّصل هو شقيقي روبرتو وأجاب بأنّ سيليا قد نزلت لتشتري بعض الحاجيات وأنّها سوف لن تتأخّر في العودة إلى البيت. استبدّ الخوف بأولغا. خرجا من البيت للنجاة بجلدهما دون أن يأخذا أيّ شيء منه.

في نهاية عام 1976، اجتمعت كلّ عائلتي بهذه الطريقة في هافانا. باستثنائي أنا. كنتُ في سجن راوسون، سعيداً بمعرفتي أنّهم في الخارج وبمنأى عن متناول الخونتا العسكرية. لم تقم سيليا في كوبا، بل غادرت على الفور إلى إسبانيا بحثاً عن محامين مستعدّين للدفاع عن السجناء السياسيين. منذ عام 1976 وإلى غاية عام 1982، جابت معظم بلدان أوروبا في محاولة منها لإيقاظ الضمير العالمي من خلال إعطاء المقابلات الصحفية وعقد المؤتمرات في كلّ مكانٍ أُتيحت لها فيه الفرصة للقيام بذلك. أمضت شهوراً طويلة في كلّ من باريس وفي سويسرا. كانت تتحدّث اللغة الفرنسية مثلها مثل إرنستو ولكنّها سرعان ما كانت تتعب من التحدّث بلغة أجنبية كلّ يوم. كان المنفى صعباً جدّاً بالنسبة إليها. كانت مفلسة تماماً ولا تستطيع مزاولة مهنتها كمهندسة معمارية وتعيش على كرم المساعدات المقدّمة إليها من قبل الخيّرين. كانت تنام غالباً على الأرائك ودائماً في بيوت الآخرين. كانت قد أعدّت ملصقاً دعائياً عنّي تحمله معها أينما حلّت مع صورة لأخي إرنستو وكانت تضعه كلّ مساء بجانب سريرها لتنظر إليه قبل أن تنام. أعتقد أنّها كانت تعيش حالة عصيبة من العزلة والوحدة.

عادت من المنفى بعد بضعة أشهر من انتخاب راؤول ألفونسين في الثلاثين من شهر أكتوبر من عام 1983. وتبعها روبرتو في العودة إلى البلاد. بينما فضّل والدي وشقيقتي آنا ماريا البقاء في هافانا. بعد خروجي من السجن، أصبحت ألتقي بهم بانتظام لأنّ أنشطتي المهنية فرضت عليّ أن أتنقّل بين الأرجنتين وكوبا. أصبح والدي مقرّباً جدّاً من أطفالي وأيضاً من أطفال إرنستو وبخاصّة آخر أطفاله الذي لم يعرف عملياً والده. كانوا يلقون عليه كمّاً هائلاً من الأسئلة حول إرنستو وكان يستمتع بأن يتحدّث لهم عن طفولته وشبابه وقصص حبّه وأسفاره ورحلاته.

توفي والدي في عام 1987 وهو في السابعة والثمانين من العمر إثر نزيفٍ دماغيّ استغرق عدّة أسابيع قبل أن يتغلّب عليه ويودي بحياته. في اليوم الذي أُصيب بجلطة دماغية، كنتُ أنا بنفسي راقداً في المستشفى في هافانا في حالة حزينة. بعد أن اشتدّ بي المرض في الأرجنتين، من دون أن يكون لديّ الضمان الصحّي، تمَّ نقلي إلى كوبا بناءً على إلحاح روبرتو على ذلك. كانت رحلة الطيران التي استغرقت عشر ساعات فظيعة بالنسبة إلي ولا تنتهي. خصّصوا لي ثلاثة مقاعد لكي أستطيع أن أستلقي في الطائرة. اعتقدتُ أنّني سوف لن أصل أبداً إلى وجهتي. كنتُ أعاني من مرضٍ نادرٍ جدّاً يُدعى متلازمة غيلان باريه، وهو مرضٌ يصيب شخصاً واحداً من أصل مليون شخص ويصيب الأعصاب الطرفية ما يؤدّي إلى حالةٍ من الضعف العام، بل إلى شللٍ تدريجي.

حينما هبطنا أخيراً في مطار هافانا، كان فريقٌ من الأطباء ينتظرني في المطار ومعه سيارة إسعاف مجهّزة. عانيتُ من آلامٍ شديدة لمدّة ثلاثة أشهر. خلال هذا الوقت نفسه، كان والدي يحتضر على

سريره في طابقٍ آخر في نفس المستشفى. ولأنني كنتُ أعاني من ضعفٍ شديد لا أستطيع معه الخروج من سريري، لم أره قط. وفي كلّ الأحوال، كان بالكاد يعي ما يجري من حوله. علمتُ بخبر وفاته ذات صباح من خلال التلفاز. هرعت الممرّضة التي كانت في غرفتي في تلك اللحظة إلى التلفاز لكي تُطفئه. ولكن فات الأوان وسمعتُ الخبر. لم أستطع فضلاً عن ذلك أن أحضر مراسيم دفنه. وهو يرقد الآن في المقبرة العسكرية في هافانا إلى جانب أختي آنا ماريا التي توفّيت من بعده بثلاثة أعوام جرّاء إصابتها بمرض سرطان العظام.

لقد تشاجرتُ في معظم الأحيان مع والدي! بعد إطلاق سراحي من السجن، راودته فكرة مجنونة ورغبة جامحة في أن ينشر مراسلات السنوات التي قضيتها قيد الاعتقال. بحسب رأيه، كانت لرسائلي أهمية خاصّة: كنتُ قد كتبتُ في تلك الرسائل بطريقة مشفّرة لكي أفلت من القمع والمراقبة. وكنتُ قد أصبحتُ خبيراً في راوية الأشياء من دون أن أقولها بطريقة مباشرة. وجد والدي أنّ رسائلي مميزة وأراد أن ينشرها ويتشاركها مع عامّة الناس. حينما اقترح عليّ نشرها بعد خروجي من المعتقل، انفجرتُ فيه غاضباً. لم أفهم كيف يمكنه أنّ يفكّر بفكرة كهذه. كانت عبارة عن مراسلات خاصّة بينه وبيني. أعتقد أنّ فورة غضبي قد أخافته فتخلّى عن الفكرة.

بعد موته، واصلت الانتقال بين بوينس آيرس وكوبا. تعلّقت كثيراً بأبناء وبنات أخي وأصبحتُ قريباً منهم. ولكنني -وأنا نادم على هذا الأمر بمرارة- لم أتقرّب من فيدل. لم أشأ على الإطلاق أن أستغلّ علاقاتنا وأستفيد منها إلّا في حالات استثنائية. ربّما لأنني كنتُ أعتقد بأنّ هذا الأمر سوف لن يليق بأخي ومكانته الذي كان نزيهاً للغاية وينفر بوضوحٍ من الامتيازات.

ومع ذلك، كنتُ أعرف جيّداً راؤول كاسترو وزوجته فيلما إيسبين غيلواز. كانت فيلما امرأة في غاية الأهمية والمكانة في كوبا. كانت سليلة عائلة مقتدرة ومتنفّذة (كان والدها أحد المحامين في مجموعة بيكاردي)، وكانت قد درست دراسات مرموقة في MIT[1] حيث حصلت من المعهد على شهادة في الهندسة المدنية. لدى عودتها إلى كوبا، انضمّت إلى حركة 26 يوليو في مقاطعة أورينت في جنوب شرق كوبا وحملت السلاح وقاتلت بشجاعة وبسالة. وإذ ترأست اتحاد النساء الكوبيات منذ عام 1960 ولغاية وفاتها في عام 2007، كانت امرأة قويّة جدّاً ومناضلة مقاتلة وجسورة جدّاً ومناصرة للمرأة، حقّقت معجزات في مجال حقوق المرأة والمثليين جنسياً. قبل فيدل، كانت كوبا بلداً ذكورياً لا تحظى فيه المرأة بأيّ حقوق. ساهمت فيلما في تغيير الذهنيات. كانت ابنتها ماريلا مديرة المركز الوطني الكوبي للتربية الجنسية؛ وابنها أليخاندرو عقيداً في وزارة الداخلية. كانت ماريلا تشبه والدتها أكثر بكثير مما كانت تشبه والدها. كان راؤول قبل أيّ شيء ضابطاً عسكرياً! لم يكن يتكلّم، بل كان يُصدر الأوامر فقط. لقد أمضيتُ الكثير من الوقت مع عائلتهم. خلال سنوات عديدة، كنتُ أنزل في نزلٍ صغير لهم حينما كنتُ في كوبا.

بالمقابل، لا أعرف الزوجة الحالية لفيدل، داليا سوتو ديل فال. وهي بدورها ظلّت لوقتٍ طويل غير معروفة من قبل عامّة الناس. كان فيدل يعيش على الدوام حياة خاصّة محفوفة بالكتمان التامّ. كان يبدو أنّ ليست له أيّ حياة اجتماعية، حيث نادراً ما كان

(1) معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا في بوسطن.

يخرج خارج مهامه الرسمية التي لم تكن زوجته تشارك فيها أبداً. لقد قيل لزمنٍ طويل إنّه كان قريباً من الثائرة الكوبية سيليا سانشيز. ربّما يكون ذلك صحيحاً. أعتقد أنّ فيدل كان مسكوناً بهاجس المسائل الأمنية. لم يكن أطفاله يخرجون من الظلّ إلا بعد أن يصبحوا بالغين. كان الناس بالكاد يعرفون مَنْ يكونون أو حتى كم كان عددهم. كان لدى فيدل كاسترو أحد عشر طفلاً من سبع نساء، كانت اثنتان منهنّ زوجاته. حظيتُ بفرصة اللقاء مع ابنه أليخاندرو.

المرّة الوحيدة التي توجّهتُ فيها مباشرةً إلى فيدل كاسترو كانت حينما أردتُ أن تعود ابنتي آنا إلى كوبا، في عام 1984. كانت قد أمضت عدّة سِنوات في الجزيرة ومن ثمّ عادت مع أمّها إلى بوينس آيرس ولكنّها لم تستطع أن تتأقلم مع العيش في الأرجنتين. كتبتُ رسالة إلى فيدل كاسترو فردّ عليّ مباشرةً برسالة لطيفة للغاية وجميلة جدّاً مرفقة ببعض الهدايا: لم يوافق على أن تغادر آنا وتأتي للإقامة في كوبا فحسب، بل أمّن لها مسكناً ووظيفة أيضاً. أنا مدينٌ له بالعرفان وممتنٌّ له بتلك المساعدة.

بعد سقوط الدكتاتورية العسكرية، عاد ولداي الآخران من زواجي مع ماريا إيلينا دوارتي، مارتن وبابلو، أيضاً ليعيشا في بوينس آيرس لبعض الوقت. ولكن تسعة أعوامٍ كانت قد مرّت منذ مغادرتهما إلى المنفى وكانت حياتهما قد أصبحت منذ ذلك الحين في كوبا. وبالتالي عادا إليها. يعيش ابني مارتن وابنتي آنا في إسبانيا اليوم. ولا يزال ابني بابلو يعيش في كوبا.

بقيتُ على تواصلٍ مع الرفاق القدامى في النضال مع إرنستو، ومنهم هاري فيليغاس وليوناردو تامايو اللذان لم ينجوا من حرب العصابات في سييرا مايسترا فحسب بل من حرب العصابات في

نانكاهوازو أيضاً وشغلا مناصب مهمّة في الحكومة الكوبية. لقد أباحا لي بهذا البوح الذي أثّر فيّ تأثيراً عميقاً. بينما كانوا يقاتلون في بوليفيا، كان إرنستو يتحدّث غالباً عنّي. ذات يوم، أسرّ لهما بأنّه كان، من بين كلّ أخوته وأخواته، يعتبرني وريثه الروحي، الذي يستطيع أن يتابع نضاله ويواصل معركته حتى النهاية. وهذا هو ما أفكّر فيه الآن وأنا أكتبُ هذا الكتاب.

«أبداً، يا أطفالي...»

قادتني المصادفة، ذات يوم، إلى مطعمٍ في هافانا مع أليخاندرو كاسترو، ابن فيدل، وسيليا، ابنة إرنستو. في سياق الحديث، بدأنا تدريجياً بالحديث عمّا تعنيه بالنسبة إلى كلّ منّا صلة القرابة مع هؤلاء الرجال المشهورين واللامعين. لا أعرف أخوته وأخواته، ولكننا تأكّدنا أنّ أليخاندرو كان أكثر من عانى من علاقة بنوّته لفيدل. فقد كان يحظى بحماية فائقة ويحيط به الحرّاس والمرافقون بكثافة في كلّ لحظات حياته. كان أمن وسلامة فيدل على الدوام مظهراً حاسماً في حياة عائلته. كانت الاعتداءات المتكرّرة من قبل الولايات المتحدة الأميركية تجعله يخشى من أن يتمّ استهداف أبنائه وبناته. وبالتالي كبر أطفاله من دون أن يكون لهم الحقّ في أن يخرجوا بمفردهم. ثمّ أنّه لعبء عظيم أن يكون المرء ابن فيدل! كان أليخاندرو يكنّ إعجاباً كبيراً بوالده ولكنّه لم يكن يستطيع أن يعبّر عن ذلك بحرية. كان مصوّراً ويلتقط الصور الشخصية... لفيدل. وعلى الرغم من براعته في التصوير، كان يبقى في الظلّ وتحظى صورة فيدل بالأهمية والاهتمام. لقد عاش المسكين حياته في ظلّ القائد الأكبر.

كانت سيليا، ابنة أخي، طبيبة بيطرية ومختصّة بارعة وشهيرة

بالاهتمام بالدلافين ومعالجتها. وهي تعمل في حوض هافانا لتربية الدلافين. منذ عدّة سنوات، اتّخذت قراراً بألّا تتحدّث أبداً عن والدها. لقد انفصلت عن زوجها التشيلي وتعيش حياةً هادئة جدّاً مع أطفالها. وهي لا تريد أن تنشغل بمتحف مركز دراسات تشي جيفارا في هافانا، وهو متحف مهمّته جمع وتصنيف أرشيف جيفارا من كتابات وكتب وخطابات ومقالات وصور. تتمّ إدارة مركز تشي من قبل شقيقها كاميلو، الذي يمارس اليوم مهنة التصوير بعد أن شغل عدّة مناصب في الإدارة الكوبية.

أعرف القليل عن ابنة أخي هيلدا، الابنة البكر لأخي إرنستو. حينما خرجتُ من السجن، كانت هي في السابعة والعشرين من عمرها وكانت متزوّجة من رجل مكسيكي وتمارس مهنة أمينة مكتبة. كانت تعاني بالأساس من الكآبة وقد توفيت في التاسعة والثلاثين من عمرها من جراء إصابتها بمرض السرطان.

أليدا طبيبة أطفال مختصّة بأمراض الحساسية لدى الأطفال. تزاول مهنتها وتعمل في مستشفى في هافانا. وقد قامت بالعديد من المهام الإنسانية في أنغولا وفي الإكوادور وفي نيكاراغوا. وهي تناضل كثيراً في سبيل حقوق الإنسان وتدير مركزين لرعاية الأطفال المعاقين وضحايا الاعتداءات والتجاوزات. تسافر أليدا دون كللٍ أو مللٍ في سبيل تعزيز قدرة الحصول على الطبابة المجانية. تقول أليدا إنّ والدها هو ملهمها. وهي تصدر أيضاً مجلّة باسم **باراديغما**، بالتعاون مع شقيقها كاميلو.

لم يعرف أبناء أخي وبناته والدهم تقريباً[1]. حينما كان أخي

(1) ولِدَت أليدا في عام 1960 وولِدَ كاميلو في عام 1962 وسيليا في عام 1963 وإرنستو في عام 1965.

غائباً، كان يرسل إليهم بطاقات بريدية مزيّنة برسومات. وقد احتفظوا بالرسالة الوداعية الجميلة التي كتبها قبل مغادرته إلى بوليفيا:

إلى أطفالي هيلديتا وأليديتا وكاميلو وإرنستو،

إذا ما وقعت هذه الرسالة بين أيديكم، ذات يوم، فسوف يعني ذلك أنني لم أعد بينكم. سوف لن تتذكّروا منّي إلّا القليل والأصغر سنّاً من بينكم سوف لن يتذكّروا منّي أيّ شيء. كان والدكم رجلاً تصرّف وعمل طيلة حياته بتوافقٍ وانسجامٍ مع أفكاره وآرائه وثمّة أمرٌ مؤكّد وهو أنّه كان على الدوام وفيّاً لقناعاته. اكبروا في ثورات صحيحة. ادرسوا بما فيه الكفاية لكي تجيدوا التقنية التي تتيح السيطرة على الطبيعة. لا تنسوا أبداً أنّ الثورة هي الأهمّ وأن أيّ واحدٍ من بيننا لا يساوي شيئاً بمفرده. علاوة على كلّ شيء، كونوا على الدوام قادرين على الإحساس من أعماق وجودكم بكلّ المظالم المرتكبة ضدّ أيّ شخص كان وفي أيّ مكان كان من العالم. هذه أجمل صفة لثائر. أبداً، يا أطفالي، لم أفقد الأمل في اللقاء بكم من جديد. لكم أجمل قبلاتي وأحرّ أشواقي[1].

كان إرنستو يتألّم كثيراً لعدم قدرته على لعب دوره كأب. كان يحبّ أطفاله الخمسة حبّاً جمّاً ويشعر بالأسف لكونه لا يستطيع أنّ

---

(1) إرنستو جيفارا، *Obras Tomo II* (**الأعمال الكاملة**، المجلّد الثاني)، كازا دي لاس أميريكاس، 1970.

يُظهر لهم المزيد من عطفه ومحبّته بسبب غياباته المتكرّرة ولفترات طويلة. كان ممزّقاً بين خير ومصلحة أطفاله وخير ومصلحة العالم. من كان يحتاج أكثر إليه؟ كانت أليدا مارش أمّاً حريصة جدّاً يعتمد إرنستو عليها في حسن تربية أطفالهما. كان يشكو قائلاً: «يقول أطفالي «بابا» للجنود الذين يرونهم كلّ يوم، بينما لا يروني أبداً» أو يقول أيضاً: «في بعض الأحيان، نحن معشر الثوار، نكون في عزلة ووحدة شديدة، حتى أطفالنا يعتبروننا غرباء. يروننا أقلّ مما يرون حارسهم الذي ينادونه بلقب «العم»». كان ابتعاده عن أسرته بالنسبة إليه تضحية كبيرة جدّاً. في شهر يناير من عام 1965، بينما كان في باريس، كتب إلى أليدا: «حقّاً، أنا على وشك أن أصبح عجوزاً. في كلّ مرّة أحبّك أكثر من المرّة التي قبلها، وأشعر بالشوق والحنين إلى بيتنا وإلى أطفالنا، إلى كلّ هذا العالم الصغير الذي أتخيّله أكثر مما أعيشه. هذا العمر الذهني الذي أبلغه خطيرٌ للغاية؛ أنتِ تصبحين ضرورية بينما أنا لستُ سوى عادة». بالنسبة إلى أطفاله أيضاً، كان من الصعب جدّاً عليهم أن يكبروا دون أن يكون هذا الأب في كوبا حيث يحظى بمكانة وتقدير كبيرين.

لم أناقش أبداً موضوع غياب إرنستو مع أليدا مارش. في اليوم الذي قرأ فيه فيدل رسالته الوداعية على الملأ في قاعة للمسرح، كانت ترتدي لباساً أسود وتبكي في صمت في الشرفة. كانت متعلّقة جدّاً بأخي، بل كانت تشعر بعاطفة حقيقية حياله. وقد جدّدت حياتها فيما بعد مع أحد موظفي الحكومة. لم يسامحها الكوبيون أبداً على ذلك. كانوا يعتبرون أنّ عليها أن تبقى وفيّة لزوجها الراحل تشي بعد ترمّلها، وأن تكرّس نفسها وحياتها لإحياء ذكراه ولا شيء آخر! لقد تبيّن لي هذا الأمر من خلال حديثي مع الناس. ومع ذلك، لقد

كرّست أليدا حياتها، بطريقة ما، لزوجها الراحل. إنّها تعمل هي أيضاً في مركز تشي جيفارا للدراسات. حتى إنني أتساءل كيف يعيش رفيقها الحالي كلّ هذا.

أكنّ محبّة كبيرة لأبناء وبنات أخي. أحاول أن أكون إلى جانبهم في مسيرة الحياة، وأن ألتقي بهم كلّما كان ذلك ممكناً وأن أقدّم لهم النصح. في الوقت نفسه، لستُ طبيباً معالجاً ولا فارضاً للوصاية عليهم ولستُ هنا لكي أطرح عليهم الكثير من الأسئلة أو لكي أقوم بتحليل نفسياتهم. هناك أمور لا أطرحها معهم ولا أتناقش فيها إلّا إذا طلبوا منّي ذلك. نتحدّث أحياناً مع بعضنا عن إرنستو ولكن دائماً بلهجة لطيفة. وهم يطلقون النكات أحياناً. فعلى سبيل المثال، يحبّ إرنستو، ابن تشي، أن يقول ممازحاً إنّ والده قد نسي أن ينقل إليه خلاياه العصبية. هناك شعورٌ بأنّ الأمر كان بالنسبة إليهم معقّداً ولذلك يأتون على ذكره بشيء من السخرية والمزاح. كنتُ أقلّدهم بدوري. كانوا يعانون من فراغٍ بذلتُ كلّ جهدي لكي أملأه بأفضل ما يمكنني فعل ذلك. حينما جاؤوا إلى الأرجنتين، فعلتُ كلّ ما بوسعي لكي أجعلهم يشعرون بأنّهم في وطنهم. كان إرنستو يشعر بانتمائه إلى الأرجنتين أكثر من أخوته وأخواته، ولكنّ حياته، في نهاية المطاف، كانت في كوبا. وكنتُ قريباً منه أكثر من بقية أخوته وأخواته. هو شخصٌ مثيرٌ للاهتمام ولم يشأ أن يستجيب لتوقّعات أقاربه وكان رجلاً غير تقليدي ومناهض للعادات والتقاليد السائدة ويتظاهر بأنّه ينحي أمام الأمور لكي يفعل فيما بعد ما يريده.

كان إرنستو يتحدّث اللغة الروسية بطلاقة: فقد درس القانون في الاتحاد السوفيتي. وأصبح محامياً وذلك بفعل الواجب أكثر منه بفعل الرغبة منه. كان يريد أن يصبح ميكانيكياً، ولكن أليدا لم تستطع أن

تتصوّر أن لا يكمل ابنها، وبخاصّة ابن تشي، دراسته العليا. ولذلك أرسلته لكي يدرس في جامعة موسكو. وكان يقضي أوقات فراغه في مزاولة مهنة الميكانيك التي كانت أحبّ المهن إلى قلبه. تخصّص في ميكانيك الدراجات النارية عموماً، ومن ثمّ في ميكانيك الدراجات من طراز هارلي دافيدسون على نحوٍ خاصّ. لم يكن هناك أدنى شكّ في أنّ دماء خالي خورخي دي لا سيرنا تسري في عروقه! لقد اكتسب خبرة كبيرة في مجال مهنته بحيث يُعدّ الآن أحد أمهر ميكانيكيي الدراجات من طراز هارلي في العالم، وهو أمرُ يمثّل بكل تأكيد قمّة السخرية. لديه دراجتان قديمتان من طراز هارلي خمريتي اللون، احتفظ بهما كأثرين مقدّسين في حالة جيّدة. في الجزيرة، يجب أن يكون المرء ميكانيكياً ماهراً حتى يستطيع أن يشغّل هذه الدرّاجات اللعينة! ولكن بفضل مواهبه العظيمة، تتيح له دراجتاه الناريتان من طراز هارلي أن يتجوّل في أرجاء المدينة، ولكن ليس للقيام بالنزهات في الريف. لا تزال أمّه لا توافقه على هوايته هذه. كما أنّها تغتاظ من رفضه الانخراط في مركز تشي جيفارا للدراسات. لكنّ إرنستو في الخمسينيات من عمره وقرّر أنّ هذا هو الوقت المناسب لكي يمارس ما يروق له ويسرّه. مؤخّراً، راودته فكرة أن يشتري اثنتي عشرة دراجة نارية من طراز هارلي لكي ينظّم جولة سياحية بالتشارك مع وكالة سياحية. وقد سمّى الجولة السياحية باسم «لا بوديروزا للسياحة» وبوديروزا هو اسم دراجة[1] ألبيرتو غرانادو التي استخدمها إرنستو وميال في التجوال في أميركا الجنوبية في عام 1951. وقد سلكت الرحلة السياحية الطرق العابرة في المناطق الأكثر رمزية بالنسبة إلى

(1) دراجة لا بوديروزا معروضة الآن في متحف تشي دالتا غراسيا.

الثورة الكوبية. حينما وصلت أخبار مشروع هذه الجولة السياحية إلى مسامع الجالية الكوبية في ميامي، ثارت حفيظتها واستشاطت غضباً. لقد وجدتها غير لائقة وبمثابة فضيحة.

من بين أبناء وبنات أخي الخمسة، كان إرنستو أكثر من يعاني عبء بنوته لرجلٍ مشهور. أمازح دائماً وأسخر قائلاً إنّ هناك مهمّتين هائلتين لا يمكن القيام بهما وإنجازهما: إقناع أختي سيليا وابن أخي إرنستو بالحديث عن تشي. يبدو لي أنّ صعود قمة إيفرست أسهل من هذه المهمّة!

ذات يوم، طلب منّي إرنستو أن أرافقه إلى سانتا كلارا، حيث يوجد ضريح تشي، وهو نصبٌ تذكاري ذو طابعٍ شبه ديني لا يروق لي. كان ذلك في شهر أكتوبر، وهو شهر مقتله واحتفالات إحياء ذكراه. لم أرغب في الذهاب إلى هناك في نفس يوم مراسم إحياء ذكراه، والتي تجري بشكلٍ عام في الثامن من شهر أكتوبر، وذلك لكي أتجنّب حشود الناس وفضول الصحافة.

وافق إرنستو على أن ننتظر يومين ريثما تنتهي تلك الاحتفالات. لسوء الحظّ، كان هناك أيضاً الكثير من الناس على الضريح في اليوم العاشر من شهر أكتوبر. اقتربت منّي صحافية لا بدَّ أنّها قد عرفتني. اقترحتُ عليها أن تتحدّث مع ابن إرنستو بدل التحدّث إلى شقيقه. وبينما كانت تتقدّم تدريجياً نحو إرنستو، كان هو يتراجع. سرعان ما وجد نفسه ملتصقاً بالجدار تماماً ولا مفرّ له، فاستغلت الصحافية ذلك ووضعت لاقطاً للصوت أمام فمه. فاضطرّ أن يقول شيئاً. وهو لا يزال يرفض أن يسامحني على «بيعي» له يومذاك!

غالباً ما يُساء فهم الكوبيين

منذ أن تمَّ الإعلان عن التقارب التاريخي بين الولايات المتحدة الأميركية وكوبا، اتّصل بي العديد من الصحافيين الأرجنتينيين من التلفاز والراديو. كانوا يودّون أن يعرفوا رأيي بهذه المسألة. هل هذا لكوني شقيق تشي أم ببساطة كأرجنتيني يتمتّع بمعرفة عميقة بشؤون الجزيرة وبعلاقات مميّزة معها؟ لم أعرف ذلك أبداً ولا يهمّني هذا الأمر كثيراً. أنا قريب من أرباب العمل الكوبيين مثلما أنا قريبٌ من البروليتاريا الكوبية. لديّ علاقة مع مسؤولين في الحكومة مثلما لدي علاقات مع عددٍ كبير من العمال البسطاء. ومع ذلك، لم يجعل كلّ هذا منّي رجلاً كوبياً. ربّما صلة القرابة التي تربطني مع تشي تُعطي للصحافيين الانطباع بأنّ لرأيي قيمة أكبر من رأي سواي.

قبل كلّ شيء، أودّ أن أوضّح أنّ دعمي للمسيرة الثورية الكوبية لا يتزعزع وأنّ الجالية الكوبية في أميركا تكاد تكون مجهولة بالنسبة إليّ.

شاءت الصدف أنّني، قبل الإعلان عن ذوبان الجليد بين البلدين، كنتُ أساعد ابن أخي إرنستو في الحصول على الاثنتي عشرة دراجة نارية التي كان يحتاج إليها من أجل رحلته السياحية.

استنتج بعض الأشخاص مباشرة من ذلك أنني كنتُ على علمٍ واطلاعٍ على المفاوضات التي كانت تجري سرّاً بين الطرفين وأنّني كنتُ على علمٍ بأنّ السيّاح الأميركيين سوف يسلكون الطريق إلى كوبا. دعتني القناة التلفزيونية الأرجنتينية TN إلى المشاركة في أحد برامجها للحديث عن باراك أوباما وراؤول كاسترو. إذا كنتُ أعرف راؤول، فأنا لستُ الناطق باسمه، ناهيكم عن أنّني لم ألتقِ قط بالرئيس الأميركي شخصياً! ولكنني أجبتُ من باب السخرية بأنّ أوباما قد اتّصل بي بكلّ تأكيد لكي يطلب منّي إطلاق رحلة «لا بوديروزا» السياحية. وإذا ما وضعنا المزاح جانباً، فقد بدأ هذا المشروع بسلسلة من الصُّدَف، ومثلما كان يقول صديقي أورلاندو فوندورا: «ما يحدث يكون مناسباً» (هكذا في الأصل)[1].

يبقى أنّني قلتُ للصحافي في قناة TN الأمر التالي: كوبا بالنسبة إليّ أهمّ بكثير من مجرّد مسألة سياسية دولية. أنا أشعر بأنني قريب من كوبا، إنّها بلدي الثاني وعائلتي الثانية وبيتي الثاني، حتى إن كنتُ لم أمضِ فيها أكثر من ثلاثة أشهر متتالية ولم أشغل أيّ وظيفة رسمية فيها. لقد استقبلت عائلتي وأهلي من دون طرح أسئلة ومن دون تردّد حينما كانت الأرجنتين تضطّهدهم وتقمعهم. إنّه مكان محبوب ومألوف. أزور كوبا بشكلٍ منتظم منذ عام 1959 وقد جلتُ فيها من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب وأنا متعلّق بها أشدّ التعلّق. لكلّ هذه الأسباب، أعتقد بأنّ لديّ رؤية واضحة بما فيه الكفاية للأحداث.

---

(1) «هكذا في الأصل» عبارة يشير بها كاتب النسخة إلى ما يبدو خطأ في الخط أو التعبير في الأصل الذي نسخ على ما هو عليه. -المترجم-

بشكلٍ عام، حينما يريد أحدهم أن يعرف رأيي حول ذوبان الجليد في العلاقات بين أميركا وكوبا، أبدأ بالقول إنه يجب وضع هذا الأمر في سياقٍ سياسي ودبلوماسي: إنّ التغيّرات التي نشهدها الآن هي نتيجة مسيرة طويلة عاشها الكوبيون في ميامي وفي هافانا، حتى إن كان ما تبقى من الناس يجهلون إلى حدٍّ ما بأنّ هذه المسيرة كانت جارية منذ زمن. في الحقيقة، كانت هناك على الدوام علاقات إنسانية بين البلدين اللذين تربطهما علاقة ذات وجهين تجمع بين الحبّ والكراهية. يسود الحبّ في بعض الأحيان وتسود الكراهية في أحيانٍ أخرى.

هناك العديد من كوبيي الجزيرة ممن لديهم أفراد من العائلة على درجات متفاوتة من القرابة موجودين في الولايات المتحدة الأميركية. والعكس صحيح أيضاً. وفي الجانبين الكوبي والأميركي على السواء، يمارس الحرس القديم خطاباً ازدواجياً: فهو يقول شيئاً في العلن ويفعل العكس في الأحاديث الخاصّة. فمواطنو الجزيرة الذين آثروا البقاء في بلدهم اعتبروا لزمنٍ طويل الذين اختاروا المنفى على أنّهم خونة للوطن وحشرات تافهة وديدان أرضٍ عديمة القيمة. كانوا يقولون: «إذا رميت نفسك في البحر لكي تذهب إلى ميامي ووصلت إلى هناك، فهذا خيارك. أمّا الآن وقد أصبحت هناك، فتأتي لتنتقدنا؟ كلا! دعنا في سلام!». وفي الوقت نفسه، وافق الذين ظلّوا في كوبا على تلقّي الأموال المرسلة من فلوريدا ومن كافّة أرجاء البلاد حيث تقيم الجالية الكوبية. بالنسبة إلى الجالية الكوبية في أميركا، فهي كانت تنتقد كوبا ولكنّها كانت تساعدها في نهاية المطاف من خلال إرسال الأموال إليها.

خلال أعوام التسعينيات، تعرّفتُ عن قرب إلى عائلة كانت

جدّتهم تعيش في نفس المنزل منذ ما قبل اندلاع الثورة. كان الابن البكر للعائلة قد غادر للعيش في الولايات المتحدة الأميركية في حين بقي الابن الأصغر في كوبا. كان موظّفاً لدى الحكومة. حافظت الجدّة على تواصلها مع ابنها وأحفادها المقيمين في ميامي واعتبر الابن الأصغر أنّ شقيقه قد انتقل إلى صفّ العدو. بينما كانت الجدّة تدافع عن ابنها المنفي. مرّت الأيام، وتحوّلت انتقادات الابن الأصغر شيئاً فشيئاً إلى مجاملات. ومن خلال قربي مع هذه العائلة، عشتُ شخصياً تجربة التحوّل في الذهنيات وتغيّر طريقة التفكير.

كان الكوبيون الذين يعيشون في المنفى يميلون على الدوام إلى الاعتقاد بأنّهم أكثر ثقافة ومعرفة واطلاعاً. وكانوا يتصوّرون أنّ مواطنيهم في كوبا لا يعرفون شيئاً. وهذا تصوّر خاطئ تماماً! أنا أُقرّ بأنّ الإنترنت في كوبا بطيء وأنّ الصحافة فيها تفتقد إلى التنوّع والتعددية. لكن لدى الجميع أطباق لاقطة ويشاهدون البرامج التلفزيونية التي تُبثُّ من ميامي. والأقراص المدمجة (CD) وأقراص الفيديو الرقمية (DVD) رائجة في البلاد. وكذلك تُبثُّ الأخبار عبر ما يُدعى «راديو بمبا»[1] (من الفم إلى الأذن) وظلّت الاتصالات مع الذين غادروا البلاد مستمرّة. في هافانا، نرى الشبّان يبحثون عن أفضل المحلّات لكي يتّصلوا عبر خدمة تقنية واي فاي، مثل فندقي لا رامبا وبريزيدانتي. لقد أتاحت لهم الحداثة والتقنية أن يبقوا على دراية واطلاعٍ على ما يحدث من حولهم. من جهة أخرى، يُكثر

(1) راديو بمبا: هو اسم أطلقه الثوار الكوبيون على نظام إذاعي يُدعى (من الفم إلى الأذن)، وهو نمط من نقل الحديث بين شخصين ومن ثمّ نحو شخصٍ آخر. -المترجم-

سكّان الجزيرة من القراءة والمطالعة. إنّهم مثقّفون ويعرفون جيّداً تاريخهم ويحترمونه كثيراً. لديهم نظرة إلى العالم أكثر سعة بكثير ممّا نتصوّره. حينما يبحرون إلى فلوريدا، يكونون بالأساس مثقّفين ومتعلّمين ومعدّين إعداداً جيّداً. لقد درسوا بفضل نظام التعليم المجاني في البلاد. فيأتون للقيام بأعمال التنظيم والبناء وإقامة المشاريع. ليس صدفة أنّ أوضاعهم تزدهر بسرعة.

يفقد اللوبي الكوبي في ميامي زخمه وسرعته في التقدّم. أتصوّر أنّ هذا الأمر يعود إلى أنّ الشباب يريدون أن يتمّ تطبيع العلاقات وأن يتمكّنوا من الذهاب إلى كوبا ويقوموا بزيارة أهلهم وأقاربهم. وهم ليسوا متطرفين في آرائهم مثل آبائهم أو أجدادهم. لم تعد المعارك الطليعية معاركهم. لا يجدون أنفسهم فيها لأنّهم لم يعيشوا نفس التجربة التي عاشها آباؤهم وأجدادهم. لم يعد يرغبون في هذه النزاعات التي تبدو لهم مضحكة وعبثية لا جدوى منها. والأمر نفسه يحدث في كوبا.

تجري الحكومة الكوبية باستمرار التعديلات على اللوائح والنظم القانونية والقضائية لكي تتواكب مع التغييرات الحاصلة في البلاد. إنّها تتكيّف مع الأمر الواقع. هناك مبالغ مالية هائلة يتمّ ادّخارها من خلال إرسالها أو تقديمها من قبل الجالية الكوبية في الولايات المتحدة الأميركية. منذ أن تمَّ السماح برحلات الطيران المؤجّر انطلاقاً من ميامي ونيويورك (يتوفّر مطار خوسيه مارتي في هافانا على مدرج خاصّ لاستقبال هؤلاء المسافرين)، زار حوالي مليون منفي كوبي الجزيرة خلال السنوات العشر الأخيرة. إذا حسبنا أنّ كلّ شخص جلب معه عشرة آلاف دولار، وهو المبلغ المسموح به قانونياً، فهذا يعني أنّ عشرة مليارات دولار قد دخلت إلى كوبا،

دون الأخذ بالحسبان المبالغ المرسلة عبر شركة ويستيرن يونيون للتحويلات المالية. كما سمحت الولايات المتّحدة لشركات الطيران بتسيير رحلات تجارية بين البلدين. ويقدّر بأنّ عدد هذه الرحلات ستكون مئة وعشر رحلات في اليوم الواحد (مقارنةً بعدد رحلات الطيران المؤجّر الذي يبلغ خمساً وعشرين رحلة في اليوم الواحد).

خلال فترات طويلة، راكم سكان الجزيرة الأموال من دون أن تكون لديهم فرصة حقيقية لإنفاقها. لم يكن بمقدورهم من الناحية الرسمية أن يشتروا مسكناً (العديد من الكوبيين هم مالكو بيوتهم العائلية القديمة)، ولكن، بالمقابل، كان لهم الحق في عمليات المقايضة. ماذا كانوا يفعلون إذاً؟ كانوا يتظاهرون بأنّهم يقايضون شقّة من غرفتين ببيتٍ كبير يضمّ خمس عشرة غرفة ويدفعون فرق القيمة من تحت الطاولة. كان ذلك بكلّ تأكيد سرّاً شائعاً. مَنْ كان ليُصدِّق بأنّ مالك قصرٍ أو مزرعة يريد أن يُقايض عقاره ببيت صغيرٍ مكوّنٍ من غرفتين؟

وإذ تبيّن للدولة الكوبية بأنّها ليس فقط لا تستطيع أن تمنع هذه السوق السوداء بل تفقد الكثير من الأموال من جرّاء ذلك، شرعنت المعاملات العقارية وأخضعتها لضريبة تذهب إلى صندوق الدولة. وهي لم تفعل بذلك سوى إضفاء الشرعية القانونية على عملية كانت جارية أصلاً بين الناس.

كان هناك مكتب لشؤون الكوبيين في الولايات المتحدة الأميركية، والذي كان أشبه بما كان الكوبيون يسمونه «لعبة الروليت». كان هذا المكتب يسمح من حينٍ إلى آخر لكوبيي ميامي بالسفر إلى الجزيرة. مع مرور الزمن، أمّن هذا المكتب المزيد من أذونات السفر. أمّا الآن وقد أصبحت عمليات التبادل والتحويلات

المالية حرّة، فالأموال تخرج علناً وفي وضح النهار. في كلّ مرّة أذهب فيها إلى كوبا، يتبيّن لي أنّ تغيّرات كبيرة قد حدثت في البلاد. تنتشر صالونات الحلاقة والتزيين والمطاعم والمحلّات كما ينمو الفطر!

لقد أقرّ أوباما أنّ الوقت قد حان لإجراء تغييرٍ في السياسة. بعد مضي خمسين عاماً، لم يعطِ الحصار الذي أُعلِن عنه في عام 1962 أيّ نتيجة. وأعتقد أنّ الرئيس الأميركي قد تأثّر أيضاً بالتغييرات التي حصلت في بلدان أميركا اللاتينية التي باتت تميل نحو اليسار وتتقرّب من كوبا.

هناك طُرفةٌ ظلّت محفورة في ذاكرتي. كنتُ في كوبا خلال مرحلة صعبة للغاية بالنسبة إلى الجزيرة. توقّفتُ في محطة للتزوّد بالوقود. اعتقد الموظف العامل في المحطة أنني إسباني بسبب بشرتي الفاتحة. بدأ مباشرةً بالتذمّر والتململ بينما كان يضع الوقود في سيارتي. قال لي: «أوف، يا بيبي[1]، حاول أن تتخيّل للحظة واحدة ما الذي يعني بالنسبة إلينا أن نعيش في هذه البلاد. هذا فظيع! ليس لدينا أي شيء نأكله». تفحّصته من قمّة رأسه حتى أخمص قدميه. كان رجلاً ضخماً وبديناً ويكاد أن يعاني من السمنة المفرطة! فأجبته قائلاً: «هل تسخر منّي؟ وتتجرّأ على أن تقول لي إنّ لديك مشاكلُ تتعلّق بتغذيتك! أريد حقّاً أن أصغي إلى شكواك ولكن ابحث عن أمرٍ آخر غير التغذية!».

أحبُّ الشعب الكوبي كثيراً. إنّه شعبٌ مثيرٌ للإعجاب ولديه قدرة هائلة على التحمّل ويفعل ما يروق له وعلى الإيقاع الذي

---

(1) الكوبيون يُطلقون على جميع الإسبان اسم «بيبي».

يناسبه. وفيما يخصّ البطولة والشجاعة، فإنّه شعبٌ لا مثيل له! إنّه أحد أوائل مَنْ أبحر على متن قاربٍ صغير لكي يغيّر حياته نحو الأفضل. إنّه شعبٌ خبير في فنّ التحدّث من دون انقطاع وهو لا يقول شيئاً على الإطلاق. إنّه قادرٌ على أن يدخّن سيجاراً تحت الماء. إنّه شعبٌ يضجّ بالحياة، يرقص ويضحك ويمزح ولديه ميلٌ إلى السعادة ومزاجٌ مرحٌ وحسّ الفكاهة ويحوّل مصائبه إلى نوع من السخرية. إنّ حكاية حزينة من شأنها أن تكون سبب حزنٍ شديدٍ في الأرجنتين تتحوّل إلى طرفة ونكتة في كوبا. الأعطال في شبكات الكهرباء متكرّرة جدّاً في كوبا، بل أنّها قاعدة سائدة. يضحك الكوبيون لهذا الأمر. حينما تكون هناك إنارة، ينذهلون قائلين: «آه، ضوء!» ويحبّون أن يردّدوا هذه النكتة: على حافة الهاوية، تنحني الرأسمالية. ماذا تشاهد في قاع الهاوية؟ الشيوعية التي سبق لها وتحطّمت والتي تستعدّ الرأسمالية للانضمام إليها. باب الكوبي مفتوح على الدوام. حسن الضيافة والتضامن بعض من أفضل خصالهم. يظلّ يعتبر الإنسان كائناً إنسانياً وليس شيئاً أو آلة. لا يسعى إلى أن يغشّ جاره ويرى ما يمكنه أن يأخذه أو ينتزعه منه. لا يملك سيارة فيراري ولا مرسيدس ولا طائرة خاصّة. وماذا بعد؟ هل هو أكثر بؤساً؟ أعرف فتاة كوبية في السادسة والعشرين من عمرها وتقيم حديثاً في بوينس آيرس. إنّها فتاة جميلة متعلّمة ومثقّفة جدّاً ونبيهة وذكية وهي من هافانا ولم يسبق لها أن خرجت أبداً من كوبا. في المرّة الأولى التي راحت فيها لتتسوّق، صُدِمت بعمق. كانت تبحث عن زوجٍ من أحذية باليرينا بيضاء اللون. ماذا قالت لها البائعة في متجر الأحذية حينما طلبت منها أن تجرّب الباليرينا البيضاء؟ قالت لها إن الموضة الجديدة هي موضة النعال المتّصلة بالساق

المعتمدة من قبل كلّ البورتيناس[1] وأنّه من الأفضل أن تقتني هي الأخرى من هذه النعال إذا كانت تريد تجنّب سوء الذوق. صديقتي غريبة عن مفهوم الموضة والفصول، وتبدو لها هذه المبادئ تافهة لا قيمة لها. ليست هناك موضة في كوبا. لا يرتدي فيها المرء ما هو ثمين ونفعي.

لا شكّ أنّ كوبا مجتمع أكثر فقراً من أغلبية البلدان المتطوّرة، ولكن على نحوٍ أصحّ، أقلّ ماديّة بفضل معايير المساواة والإنصاف العالية جدّاً. لدى الكوبي حسٌّ عالٍ بالأخلاق والإخاء والعدالة. في المجتمع الكوبي هناك مساواة بين المرأة والرجل. تفعل المرأة ما تشاء بجسدها ولها الحقّ في الإجهاض. لا أحد يمكنه أن يرغمها على إنجاب طفلٍ هي لا تريده. وتكاد معدلات الجريمة أن تنعدم.

تسود العدالة في البلاد وتسير سيراً حسناً. إنّ مقتل كائن بشري، سواء تعلّق الأمر برجلٍ أو بامرأة، ينتهي بشكلٍ عام بإلقاء القبض على المذنب في اليوم ذاته. إنّ الإحساس بالأمان الذي يسود في البلاد هو ثمرة التغييرات التي أحدثتها الثورة في المجتمع. ليست هناك جريمة منظّمة في كوبا.

يموّل جزءٌ من واردات الدولة قطاع الصحّة العامّة ويموّل جزءٌ آخر قطاع التعليم ويموّل جزءٌ آخر أيضاً قطاع البرامج الاجتماعية مثل التعويضات العائلية ورياض الأطفال وسواها من البرامج التي تخدم المجتمع. هناك خطرٌ يهدّد القيم الإنسانية والاجتماعية النفيسة بالنسبة إلى الكوبيين بالضياع والزوال بسبب عودة الولايات المتّحدة الأميركية إلى الجزيرة. تريد الولايات المتحدة الأميركية أن تكسب

---

(1) لقبٌ يُطلق على النساء الساكنات في بوينس آيرس.

الحرب الأيديولوجية التي تخوضها مع كوبا. منذ خمسين عاماً، هدف أميركا هو تحويل كوبا إلى بلدٍ رأسمالي. والحال أنّ الرأسمالية تقضي على المساواة وفي هذا الإطار ليس علينا سوى أن ننظر إلى ما يحدث في الصين بوجود خمسمئة مليونير وامتيازات قيادات الحزب ورؤساء المشاريع والمنشآت. ومع ذلك، التغيّرات التي ألاحظها في كوبا ضرورية.

لكي تستطيع الدولة الكوبية أن تخلق ومن ثمّ تدعم برامجها الاجتماعية، وجب عليها أن تخلق عملية توازن في رواتب الموظفين والعاملين. ما المقصود براتب متوازن؟ هو توزيع كمية ثروات بلدٍ ما على سكانه. لم تشهد كوبا التفاوت الشديد في الدخل كالذي شهدته بلدانٍ أخرى مثل الولايات المتحدة الأميركية على سبيل المثال، أو الفارق بين راتب عاملٍ ومدير عامٍ لمؤسسة أو مشروعٍ والذي يبلغ اليوم 300%. تنهب الولايات المتحدة الأميركية ثرواتٍ بلدانٍ أخرى ولكنّها لا تعيد توزيع هذه الثروات على مواطنيها فما بالكم بسكان البلدان المنهوبة. في هذه الأثناء، يرسل الكوبيون خيرة أطبائهم إلى الخارج لكي يقوموا بإنقاذ حياة مواطني تلك البلدان. علينا ألا ننسى أنّ الأطباء الكوبيين كانوا متواجدين بكثافة في أفريقيا الغربية أثناء انتشار وباء إيبولا هناك.

كوبا بلدٌ صغير يبلغ تعداد سكانها أحد عشرة مليون نسمة ولكنّه قاوم ببسالة وإقدام أعظم قوّة عالمية خلال أكثر من خمسة عقود. هذه الروح المقاومة مثيرة للإعجاب والتقدير. لقد نجت كوبا -نجت على نحوٍ سيئ ولكنّها نجت في نهاية المطاف- من «الحقبة الخاصّة» التي أعقبت الحرب الباردة. بعد أن فقدت دعم ومساندة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، حينما سقط جدار برلين ولم يعد

لديها أيّ شيء، استطاعت أن تبقى وأن تستمر وذلك يعود جزئياً إلى تطوير السياحة وتنميتها. لم يكن أحدٌ يعتقد جدّياً بأنّ كوبا سوف تنجو من انهيار الاتحاد السوفيتي. لقد أظهرت وبرهنت العكس. لقد التفّت حول فيدل وظلّ الكوبيون يدافعون عن مفهوم التضامن والعدالة والإنصاف على الرغم من تقاربهم مع النموذج الرأسمالي الأكثر أنانية بكثير. أنا أسمّي هذا المزج بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي بالنظام «الاشترأسمالي» (هكذا في الأصل). هذا تناقضٌ بالتأكيد ولكن هل هناك من شعبٍ ليست لديه تناقضاته؟ ينتظر الكوبيون بفارغ الصبر وصول السفن البحرية الأميركية ولكنّهم يخشون في الوقت ذاته من أن يجدوا أنفسهم يتلوّثون على نحوٍ غير مباشر بها. يريدون أن يأتي «المغتربون»[1] وينفقوا كلّ أموالهم وهم يعلمون بأنّ التغيّرات الناجمة عن هذه الواردات الجديدة سوف تغيّر الذهنيات والعقليات، وليس بالضرورة بطريقة إيجابية. إنّهم في آنٍ واحدٍ متحمّسون وقلقون من فكرة هذا المدّ البشري الذي سوف لن يتخلّف عن الإبحار إلى شواطئهم. لم تتأخّر فرنسا في انتهاز الفرصة إذ ما أن تمَّ الإعلان عن كسر الجليد في العلاقات بين البلدين حتى ذهب الرئيس الفرنسي فرانسوا أولاند إلى كوبا بهدف تطوير العلاقات الدبلوماسية والتجارية. وقد وصل إلى هافانا وبرفقته العديد من رجال الأعمال من بينهم ممثّلون لشركة بيرنو ريكار ولسلسلة فنادق آكور ولشركة الخطوط الجوية الفرنسية ولشركتي

(1) (Gringo): غرينغو هي كلمة عامية في اللغتين الإسبانية والبرتغالية تُستخدَم على نحوٍ خاصّ للإشارة إلى الأجانب، وخاصة للمتحدرين من البلدان الناطقة باللغة الإنجليزية. -المترجم-

كارفور وأورانج. ونتصوّر تماماً أنّ جزءاً من إيرادات هذه المشاريع سوف تذهب للفرنسيين.

غالباً ما يُساءُ فهم الكوبيين. فهم لم يعرّفوا أنفسهم أبداً على أنّهم ماركسيون، على الرغم من أنّهم كاسترويون وثوريون. مؤخّراً، قال لي أحد أصدقائي: «لقد ارتبطت كوبا بإسبانيا خلال أربعة قرون ومن ثمّ بالولايات المتحدة الأميركية، وبعد ذلك بالاتحاد السوفيتي وهي الآن تتهيّأ لكي تخضع للتأثير الأميركي. إنّنا ندور في حلقة مفرَغة». المشكلة هي أنّ كوبا لم يعد لها الخيار. لم يعد بوسعها أن تدبّر أمرها لوحدها وأن تواجه الملايين من المستثمرين المختصين في مجال استثمار واستغلال الموارد وافتتاح الأسواق الجديدة. ماذا ننتظر من كوبا؟ أن تصبح سويسرا أو فرنسا؟ دائماً ما تتمّ مقارنتها بالبلدان المتقدمة. لماذا لا تتمّ على العكس من ذلك مقارنتها بالبلدان المجاورة لها مثل هاييتي وجمهورية الدومينيكان أو حتى الهندوراس؟ فأيّ بلدٍ من هذه البلدان في وضعٍ أفضل؟ أيّ بلدٍ منها يُعالج ويُعلّم مواطنيه مجاناً؟ في أيّ بلدٍ من هذه البلدان نسبة الجريمة أقلّ؟ أمّا أن يكون هذا البلد بمثابة قاطرة اشتراكية ظافرة ويغيّر العالم، فهذا أمرٌ صعب حينما تكون الولايات المتحدة الأميركية على مسافة 180 كيلومتراً! لا يمكن أن يرتبط مصير الاشتراكية العالمية بكوبا.

هل حقّق نموذجها الاقتصادي نجاحاً؟ تختلف وجهات النظر بهذا الشأن. لقد استشعر تشي مشكلة التصنيع منذ عام 1963 حينما صرّح في مقابلته الشهيرة التي منحها للصحافي جان دانييل قائلاً: «إنّ المصاعب التي تعترض سبيلنا هي بشكلٍ رئيسي ثمرة أخطائنا، وهي أخطاء عديدة. إنّ الاستثمار المحدود لقصب السكّر هو الذي

تسبّب لنا بأسوأ الأذى». كما قال في مناسبة أخرى: «إنّ ما يقلقني هو افتقارنا أحياناً للشجاعة في مواجهة بعض الوقائع والحقائق الاقتصادية أو السياسية. [...] يحدث لنا أن يكون لدينا بعض الرفاق الذين يتبعون سياسة النعامة، الذين يخفون رؤوسهم في الرمال. فيما يخصّ المشاكل الاقتصادية، وضعنا اللوم أحياناً على الجفاف واّتهمنا أحياناً أخرى الإمبريالية... أحياناً، لم نشأ أن نكشف جديداً، لم نكن حاسمين ولم نتّخذ القرار المطلوب ومن ثمّ وحده النموذج الأميركي بقي».

ماذا كان ليحدث لو أنّ تشي قد بقي في كوبا؟ بالتأكيد لا يمكن معرفة ذلك. كان يعتقد أنّ الجزيرة في المجمل تسير على الطريق الصحيح وفي أيادٍ أمينة وبالتالي يمكنه نتيجة لذلك أن يذهب ويعيد إنتاج هذه التجربة في بلادٍ أخرى. هل بقيت كوبا وفية لروح تشي؟ بالمقابل، هل كان تشي مسؤولاً عن إخفاقاتها؟ ها هنا فخٌّ جدلي. كان إرنستو يريد أن يحوّل البلاد إلى بلادٍ صناعية وأن ينوّع الإنتاج فيها. ولهذا السبب أصبح منذ البداية وزيراً للصناعة. كان يرغب في أن يوسّع نطاق المبادلات التجارية الثنائية: بالإجمال، كانت كوبا تُصدّر السكّر وتستورد اللحوم. ولكن لا يمكن لهذا أن يكون كافياً لإثراء البلاد. كان لا بدَّ لها من أن تصبح أكثر استقلالية لكي تواصل ثورتها.

تنتشر صور إرنستو على نحوٍ واسع جدّاً في الجزيرة، ولكنّه من الصعب أن نقدّر حجم تأثيره الراهن على السياسة الكوبية. في المدارس الكوبية، يتم تعليم مآثر تشي للتلاميذ ويتمّ الحديث عنه كبطلٍ وطني، ولكن لا تجري دراسة فكره. وقليلون جدّاً مَنْ يعرفون فكره معرفة عميقة. لم تعد هناك وزارة للصناعة ولم يعد هناك سوى

برنامج العمل الطوعي الذي وضع إرنستو أسسه والذي هو قبل كلّ شيء ما أسمّيه «مولّدة الضمير»، بما أنّ ليس لدوره الخاصّ طابعٌ اقتصادي وإنّما اجتماعي وإنساني.

يتمّ اتّهام كوبا بأنّها دولة قمعية. تمتلك الولايات المتحدة الأميركية الجرأة في إدانة انتهاكاتها لحقوق الإنسان في حين أنّها تحتفظ بمعتقل سجناء غوانتانامو في كوبا منذ عام 2002، وهو مركز اعتقال خارج إطار القانون حيثُ يُسجَن فيه معتقلون لمدةٍ غير محدّدة! في الواقع، ليس هناك قمع سياسي حقيقي في كوبا. نحن نعرف، اليوم، أنّ المعتقلين الثلاثة والخمسين الذين جرى الحديث عنهم كثيراً على أنّهم سجناء سياسيون مساكين كانوا في الحقيقة عملاء لوكالة المخابرات المركزية الأميركية الذين تمَّ كشفهم وضبطهم من قبل أجهزة الاستخبارات الكوبية! وعلاوة على ذلك، إنّ عدداً كبيراً ممّن يزعمون بأنّهم منشقون عن كوبا هم في الحقيقة مرتزقة مدعومون من الولايات المتحدة الأميركية. ما الذي يفترض بكوبا أن تفعله؟ أن تدعهم يفعلون ما يشاؤون؟ إذا كانت وكالة المخابرات المركزية الأميركية تريد أن تزعزع الاستقرار في الجزيرة من خلال منظمات أميركية معادية لفيدل كاسترو، فمن المؤكّد أنّ كوبا سوف تدافع عن نفسها! كم من المرّات حاولت السي آي ايه أن تغتال فيدل؟ لقد تعرّضت كوبا خلال أربعة وخمسين عاماً للهجوم في حين أنّها لم تقم هي بأيّ اعتداء على الولايات المتحدة الأميركية. وطيلة هذا الوقت، حاولوا إيهامنا بأنّ كوبا هي التي كانت تمثّل خطراً على السلام العالمي! ماذا كان ردّ تشي في عام 1964، في مقابلة ضمن برنامج «فيس ذي نيشن» على قناة CBS، حينما سأله الصحافيون عن تصوّره لمستقبل العلاقات الأميركية الكوبية؟ «ما

تريده كوبا قبل كلّ شيء هو أن تدعها الولايات المتحدة الأميركية وشأنها. نحن لا نريد نزاعاً. نريدكم أن تنسونا. هذا كلّ ما نطلبه وهذا طلبٌ بسيط جدّاً». ولكنّ الولايات المتحدة الأميركية لم تكن قادرة على أن تنسى كوبا. لقد باتت كوبا هاجساً يسيطر عليها. خلال العقود التي مرّت، بثّت الولايات المتّحدة الكثير من الأكاذيب ضدّ كوبا. من قبيل، على سبيل المثال، أنّ المرء لا يستطيع أن يعبّر عن رأيه بحرية في كوبا. في كوبا، المرء حرٌّ في أن يتكلّم كما يشاء في الشارع من دون أن يطالبه أحد بالحساب. ما لا يمكن للمرء أن يفعله هو التعبير عن رأيه بحرية في الصحف. هناك حقيقة أخرى يعرف الناس القليل عنها ألا وهي الانتخابات. هناك انتخابات في كوبا أكثر من أيّ بلدٍ آخر في العالم. ليس هناك اقتراع عام على منصب الرئيس ولكن هناك فرطٌ في الانتخابات البلدية والمحلية والتشريعية. يضمّ المجلس الوطني للشعب الكوبي ستمئة واثني عشر نائباً منتخباً من قبل الشعب. ولا أحد يضع مسدّساً في صدغ المواطن لينتخب هذا المرشّح أو ذاك.

هل خان فيدل تشي حينما تركه في بوليفيا؟ هل أرسله ليخوض الحرب في بلدٍ آخر لكي يتخلّص منه في سبيل إرضاء السوفيت الذين كان إرنستو قد بدأ بتوجيه الانتقادات إليهم في خطاباته؟ هذا بعيد كلّ البعد عن الحقيقة. كان فيدل وتشي يتقاسمان نفس الرؤية إلى العالم وإلى الثورة الضرورية من أجل التخلّص من المآسي التي تفرضها الرأسمالية والوجه الآخر لها، أي الرأسمالية، على المجتمعات. كان على فيدل أن يبقى في كوبا ورغب تشي في حريّة الذهاب لكي يزرع بزور الاستقلال والمساواة والقيم والمثل الاشتراكية في البلدان الأخرى. لقد ترك كوبا بمحض إرادته ورغبته. ليس هناك ما هو

أوضح من مراسلاته وكتاباته حول هذه المسألة. كان إرنستو عدوّاً للمجموعات التجارية الكبرى والشركات المتعددة الجنسيات وللرأسمالية، وكان فيدل عدوّاً لها بطريقة مختلفة. ولكن بما أنّ تشي قد مات وتمَّ دفنه، فيتم التهجّم على فيدل الذي بقي على قيد الحياة. أخذ فيدل دور الرجل الشرير، دور كبش الفداء. أصبح يُنظر إليه على إنّه خائن وانهزامي. والحال أنّ فيدل قد رعى واعتنى بأطفال تشي الذين كانوا ينادونه «تيو» أي العمّ، وكانوا يكنّون له حبّاً وحناناً كبيرين. وكدليلٍ على حنانه وعطفه حيال عائلتنا، فقد منعت الحكومة الكوبية نشر الصورة الشهيرة لإرنستو وهو ميّت، الصورة التي آلمتني بشدّة وصدمتني في اليوم العاشر من شهر أكتوبر من عام 1967، وكذلك صورة يديه المقطوعتين. وذلك احتراماً لمشاعرنا ولأنّها كانت مؤلمة للغاية.

ذات يوم، ألقى فيدل خطاباً مهمّاً جدّاً في هافانا بحضور السفير السوفيتي في كوبا يوري بيتروف. كان ذلك في عام 1987، نظر فيدل إلى يوري بيتروف محدّقاً في عينيه وقال: «أعتقد أنّه سوف لن يكون أمراً سيئاً بالنسبة إليكم إن قضيتم القليل من الوقت في قراءة أفكار تشي. سوف تُدركون بأنّنا هنا، في أميركا اللاتينية، لدينا أيضاً مفكّرون».

ما الذي بوسعي أن أفعله غير زرع البذور؟

في بعض الأحيان تلعب الصدفة دورها في تدبير الأمور. إذا كانت مغامرتي في مشروع المقهى والمطعم قد انتهت نهاية سيئة، فإنّه قد أتاح لي على الأقلّ أن ألتقي مع الصحافية الفرنسية أرميل فينسن وأؤلّف هذا الكتاب. في الحقيقة، نشأت صداقتنا في عام 2007 حول طاولة في محلّي إيبيكوريوس. كانت صديقة أرجنتينية قد تحدّثت لها عنّي بعد أن قرأت مقابلة -وهي مقابلتي الأولى- في الصحيفة اليومية **باجينا 12**، والتي طالبتُ فيها الحكومة بدفع المستحقات التي وعدت بها السجناء السياسيين تعويضاً عن اعتقالهم وسجنهم، لأنّ الحكومة كانت قد تأخّرت في الوفاء بوعدها. حينما علمت أرميل بوجودي هناك، أرادت على الفور أن تلتقي بي. ومثلها مثل الكثير من الناس، لم تكن تتصوّر قط أن يكون لدى تشي أخٌ، ويكون، علاوة على ذلك، على قيد الحياة! فانطلقت على الفور تبحث عنّي في حي لاس كانيتاس (في المقابلة لم يتمّ تحديد لا اسم ولا عنوان محلّي إيبيكوريوس) وعثرتْ عليّ في النهاية. عرّفتني إلى نفسها وطلبت منّي أن تجري لقاءً صحفياً معي. رفضتُ طلبها. في تلك الفترة، لم أكن مهيأً لأن أجري مقابلة حول تشي ولكنني دعوتها

إلى شرب فنجان من القهوة. كانت برفقة زوجها الأرجنتيني. تحدّثنا كثيراً. تحدّثتُ قليلاً عن عائلتي. بدت أرميل أنّها مهتمّة بالموضوع كثيراً. والتقينا في نهار اليوم التالي لكي نتناول الغداء معاً. خلال النقاشات والأحاديث التي جرت بيننا، علمتُ أنّ كلوديو، زوج أرميل، كان قد فرّ من الأرجنتين في عام 1974 بعد أن تمَّ توقيفه بسبب نشاطاته الثورية حيث كان يناضل في صفوف إحدى الحركات الجيفارية. خلق هذا الأمر صداقة بيننا وعزّز علاقتنا. على نحوٍ مفاجئ، قررتُ أن أخصّ أرميل بالمقابلة. لقد كتبت نبذة عن حياتي في مجلة **لاماتور دي سيكار**[1]. بقيت على تواصل بعد تلك المقابلة. حينما التقينا مرّة أخرى في بوينس آيرس، في شهر مارس من عام 2015، أسرتُ لها بأنّني أريد من الآن فصاعداً أن أحيي ذكرى أخي فاقترحت عليّ فكرة تأليف كتابٍ. وهكذا ظهر هذا العمل في فرنسا.

لقد رفضتُ التحدّث عن إرنستو على مدى سنوات عديدة. وكان ذلك لاعتبارات تتعلّق بالتواضع وبالاتفاق الضمني مع أخوتي وأخواتي وكردّ فعلٍ على والدي الذي بالغ في استغلال أبوته لتشي في كوبا، وما لا شكّ فيه أيضاً بسبب الخوف. لماذا كنتُ سأقول أنني شقيقه؟ لكي يقوموا باغتيالي؟ في الواقع، بعد نهاية الدكتاتورية وعندما زال الخطر، لم أطرح حقّاً على نفسي السؤال لكي أعرف لماذا كنتُ لا أزال أشعر بعدم الارتياح من فكرة الكشف عن علاقة القرابة التي تربطنا. كانت تلك مسألة شخصية خاصّة جدّاً. كان إرنستو أخي قبل أن يكون البطل المكلّل بالمجد. كنتُ أخشى أن

---

(1) L'Amateur de cigare: وتعني «هاوي السيجار». -المترجم-

أستغلّ ذكراه كما فعل الكثير من الآخرين ذلك. وبالتالي كنتُ ألتزم الصمت وأنا أجد نفسي باستمرار في مواجهة صورته في شوارع بلدان العالم قاطبة حيث يستمرّ في الوجود مثل أسطورة. هذه الأسطورة كانت ولا تزال تزعجني.

ذات يومٍ من شهر أكتوبر من عام 1973، كنتُ في كوبا مع عائلتي حينما تعرّض ابني مارتن لنوبة ربو قاسية جدّاً. اعتقدت أنّه قد ورث هذا المرض من عمّه إرنستو، مثل شقيقه بابلو. كان ولداي في الحقيقة مصابين بداء الربو. أنا لم أكن مصاباً بالربو. كنتُ أعاني من مشاكل رئوية غريبة لدى خروجي من السجن ولكنّها لم تكن مشاكل ذات صلة بالربو. نقلتُ مارتن إلى قسم الطوارئ في مجمع بوراس، وهو مجمّع طبي في هافانا. كانت حالته حرجة إلى درجة أنّ الأطبّاء قرروا إبقاءه في المستشفى وعلّقوا له المصل الغذائي (السيروم). كان بالكاد يستطيع أن يتنفّس.

لا شكّ أنّ الطبيبة هناك قد تعرّفت إليّ من خلال الكنية التي أحملها. في اليوم التالي، نحت بي جانباً وقالت لي: «السيّد جيفارا، نودّ أن ندعوك إلى المشاركة في حفلة سوف تُقام غداً. علينا أن نمنح الجوائز لأفضل الموظّفين باسم تشي ونحن نعتمد على حضورك». شهر أكتوبر هو شهر إحياء ذكرى وفاة إرنستو وكاميلو سيينفويغوس. رفضتُ الدعوة وشرحتُ لها أنني أفضّل البقاء بعيداً عن الأنظار وأنني قد جئتُ إلى المستشفى لأنّ ابني كان مريضاً. لم يُعجب ردّي الطبيبة، التي كانت قصيرة القامة ونحيلة ولكنّها قوية الشخصية ومتسلطة جدّاً. نظرت إليّ بعينين متوقّدتين وبنبرة لا تحتمل أيّ رد قالت لي: «اسمعني جيّداً، يا سيّد جيفارا. لديك كلّ الحقّ في التكلّم أو عدم التكلّم. ومع ذلك، يبدو لي أنّ موقفك هو موقف

رجل أناني. يعلم الجميع بأنّك هنا، ليست لديك أيّ فكرة عن كلّ الأمور التي يمكنك أن تقولها والتي أخفيتها في أعماقك. إذا كنت تفضّل أن تحتفظ بها لنفسك، فهذا خيارك ولكنني لا أوافقك الرأي في ذلك». وقفتُ أمامها ذاهلاً.

كانت تتكلّم على نحوٍ متواصلٍ ودون توقّف. وإذ أعيتني احتجاجاتها وتوبيخاتها، أذعنتُ لها. ماذا كان بوسعي أن أفعل غير ذلك؟ طلبت منها أن تحدّد لي مكان وموعد الحفل وذهبت إليه دون أن تكون لدي أدنى فكرة عمّا سأقوله. وضعوا طاولة طويلة في قاعة كبيرة وحضر الحفل مدير المستشفى وأطباء وممرّضون وممرّضات ومسعفون... لم أكن أعرف أيّ شخص من هذا الوسط. وضعوني إلى نهاية الطاولة وتركوني في راحتي التامّة أثناء توزيع الجوائز. كنتُ أفكّر وأتأمّل المشهد. لم يسبق قط أن طلب أحدٌ مني أن أفعل هذا. ما الذي يُفتَرَض بي أن أقول؟ فجأة، أمسكت الدكتورة بلاقط الصوت وأعلنت: «لنا الشرف أن يكون بيننا هذا المساء شقيق الدكتور إرنستو تشي جيفارا، الثائر البطل...» وقبل أن تتمكّن من إنهاء جملتها، وقف الحضور جميعاً وبدأوا بتصفيقٍ حادّ. كان ذلك مناسباً لي ومنحني بعض الفرصة لأنني كنتُ أشعر بغصّة في حلقي وأرتجف؛ وكان عليّ أن أهدّئ نفسي وأفكّر بما سأقوله. كانوا يبكون! كان تشي قد مات منذ خمس سنوات فقط وكان غيابه لا يزال مؤلماً في كوبا. كان الحضور هائجاً ومنفعلاً. أثّر فيّ ذلك الانفعال وتلك العاطفة أعمق تأثير.

وضع أحدهم لاقط الصوت أمام فمي وبدأت بالتحدّث. خرجت الكلمات من فمي بانسياب طبيعي. بينما كنتُ أتحدّث، تملّكتني الرغبة في أن أبكي أيضاً معهم. كانت الغصّة لا تزال

عالقة في حلقي، ومع ذلك، واصلتُ الحديث. لم أعد أعرف ما الذي قلته ولكنّ كلماتي كانت تصدر عن قلبي. كان الحضور يصفّق على نحوٍ منتظم. كانت تلك هي المرّة الأولى التي أتحدّث فيها عن إرنستو بشكلٍ علني وعلى الملأ. لقد احتفظتُ بذكرى مؤثّرة للغاية من ذلك الحفل، ولكنني لم أفعل ذلك طيلة ستّة وثلاثين عاماً.

أمّا بالنسبة إلى إعطاء المقابلات لوسائل الإعلام، فكانت لديّ تجربة وحيدة وبائسة في عام 1965 أو في عام 1966 (لم أعد أتذكّر على نحوٍ دقيق تاريخ إجرائها)، والتي صدمتني لزمنٍ طويل. كان العالم أجمع، بما فيه عائلتي، تتساءل إلى أين ذهب تشي. كان قد اختفى تماماً دون أن يترك خلفه أثراً. لم أكن أتحدّث مع أحدٍ عن صلة القرابة بيننا ولم أكن أعرف فضلاً عن ذلك أيّ شيء عن تحرّكات إرنستو. ذات يوم، حضر صحافيٌّ من صحيفة **غينتي** إلى مكتبتي. كان يريد أن يجري مقابلة معي. أجبته أنني لا أجري أبداً أي مقابلات مع وسائل الإعلام. ألحّ عليّ الصحافي بشدّة وقال لي: «أريد فقط أن أعرف إن كنت تعرف أين يتواجد شقيقك». كرّرت عليه أنني لا أعطي مقابلات لوسائل الإعلام. وأضفت أنني حتى لو علمت أين يتواجد أخي فسيكون هو الشخص الأخير الذي سأكشف له ذلك. كان هناك مصوّر وعدسة مقرّبة لم أكن قد رأيتهما في الجانب الآخر من الشارع. وقد صوّرني المصوّر من دون موافقتي على ذلك. في اليوم التالي، نشرت صحيفة **غينتي** صورة لي برفقة العنوان التالي: «خوان مارتن جيفارا يدّعي أنّه لا يعلم أين يوجد شقيقه تشي، ولكنّ النبرة التي استخدمها في التصريح توحي بأنّه يعرف ذلك جيّداً». كانت تلك الأساليب علاوة على أنّها تثير

حفيظتي وغضبي كانت تعرّضني أيضاً للخطر. ذهبتُ لمقابلة ذاك الصحافي السافل وقلتُ له: «ماذا تريد؟ هل تريد أن يلاحقني جهاز المخابرات الأرجنتينية (SIDE) ومكتب التحقيقات الفدرالي (FBI) ووكالة المخابرات المركزية الأميركية وجهاز الاستخبارات السوفيتية؟ هل أنت مريض؟» لم يهتمّ بما قلته طالما أنّه قد حقّق سبقاً صحفياً. لقد تسبّب لي بالأذى. فإذا كانت أجهزة الاستخبارات السرية لم تلاحظني من قبل، وهذا ما أشكّ فيه بشدّة، فقد أصبحتُ بعد الآن في مرمى أنظارهم.

مع مرور السنوات، تغيّرت الأمور بالنسبة إليّ وتركني الصحافيون أعيش بهدوء بعد أن أحبطتهم ولم يستطيعوا أن يحصلوا على شيءٍ منّي. ثمّ عادوا إلى تحمّل مهامهم في ملاحقتي بعد أن أجريتُ مقابلتي الأولى في عام 2007، مع الصحيفة الأرجنتينية اليومية **باجينا 12**. ولم تكن المقابلة تنصبّ آنذاك على أخي تشي وإنّما على التعويضات التي كانت الحكومة قد وعدت بمنحها إلى السجناء السياسيين. لقد تأخّرت في الوفاء بوعودها وأنا تدخّلت في الموضوع. عَلِم الجمهور آنذاك بوجودي. كان الجمهور قد نسي أنّ لدى تشي أخوة وأخوات. لم يكن الأرجنتينيون يعودون إلى ذلك الموضوع. وهذا يدلّ على مدى جهلهم بتاريخ بلادهم. مع ذلك، احتجتُ إلى سنتين إضافيتين لكي أقرّر الحديث عن تشي. كنتُ ضحية الرقابة الذاتية التي فرضتها على نفسي!

حينما بذلت الصحافة الأرجنتينية محاولة جديدة في عام 2009، كنتُ قد أصبحت أخيراً جاهزاً للاستجابة لتلك المحاولة

دون أن أقرّر رسمياً ذلك. ذات يوم، وافقت بكل بساطة على أن أجري مقابلة. كان لديّ كمٌّ هائلٌ من الأشياء التي يمكنني أن أصرّح بها والتي كنتُ أحتفظ بها لنفسي حتى تلك اللحظة. ومن ثمّ كانت هناك المناقشات والأحاديث الكثيرة التي خضتها مع روبرتو وسيليا وكذلك مع آنا ماريا قبل موتها. منذ أن عادت سيليا من المنفى في عام 1984، وتبعها بعد ذلك روبرتو، كنا نتحدّث كثيراً عن إرنستو وعن أهمية إرنستو وعمّا إذا كان يجب أن نتحدّث ونعبّر عن رأينا أم، على العكس من ذلك، أن نسكت. ظلّت آنا ماريا وسيليا على موقفهما وواصلتا التزام الصمت. أمّا روبرتو فقد تحدّث كثيراً بشكلٍ علني وبخاصّة حول حركته MODEPA.

لا تعرف أختي سيليا أيّ شيء بخصوص هذا الكتاب. حينما ستعلم بأمره، ربّما لن تعود تتكلّم معي أبداً! إنّها على خلافٍ كبير معي بهذا الشأن. ولذلك نتجنّب الخوض فيه حتى لا نتشاجر مع بعضنا. إنّها أشدّ شراسة وضراوة أكثر من أيّ وقت مضى. أخفى روبرتو هويته الحقيقة وبعد أن بلغ الثالثة والثمانين من عمره، لم يعد يرغب في الحديث عن كلّ هذه الأمور. هو يعلم أنني أنشطُ وأنخرطُ بعمق في مسألة الدفاع عن ذكرى إرنستو، ولكنّه لا يطرح عليّ أبداً أيّ سؤال بهذا الشأن. في المقال، تشجّعني زوجته كثيراً وتدعم جهودي. لا تأتي رغبتي في الحديث عن أخي من اعتبارات شخصية فقط. بين عامي 2001 و2003، شهدت الأرجنتين كارثة حقيقية وكبيرة. على الصعيد السياسي، وصلت زعزعة الاستقرار في البلاد، في تلك الفترة إلى أقصى درجاتها: بعد الفترتين الرئاسيتين المشؤمتين للرئيس البيروني كارلوس منعم، تعاقب خمسة رؤساء على كرسي الرئاسة في «القصر الوردي» في غضون أربعة أعوام؛ لم يبقَ

فيه بعضهم سوى ثمانٍ وأربعين ساعة[1]. في تلك الفترة، تبيّن لي أنّ الشبيبة تُعيدُ اكتشاف تشي. كانت الشبيبة متعطّشة إلى معرفة المزيد عن تشي وكانت تطرح أسئلة بشأنه. كانت هناك حاجة وضرورة نابعة عن الفوضى وعن الأزمة الاقتصادية والاجتماعية الكارثية التي أصابتنا بقوّة في عام 2001. لقد سبق لنا أن عانينا من ركودٍ اقتصاديّ خطير. كنّا قد دُفعنا إلى الهاوية من خلال إجراءات وتدابير اقتصادية متطرّفة فُرضَت علينا من قبل صندوق النقد الدولي (كنّا في وضع اليونان الحالي قبل أن تصل إليه اليونان). وقد تحوّلت فئات اجتماعية بأكملها من الطبقة المتوسطة إلى تحت خط الفقر بين ليلة وضحاها: لقد انخفضت فجأة قيمة مدّخراتهم إن لم تنفد تماماً. اضطرّ الناس للجوء إلى المقايضة للنجاة من الكارثة. لم تعد لديهم سيولة نقدية: فقد أغلقت البنوك الباب أمام سحب الودائع أو فرضت عليها حدوداً. فبدأ الناس بتبادل الغذاء مع الخدمات. وقد بدا واضحاً بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ الرأسمالية المتوحشة ليست «منيرفا» الموعودة. كانت التعبئة هائلة. كان لا بدَّ من إيجاد دواءٍ لهذا الدّاء وبناء مجتمع جديد على أنقاض المجتمع المنهار. توجّه الشباب نحو تشي. ماذا كان يقول عن الرأسمالية؟ ما هي الحلول التي نادى بها؟ شيئاً فشيئاً، بدأتُ أجيب عن أسئلتهم تلك. تورّطت في هذا الأمر. شعرتُ أنّ لديّ مسؤولية أمام تشي وأنّ واجباً يتعلّق

---

(1) فرناندو دي لاروا (من 10 ديسمبر 1999 إلى غاية 21 ديسمبر 2001)، رامون بويرتا (من 21 ديسمبر إلى غاية 23 ديسمبر 2001)، أدولفو رودريغيز سا (من 23 ديسمبر إلى غاية 30 ديسمبر 2001)، إدواردو كامانيو (من 30 ديسمبر 2001 إلى غاية 2 يناير 2002)، إدواردو دوالده (من 2 يناير 2002 إلى غاية 25 مايو 2003).

بالذاكرة يفرض عليّ أن أتحدّث عنه. ما هي المراحل التي مرَّ بها حتى أصبح تشي؟

في نفس الوقت، قرّر ثلاثة من أصدقائنا القدامى أن يفتتحوا متاحف: قرّرت جوليا بيريه وهي شقيقة أحد رفاقي في الزنزانة ونائبة عن إقليم ميسيونس، أن تفتتح متحفاً في بويرتو كاراغواتاي حيث أمضى إرنستو عاميه الأوّلين؛ وقرّرت المكلّفة بشؤون السياحة كارينا تشويسيسيتش أن تفتتح متحفاً في آلتا غراسيا حيث عاش إرنستو سنوات شبابه؛ كما قرّر داريو فوينتس أن يفتتح متحفاً في سان مارتن دي لوس أنديز في مقاطعة نيكوين الباتاغونية وهو مكانٌ ذو جمالٍ مذهل كان قد أغرى إرنستو كثيراً إلى درجة أنّه كان يقول إنّه يريد أن ينهي أيامه فيه. طلب مني جوليا وكارينا وداريو أن أشاركهم هذه المغامرة. لقد بذلوا الكثير من الجهود لإحياء ذكرى أخي بحيث لم يكن بوسعي أن أرفض طلبهم. أطلقنا جولة سياحية ثقافية أسميناها «Los Caminos del Che» تربط المتاحف الثلاثة ببعضها وتمَّ تشجيع برنامجها من قبل وزارة السياحة الأرجنتينية. انعقد اجتماعنا الجماهيري الأوّل في عام 2009. وكان ذلك الاجتماع بدايات ظهوري على المسرح الوطني والدولي. في عام 2013، أسّستُ مؤسسة «Por Las Huellas del Che» (أي على خطى تشي) وذلك بغرض نشر أفكاره. أقول دائماً إنّهم أرادوا أن يضعوا تشي على الصليب وأن يصلبوا ليس جسده فحسب بل قيمه ومثله أيضاً. بدأت المؤسسة عملها بإعداد دراسة مفصّلة عن الطريقة التي تمّت فيها معاملة صورة تشي منذ إبحاره مع فيدل إلى شاطئ لاس كولوراداس. أردنا أن نفهم كيف تمَّ تلقّي صورة تشي من قبل الناس. ما الذي اكتشفناه؟ اكتشفنا أنّ لصورته أوجه عديدة: صورة الطبيب الأرجنتيني

الشيوعي الذي يقوم بتعليم وتثقيف الشباب من أبناء العوائل الصالحة؛ وصورة بطل الفيلم السينمائي (فيلم **تشي!** للمخرج ريتشارد فليشر، والذي لعب فيه عمر الشريف دور البطولة، وكذلك مؤخّراً فيلم **تشي** للمخرج ستيفن سودربرغ مع بينيشيو ديل تورو[1])؛ وصورة القاتل السيكوباتي المضطرب عقلياً والذي يُطلق النار بكلّ قوته دون أن ترتجف يديه؛ وكذلك صورة المقاتل المقدام والمدافع عن الأرامل واليتامى، إضافة إلى صور عديدة أخرى ترسّخت في ذهن الناس. ولكن في الحقيقة، مَنْ هو تشي؟

أودّ أن يحقّق هذا الكتاب -وكذلك المؤسّسة- العديد من الأهداف. الهدف الأهمّ هو أن أعرّف الناس بأخي خارج الأسطورة وعلى حقيقته. لدى الناس رؤية مشوّهة عن أخي تشي. تحت قناع الأيقونة أو الثائر المغوار، مهما كان ذلك جذّاباً جدّاً، ثمّة جوهرٌ يجب القيام بنشره وإظهاره. من يعرف فكر تشي؟ أكاد أقول لا أحد! إنّ تشي هو أحد كبار المفكّرين الماركسيين في القرن العشرين. يجب على الناس أن يدركوا أنّ هذا الرجل لم يكن صالحاً فقط لحمل السلاح. كان يقول عن نفسه إنّه مغامر ولكنّه كان من نوع أولئك الناس الذين لا يتردّدون في التضحية بحياتهم لكي يعيشوا في انسجامٍ وتوافقٍ مع حقيقتهم وفي الموت في سبيل أفكارهم. من الأهمية بمكان أن ندرك أنّ إرنستو في البداية كان شخصاً طبيعياً، إن لم يكن عادياً، قبل أن يصبح شخصاً استثنائياً يمكن لآخرين أو يجب عليهم تقليده. الرجال العظماء نادرين ولكنّهم موجودون! وهذا الرجل العظيم كان أرجنتينياً! ومن هنا يأتي هدفي الثاني: وهو أن

(1) عملتُ أيضاً مع بينيشيو ديل تورو بصفة مستشار.

يستعيد الأرجنتينيون رمزياً شخصية تشي. شاء الكوبيون أم أبوا، كانت لديه عادات وثقافة وروح الفكاهة الأرجنتينية. عقدتُ مؤخّراً مؤتمراً في جامعة كبيرة في هافانا وتحمّلتُ عناء الحديث عن «أرجنتينية» تشي. لقد كان لهذا وقعٌ سيئ على الحضور وكان محلّ امتعاضهم لدرجة أنّ العديد من الأشخاص نهضوا من أماكنهم لكي يقوموا بمقاطعة حديثي. لقد أكّدوا لي أنّ تشي ليس كوبياً فحسب بل إنّه من أبناء سانتا كلارا وليس له أيّ علاقة مع الأرجنتين ولا حتى مع اللهجة التي طوّرها بين اللهجتين المكسيكية والكوبية. لم ألحّ على المسألة لأنّها لن تكون مجدية في شيء ولكنني بقيتُ مندهشاً ومستغرباً.

لم يكفّ إرنستو أبداً عن الشعور بأنّه أرجنتيني وعن حبّ بلدنا. في هافانا، كان يزور بانتظام وكالة الصحافة برينسا لاتينا لكي يحصل منها على أخبار حول الأحداث في بلده الأمّ الذي كان يتابع أوضاعه باهتمامٍ بالغ. كان يعرف أسماء كلّ رجال السياسة وكلّ القادة العسكريين والنقابيين البارزين. لم يكن يفوته أيّ شيء يحدث في بوينس آيرس. كان خورخي ماسيتي -الذي أجرى معه لقاءً مطوّلاً في سييرا مايسترا وأصبح أحد أصدقائه- يرسل إليه كلّ صباح جميع الأخبار المتعلّقة بالأرجنتين.

ذات يوم، سألَت صحافية، نسيتُ اسمها، إرنستو عن بلدنا. في لحظة من لحظات الحديث، قال لها:

- «كفى حديثاً عن الأرجنتين، فلننتقل إلى موضوعٍ آخر».

سألته الصحافية:

- «لماذا، إذا كنت تحبّ بلدك كثيراً؟».

أجاب إرنستو:

- «لهذا السبب بالضبط».

في الحقيقة، كان إرنستو يشعر بحنين شديد إلى بلده.

في كوبا، يُعتَبَر تشي شخصاً كاملاً ومقدّساً ولا يحقّ لأيّ شخصٍ أن يمسّ به. ولكن مع ذلك، كان لإرنستو أخطاءه، مثل جميع البشر. لقد أساء غالباً التعبير شفهياً أو جسدياً عمّا كان يشعر به حيال الناس. ونستنتج من ذلك أنّه كان متحفّظاً ومقلّاً في الاختلاط بالناس، كما كان حال أمّي. كانت تحبّنا بحنان ولكنّها لم تضمّنا بين ذراعيها أبداً. ومع ذلك، كنّا نعلم جميعاً مقدار الحبّ الذي تكنّه لنا. ولذلك كان مشهد العناق الطويل بين الأمّ والابن في مطار هافانا مؤثّراً ومدهشاً بالنسبة إلينا. في رسائله، كان إرنستو يعبّر أكثر عن فيض مشاعره. كان يكتب قصائد حبّ رائعة لأليدا وقبلها لتشيشينا. كان قلبه مليئاً بالحنان. كان أحد أقواله المفضّلة: «على المرء أن يكون قاسياً دون أن يفقد الحنان أبداً». كانت تلك هي حالته تماماً. أودّ أن أقوم بأفضل ما لديّ وبكلّ ما لديّ من طاقة لكي أعرّف الناس بحقيقته. لستُ لا مثقّفاً ولا صحافياً، ولكنّني شقيقه ولهذه الحقيقة البسيطة أثرها ودورها. حينما يعلم الناس مَنْ أكون، لا يصدّقونني ويشكّون في أمري ويعاملونني كشخصٍ دعيّ يختلق الحكايات. ينظرون إليّ من قمّة رأسي وحتى أخمص قدميّ. أكون لغزاً بالنسبة إليهم. وما أن يتقبّلوا أنني ربّما أقول الحقيقة، يكون ردّ فعلهم الثاني هو البحث عن أوجه الشبه بين تشي وبيني. يدقّقون النظر في عيني وفي أنفي وفي فمي وفي طول قامتي. أنا أقصر قامة من إرنستو. هناك بعض الشبه بيننا ولكنّه لا يرتقي إلى مستوى أن يثير الانتباه لدى الناس. لنا نفس نبرة الصوت. حينما يغدق أحدهم بمشاعره عليّ، مثل تلك المرأة اليابانية في فاليغراند والتي ذكرتها في

بداية هذا الكتاب، أكون مدركاً تماماً بأنّ تلك المشاعر لا تقصدني أنا. أنا لستُ سوى سهم التوجيه لا أكثر. وفي كلّ مرّة، أتساءل في نفسي: بماذا يشعر هذا الشخص؟ لماذا يُبدي هذه العواطف الجيّاشة؟ لقد قابلتُ أناساً من كلّ الجنسيات الذين يحملون حبّ إرنستو في قلوبهم.

في الأرجنتين، تكاد الظاهرة تكون معاكسة تماماً لما هي عليه في كوبا. ظلّ إرنستو لزمنٍ طويل مذموماً ومنبوذاً في البلاد ومن ثمّ مهملاً يتمّ تجاهله. كان الأمر محرجاً للغاية. فكّروا بالأمر كيف أنّ بلداً قد شهد سبعة عشر نظاماً ديكتاتورياً. في أي مكان آخر من العالم تمَّ انتهاك الحقّ في حريّة التعبير على هذا النحو، حيث جرى تشجيع المحسوبية واحتضانها! وإذا كانت مقاطعات كوردوبا وميسيونس ونيوكوين تحتفل بإحياء ذكرى تشي من خلال متاحفها، فلا يحمل أيّ شارع في بوينس آيرس اسمه. ترفض البلدية إطلاق اسمه على أيّ شارع. مؤخّراً، طلبت مؤسسة مدرسية الإذن بأن تُسمّى «مدرسة إرنستو جيفارا»: لقد تمَّ رفض الطلب تحت ذريعة أنّ هذا الرجل «كان قاتلاً». لكن لا بأس أن تحمل العشرات من شوارع العاصمة أسماء دكتاتوريين وتحمل أخرى أسماء مرتكبي المجازر!

ورغم كلّ ذلك، بدأت الذهنيات والعقليات تتغيّر وتشهد تطوّراً. اليوم، أصبح تشي رمزاً يعيد جزءٌ من الشعب الأرجنتيني الاعتبار إليه. زيّن أنصار الرئيس الأسبق كيرشنر أحد جدران القصر الرئاسي «القصر الوردي» بصورته الشخصية. يستغلّ بعض السياسيين، الذين يتجاهلون غالباً الفكر الحقيقي لتشي، صورته متناسين بأنّ فسادهم يناقض تماماً نزاهته.

ومع ذلك، حدثت معي أحياناً مفاجآت جميلة. مؤخّراً، كنتُ

أبحث عن كتابٍ حول أخي نفد في الأسواق. بعد جولات لا طائل منها في البحث عن الكتاب في مكتبات العاصمة، عثرتُ عليه أخيراً على موقعٍ إلكتروني لبيع الكتب المستعمَلة. أعطاني البائع موعداً في زاوية شارعٍ من حيّ شعبي. لم يكن يعلم من أكون. كان قد جاء فقط لكي يبيع كتاباً لرجلٍ مجهول. كان رجلٍ في الثلاثينيات من عمره. بدا عليه بأنّه رجلٌ فقير للغاية. لدى وصوله إلى مكان الموعد، أعطاني الكتاب وبدأ مباشرة يبدي اعتذاره لكونه يتخلّى عن هذا الكتاب. قال لي إنّه كان يمتلك مجموعة كاملة من الأعمال حول تشي وأنّه أحد أكبر المعجبين به وأنّه قد قرأ كلّ كتاباته تقريباً وأنّ عليّ أنا أيضاً أن أفعل نفس الشيء، واستفاض في الحديث. كان يتأسّف لتخلّيه عن الكتاب لأنّه أصبح مفلساً. أعطاني درساً رئيسياً ومرتجلاً حول تشي أمام باب متجرٍ كان حارسه الذي يزرع المكان جيئةً وذهاباً يراقبنا بعين مرتابة!

في النهاية، كشفتُ له هويّتي الحقيقية وأخبرته أنني شقيق تشي. في البداية، ارتاب في أمري. بدأ بطرح الأسئلة. لماذا أبحث عن هذا الكتاب إذا كنتُ حقّاً شقيق تشي؟ ألا يُفتَرضُ بي أن أمتلك نسخة منه؟ (في الحقيقة، كانت بحوزتي نسخة منه وقد أخرجتها من حقيبتي لكي أطلعه عليها ولكنني كنتُ أريد الحصول على نسخة أخرى). سألني عن اسمي وسأل عن عائلتي في محاولة منه لإرباكي. ولأنّه لم يستطع أن يسقطني في الامتحان، رضخ لحكم الواقع. كان في غاية السعادة لكونه قد التقى بأحد أقارب تشي! لقد أسعدتُ نهاره!

كان ذاك الرجل ذا باعٍ طويل ومتبحّراً في فكر تشي، وهو ما كان نادراً جدّاً في الأرجنتين. هناك نقصٌ مريع في المعلومات حول تشي.

من المهم أن تكون لدى الأجيال الجديدة نظرة حول إرنستو الطفل وإرنستو المراهق وإرنستو الرجل الشابّ. في الوقت الراهن، يعمل رفاقي في نقابة Asociación de trabajadores del estado (ATE) «رابطة العاملين في الدولة» بالتعاون مع جامعة بوينس آيرس ومركز تشي في كوبا من أجل جمع وثائق كاملة حول إرنستو في الأرجنتين. سوف نكتشف شخصيته كأخ وابن وصديق وابن أخ وحفيد وطبيب ولاعب شطرنج ذكي وبارع وسياسي واستراتيجي ومقاتل. حينما نموت جميعاً سوف يبقى تشي على الأقل كما هو تشي.

إنّ التعامل مع تشي كإنسان هو السبيل الوحيد الذي يمكننا من خلاله التحدّث عن فكره وعن فلسفته وعن وعيه بعيداً عن الأحكام المسبقة، وبخاصّة بعيداً عن الصورة النمطية له كثائر التي يبدو أنّه يُحصر ويُختَزَل فيها؛ تماماً كما يُختَزَل نتاجه الأدبي في كتاب **رحلة على متن دراجة نارية** بينما كتب ثلاثة آلاف صفحة ويجري تبسيطها على نحوٍ مريع. لم تكن حرب العصابات بالنسبة إليه سوى وسيلة لبلوغ الحرية والتغيير والمساواة ونهاية استغلال الإنسان من قبل الإنسان. لقد وجد حلولاً لمشاكل تواجهنا في الوقت الراهن أكثر من أيّ وقت مضى. هناك ميلٌ إلى النسيان بأنّه كان لإرنستو، بين عامي 1959 و1965، مكانة ومهام رئيس دولة. كان يصول ويجول في العالم في زيارات رسمية ويلتقي بزعماء دولٍ أخرى وهو يطوّر سياسة اقتصادية في كوبا. لقد أصبح رئيساً للبنك الوطني واتّبع دروساً في الرياضيات مع سالفادور فيلاسيكا ليكون قادراً على إدارته. كان قارئاً نهماً لأعمال ماركس، والتي حاول أن يطبّق المبادئ الأساسية الواردة فيها في وزارة الصناعة التي كان يقودها. مبادئ لم تكن لها أيّ علاقة مع المبادئ التي كان يتبناها ويطبّقها

اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الذي كان قد حوّرها نحو المفهوم المادّي والدوغمائي. وقد كتب في هذا الشأن: «بعد الدوغمائية الجامدة والمتصلبة لحقبة ستالين جاءت براغماتية متضاربة وغير منسجمة. والجانب المأساوي في الأمر هو أنّ هذه الظاهرة لا تنطبق فقط على قطّاعٍ معيّن من العلم وإنّما يتجلّى في كلّ مظاهر حياة الشعوب الاشتراكية وهي تخلق ارتباكات ضارّة للغاية تكون عواقبها النهائية وخيمة ولا تُعدّ ولا تُحصى»[1].

كان تشي يأمل في أن يبني مجتمعاً عادلاً ومنصفاً لا يقوم على أساس الربح، وإنّما على مبادئ إنسانية وعلى مُثل وقيم الشرف والتضامن والأخوّة. كان يقول إنّه «يجب على المرء أن يكون ماركسياً بنفس الطريقة الواضحة التي يكون فيها المرء نيوتنياً في الفيزياء أو باستورياً في علم الأحياء [...]. كانت جدارة ماركس تكمن في أنّه قد حقّق نقلة نوعية في تاريخ الفلسفة الاشتراكية. إنّه يفسّر التاريخ ويشرح ديناميته ويستشفّ المستقبل. وعلاوة على ذلك، يتجاوز واجبه العلمي ويذهب بعيداً: إنّه يصيغ مفهوماً ثورياً. لا يكتفي بفهم طبيعة الأشياء بل يوافق على تعديلها أيضاً. يكفّ الكائن الإنساني عن كونه عبداً وأداة للتاريخ ويتحوّل إلى باني مستقبله»[2].

على العكس من الأباراتشيك الروس (الموظفون المتفرغون في الحزب الشيوعي)، كان تشي يرفض أيّ امتياز. لم تكن الأموال

---

(1) إرنستو تشي جيفارا، *Apuntes críticos a la economia política* (**ملاحظات هامّة في الاقتصاد السياسي**)، مركز تشي جيفارا للدراسات، 1966.

(2) إرنستو جيفارا، *Notas para el estudio de la ideología de la Revolución Cubana* (**ملاحظات لدراسة أيديولوجيا الثورة الكوبية**)، أوبراس كومبليتاس، ليغازا، 1960.

تشغل اهتمامه. كان يوزّع على الفور الهدايا التي يتلقّاها من زعماء الدول الأخرى على مساعديه. وهكذا أُصيبت أليدا بإحباط شديد ذات يوم حيث تخلّى عن جهاز تلفزيون ملوّن -النادر جداً في كوبا- لموظّفٍ نموذجي في وزارة الصناعة.

لم يكن إرنستو في حاجة إلى الثورة الكوبية لكي يصبح مناهضاً للدوغمائية. لم يكن عليه سوى إقامة روادع أيديولوجية. كان يتعلّم ويكتشف من خلال التجربة العملية. إذا كان يكثر من الحديث عن الديالكتيك، فهو لم يقتصر على التكهّن وعلى الفلسفة. في البدء يكون الفعل ومن ثمّ الفكر. كان يجهد لكي يستنتج من أفعاله تفكيراً نظرياً وأن يجسّد فكره في أفعاله. في خضمّ حملة نانكاهوازو، كان يقرأ الكتب بنهم. أعاد قراءة فلاسفة اليونان القدماء في محاولة منه لفهم الإنسان ودوره في التاريخ. قام بقراءة ثانية لأعمالهم، معتقداً أنّ أشياءً ربّما تكون قد أفلتت منه. كانت اهتماماته تتجاوز كثيراً حرب العصابات. كان يعيش عملية نضوجٍ سياسي وفلسفي وإنساني متواصلة. كان فكره يتطوّر باستمرارٍ ومن دون توقّف. كيف يمكننا أن نصل إلى نموذج الإنسان الجديد ما لم نكن قادرين على فكّ رموز الكائن البشري؟

على الناس المهتمّين بفكر إرنستو أن تكون لديهم القدرة على الدخول في ميدان تحوّلات الواقع والفكر السياسي والأيديولوجي والفلسفي والثقافي للوصول إلى هذا «الإنسان الجديد» الذي ينشغل به إرنستو كثيراً. إنّ تغيّراً جذرياً في المجتمع، أي الوصول إلى المجتمع المبني على أساس العدالة، كان ولا يزال عليه أن يمرّ بتحوّلٍ تامّ للإنسان، ليس فقط الإنسان السيّد أو ربّ العمل بل أيضاً الإنسان العبد والعامل. علينا جميعاً أن نغيّر ذهنيتنا وعقليتنا وأن

نحسّن ونطوّر أنفسنا نحو الأفضل. إن استغلال الإنسان للإنسان لا يحدث فقط في مجال العمل وإنّما يمتدّ إلى كافة المجالات الإنسانية. لا يمكن أن تتغيّر البنى الاقتصادية بغياب تطوّرٍ في الوعي الإنساني. وهذا الوعي الإنساني لا يمكنه هو الآخر أن يتحوّل ويتغيّر إلّا من خلال الممارسة العملية. قبل كلّ شيء، الاستيلاء على السلطة والقضاء على الملكية الخاصّة لوسائل الإنتاج والتعطّش إلى الاحتكار. ما الذي نراه في المرحلة الراهنة في الأرجنتين؟ نرى نفس البنوك ونفس شركة المقاهي الأميركية ستاربكس ونفس سلسلة مطاعم ماكدونالدز ونفس سلسلة متاجر وول مارت وكارفور وفارماسيتي وكلّ الشركات الأجنبية التي غزت حياتنا.

هل تترك إيراداتها في بلدنا؟ كلا بالتأكيد. علاوة على ذلك، تضع هذه الشركات الأجنبية أسماءها على منتوجات مصنوعة في الأرجنتين. وتتكرّر هذه الظاهرة في العالم أجمع. إنّها سياسة التنميط التي نفقد في سياقها اختلافنا وتمايزنا.

أمام هذا الاختراق الهائل، أمام هذه المدحلة التي تسحق كلّ شيء، ما الذي بوسعي أن أفعله سوى زرع البذور؟ حالف الحظّ بعضهم بأن زرعوا في أرضٍ خصبة، وسوف يحتاج آخرون إلى أسمدة. أنا أؤمن بقوّة بالمصادفات التاريخية كالتي تجمع، على سبيل المثال، بين وضعٍ ثوري ورجلٍ لكي يقوده إلى النجاح. يحدث أن تكون لدينا شروط الوضع الثوري وظروفه ولكنّنا لا نمتلك رجل الموقف القادر على قيادته. أحياناً يحدث العكس. ومع ذلك، يُظهر لنا التاريخ أنّ المصادفات تتركّب على نحوٍ عجيب ومذهل. مثلما حدث في ذاك المساء الذي التقى فيه فيدل وإرنستو في مكسيكو. لقد لعبت الصدفة دورها ورتّبت الأمور أفضل ترتيب ولكنّه كان لا بدَّ أن

يكون فيدل قادراً، خلال بضع ساعات، على أن يتعرّف ويدرك مزايا وخصال إرنستو.

لا تتعلّق مهمّتي فقط بصلة القربى مع تشي. أنا أقاسمه أفكاره وآرائه. أنا ماركسيّ-لينينيّ وجيفاري. أنا أؤمن بتغيير العالم وأنا على قناعة بأنّ القوى التي تحكمنا والشركات العملاقة والكارتلات وأصحاب المليارات والجيوش سوف لن تعيد إلينا السلطة بلطف ومن دون قتال. من جرّاء أخطائهم، نسير مباشرة نحو الكارثة. نحن نصل إلى نقطة الانعطاف ولكننا نفتقر إلى الحركة لمواجهتها. يجب أن تُمنح للناس الوسائل التي يدافعون بها عن أنفسهم. وإذا لم أكن مع الكفاح المسلّح، فإنني أؤمن بفضائل نوعٍ ما من العنف. لا يمكننا أن نتصارع مع التمساح بالكلمات البسيطةً والمجرّدة. العنف موجود وهو نتيجة مباشرة من نتائج الرأسمالية. لا بدَّ أن أحداً سوف يتحرّك ويثور. مَنْ؟ كيف؟ متى؟ أين؟ لا نزال نجهل الأجوبة عن هذه الأسئلة. ولكننا لا نستطيع أن نستمر على هذه الحال.

مثّلت سنوات الستينيات من القرن العشرين مرحلة مشرقة ومثمرة بفضل انتصار الثورة الكوبية وهزيمة الإمبريالية في خليج الخنازير. بدا العالم منقسماً بين تيارين: بين الشيوعية من جهة والإمبريالية من جهة أخرى. بعد مضي عقد من الزمن على تلك المرحلة، أصبحنا في حقبة رمادية. فقد هُزِم تشي وهُزِمت معه الثورة البوليفية.

كانت تلك الهزيمة بمثابة لطخة سوداء على جبين أميركا اللاتينية. كان لها أثرٌ كبيرٌ وأهمية بالغة بالنسبة إلى الأحداث التي تلتها، ولكن اضطررنا أن ننتظر بضع سنوات حتى نتمكّن من تقييمها واستخلاص الدروس والعِبر منها. في أعوام السبعينيات من القرن العشرين، كنّا لا نزال نتمسّك بالأمل في أن نقوم بالثورة وأن ننتصر

فيها ونفرض النظام الاشتراكي وذلك في الأرجنتين على أقلّ تقدير. ومن ثمّ، انهار اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، وبانهياره سقط الستار الحديدي. اليوم، خرجنا من المرحلة الرمادية ولم يعد لنا سوى أن ننظر إلى ما يحدث في أوروبا. هل يدرك الأوروبيون خطورة المشاكل التي باتوا يعيشونها؟ البطالة والديون والهجرة وغيرها من المشاكل الخطيرة التي تواجه القارة الأوروبية. تنزلق القارة العجوز حالياً على منحدرٍ يزداد خطورة يوماً بعد آخر. ما الذي بوسعنا أن نفعله نحن الذين نواجه تكتلات مالية هائلة وشركات متعددة الجنسيات، والتي يبدو أنّها تتحكّم بحياتنا وتديرها ونواجه احتكارات التسلّح والاتصالات والنفط وصناعة المنتجات الغذائية؟ لقد أصبح كلّ قطاع من القطاعات الأساسية متمركزاً في قبضة بعض تلك الشركات. منْ بوسعه أن يقاتل ويقاوم سلطات على هذه الدرجة من القوّة والنفوذ؟

لهذا السبب، أنا جيفاريّ مقتنع بأفكاري. ربّما يكون عددنا قليلاً ولكننا نعي شيئاً فشيئاً المفهوم القائل إنّ هذا الفكر ليس رومانسياً ولا دونكيشوتياً كما يروّجون. كلا! إنّ فلسفة تشي فلسفة ملموسة وعملية. هل انهزمت هذه الفلسفة وأُرغِمَت على أن تنحني؟ نعم من دون شكّ. قبل فترة قصيرة، حضرتُ مؤتمراً جامعياً في بوينس آيرس. كان المتحدّثون يقولون إنّ أميركا اللاتينية أصبحت الآن كياناً شاملاً وجامعاً ومتضامناً. لستُ متّفقاً مع هذا الرأي. لدى الولايات المتّحدة الأميركية تأثير هائل على قارتنا وليست لديها أيّ مصلحة في أن ترانا موحّدين: لأننا سوف نستطيع آنذاك أن نفلت من قبضتها.

وإذا كانت الولايات المتّحدة الأميركية هي الأخرى تعيش الآن في حالة أزمة، فهي تعاني من أزمة بلدٍ ثريّ وكليّ القدرة. لدى

الولايات المتّحدة الأميركية وول ستريت (غولدمان ساكس، مورغان ستانلي، جي بي مورجان تشايس... إلخ)، وأقوى جيش في العالم وأضخم المجموعات الإعلامية (تايم وارنر، فياكوم، كومكاست... إلخ)، وأكبر وأهمّ شركات التقنية الفائقة (جوجل، فيس بوك، مايكروسوفت). إنّها تدير أزمتها بطريقة يتمّ فيها إلقاء اللوم والتبعات على الآخرين. إنّها تحتفظ لنفسها بالأفضل وهي تتدبّر أمرها لكي تلقي بالأسوأ على البلدان الأخرى. ومع ذلك، هناك أيضاً الأسوأ على أبوابها. هناك الآن حوالي خمسين مليوناً من الأميركيين يعيشون في حالة من انعدام الأمن الغذائي، وهذا وضعٌ قابلٌ للانفجار وقد يؤدّي مباشرة إلى نقطة الانعطاف التي كنتُ أتحدّث عنها. وكانت فترة مباركة في أميركا حينما كان جزءٌ كبيرٌ من هؤلاء الناس أنفسهم ينتمي إلى الطبقة المتوسطة التي كان أفرادها يملكون سيارةً ومنزلاً وما يفيض عن حاجتهم من الطعام. كانوا يعتقدون بأنّهم قد اكتسبوا حقوقاً غير قابلة للتصرّف والتي فُقِدَت الآن. هل يمكنهم أن يرضوا بالتفسير الذي يقول إنّ هناك بلدان أكثر فقراً وشعوبٌ تعاني أكثر منهم؟ كلا بالتأكيد! لم يضربهم جميعاً زلزال وإنّما هم ضحايا الرأسمالية المتوحّشة. في الحقيقة، ما هو هدف هؤلاء الذين يحوزون على معظم الثروات؟ هو أن لا يعرف الآخرون كيف جمعوها؛ هو أن يقتنع هؤلاء الذين يعانون في حياتهم بأنّ أقدارهم البائسة هي بمشيئة الله وإرادته وبأنّهم سوف ينعمون بالخلاص ويكونوا سعداء في حياة أبدية؛ هو أن يكونوا على قناعة بأنّ بؤسهم يعود إلى حقيقة كونهم من ذوي البشرة السوداء أو السمراء أو كونهم أغبياء أو غير قادرين...

ما هي هذه البلدان التي تجعلها الدول الغنية تدفع ثمن

الرأسمالية المتوحّشة؟ تاريخياً، هي البلدان التي نسميها بدول العالم الثالث أو البلدان النامية. ومع ذلك، بدأت الآن الدول المتطوّرة تعاني هي الأخرى من المصاعب. فعلى سبيل المثال، تدفع أوروبا البرتغال إلى حافة الهاوية وبكل تأكيد سيكون الفقراء أوّل من سيسقطون في هذه الهاوية. ربّما صراع الطبقات، الذي تحدّث ماركس عنه، يتعيّن اليوم بطريقة أخرى ولكنّه لا يزال موجوداً. لم يعد الأمر يتعلّق بمسألة أخلاقية أو بالعدالة، على الرغم من أنّ هناك مظالم كبيرة، وإنّما بمسائل عملية وملموسة وسياسية واقتصادية. لا يمكن أن يكون هناك حلّ لمشاكلنا من خلال الفوضى التي نعيشها الآن بشأن الإنتاج. الشيء الوحيد الذي نفكّر فيه هو أن نمتلك دائماً المزيد. لقد أصبح الاستهلاك المتوحّش ديننا. إذاً لماذا نزيد من الإنتاج باستمرار وما هدفنا من ذلك؟ لكي نغذّي الاحتكارات التي تحدّثت عنها في صفحات سابقة من هذا الكتاب.

نحن نوهم أنفسنا بأننا نتّخذ إجراءات وتدابير لصالح الفقراء. نوفّر لهم مدارس حكومية ونعلّمهم القراءة والكتابة. يتمّ توزيع المناصب الإدارية للشركات العملاقة المسيطرة من قبل الفئة الأوليغارشية على الطبقات المتوسّطة. خلال هذا الوقت، ترسل الأوليغارشية أبناءها إلى المدارس الخاصّة ومن ثمّ إلى كبرى الجامعات التي تخرّج قادة وإداريين مؤهّلين في نفس القالب لكي يتحكّموا بنا. يُنتظَر من هؤلاء الأثرياء المتنفّذين القادمين أن يكرسّوا النموذج الرأسمالي والإمبريالي. من وقت إلى آخر، يخرج أحدهم من المنظومة ويُظهر استقلاليته، فتتفاجأ الأوليغارشية وتتعجّب قائلة إنّه قد قُدِّمت له كلّ الوسائل لكي يستمر في إبقاء من كانوا في الأسفل على حالهم في الأسفل. ما الذي حصل؟

لم يكن الوقت الذي أمضاه تشي في كوبا بعد نجاح الثورة كافياً لكي تُعطي إدارته ورؤيته ثمارهما. لقد غادر كوبا مبكّراً جدّا. لقد حاول أن يتجاوز الماركسية بتطبيقها السوفيتي لكي يطبّق ماركسية ذات وجهٍ إنساني في كوبا. اعتقد بأنّ مشروعه قد وضع على المسار الصحيح ولكنّه بقي معلّقاً بسبب مغادرته. انتهت الشيوعية بفشلٍ ذريع. وبقيت الرأسمالية ولكن على حساب الكوكب والبشر. ظلتّ الثروات تتركّز وتتراكم في أيدي البعض بينما يتزايد أعداد الفقراء يوماً بعد آخر. ألا نرى هنا العلاقة الواضحة بين السبب والنتيجة؟

لم يعد الكائن البشري مهمّاً ليتحوّل إلى سلعة للاستغلال وسوء المعاملة. لقد أُصيبَت جميع المجالات اليوم بآفة انعدام القيم والأخلاق وآفة الفساد، بما في ذلك كرة القدم التي لم تعد رياضة وإنّما أصبحت تجارة ملوّثة. نحن نفقد على نحو متزايد إنسانيتنا وتضامننا وعلاقات الألفة في مجتمعاتنا. بهذه الطريقة، الإنسان لا يولَد وإنّما يجري تصنيعه كسلعة.

هل لديّ أنا شخصياً حلولٌ لكلّ هذه المشاكل؟ كلا للأسف. لو كانت لديّ تلك الحلول، لكنتُ تشي آخر. كان لدى أخي الحلول. ولكنها لم تتحقّق. لقد عانى من فشلٍ استراتيجي، ليس في أميركا الجنوبية فحسب بل في العالم برمّته. كان يريد أن يغيّر الذهنيات والعقليات لكي يصل إلى تغيير العالم. كان مؤمناً بذلك.

أحد أهداف مؤسسة Por Las Huellas del Che هو أن تكون موجودة في كلّ الأماكن التي تواجد فيها تشي كمفكّر وكمبتكر اجتماعي. يجب أن تستمرّ هذه المؤسسة. سوف لن تقوم بتثوير أيّ شيء وليس هذا هدفها. عليها أن تكون قادرة على نشر التراث

الروحي لتشي الذي تعاظم في العالم أجمع. سوف يكون تشي الماركسي الرائد في القرن الواحد والعشرين. لقد حدّد وأشار إلى الأحداث التي وقعت وكذلك إلى الكوارث الحالية والتي لم تُحلّ بعد. إنّه مفكّر استشرافي ومستقبلي على الرغم من أنّه قد مات في عام 1967. إذا عدنا إلى الوراء، سوف يتبيّن لنا بأنّه كان ذو رؤية ثاقبة ومذهلة للمستقبل. فقد تنبّأ على سبيل المثال بانهيار الاتحاد السوفيتي. من كان قادراً على أن يتوقّع ذلك في عام 1965؟ لماذا استطاع هو أن يتوقّع ذلك؟ لأنّه قد أجرى تحليلاً معمّقاً للمجتمع السوفيتي الذي كان، بحسب رأيه، يصارع الرأسمالية بأسلحة رأسمالية، الأمر الذي أدّى في الواقع إلى تعزيز وترسيخ النظام الليبرالي. لقد انحرف السوفيت عن الطريق في أعقاب ثورتهم. كان ينتقد سياستهم الاقتصادية الجديدة (NPE) التي أطلقها لينين في عام 1921 لكي يعيد الحيوية إلى البلاد أمام تأخّرها الاقتصادي[1]، لكونها قد تحوّلت إلى سياسة دائمة لا رجعة عنها بدل أن تكون تدبيراً مؤقّتاً. كانت الحوافز المادية قد شغلت مكاناً أساسياً في المجتمع السوفيتي على حساب القيم الإنسانية. وبالتالي أصبح الشعب مأخوذاً على نحو متزايد بهاجس الربح المادّي وبالتعويضات النقدية. وقد أطلق تشي على هذه الظاهرة تسمية «قانون القيمة» واعتبرها مناقضة للقيم الأخلاقية التي تُعتَبَر بالنسبة إليه ذات أهمية أساسية. يجب أن يتمّ تحفيز الناس من خلال الرغبة في القيام

(1) يتعلّق الأمر هنا «بتراجع استراتيجي» في بناء الاشتراكية. فلكي يبرّر السياسة الاقتصادية الجديدة، صرّح لينين آنذاك قائلاً: «[...] نحن لسنا متطوّرين بما فيه الكفاية لكي ننتقل مباشرة إلى الاشتراكية، على الرغم من أننا نمتلك البواكير السياسية».

بالعمل المفيد وبالحرص على أن يكونوا شرفاء ونزيهين وأن يحتفظوا بوعي واضح ويقوموا بواجباتهم. يجب أن تكون المهمّة الأولى للحكومة وقبل كلّ شيء مهمّة تربوية. الأمر الذي لا يعني أنّه يمكن إلغاء الجانب المادي كليّاً.

لم يدخل تشي في تحليلٍ للقمع السوفيتي وفي مفهوم حرية التعبير. لقد وصل إلى السلطة في كوبا خلال سنوات حكم خروتشوف، وهي الحقبة التي قام بتحليلها في تلك اللحظة المحدّدة. كان يستنكر الدوغمائية والشمولية والتناقضات السوفيتية. بحسب رأيه، كان الاتحاد السوفيتي قد خان المبادئ الماركسية وحوّلها إلى عقيدة جامدة. ماذا كتب في عام 1965 من تنزانيا حيث كان بانتظار أن يتمكّن من تنظيم مغادرته إلى بوليفيا؟ «لقد استفدتُ من هذه العطلة الطويلة لكي أدسّ أنفي في الفلسفة، الأمر الذي كنتُ أرغب في القيام به منذ زمن طويل. لقد اصطدمتُ بالصعوبة الأولى: في كوبا، ليس هناك أي شيء يمكن نشره إذا ما استثنينا القوالب الجامدة السوفيتية المليئة بالعيوب التي تمنعك من التفكير: لقد سبق للحزب وفعل لك ذلك. إنّه يطلب منك أن تهضم فقط هذه القوالب الجاهزة. من حيث المنهج، هذا مناقض للماركسية، ولكن فضلاً عن ذلك، المضمون متواضعٌ للغاية»[1].

في القرن العشرين، تمثّلت بعض الإجابات عن هذا السؤال بالكفاح المسلّح والثورة والتمرّد وأعمال الشغب. اليوم، ربّما يمكننا القول إنّ هذه الأساليب لم تعد هي الأجدى والأفضل. من جانبٍ آخر، ليس هناك أدنى شكّ في أنّ الرأسمالية سوف لن تنتحر. سوف

---

(1) من رسالة موجّهة إلى وزير التربية الكوبي أماندو هارت.

لن تقول: «حسناً، هذا يكفي، أريد عالماً أفضل. كفى، ها أنا أتوقّف وألقي السلاح». إذاً، السؤال الأهمّ هو إيجاد الطريق الذي يقود إلى الإنصاف وإلى العدالة.

كان تشي من أنصار الكفاح المسلّح لأنّه كان مقتنعاً بأنّه هو السبيل الوحيد إلى القضاء على الإمبريالية مرّة وإلى الأبد. هل علينا أن ننتظر حتى يقطع الجلّاد رأسنا وأن يمتصّ الدراكولا دمنا أم يجب علينا اللجوء إلى السلاح لكي ندافع عن أنفسنا؟

خلال السنوات الأخيرة، كنّا شهوداً على حالاتٍ من الاعتداء المباشر على الشعب. وكمثالٍ على ذلك، أزمة الرهن القاري والحجز على العقارات والاستيلاء عليها. ومع ذلك لم تكن هناك عمليات تعبئة وتحرّكات كبيرة. ولأنّ القوى العظمى تعي بكلّ تأكيد حجم الأذى الذي تتسبّب به، تمارس هذه القوى التضليل أو تنتج التسالي الضرورية لإفساد وعي الجماهير. أصبح الناس غير مسيّسين، وهذا ليس في الولايات المتّحدة الأميركية فقط. إنّ الدفاع الشرس عن الملكية الخاصّة وعن النزعة الفردية وعن الأنانية قد تجذّر في المجتمع إلى درجة أنّه بات من الصعب للغاية تنظيم الشعب. وقد أصبح الشعب على قناعة راسخة بأنّ ليس هناك حلٌّ لهذه المشاكل وأنّ الوضع سوف يبقى كما هو عليه ولن يحدث أيّ تغيير. لقد أصبح الشعب مستسلماً للقدر.

والحال هكذا، لماذا قرّرتُ أخيراً أن أتكلّم؟ لماذا أصدرتُ هذا الكتاب ولماذا أسّستُ هذه المؤسسة؟

الجواب عن السؤال الأوّل هو أنني وجدتُ نفسي باستمرار في مواجهة حقيقة بديهية: ضرورة أن نقوم بتغيير المجتمع. أنا أتبنّى مُثل

وقيم أخي. أتحدّث باسمه. لكي نستطيع أن ندرس كبار مفكّري التاريخ، لا بدَّ أن يكرّس أحدٌ ما نفسه لقراءتهم ونشر أعمالهم وتوثيقها. هذا ما أفعله من خلال هذه المؤسسة.

أمّا الجواب عن السؤال الثاني، فهو إذا قمتُ بأداء رسالتي بمفردي، فيمكن أن تُوضع العراقيل أمامي وتتمّ إعاقة عملي ناهيكم عن حقيقة أنني أصبحتُ في الثانية والسبعين من عمري. لا يستطيع أعداء الشعب أن يفعلوا أيّ شيء ضدّ كتابٍ، فما بالكم إذا كان قد نُشِر في فرنسا. مرّت فترة على الأرجنتين، كانت الكتب «الهدّامة» خاضعة فيها للمراقبة. الآن، لم يعد الوضع كذلك. النهج المتّبع حالياً هو محاولة منعنا من القراءة من خلال دفعنا إلى مشاهدة التلفاز وتصفّح الإنترنت. وهذا هو السبب الذي يجعلني معارضاً لهذا النوع من وسائل الإعلام التي لا تروق لي فجاجتها. الآن، يُفرَض على الجميع أن يكونوا لحظيين وآنيين في حين يجب علينا أن نأخذ وقتنا في التفكير والتأمّل في الأمور. لم تعد التكنولوجيا والزمن المعاصران يسمحان لنا بذلك.

ولأنني متفائل ولا أعتقد أنّ الإنسانية تريد الانتحار، علينا أن نفعل شيئاً وأشعر بأنّ الوقت مناسبٌ الآن لانتشار فلسفة إرنستو. كان يمتلك فكراً غزيراً جدّاً وشاملاً من دون أن يكون لديه الوقت الكافي ليضع أفكاره الأساسية قيد الممارسة العملية، والذي أُلزِم نفسي على الأقلّ بالتعريف بها أكثر.

كان تشي يمتلك موهبة القدرة على التحفيز. لذا يجب علينا أن نسلّط عليه الضوء.

1

1/ 1902. عائلة جيفارا لينش، من جهة الأب، في الأرجنتين.

2

2/ 1908. عائلة دي لا سيرنا إيلوزا، من جهة الأم، منتجع شاطئ لا بيرلا، مار ديل بلاتا، الأرجنتين.

3

3/ 1928. عائلة جيفارا دي لا سيرنا في ميسيونس في الأرجنتين. من اليسار إلى اليمين: صديقان، إرنستو جيفارا لينش (الأب)، سيليا دي لا سيرنا (الأم) وإرنستو في عربته.

4

4/ 1928. الزوجان إرنستو جيفارا لينش وسيليا دي لا سيرنا في روساريو، في الأرجنتين.

5

5/ 1928. أوّل صورة
لإرنستو مع والديه
في روساريو.

6

6/ 1929. إرنستو مع مربيته
كارمن أرياس،
وهي فتاة إسبانية من ساريا.

7

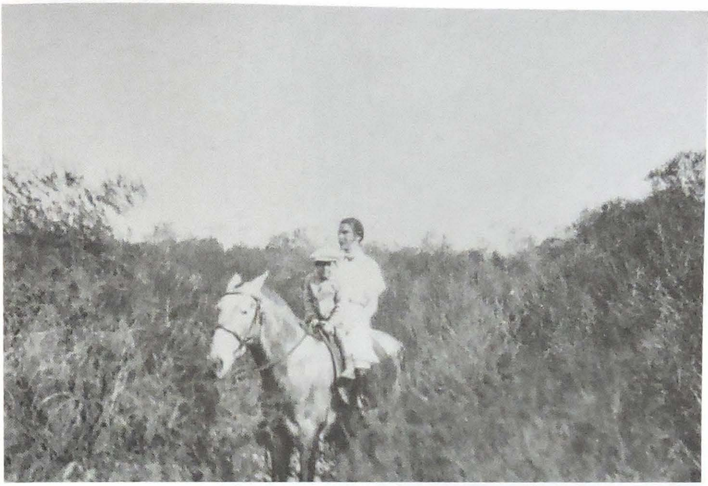

7/ إرنستو ووالدته على ظهر حصان في سييرا دي كوردوبا في الأرجنتين.

8

8/ 1935. إرنستو على دراجته الهوائية في إيرينيو بورتيلا (إقليم بوينس آيرس).

9

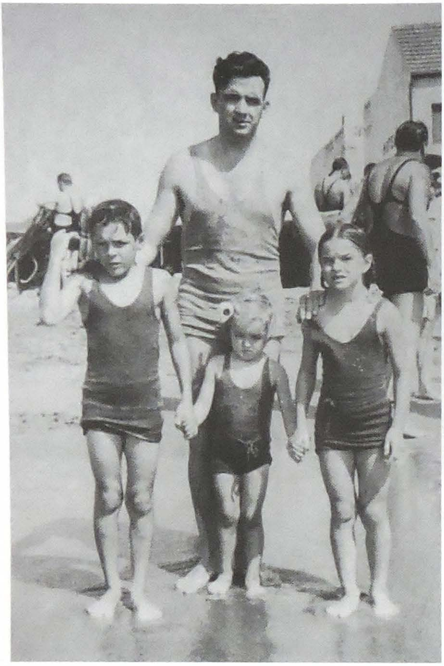

9/ 1938. الإجازة الصيفية في مار ديل بلاتا. من اليسار إلى اليمين: إرنستو، آنا ماريا وسيليا (الشقيقتان). يقف خلفهم: إرنستو جيفارا لينش.

10/ 1935. أثناء قراءة الأطفال ووالدتهم في آلتا غراسيا (مقاطعة كوردوبا). من اليسار إلى اليمين: روبرتو (الأخ)، إرنستو، سيليا، آنا ماريا وسيليا دي لا سيرنا.

10

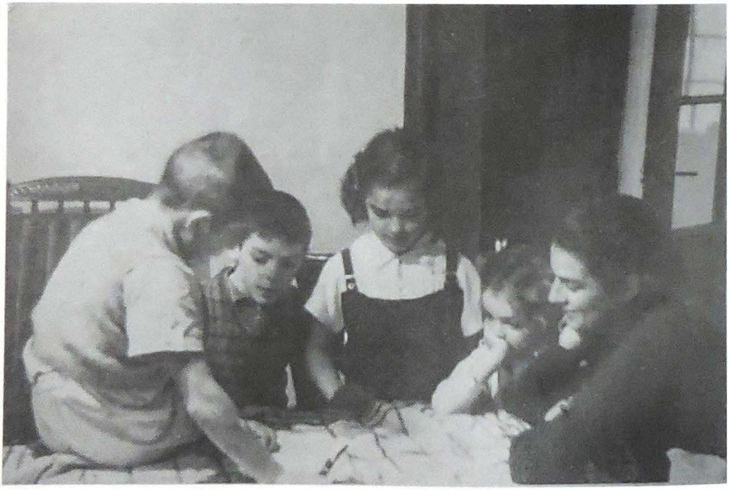

11

11/ 1938. في منتجع عائلي في مار ديل بلاتا. من اليسار إلى اليمين: روبرتو، سيليا، إرنستو، آنا ماريا ووالدتهم.

12

12/ 1928. أول منزل للزوجين الشابين جيفارا (لا كاليسيتا) في ميسيونس. في هذا البيت، خطا إرنستو أولى خطواته.

13

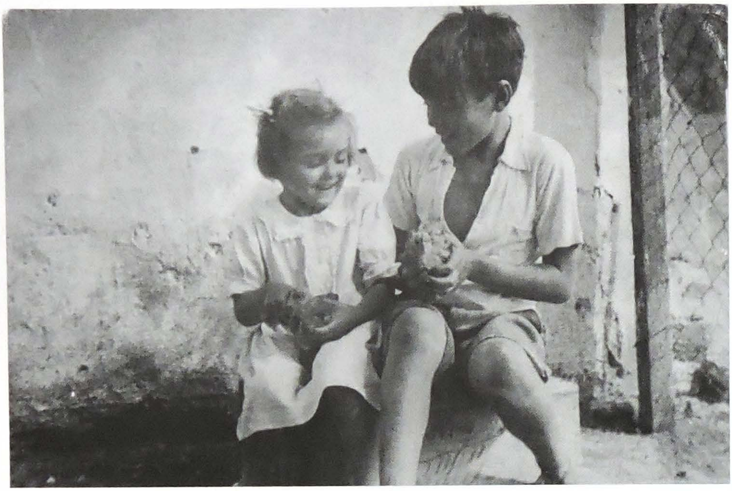

13/ 1938. إرنستو وشقيقته آنا ماريا وهما يلعبان مع حمامتين في آلتا غراسيا.

14

14/ 1940. إرنستو، آنا ماريا وروبرتو مع أصدقاء من الحي في آلتا غراسيا.

15

15/ 41-1940. أثناء رحلة في سييرا دي كوردوبا. من اليسار إلى اليمين:
كارمن كوردوبا (ابنة خالة)، روبرتو جيفارا (ابن العم)، فرناندو كوردوبا وإرنستو.
في الأعلى: كارمن دي لا سيرنا (خالة) ووالدتهم.

16

16/ 41-1940. إرنستو، سيليا، آنا ماريا وروبرتو في آلتا غراسيا.

17

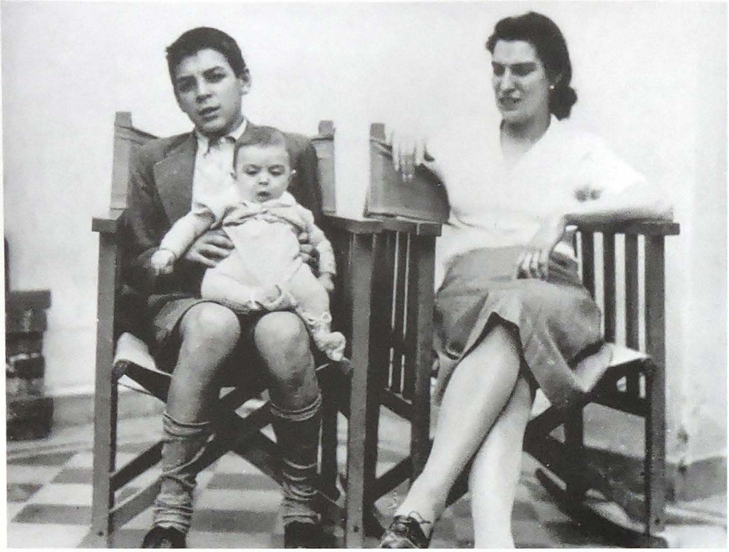

18

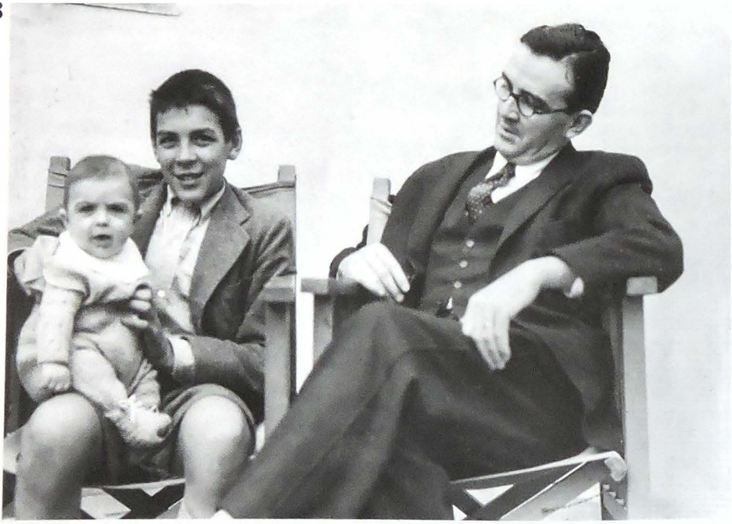

18/17 / 1943. خوان مارتن في حضن شقيقه الأكبر إرنستو تحت أنظار والديهما الحذرة، في كوردوبا.

19

Guevara, un Joven Raidista, Cumplirá una Extensa Gira

SANTIAGO DEL ESTERO, 2 (Especial).— Hoy llegó a esta ciudad, el joven ciclista Ernesto Guevara de 21 años, estudiante, que se propone cumplir un extenso raid de ciclismo.

Inició su gira en Buenos Aires, pasando por Santa Fe y Córdoba. Ahora se dirige a Tucumán. de donde seguirá a Catamarca, La Rioja, San Juan, Mendoza y San Luis, donde emprenderá el regreso a Buenos Aires.

Viajeros. De Córdoba la señora Zulema de Marinucci.

—Del mismo punto la señorita Josefa Castiñeiras.

—De Buenos Aires la señorita Rosa Romeo López.

—A Córdoba el joven Jerónimo Cornet.

—A Ceres la señorita Ilda Monkarzel.

—A Buenos Aires el señor Fernando Berraondo.

20

19/ 1945.
الزوجان جيفارا
دي لا سيرنا في منتجع
بحري في مار ديل بلاتا
مع أطفالهما الخمسة.
من اليسار إلى اليمين:
خوان مارتن، إرنستو
الأب، إرنستو، سيليا
الأم، آنا ماريا، روبرتو
وسيليا.

20/ أوّل مقالة تَذكُر
اسم إرنستو في لحظة
وصوله على دراجته
إلى سانتيا
ديل ايستيرو.

21

CICLISMO EN ROSARIO

La Junta Coordinadora de Entidades de la Zona Norte organiza para el 28 del corriente, a partir de las 14, una prueba sobre 100 Vueltas al Parque Leandro N. Alem, de Rosario, abierta para corredores federados de 1ª, 2ª y 3ª categoría. Informes en avenida Alberdi 1011, Rosario.

mo estrella en el difícil firmamento del juego profesional.

COPA EMILIO SAINT

Pese a que todavía no se puede lograr la total participación de las figuras de primer plano, la presentación de Roberto Novoa y Jaime Díaz por Racing le otorga gran trascendencia a esta justa, aunque la ausencia del formidable binomio de Estudiantes de la Plata (Ruiz-Dellacasagrande) y la enfermedad de Pedro Etcheverry impiden que pueda apreciarse la real capacidad de los valores actuales. Pero no olvidemos que la temporada es larga y agotadora y conviene reservar energías ya que recién en vísperas del Oficial veremos luchas de gran relieve técnico.

Cancha chica con historia grande es esta de Sportivo Barracas en la que se está disputando la Copa Emilio Saint, una de las más antiguas del programa pelotari en cancha cerrada. Se recuerdan encuentros formidables jugados allí por las mejores paletas porteñas. Es el club organizador que por intermedio de Danglade y Scungio logra en el año 1935 inscribir su nombre al pie de la Copa. Volvió a disputarse en 1938 y Etcheverry-Scungio por Correos y Telégrafos logran el sitial de honor que nuevamente ocupan al año siguiente, pero defendiendo la divisa de Independiente. Por este mismo club Pedro Etcheverry y Néstor Delguy obtienen la primera colocación en 1940, para figurar al tope en los dos años siguientes, García y Betelú, que luego ingresarían en las filas rentadas. Marca el año 1943 el triunfo de una gran combinación integrada por Carlos Ruiz y Enrique Andrich de Obras Sanitarias de la Nación, siendo Enrique Badino y Oscar Amodio por Hindú, que se clasifican campeones con posterioridad. El Racing Club vence en 1945 mientras Huracán con Ayesta-Díaz sabe al año siguiente de esa satisfacción. En la última disputa otra vez Racing se anota un triunfo muy valioso, pues con Roberto Novoa y Mario Barreto derrotan en la final a Etcheverry y F. Berdiñas, del Italiano.

Con el reducido número de ocho parejas comenzó la rueda preliminar y en la cual se anotaron los siguientes resultados: F. C. Oeste (Héctor Etchebarne-Federico Berdiñas) venció por 30-19 al Centro Vasco-Francés que integraron Lucio Elizardi y Marcos Repetti, quienes luego en la revancha no se presentaron. Italiano no pudo formar pareja en el primer partido frente a Racing, pero en el desquite Enrique Orlando y Juan Andrade enfrentaron a Alberto Buadas y a Mario Barreto.

Agradó este encuentro por la paridad de fuerzas. Buadas, que tras defender los colores de Obras Sanitarias en segunda categoría, y a veces en primera, estuvo alejado dos años de los frontones, se mostró muy seguro; su compañero Barreto jugó muy bien, ya que sostuvo y tiró el tanto en momentos propicios. Muy preciso el tambor. Si logra un mejor estado puede destacarse. Andrade volvió a mostrarse irregular. Racing vencía 23-19 y se produjo el empate. Tras colocarse nuevamente en ventaja la pareja de Avellaneda (29-24), Orlando con tres felices y oportunas intervenciones reduce la diferencia a 27-29, pero la chapa 30 suena para Racing. Sp. Barracas (Roberto Zamora-Adolfo Seijo) no tuvo mayores inconvenientes frente a La Paternal (Carlos Maderna-Juan Carlos Gallipoli), a quien venció 30-20 y 30-21.

Por último, Huracán (Ayesta-Suárez) necesitó un tercer partido para eliminar a Independiente, que presentó a Roberto Ucar y Cipriano Montiel. La pareja de Parque Patricios se impuso 30-22 para caer catastróficamente en la revancha por 30-17 y salir airosa por 30-16, el desempatar.

Se clasificaron para las semifinales, que ya se habrán disputado al aparecer este número, Racing (Novoa-Díaz) v. Ferro y Huracán frente a los locales.

Atilio N. Basia.

Por segunda vez Gabriel Hauche (derecha) y Néstor Delguy cayeron frente a sus obligados rivales. El zaguero, excepción dentro de la alta pelota, con el revés de derecha volvió lo imposible.

19 MAYO, AÑO DEL LIBERTADOR GENERAL SAN MARTIN, 1950.

21/ صحيفة **إيل غرافيكو** التي نُشِرَت فيها الرسالة المرسلة من إرنستو إلى مدير شركة أميريميكس، والتي يهنئه فيها على جودة دراجة ميكرون التي أتاحت له أن يقطع مسافة تزيد عن 4000 كيلومتر عبر الأقاليم الأكثر فقراً في شمال الأرجنتين.

22/ 50–1949. في كوردوبا. من الأسفل إلى الأعلى: إرنستو، سيليا، كارلوس فيرير، روبرتو وصديق.

23

23/ 1952. على شرفة المنزل في شارع آراوز في بوينس آيرس مع خورخي دي لا سيرنا (الخال)، كارلوس فيغويروا (صديق)، روبرتو، لويس رودريغيز (صديق)، خوان مارتن وإرنستو.

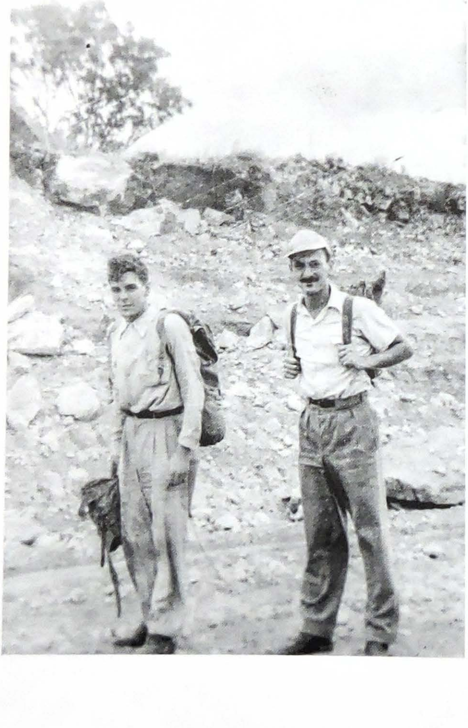

24

24/ 1953. في غواتيمالا أثناء الرحلة الثانية لإرنستو في أميركا اللاتينية مع غوالو غارسيا.

25

25/ 1953. خوان مارتن في منزل شارع آراوز.

26

26/ 1960. فيدل كاسترو يزورعائلة تشي في بوينس آيرس.

27

27/ 1961. سيليا دي لا سيرنا محاطة بابنتها آنا ماريا وابنها خوان مارتن، وهي تضع على ركبتيها حفيدها في منزلها في شارع آراوز في بوينس آيرس.

28

ANUNCIAN EN BOLIVIA QUE MURIO EL "CHE" GUEVARA

Clarín

El General Zenteno Anaya Informó que el Dirigente Cubano Cayó en un Encuentro Librado con Tropas del Ejército ★ Se Espera Ahora un Anuncio Oficial del Gobierno

OTROS HECHOS IMPORTANTES DEL PANORAMA NACIONAL

Circulante

Posición

ALALC

Becas

Donativo

Centros

Bolsa

Dólar

Tornado

Mendoza

Chaco

Comisión

Atletismo

EDITORIAL

La Secretaría de la OEA

INTERVIENEN EL PODER JUDICIAL DE FORMOSA

Así lo Anunció Borda ★ Ayer, el Gabinete Escuchó Informes de Costa Méndez y K. Vasena y Analizó la Racionalización

CAMINOS

Se Licitaron Obras Viales por Valor de 1.596.789.141 Pesos

PROMOCION

Se Alentará el Consumo de Carne Ovina en Capital y Gran Bs. Aires

España
Eligen Hoy Diputados Por Sufragio Directo

Argel
Comienza la Reunión de Países en Desarrollo

Uruguay
Grave Crisis ★ Impuso Gestido Medidas de Seguridad ★ Renunciaron Cuatro Ministros

28/ موت تشي المُعلَن في يومية كلارين الأرجنتينية.

29

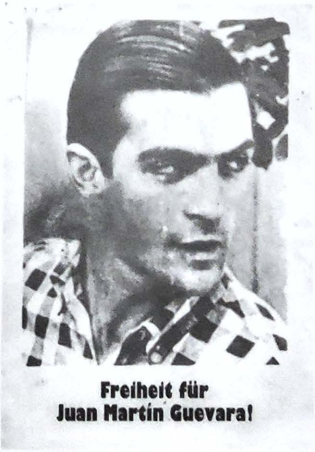

29/ 1976. منشور معدّ من قبل سيليا (الأخت) يُطالب بإطلاق سراح خوان مارتن، السجين السياسي لدى الخونتا العسكرية الأرجنتينية بسبب نشاطاته النضالية في صفوف حزب العمال الثوري (PRT).

يثابر تشي على الحياة

«حفلات التكريم تزعجني!» بهذه العبارة، صرخ أخي ذات يوم من عام 1960، بعد أزمة خليج الخنازير. لقد عبّر عن رأيه هذا باللغة الفرنسية لكي يتجنّب إزعاج موظفيه في وزارة الصناعة التي كان يقودها، والذين جاؤوا ليخبروه برغبتهم في أن يقيموا حفلاً تكريمياً عامّاً له وذلك «تقديراً لجهوده في التدريب الرائع الذي قدّمه لأفراد الجيش الثوري».

كان على إرنستو أن يكيل المديح في ذلك الحفل الذي كان الموظّفون ينوون إقامته. رفع عينيه إلى موظّفيه وقال لهم: «يبدو لي أنّكم لا تفهمون ما أحرص على تكراره في كتاباتي وفي المؤتمرات التي أشارك فيها. هنا، ما نحتاج إليه ليس حفلات التكريم، وإنّما العمل. هل تعتبرون أنفسكم ثوريين؟ سوف أبحث لكم إذاً عن مكان آخر تناضلون فيه... في مصنع».

لم يكن أخي يسعى إلى المجد وكان يكره التفاهات والأمور العبثية. تُرى ماذا كان من الممكن أن يكون رأيه في الحملة الدعائية لسيارات شركة مرسيدس بنز في عام 2012؟ حملة إعلانية مثيرة للجدل للغاية والتي امتلك معدّوها الجرأة على أن يستبدلوا نجمة قبّعته

بشعار الشركة المصنّعة للسيارة الألمانية. . . حينما جرى رفع الستار عنها في «المعرض العالمي للإلكترونيات في لاس فيغاس»، أراد صحافيّ أن يعرف رأيي بهذا الموضوع. قلتُ له إنّني أفكر بأمرين في هذا الشأن. الأمر الأوّل هو: تنتج شركة مرسيدس بنز سيارات رائعة وساحرة. أمّا الثاني، فهو: إذا ما أصبحت ألمانيا شيوعية غداً، ربما تكون شركة مرسيدس بنز هي الرائدة! بجديّة أكثر، ما يهمّ هنا هو أن نفهم لماذا اختارت شركة مرسيدس بنز من بين كلّ الصور صورة جيفارا. إنّ المبدع الذي راودته هذه الفكرة هو عبقريّ فعلاً. لقد أصاب هدفين متناقضين: المعادون لكاسترو في ميامي (الذين علاوة على ذلك شعروا بالاختناق لرؤية شركة مرسيدس بنز وهي تدمج صورتها مع صورة «سفّاح سادّي»)؛ ووجد الآخرون أنّه من المثير للغضب أن تستغلّ شركة مرسيدس بنز رجلاً نقيّاً في أغراضٍ تجارية مبتذلة، علاوة على ترويج سيارات فاخرة! بقي أن نقول إنّ الحملة قد أحدثت صدمة كبيرة. في يوم إطلاق الحملة في لاس فيغاس، صعد الرئيس والمدير العام لشركة دايملر، ديتر زيتش، على مسرحٍ تحت صورة شخصية عملاقة لتشي. كان ذلك مشهداً استثنائياً تماماً ومذهلاً للغاية. إلى درجة أنّ زيتش اضطرّ تحت ضغط الغضب العارم للحضور أن يُنهي الحملة ويقدّم الاعتذار.

لماذا يتمّ الترويج؟ لماذا اختار الناس هذه الصورة من دون غيرها لكي يعبّروا عن معارضتهم واحتجاجهم؟

لا يريد أيّ تاجر في العالم أن يهدر أمواله، بل على العكس تماماً. بالنسبة إليهم، تشي هو عمل تجاري قبل كلّ شيء، مثلما أصبح كذلك بالنسبة إلى الكثيرين من سكان قرية هيغويرا الذين تحوّلوا إلى أدِلّاء سياحيين. وبالتالي السؤال ليس معرفة سبب وجود

بائعٍ وإنّما معرفة سبب وجود مشترٍ. لقد وشم دييغو مارادونا ومايك تايسون جسمهما بصور تشي، أحدهما وضع الوشم على ذراعه والآخر وضعه على جذعه. ماذا يعني هذا الأمر؟ هذا يعني أنّ تشي موجود في حياتهما، وأنّه يمثّل رمزاً قويّاً بما يكفي لكي ينقشاه بالنار على جلدهما.

أنا أرفض تحويل أخي إلى سلعة تجارية فائقة. ولكنني في الوقت ذاته أعرف أنّ هذه الظاهرة سوف تسهّل لي مهمّتي التي أخذتها على عاتقي. في الواقع، لقد زُرِعَت البذور وبات الناس يتقبّلون الصورة. على الرغم من عدم معرفتهم بفكره، فقد أصبحوا يعرفون على الأقلّ من هو. لم يعد عليّ سوى مهمّة نقل أفكاره. أنا أشكّ أن يكون مايك تايسون أو دييغو مارادونا قد درسا فلسفة تشي، ولكنني أعرف أنّهما قادران على تقبّلها. وإذا بدت لهما هذه الفلسفة متوافقة مع الفكرة التي يحقّقونها، فإنّهما سيحتفظان بوشمهما وإلّا لا يزال أمامهما فرصة أن يتخلّيا عنه.

حاولت السلطات القائمة أن تسحق تشي بكلّ السبل وشتّى الوسائل وقد اختارت الاغتيال لا الاعتقال، ثمّ عملت على إخفاء جثّته وأخيراً من خلال الطعن في روحه وكفاحه ومثله. لقد قتلوه. وعلى الرغم من كلّ شيء، قد نجا. كمّ من المرّات دمغوا الثورة الكوبية على أنّها غزو خارجي واختراقٌ سوفيتي بدلاً عن الاعتراف بها على أنّها مشروع قومي ووطني؟ ألم يصفوا إرنستو على أنّه قاتل ومتوحّش وماركسيّ رهيب؟ لم تجدِ الافتراءات كذلك نفعاً. واصل الشعراء الغنائيون كتابة الأغاني (لقد خُصّ تشي بما يقارب خمسين قصيدة غنائية على الأقّل)، واستمرّ الكتّاب في تأليف كتبٍ عنه والشعراء في كتابة القصائد حوله وظلّ رسامو الشارع يرسمون صوره

على الجدران ولا يزال كلّ هذا مستمراً. كان تشي يثابر بهذه الطريقة على الحياة، ويثبتُ حضوره أكثر من أيّ وقت مضى، ويبدو أنّه من الوهم السعي والرغبة في القضاء عليه وإنهائه.

إذاً، كانت الاستراتيجية المتّبعة هي جعله لغزاً محيّراً وصلبه لكي تكفّ البشرية عن اعتباره شخصاً حقيقياً وملموساً. إذا كان تشي أسطورة، كيف يمكن السير على دربه والاقتداء به؟ لا يعود بذلك رجلاً من لحمٍ ودم وإنّما شخصية وهمية غير ملموسة ولا يمكن الوصول إليها ومن المستحيل العثور على مثيلٍ لها. انتشرت أسطورته وتوسّعت شيئاً فشيئاً بينما تراجع الاهتمام بفكره. لقد تحوّل إلى صَدَفة رائعة المظهر ولكنّها فارغة من الداخل. هل تعتقدون أنّ كلّ هذا قد تمَّ بمحض الصدفة؟ كلا بالتأكيد.

لقد تمَّ عقد مقارنة بين المسيح وبين تشي. إنّهما يتشابهان في طريقة موتهما. لقد قلتُ في الفصل الأوّل من هذا الكتاب إنّ الصورة الشهيرة لإرنستو وهو مسجّى على المصطبة الإسمنتية في مغسلة مستشفى فاليغراند تستحضر على نحوٍ غريب لوحة «المسيح الميّت» للفنان أندريا مانتينيا. لقد عملت هذه المماثلة، التي أراها عبثية وخطيرة، على تحويل إرنستو إلى إرنستو قديس هيغويرا. إذاً، توارت أفكاره وعزيمته وقدرته على الكفاح خلف الأسطورة. كان إرنستو كلّ شيءٍ إلا أن يكون أسطورة، حتى إن كان قد عرّف هو نفسه بنفسه على أنّه «نبي متجوّل». وهذا الأمر لا يمنعه من امتلاك نقاط مشتركة مع المسيح: نزعته الإنسانية وانشغاله الدائم بالمقهورين والمظلومين وتمرّده وثورته ضدّ القوى المتسلّطة ونبذه للثراء والجشع. لقد ضحى يسوع بنفسه في سبيل البشر، وقد فعل تشي الأمر نفسه.

في شهر يوليو من عام 1959، وبينما كان في زيارة رسمية إلى الهند، كتب إلى أمّي أموراً تلقي الضوء على حالته الذهنية:

إنّ حلمي القديم في زيارة كلّ هذه البلدان يتحقّق اليوم بطريقة تنتزع منيّ كلّ متعة. أنا أتحدّث عن مشاكل سياسية واقتصادية. عليّ أن أحضر حفلات راقصة وأرتدي بذلة سهرة وأزيح جانباً إحدى أنقى ملذاتي ألا وهي أن أحلم في ظلّ هرمٍ أو على تابوتٍ حجري للفرعون توت عنخ آمون. فضلاً عن ذلك، من دون أليدا[1] التي لم أصحبها معي بسبب واحدة من هذه الأنماط العقلية المعقّدة (هكذا في الأصل) والتي أعرف سرّها. [. . .] لقد كانت زيارة مصر نجاحاً دبلوماسياً من الطراز الأوّل؛ كانت سفارات كلّ البلدان قد تواعدت في سهرة الوداع التي كنّا قد نظّمناها وقد أُتيحت لي الفرصة لكي أكتشف تعقيدات الدبلوماسية عندما رأيتُ القاصد الرسولي يمدّ يده إلى الملحق الروسي مع ابتسامة سعيدة حقّاً. والآن في الهند، هناك تعقيدات بروتوكولية جديدة تثير لديّ نفس الذعر الطفولي؛ الرجال الذين يردّدون نفس صيغة اللباقة في إلقاء التحية. . . إلخ. اخترع أحد معاونيّ صيغة: وهي الردّ على الجميع بعبارة «جوينش-جوينش»؛ وكان ذلك نجاحاً باهراً. وعلاوة على

(1) رفض إرنستو أن يصطحب معه أليدا على الرغم من أنّها كانت سكرتيرته الشخصية علاوة على كونها زوجته الشابّة لأنّ مساعديه كانوا قد جاؤوا من دون زوجاتهم، وبالتالي لم يشأ أن يتمتّع لوحده بهذا الامتياز.

ذلك، حتى لو كنتُ أتفوّه بحماقات باللغة الكوبية[1] طوال النهار، لم يكن محدّثي الإسباني يفهم منها أي شيء. لقد نمى في داخلي وعي الجماعة المعارض لما هو فردي؛ أنا لا أزال نفس الشخص المتضامن الذي يبحث عن طريقه دون مساعدة، عدا عن أنني أمتلك الآن الوعي بواجبي التاريخي. ليس لديّ لا بيتٌ ولا زوجة ولا أطفال ولا أبوان ولا أخوة ولا أخوات، أصدقائي هم أصدقائي بمقدار ما يقاسمونني أفكاري السياسية، ومع ذلك أنا سعيد وأشعر بأنني إنسانٌ وسط الحياة. لستُ مزوّداً فقط بهذه القوة الداخلية الجبّارة التي أشعر بها دائماً، وإنّما أيضاً بالقدرة على التعاطف مع الآخرين. إنّ حدساً قدرياً مطلقاً بمهمّتي ينتزع من داخلي كلّ خوف وخشية.

كان تشي يناضل في سبيل الشعب بل وهب حياته من أجله. ولهذا السبب، بلا أدنى شك، تطوّرت صورته بهذه السرعة الكبيرة، في فترة بالكاد بلغت خمسين عاماً. في عهدنا، تنتقل المعلومات وتسري الأخبار بسرعة استثنائية. وهي تصبح عالمية وكونية في غضون بضع ثوانٍ. ومع ذلك، هناك الكثير مما ينبغي علينا أن نكتشفه بشأنه. كيف سيُنظَر إليه في الألفيتين القادمتين؟ أتمنى ألا يحوَّل إلى شخصية دينية. على الناس أن يتوقّفوا عند نزعته الإنسانية وليس عند قناعاته الدينية.

---

(1) بنفس الطريقة التي تختلف فيها اللغة الفرنسية الكيبيكية عن لغتنا الفرنسية، تختلف اللغة الإسبانية الكوبية عن الإسبانية المكسيكية والإسبانية الأرجنتينية... إلخ.

ستبقى شخصية تشي خالدة. إنّها حاضرة وموجودة ولا يمكننا الفكاك منها. إنّه يبقى يمثّل بالنسبة إلى البعض خطراً حقيقياً. تقبله شبيبة العالم قاطبة على أنّه النموذج الأصلي والمثالي للثورة والنزاهة والنضال والعدالة والمثل. نورد هنا بعض الأمثلة المعاصرة: حينما التقى الرئيس البوليفي إيفو موراليس مع البابا فرانسيس، ارتدى سترة نُقِشَت عليها صورة تشي. كما أنّه يحتفظ بصورة شخصية له في مكتبه الرئاسي؛ في لبنان، كان المتظاهرون الذين يحتجون أمام ضريح رئيس الوزراء رفيق الحريري ضدّ سوريا يرتدون قمصان تحمل صورة تشي؛ نزل لاعب كرة القدم الفرنسي تيري هنري إلى حفلة منظّمة من قبل الفيفا وهو يرتدي قميصاً باللونين الأحمر والأسود ويحمل صورة لتشي؛ في سترافوبول في روسيا، كان المتظاهرون المحتجون على الدفع النقدي للمساعدات الاجتماعية يسيرون وهم يرفعون أعلاماً عليها صور تشي؛ في مخيم دهيشة للاجئين الفلسطينيين في قطاع غزّة، تزيّن لافتات تحمل صور تشي تكريماً لشهداء الانتفاضة؛ المتمرّد الصيني والنائب عن هونغ كونغ كوك هونغ تحدّى بكين من خلال ارتداء قميص يحمل صورة تشي؛ وفي هوليوود، ارتدى كارلوس سانتانا الذي يغنّي أغنية فيلم **مذكّرات دراجة نارية** قميصاً يحمل صورة تشي وأمسك في يده صليباً. إذاً، يمثّل تشي التمرّد على السلطات المركزية.

«مضى عام. لقد أصبح بعيداً جدّاً»

بعد مرور عامٍ على تاريخ مقتل تشي، طلبت نشرة أرجنتينية من بيرتا غيلدا «تيتا» إنفانتي أن تكتب نصّاً عنه. وهذا النص بالنسبة إليّ، كما أراه، هو النص الأكثر جمالاً والأكثر تأثيراً عاطفياً من بين كلّ ما كُتِب عن إرنستو على الإطلاق. ولهذا السبب أريد أن أنهي هذا الكتاب بهذه الطريقة وبهذا النصّ البديع.

التقت تيتا مع إرنستو في كليّة الطبّ في عام 1947، أي بعد ثلاثة أعوام من تاريخ ميلادي. لم أعرف تيتا بشكلٍ شخصي، وربّما أكون قد رأيتها لأنّها كانت تزورنا في البيت في بعض الأحيان ولكنني كنتُ في عمرٍ لا يسمح لي بأنّ أتذكّرها الآن. ما أعرفه عن تيتا هو ما روي لي عنها.

وصلت تيتا إلى بوينس آيرس من كوردوبا، مع أمّها وشقيقها كارلوس، قبل بضعة أشهر من تسجيلها في كليّة الطبّ، وبعد ثلاثة أعوام من وفاة والدها، الذي كان محامياً ورجلاً سياسياً. وحينما أصبح كارلوس نفسه محامياً، بات مقرّباً من إرنستو في كوبا حينما استلم إدارة إذاعة «ريفادافيا»، وقد أصبح المزوّد الرئيسي له بالمتّة

التي كان يجلب عدّة كيلوغرامات منها لدى عودته من كلّ زيارة إلى بوينس آيرس.

كانت تيتا تكبر إرنستو سنّاً بعامين وكانت ذات عينين واسعتين وشعرٍ قصير. لم تكن جميلة ولم تكن ثرثارة جدّاً، ولكنّها كانت لطيفة وهادئة للغاية ومثقّفة ومسيّسة. كانت عضواً في منظمات الشبيبة الشيوعية. قالت شقيقتي آنا ماريا ذات يوم إنّ تيتا كانت ذات تأثير كبير على حياة أخي وأنّها كانت شخصية مثيرة للاهتمام ومتبحّرة جدّاً من الناحية الثقافية وذات ثراء روحيّ كبير. منذ لقائهما الأوّل، ارتبطا مع بعضهما بعلاقة انجذاب واحترامٍ متبادلين. كانت من نمط النساء اللواتي يثرن اهتمام إرنستو. في الحقيقة، لم تعرف العائلة أبداً ما هي درجة الحميمية التي وصلت إليها علاقتهما ولكنّنا كنّا نعتقد أنّ تيتا قد أُغرِمت بإرنستو. كان يكتب لها من كلّ البلدان التي يزورها وتردّ تيتا على رسائله. كانت بينهما مراسلات منهجية ومنتظمة.

أخذت تيتا على عاتقها واجب زيارة البلدان التي أثّرت على إرنستو: البيرو وفنزويلا وغواتيمالا والمكسيك وفرنسا حيث قضت فيها عشرة أعوام وهي تتعلّم مثله اللغة الفرنسية. كان إرنستو يفصح لها في رسائله عن شكوكه ويبوح لها بنجاحاته وآلامه وحتى مغامراته العاطفية. قال أحدهم إنّه كان يعتبرها بمثابة «رفيقته في المغامرات الثقافية». وكانت مراسلاتهما غالباً عبارة عن مناقشات وجدالات أيديولوجية.

انتحرت تيتا إنفانتي في الرابع عشر من شهر ديسمبر من عام 1976. وقد قيل إنّها لم تستطع أن تستمرّ في الحياة بعد موت الرجل الذي أحبّته كثيراً وأُعجبت به. ها هو نصّها بعنوان: *Evocación de Tita Infante a un año de la muerte del Che* (أي

ذكريات تيتا إنفانتي بعد عامٍ من موت تشي)، والذي نُشِر في عام 1968:

[. . .] إن استحضار ذكرى رجلٍ عظيم يكون على الدوام مهمّة صعبة. وإذا كان هذا الرجل، اليوم، في عام 1968، هو إرنستو جيفارا، فيبدو لي هذا الأمر مستحيلاً. [. . .] مضى عام. لقد أصبح بعيداً جدّاً. [. . .] لقد مات إرنستو، ولكنه وِلِد من أجل الخلود. لقد عاش كلّ حياته وهو يسلك بابتهاج طريقاً مكرّساً للمأساة. تربّص به الموت عبر هذا الطريق ولكنّه فتح له أبواباً أخرى نحو هذه الحياة التي أحبّها حبّاً جمّاً. إنّ ذكرى شخصه وحياته ونضاله سوف تبقى حيّة إلى الأبد في قلوب كلّ شعوب العالم لأنّ إرنستو جيفارا هو أحد الرجال النادرين الذين يهبهم القدر للإنسانية على فترات تاريخية متباعدة.

منذ عام، كان إرنستو موضوعاً للعديد من الكتابات والكتب والمقالات والدراسات والأبحاث والسير الذاتية. ما الذي بوسعي أن أقوله علاوة على كلّ هذا؟ لقد ارتبطنا بعلاقة صداقة متينة على مدى سنوات طويلة: قرابة ستّة أعوام من التواصل المباشر وجهاً لوجه وبعدها عدّة سنوات أخرى من التواصل عبر المراسلة.

رأت هذه الصداقة النور في عام 1947. في قاعة للتشريح في كليّة الطبّ. [. . .] كشفتْ لكنته عن كونه ريفياً، وكشف مظهره عن شاب وسيم ونشيط يحسن التصرّف. . . وكانت النار التي بدت أنّها تحرق روحه، تهسّ كامنة تحت رقّته ولطفه، مثل حطبة هشّة، ولكنّها تتّقد في نظرته. كان مزيجاً من الخجل والرضا عن الذات، وربّما الجرأة. يخفي ذكاءً عميقاً ورغبة جامحة في فهم الأمور، وفي العمق، قدرة لا متناهية على الحبّ.

لم ننتمِ قط إلى مجموعة ثقافية أو سياسية مشتركة ولا إلى حلقة خاصّة للأَصدقاء. كنّا، كلانا، ولأسباب مختلفة، غريبين بعض الشيء في هذه الكلية. هو، لأنّه بلا أدنى شكّ كان يعلم بأنّه سوف لن يستطيع أن يجد فيها إلا القليل ممّا يبحث عنه. ولهذا السبب، كنا نلتقي كلّ يوم لوحدنا من دون أن يكون معنا آخرون. كنّا معاً في الكلية وفي المقاهي وفي بيتي ونادراً في بيته... وأيضاً في متحف العلوم الطبيعية حيث كنّا نتواعد فيه أيام الأربعاء لكي «ندرس تشريح الجهاز العصبي»؛ فكنا نكرّس وقتنا لإجراء الدراسات العملية على الأسماك وكنّا نتناوب على عمليات التشريح والإعداد ومركّبات البرافين والمشرح وإجراء عمليات التقطيع إلى شرائح رقيقة واستخدام المجاهر في فحصها ودراستها وإلى ما هنالك من تجارب. كان في بعض الأحيان يقوم أستاذ جامعي ألماني عجوز بالإشراف على تجاربنا ويزوّدنا بتوجيهاته. كان النقاش الذي يخوضه إرنستو يقلّل من وطأة الساعات التي لولاه لبدت لي طويلة جدّاً. لم يكن يخلف أبداً موعداً من مواعيده وكان على الدوام دقيقاً في الالتزام بتوقيت الموعد. لم يكن ينسى أبداً أيّ اتصال. يا لبوهيميته الغريبة!

كلّما كنّا نحقّق نجاحاً مفاجئاً، كنّا نردّد عبارات وجمل غوتيريز التي كنّا نحفظها عن ظهر قلب:

لا تغنّي أناشيد الانتصار

في يوم بلا شمس المعركة.

[...] كنتُ أراه غالباً مشغولاً أو شارداً أو مطرقاً في التفكير. في الحقيقة، لم أرَه قطّ حزيناً أو يشعر بالمرارة. لا أتذكّر أيّ لقاء بيننا لم يُظهر فيه تلك الابتسامة وتلك الحنية الدافئة التي كان كلّ من

يعرفه يعجب بها كثيراً. في نقاشاته وأحاديثه، لم يكن هناك مكان للاستخفاف أو الازدراء؛ كان يستخدم جملة مقتضبة في ممارسة نقدٍ معمّق وكان يتبعه دائماً بملاحظة إيجابية حيال مستقبل منتج ومثمر. لم يكن متزمّتاً في معارضته للأمور مثلما لم يكن متزمتاً في تأييده لها. وربّما هذا هو السبب الذي جعله لا يحمل في قلبه أيّ أثرٍ للحقد أو الضغينة.

وبما أنّه كان يجيد الاستفادة من كلّ ثانية من وقته حتى وهو في وسائط النقل العامّة، فكان بشكل عام يمسك بكتابٍ بين يديه ويقرأه. [. . .] لم يكن يمتلك أبداً الكثير من المال، بل على العكس من ذلك تماماً. [. . .] ولكن شحّة موارده الاقتصادية لم تكن أبداً من ضمن اهتماماته وانشغالاته الأساسية، كما أنّ شحّة هذه الموارد لم تكن تمنعه على الإطلاق من أن يؤدّي ما كان يعتبره واجباً عليه. لم يستطع لا مظهره المهمل ولا لا مبالاته بثيابه أن تخفي أبداً شخصيته المتميزة والرصينة.

[. . .] كطالب، لم يكن يدرس ويجدّ كثيراً في دروسه، ولكنّه كان في مستوى جيّد. كان في أعماق ذاك الشاب، المستعدّ والمهيّأ دائماً لأن «يقوم بالمغامرة» والذي «كان يشعر غالباً بأنّ هناك تحت كاحليه حكّة ووخز يدفعانه لأن يكون متشرّداً» لكي يغادر ويتجوّل في أنحاء العالم، كان في أعماقه تعطّشاً عميقاً للمعرفة. لا لكي يجمع كنزاً ما في روحٍ معقّدة للغاية، وإنّما في سبيل بحثٍ لا يكلّ ولا يملّ عن الحقيقة وعن مصيره من خلال هذه الحقيقة.

كان كلّ شيء في داخله منسجماً ومتناسقاً وكانت كلّ تجربة أو معرفة يكتسبها، من أيّ نمطٍ كانت، تتجذّر وتترسّخ في شخصيته. [. . .] كان موهوباً في الدراسة ويذهب إلى عمق المشكلة وينطلق

من هناك لكي يتوسّع فيها عندما تسمح له مشاريعه العديدة بذلك. كان قادراً على أن يتوقّف عند نقطة معيّنة ويتعمّق فيها بطريقة شاملة إذا كانت المشكلة تثير اهتمامه ويُسحَر بها: مثل الجذام وأمراض الحساسية والفيزيولوجيا العصبية وعلم النفس العميق. [...] كان يتجاوز العقبات العملية والنظرية التي تصادفه بنفس السهولة التي يتجاوز بها العقبات الأخرى التي تواجهه. وحينما يعطي وعده، كان يفي به بأيّ ثمنٍ كان [...].

كان ينمّي علاقة الصداقة ويطوّرها من خلال التفاني والمثابرة ويعمّقها بشعوره الإنساني العميق. بالنسبة إليه، كانت الصداقة تفرض واجبات مقدّسة وتمنح بنفس الطريقة حقوقاً. يمارس الواجبات والحقوق على حدّ سواء. يُطالب ويعطي بنفس الطريقة الطبيعية. ويتصرّف بهذه الطريقة في جميع أوجه حياته.

لم تكن المسافة تعني الغياب وانعدام التواصل مع إرنستو. في كلّ رحلة من أسفاره، كانت رسائله تعطي الاستمرارية للحوار الودّي بانتظام وفي فترات متقاربة أو متباعدة وذلك بحسب صعوبات الطريق وظروفه المالية. [...] كان يحتفظ برسائل أصدقائه ولا يتوانى عن الردّ عليها أبداً.

لدى عودته من رحلته ما قبل الأخيرة، تحدّث عن الأيام العشرين التي أمضاها في ميامي (وسأتجاوز التفصيلات الموجودة في كلّ السير الذاتية التي كُتِبَت عنه) على أنّها كانت الأيام الأقسى والأكثر مرارة في حياته.

وليس فقط بشأن ظروفه الاقتصادية الصعبة للغاية! [...] حتى اليوم الذي ودّعنا فيه بعضنا (أثناء اجتماعٍ في بيته مع أقرب أصدقائه المقرّبين)، لم أعرف سوى رصانته الكبيرة: لم يكن يدخّن ولا

يشرب لا الكحول ولا القهوة وكان نظامه الغذائي صارماً للغاية. لقد فرض عليه الربو الذي كان يعاني منه ظروفاً معيشية خضع لها بنظامٍ قاسٍ وصارم.

كانت كلّ رسالة مرسلة من إرنستو عبارة عن صفحة أدبية مليئة بالرقّة واللطف والسخرية؛ كان يروي فيها مغامراته الشيّقة والحوادث المزعجة التي وقعت له بمسحة من السخرية التي تزيل الحرج في أكثر اللحظات صعوبة. في كلّ بلدٍ يحلّ فيه، كان يختلط مع السكان الأصليين الأكثر قدماً فيها ويدفعه فضوله على زيارة آثار الإنكيين(1) أو مستشفيات الجذام أو مناجم النحاس والتنغستن. كان يندمج بسرعة في نمط الحياة القروية ويأخذ مكانه وموقعه دون انتظار في الأحداث السياسية والاجتماعية. كانت حكاياته شيّقة وممتعة يرويها في لغة نثرية سهلة ولكنّها صافية ورشيقة وجميلة. يرسم الحقيقة والناس بواقعية من دون تورية أو مجاملات وبموضوعية. وحينما يتحدّث عن حياته الخاصّة والحميمية، بحزنٍ أو بفرح، كان يفعل ذلك باحتشام مطالباً على الدوام بأنّ يظلّ ذلك طي الكتمان التامّ.

أعتقد أنّه، حتى في أحلك الظروف وفي أسوأ اللحظات في حياته، كان حبّه للحياة كبيراً لدرجة أنّه كان يستطيع إيجاد التفاؤل بمنطقٍ يخصّه شخصياً: «حينما تكون أموري على غير ما يُرام، أواسي نفسي قائلاً في نفسي إنّها كانت من الممكن أن تكون أسوأ وأنّها،

---

(1) نسبة إلى إمبراطورية الإنكا القديمة التي بنتها شعوب من الهنود الحمر في منطقة أميركا الجنوبية، وقد كانت أكبر الإمبراطوريات في أميركا الجنوبية في العصر قبل الكولومبي، وهي ذات حضارة ضاربة جذورها في القدم وتشمل أرض الإنكا بوليفيا والبيرو والإكوادور وجزءاً من تشيلي والأرجنتين. -المترجم-

علاوة على ذلك، قد تتحسّن». في شهر أغسطس من عام 1958، وبينما كنتُ أعدّ نفسي للرحيل، اتّصل بي صحافيٌّ شاب لم أكن أعرفه لكي يعطيني موعداً في أحد المقاهي: كان الصحافي ماسيتي. كان قد أمضى لتوّه شهرين في سييرا مايسترا. [. . .] تحدّث لي ماسيتي مطوّلاً عن سييرا مايسترا: تحدّث عن كلّ شيء وعن الجميع هناك، عن فيدل وراؤول وعن المعسكرات. . . ولكن بالنسبة إليه، لم يكن هناك ما هو بمكانة إرنستو وخصاله الإنسانية وشجاعته وقدرته على التميّز. وإذا كان لا بدَّ من تنظيم الحالة المدنية أو بناء مدرسة أو إعداد الخبز أو صيانة وتصليح أسلحة، كان إرنستو حاضراً لكي يهتمّ بهذه الأمور وينشغل بها ويبادر إلى تدبيرها. وفي الكفاح والنضال، كان على الدوام الأوّل وفي المقدّمة.

لقد سبق وجرى الحديث عن شجاعته الأسطورية وكان تاريخه يتأسّس شيئاً فشيئاً: بفضل شهادات أولئك الشباب الغواتيماليين الذين عرفوه والذين وجدوا ملاذاً خاصّاً جدّاً في الأرجنتين بعد سقوط أربينز [. . .].

حظيتُ بالامتياز الاستثنائي بكوني أعرفه عن قرب وأحظى بثقته وقاسمته صداقة عظيمة لم تعرف على الإطلاق النسيان أو التحفّظ. لقد عرفته في مقتبل شبابه، حينما لم يكن سوى إرنستو. ولكنّه كان يحمل في داخله منذ ذلك الحين الرجل الذي سوف يصبح تشي جيفارا. منذ سنوات شبابه، رأيته على الدوام وهو يتقدّم في طريقه الشخصي الخاصّ، سائراً على الدوام إلى الأمام؛ لم يكن يتوقّف أبداً والذين كانوا يعرفونه جيّداً كانوا يعلمون أنّ «النقائض لم تكن قادرة على أن توقفه» وأنّه كان يسير نحو مصيره بثباتٍ وبلا تردّد [. . .].

أشعر أنني قريبة جدّاً وفي الوقت ذاته بعيدة جدّاً عن شخصيته العملاقة الجديرة بأنصاف الآلهة في الأساطير الإغريقية وبأبطال العصور الوسطى.

من الصعب أن تجتمع كلّ هذه العظمة: إحساسه المرهف ورقّته وثراءه الإنساني.

كان أكثر وفاءً من أن يُنحت من الحجر وأكثر عظمة من أن نعتبره ملكاً لنا. إرنستو جيفارا، بكلّ انتمائه الأرجنتيني، ربّما كان المواطن الأكثر أصالة في العالم.

الملحق رقم 1

مقتطفات من خطاب الجزائر

أيّها الأخوة الأعزّاء،

إنّ كوبا تشارك في هذا المؤتمر لكي توصل إليكم صوت شعوب أميركا، ومثلما عبّرنا عن ذلك في مناسبات أخرى، فأنّها تشارك فيه أيضاً بصفتها بلداً نامياً يبني في الوقت ذاته الاشتراكية. وليس من قبيل الصدفة أن يُسْمَحَ لكتلتنا أن تُبدي رأيها بين الشعوب الآسيوية والأفريقية. إن طموحاً مشتركاً يوحّدنا في سيرنا نحو المستقبل ألا وهو هزيمة الإمبريالية؛ كما أنّ ماضياً مشتركاً من النضال ضدّ نفس العدو جعل منّا حلفاء طيلة المسيرة.

هذا المؤتمر هو عبارة عن تجمّع للشعوب المكافحة؛ ويتطوّر هذا الكفاح على جبهتين على نفس القدر من الأهمية ويتطلّب منّا كلّ الجهود. إنّ الكفاح ضدّ الإمبريالية بهدف قطع العلاقات مع الاستعمار والاستعمار الحديث، سواء تمَّ خوض هذا الكفاح بأسلحة سياسية، أو بأسلحة حقيقية أو بكليهما في آن واحدٍ، ليس عديم الصلة بالكفاح ضد التخلّف والبؤس؛ فكلا الكفاحين عبارة عن مراحل على نفس الطريق المؤدي إلى خلق مجتمع جديد، مجتمع غني وعادل في آنٍ واحد.

منذ أن استولت الاحتكارات الرأسمالية على السلطة في العالم أجمع، أبقت هذه الاحتكارات القسم الأعظم من البشرية فريسة للفقر والبؤس وتقاسمت الدول الأكثر قوّة الفوائد والمكاسب بينها. إنّ المستوى المعيشي في تلك البلدان الغنية يستند على البؤس في بلدانا. ولكي نحسّن ونطوّر المستوى المعيشي في بلدانا النامية، يجب أن نناضل ضدّ الإمبريالية. وكلّما انفصل بلد من الشجرة الإمبريالية لا يُعتبر هذا مجرّد انتصار في معركة جزئية فحسب بل أيضاً مساهمة ومشاركة في الإضعاف الحقيقي للإمبريالية وخطوة إضافية على طريق النصر النهائي. لا يعرف هذا النضال الشرس حتّى الموت حدوداً يقف عندها. لا يمكننا أن نقف لا مبالين ومتفرّجين على ما يحدث في المناطق الأخرى من العالم، لأنّ أيّ انتصارٍ لبلدٍ من البلدان على الإمبريالية هو انتصارٌ لنا جميعاً، كما أنّ أيّ هزيمة لأمّة من الأمم هي هزيمة لنا جميعاً. إنّ ممارسة الأممية البروليتارية ليست مجرّد واجب بالنسبة إلى الشعوب المكافحة من أجل مستقبل أفضل، وإنّما هي أيضاً ضرورة حتمية لا مناص منها [. . .].

علينا أن نستخلص نتيجة من كلّ هذا: إنّ تنمية البلدان السائرة في طريق التحرّر يجب أن تموّل من قبل الدول الاشتراكية. نحن لا نصرّح بهذا الموقف بقصد الابتزاز أو التكبّر، مثلما هو ليس بهدف السعي إلى وسيلة سهلة لكي نتقرّب من الشعوب الأفرو-آسيوية؛ بكلّ بساطة، هذه هي قناعتنا العميقة. لا يمكن للاشتراكية أن تبقى وتستمر ما لم تحقّق في الضمائر تحوّلاً يسمح بإطلاق موقف أخويّ جديد حيال الإنسانية، سواء على المستوى الفردي في المجتمع الذي يبني أو بنى الاشتراكية، أو على المستوى العالمي، تجاه كلّ الشعوب التي تعاني من الاضطهاد الإمبريالي [. . .].

نحن نعتقد أنّ مسؤولية مساعدة البلدان التابعة يجب أن تؤخذ ضمن هذه الروح وألّا يُطرَح بعد الآن تطوير تجارة قائمة على المنافع المتبادلة بيننا على أساس أسعار زائفة ومفروضة بقانون السوق والعلاقات الدولية، بما أنّ التبادل غير متكافئ بالنسبة إلى البلدان النامية.

كيف يمكننا أن نسمّي «نفعاً متبادلاً» عملية بيع المواد الأوّلية التي تكلّف البلدان النامية الكثير من الجهود والآلام التي لا حدَّ لها بأسعار السوق العالمية وعملية شراء الآلات المنتجة في كبرى المصانع الأوتوماتيكية الحالية أيضاً بأسعار السوق العالمية؟

إذا ما أقمنا هذا النمط من العلاقات بين مجموعات الأمم، علينا حينها أن نقبل بأنّ البلدان الاشتراكية هي بطريقة أو أخرى متواطئة وشريكة في الاستغلال الإمبريالي. يمكن للبعض أن يتذرّع بالقول إنّ حجم التبادل التجاري مع البلدان يشكلّ نسبة مئوية زهيدة من التجارة الخارجية لهذه البلدان. هذا القول صحيح من الناحية الفعلية، إلّا أنه لا ينفي الطابع اللاأخلاقي لهذه العملية التجارية.

يقع على عاتق البلدان الاشتراكية واجب أخلاقي في أن تضع حدّاً لتواطؤها الضمني مع البلدان الغربية المستغلّة. إنّ واقع انخفاض حجم التجارة في الوقت الراهن لا يعني شيئاً. ففي عام 1959، كانت كوبا تبيع السكّر في بعض الأحيان لبلدٍ من بلدان الكتلة الاشتراكية من خلال وساطة بعض السماسرة الإنجليز أو من جنسيات أخرى [. . .].

بالنسبة إلينا، ليس هناك أيّ تعريفٍ صحيحٍ آخر للاشتراكية سوى إلغاء استغلال الإنسان للإنسان. طالما لم يتحقّق هذا الإلغاء، فإنّ الاشتراكية سوف تبقى عند عتبة البناء. وإذا ما، بدل أن تتحقّق

هذه الظاهرة، توقّفت مهمّة إلغاء الاستغلال، بل تراجعت، حينذاك لن يعود بوسعنا أن نتحدّث حتى عن بناء الاشتراكية.

ومع ذلك، فإنّ مجموع التدابير والإجراءات التي نقترحها لا يمكنها أن تُتّخذ من جانب واحدٍ. على البلدان الاشتراكية أن تموّل تنمية وتطوير البلدان النامية. كما يجب أن تتوسّع قوى البلدان النامية وأن تسلك بحزم طريق بناء مجتمع جديد -أو سمّوه ما شئتم-، مجتمعٌ لا تكون فيه الآلة، أداة العمل، أداةً لاستغلال الإنسان.

كما لا يمكننا أن نطمع في ثقة البلدان الاشتراكية إذا كان الرهان هو الحفاظ على التوازن بين الرأسمالية والاشتراكية في محاولة لاستخدام القوّتين المتنافستين في سبيل الحصول على فوائد معيّنة: لا بدَّ أن تكون هناك سياسة جديدة في غاية الجدّية لكي تحكم العلاقة بين المجموعتين المختلفتين من المجتمعات.

علينا أن نشير مرّة أخرى إلى أنّه يجب أن تكون مرجعية وسائل الإنتاج بيد الدولة بحيث تختفي علامات الاستغلال تدريجياً [. . .].

لقد نما الاستعمار الحديث وتطوّر أوّلاً في أميركا الجنوبية وامتدّ في قارة كاملة. ثمّ بدأ اليوم يعبّر عن حضوره على نحوٍ متزايد في أفريقيا وفي آسيا. وتكتسي طرق انتشاره وتغلغله خصائص متمايزة ومختلفة. وتتجلّى إحدى تلك الخصائص القاسية اليوم في الكونغو [. . .].

لقد غرس الاستعمار الحديث براثنه في الكونغو؛ وهذه ليست علامة قوّة وإنّما علامة ضعف؛ لقد اضطرّ إلى أن يلجأ إلى القوّة، وهو سلاحها الأخير، كذريعة اقتصادية، الأمر الذي ولّد ردود فعل معارضة شديدة وواسعة. وهذا التغلغل يُمارس أيضاً في بلدان أخرى من أفريقيا وآسيا بصيغٍ وأشكال أخرى أكثر خبثاً ومكراً بكثير، الأمر

الذي ولّد سريعاً ما سُمّي «الأمركة الجنوبية» لهاتين القارتين، أي تنمية وتطوير نمط من البرجوازية الطفيلية التي لا تضيف أيّ شيءٍ للثروة الوطنية، وإنّما، على العكس من ذلك تماماً، تُراكم في خارج البلاد، في البنوك الرأسمالية، فوائدها الطائلة والمشبوهة وتتعامل مع الخارج لكي تجني مزيداً من الأرباح، مع ازدراء واستخفاف مطلق برفاهية شعبها [. . .].

فشعوبنا، على سبيل المثال، تعاني من الضغط المقلق والمعذّب الناجم عن تواجد القواعد الأجنبية على أراضي بلدانها أو تضطرّ إلى حمل عبء الديون الخارجية الباهظة. إنّ تاريخ هذه العيوب والعاهات معروفة للجميع: حكومات ألعوبة بيد الخارج، أو حكومات منهكة بسبب الكفاح التحرري الطويل، أو تطوير القوانين الرأسمالية للسوق والتي سمحت بتوقيع اتفاقيات تهدّد استقرارنا وتعرّض مستقبلنا للخطر [. . .].

يجب علينا أن نقارب مسألة التحرير باستخدام أسلحة قوّة سياسية قمعية بحسب قوانين الأممية البروليتارية: إذا كان من غير المجدي الاعتقاد بأنّ مدير مشروعٍ في بلدٍ اشتراكي في حالة حربٍ قد يتردّد في إرسال الدبابات التي ينتجها إلى جبهة لا تستطيع أن تقدّم ضمانات بدفع أثمانها، فمن العبث أيضاً أن نريد التحقّق من قدرة شعب يناضل في سبيل تحرره أو في حاجة إلى أسلحة للدفاع عن حريته على تسديد ديونه. في عوالمنا، يجب ألّا تكون الأسلحة مجرّد بضائع بعد الآن، يجب أن تُسلَّم مجاناً تماماً بالكميات الضرورية -والممكنة- إلى الشعوب التي تطالب بها لكي تستخدمها ضدّ العدو المشترك. بهذه الروحية، قدّم لنا الاتحاد السوفيتي وجمهورية الصين الشعبية مساعداتهما العسكرية. نحن اشتراكيون

ونشكّل ضمانة لاستخدام هذه الأسلحة، ولكننا لسنا الوحيدون ويجب أن نُعامَل جميعاً بنفس الطريقة [. . .].

لا أودُّ أن أنهي مداخلتي هذه، هذه الدعوة التي تعرفونها جميعاً، من دون أن ألفت انتباه هذا التجمّع إلى حقيقة أنّ كوبا ليست الدولة الوحيدة في أميركا اللاتينية؛ ببساطة هذه كوبا التي حالفها الحظّ بأن تتحدّث اليوم أمامكم؛ أودُّ أن أذكّر بأنّ هناك شعوباً أخرى تبذل دمها لكي تنال الحقّ الذي نتمتّع به، ومن هنا، وكما في كلّ المؤتمرات التي تنعقد في أيّ مكان كان، نحيّي الشعوب البطلة لفيتنام ولاوس وغينيا التي تسمى البرتغالية وجنوب أفريقيا وفلسطين؛ علينا أن نُسمِع صوتنا الصديق إلى جميع البلدان المستغلّة التي تناضل في سبيل تحرّرها، وعلينا أن نمدّ يدنا ونقدّم دعمنا وتشجيعنا للشعوب الشقيقة في فنزويلا وغواتيمالا وكولومبيا التي تقول اليوم، والسلاح في يدها، بحزم «لا» للعدوّ الإمبريالي.

الملحق رقم 2

رسالة الأسقف مور

كوردوبا ريفادافيا، 27 يونيو 1983
سونيور خوان مارتن جيفارا
جونكال 3786 - 11 - ب
1425 بوينس آيرس

العزيز خوان مارتن،

أعرف أنّك سوف تسامحني على تأخّري في الردّ على رسالتك المؤرّخة بتاريخ 3 يونيو 1983: لقد كان جدول أعمالي مكثّفاً في هذه الأسابيع الأخيرة، ولذلك لم أتمكّن من أداء هذا الواجب ألا وهو اهتمامي بمراسلاتي.

إنّ معرفتي بأنّك قد أصبحت حرّاً طليقاً غمرتني بالفرح. أنا على ثقة بأنّ القدم الأولى التي خرجت من عتبة «يو 6» (الوحدة السادسة في سجن راوسون) كانت قدمك اليمنى (من دون مضامين أيديولوجية من فضلك!) وأنّ نفاذ البصيرة المذهلة الذي وهبك الله إيّاه سوف يكون مباشرة وبأمانة في خدمة المجتمع الوطني.

من المفترض أنّ أمرّ ببوينس آيرس في أواسط شهر يوليو في

طريقي إلى بوغوتا لحضور اجتماعٍ لمؤتمر أساقفة أمريكا اللاتينية (CELAM) وهي منظمة أنا عضوٌ فيها. سوف أتّصل بك هاتفياً: أتمنى أن تتاح لنا الفرصة لكي نتحادث ونتناقش لبعض الوقت، يطيب لي أن أحتفظ بهذه الصداقة معك.

بناءً على طلب الكثير من المعتقلين، في يوم الثامن من أغسطس، سوف يمضي المونسنيور كاستانيا، من الفريق الأسقفي والرعوي الاجتماعي، النهار مع المعتقلين في «يو 6». لقد نقلتُ إليه هذا الطلب بسعادة كبيرة وقد وافق عليه بنفس السعادة، مؤجّلاً أنشطة أخرى إلى أجل آخر. يبدو لي من المفيد جدّاً أن يستمع جميع من لديهم نيّة جادّة في إعادة تنظيم أمور البلاد إلى بعضهم في سبيل المصلحة العامّة. حينما نلتقي، سيكون هذا الاجتماع مع المعتقلين قد انعقد. وسوف أروي لك كيف سارت الأمور فيه.

سوف أبقى بكلّ ودّ تحت تصرّفك مع رغبة شديدة في اللقاء بك والتحدّث معك. في بوينس آيرس، عنواني هو نفس عنوان دير الآباء السالزيان: دون بوسكو 4002، هاتف 2619-981.

إلى اللقاء القريب، تقبّل عناقاً حارّاً من خادمك وصديقك.

قائمة المراجع

Borrego Orlando, *Che El camino del fuego*, Hombre Nuevo, 2001.

Constenla Julia, *Che Guevara: La vida en juego*, Edhasa, 2006.

Gambini Hugo, *El Che Guevara*, Stockcero, 2002.

Gonzalez Froilán/Capull Adys, *Amor revolucionario*, Txalaparta, 2004.

Guevara Ernesto, *Che desde la memoria*, Ocean Sur, 2004.

- *Diarios de Motocicleta*, Planeta, 2004.
- *La Guerra de Guerrillas*, Ocean Sur, 2006.

Guevara Lynch Ernesto, *Mi hijo El Che*, Sudamericana-Planeta, 1984.

- *Aquí va un soldado de América*, Plaza Janés, 2000.

Larraquy Marcelo, *Los 70 una historia violenta*, Aguilar, 2013.

March Aleida, *Evocación, Mi vida al lado del Che*, Ocean Sur, 2011.

Masetti Jorge Ricardo, *Los que luchan y los que lloran*, Nuestra America, 2006.

Peredo Guido, *Mi campaña junto al Che y otros documentos*, Paraninfo Universitario, 2013.

بطاقات شكر

شكراً لكلّ الرفاق والأوفياء لروح تشي، والذين امتلكوا شجاعة المثابرة والاستمرار في النضال من أجل «خلق مجتمع جديد، غنيّ وعادل».

شكراً لفرصة اللقاء مع أرميل وكذلك إتاحة الإمكانية لإنجاز هذا الكتاب المكرّس للشبيبة ولليقين بأنّ العالم يخبّئ لنا رجالاً ونساءً آخرين من طراز تشي الذين ينتظرون اللحظة المناسبة للظهور.

الفهرس

كيبرادا ديل يورو 5
هافانا، يناير 1959 17
زوجان غريبا الأطوار ومفلسان 45
أحرارٌ كنسمات الهواء 63
شخصية فريدة 89
«البلد الأميركي الأفضل تغذية» 107
اكتشاف العالم أم تغييره 131
العودة إلى بوينس آيرس 159
«قد تكون هذه رسالتي الأخيرة» 181
ثمانية أعوام وثلاثة أشهر وثلاثة وعشرون يوماً 209
أيام إطلاق السراح من السجن 243
السفر إلى هافانا 253
«أبداً، يا أطفالي. . .» 269

غالباً ما يُساء فهم الكوبيين
ما الذي بوسعي أن أفعله غير زرع البذور؟
يثابر تشي على الحياة ....
«مضى عام. لقد أصبح بعيداً جدّاً»
الملحق رقم 1: مقتطفات من خطاب الج
الملحق رقم 2: رسالة الأسقف مور ....
قائمة المراجع ....
بطاقات شكر ....

.... 277
.... 293
321
.... 329
ئر 339
.... 345
347
.... 349

★★★

حينما عَلِمَت عائلة جيفارا بخبر موت تشي، على الصفحات الأولى للصحف، قرَّروا التزام الصمت. بعد مرور خمسين عاماً على موته، حان الوقت لشقيقه الأصغر خوان مارتن لكي يتقاسم ذكرياته ويزيح الستار عمّا كان تشي في حياته العائلية والخاصّة.

بذلك، أحيا خوان مارتن ذاك الأخ الذي شمَلَهُ برعايته وحمايته وشاركه المزاح والنزهات. يتحدّث عن الشهرين الاستثنائيين والمدهشين اللذين أمضاهما في هافانا إلى جانب القائد، في عام 1959، في خضمّ الثورة الكوبية. يتذكّر المغامر المثالي الذي عشقه والمفكّر الملتزم الذي كان والداه مثقّفين بوهيميين.

في هذه السردية للسيرة الذاتية، يعمل خوان مارتن جيفارا أخيراً لكي تغدو قيم تشي مصدر إلهامٍ للأجيال الشابّة.

★★★

خوان مارتن جيفارا: يبلغ من العمر 73 عاماً ويعيش في بوينس آيرس. أمضى ثمانية أعوام خلف قضبان سجون الخونتا العسكرية بسبب نشاطاته السياسية ولكونه شقيق تشي جيفارا. أسّس مؤخّراً مؤسسةَ «على خطى تشي».

أرميل فنسن: صحافية فرنسية ومراسلة في لوس أنجلوس لعدّة صحف من بينها صحيفة «لوفيغارو». تعرّفت إلى خوان مارتن بمناسبة مقالة في مجلّة «هاوي السيجار» الفرنسية.

صورة الغلاف: © Imagno / Roger-Viollet

ISBN 978-9953-68-854-1
9 789953 688541

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com